

نَفْسِ النَّوَى

مِنْ سُورَةِ النَّسَاءِ إِلَى سُورَةِ الْأَنْعَامِ

تَأْلِيْفُ
الْشَّيْخِ مُحَسَّنِ قِرَاءَتِي

الْجُلْدُ الثَّانِي

دَارُ الْمَوْخِ الْعَرَبِي
بَكْرِيَّة



مكتبة مؤمن قريش

لو وضع إيمان أيّ طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
(الإمام الصادق (ع))

moamenquraish.blogspot.com

نَفْسِ النَّوَى

نَفْسِ النَّوَى

مِنْ سُورَةِ النَّسَاءِ إِلَى سُورَةِ الْأَنْعَامِ

تأليف
الشيخ محسن قرآني

ترجمة
محمد حسن زراقط

ترجمة
حسين صافي

المجلد الثاني

دار المورخ العربي
بيروت - لبنان

حُقوقُ الصَّليحِ مَحْفُوظَةٌ

الطبعة الأولى

١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م



طبع هذا الكتاب بالتعاون مع
المركز الثقافي للدروس القرآنية

دار المورخ العربي



بيروت - حارة حريت - قرب جامع الحسين - فوق مكتبة دياب - ط ٢

تلفاكس: ٥٤١٤٣١ - ٠١ - هاتف: ٥٤٤٨٠٥ - ٠١ - ص ب: ١٢٤ / ٢٤

البريد الإلكتروني: al_mouarekh@hotmail.com

www.al-mouarekh.com



سُورَةُ النِّسَاءِ

السورة: ٤ الجزء: ٤ - ٦

عدد الآيات: ١٧٦



ملاحح سورة النساء

عدد آيات هذه السورة المباركة ١٧٦ آية، وهي مدنيّة، ومضامين آياتها تشمل: الدعوة إلى الإيمان والعدالة، ذكر الأمم السالفة والاعتبار بأحوالها ومصائرهم، قطع العلاقات الودية بأعداء الله، رعاية الأيتام وإكرامهم، شرح القوانين المتعلقة بالزواج والإرث والتوارث، وجوب طاعة الأوامر والأحكام الإلهية، أهمية الهجرة والجهاد في سبيل الله، وغيرها.

سمّيت بسورة النساء لاحتوائها (من أولها حتى الآية ٣٥ منها) أبحاثاً كثيرة في أحكام المرأة والأسرة.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾

إشارات:

□ يقول الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «صلوا أرحامكم ولو بالتسليم، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ... وَالْأَرْحَامَ...﴾»^(١).

التعاليم:

- ١ - تستفتح سورة النساء خطابها بدعوة الناس إلى التزام التقوى، وكأنها تريد التأكيد على أن بنيان الأسرة يقوم على التقوى، وأن مسؤولية التزام التقوى تقع على الجميع، ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا﴾.
 - ٢ - الله تعالى خلق الإنسان وتكفل بتربيته، وعلى الإنسان أن يخشى ربه وحده ويطيعه، ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾.
 - ٣ - بنو البشر من جنس واحد فلا تمييز بينهم على أساس العرق، أو اللغة، أو البلاد أو غير ذلك، ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾.
 - ٤ - تجمع المرأة والرجل وحدة الخلقة، فلا فضل لجنس أحدهما على الآخر، ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾.
 - ٥ - كل البشر عبر التاريخ يرجعون إلى أب واحد وأم واحدة، ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا﴾.
- روايات زواج ولد آدم على نوعين، يقول النوع الذي يتفق مع كلام القرآن الكريم: إن أبناء آدم تزوجوا بعضهم من بعض الآخر^(٢).
- ٦ - الإعادة والتكرار أحد الأصول التربوية، ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ... وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

٧ - من لوازم التقوى حماية حقوق الأسرة وذوي القربى، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ... وَالْأَرْحَامَ﴾، يقول الإمام الباقر عليه السلام: «رحم رسول الله ﷺ أولى بالإمارة، والملك، والإيمان»^(١).

﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَيْرَ بِالْطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ
إِلَّا بِأَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾

التعاليم:

- ١ - أعطوا اليتامى أموالهم عند بلوغهم الرشد وإن كانوا لا علم لهم بها أو نسوها، ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾.
- ٢ - الإسلام يرعى الطبقات المحرومة والمستضعفة، ﴿الْيَتَامَىٰ﴾.
- ٣ - حق الملكية مكفولة لليتامى القاصرين، ﴿أَمْوَالَهُمْ﴾.
- ٤ - الامتناع عن دفع مال اليتيم، أو تبديله، أو إنقاصه، فيه إثم كبير، ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾.
- ٥ - الآثام على نوعين الكبائر والصغائر، ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾.

﴿وَأَن خِفْتُمْ أَلاَّ تَقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ فَإِن خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ آذَنٌ أَلَّا تَعُولُوا﴾

إشارات:

□ وجه ارتباط الجزاء بالشرط أن الرجل في الجاهلية كان يكفل اليتيمة لكونه ولياً لها ثم يتزوجها فلا يقسط لها في مهرها: أي لا يعدل فيه، ولا يعطيها ما يعطيها غيره من الأزواج، وكان يطلقها متى شاء ولأدنى سبب، فنهاهم الله عن ذلك، بأنهم إذا ظنوا في أنفسهم الإجحاف والميل عن مبادئ العدالة والإنصاف في معاملة اليتيمة، فليختاروا أزواجاً من غيرهن. ثم إن الآية الكريمة

السابقة تناولت موضوع مراعاة شروط العدل في حفظ أموال اليتامى، والآن تأمر هذه الآية الرجل أن يلحظ جوانب العدل في زواجه باليتيمة.

□ في الحكمة من تشريع حكم تعدّد الزوجات وإباحته، نشير إلى النقاط التالية:

أ - يشكل الرجال القسم الأكبر من ضحايا الحروب والمعارك، وبذلك يخلفون وراءهم الأراامل والثّيات.

ب - قلّما يبدي الشباب حماساً أو استعداداً للزواج من الثّيات.

ج - ليست كلّ الأراامل أو اللاتي لا أزواج لهنّ على درجة كبيرة من التقوى والسيطرة على غرائزهنّ الطبيعية.

د - تعاني المرأة شهرياً وفي فترة محدّدة موانع طبيعية تمنعها من القيام بوظائفها الزوجية.

والنتيجة هي، أنّه من أجل حفظ حقوق الأرملة يمكن للرجل أن يتزوَّج بزوجة ثانية وطبقاً لشروط معيّنة، وبذلك ترتفع مشكلة الطرفين.

□ سؤال: تطرح الآية الكريمة مسألة إقامة العدل بين الزوجات على نحو يشوبه بعض الغموض والإبهام ﴿وَأَنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا﴾، في حين نجد في الآية ١٢٩ من السورة نفسها أن الله تعالى يقول: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا﴾، فكيف لنا أن نجتمع بين منطوق الآيتين؟

للجواب على ذلك نقول: إنّ العدالة التي أمر الله تعالى بها هي التي تخصّ الشؤون المادّية من الحياة الزوجية كالمأكل والملبس والمسكن والنفقة والمضاجعة، فإن خشي الإنسان ألاّ يقيم هذه العدالة فأولى له أن يبحث عن حلّ آخر يرتّب وضعه في إطاره، بينما المراد في الآية ١٢٩ من نفس السورة هو العدالة في العواطف، والأحاسيس، والمشاعر الإنسانية، وهو أمر ليس للإنسان سلطان عليه لكي يعدل فيه فيقسّم مودّته بين زوجاته بالتساوي. (لقد استلهمنا هذا الجواب من رواية منقولة عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام في المعنى نفسه)^(١).

التعاليم:

- ١ - راعى الإسلام حقوق المحرومين، لا سيّما اليتامى، وبالأخص اليتيمات، في ما يتعلّق بمسائل العفة والحياة الزوجية ومنع استغلالهنّ، ﴿...فِي الْيَتَامَى﴾.
- ٢ - لا يلزم اليقين بل يكفي الظنّ بعدم القسط؛ ليردع الرجل عن الزواج باليتيمة، ﴿وَأِنْ خِفْتُمْ﴾.
- ٣ - لا بأس من أن تكون اليتيمة زوجة، إذا لم يخش المرء من عدم القسط والإجحاف بحقوقها، ﴿وَأِنْ خِفْتُمْ... فَأَنْكِحُوا﴾.
- ٤ - المودة القلبية شرط أساس في اختيار الزوجة، ﴿طَابَ لَكُمْ﴾.
- ٥ - أباحت الشريعة الإسلامية تعدّد الزوجات للرجل بشروط، ﴿فَأَنْكِحُوا... مَثْنٍ وَثُلُثٍ وَرَبْعٍ فَإِنْ خِفْتُمْ... فَوَاحِدَةً﴾.
- ٦ - التعدّد محدود بأربعة زوجات ومشروط بمراعاة العدالة^(١) ﴿فَأَنْكِحُوا... وَرَبْعٍ فَإِنْ خِفْتُمْ... فَوَاحِدَةً﴾.

﴿وَمَا أَتُوا النِّسَاءَ صِدُقَتَيْنِ نَحْلَةً فَإِنْ طَبَنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ

نَسَا فُكُّوهُ هَبْنَا مَرِيئًا ﴿١٠٠﴾﴾

إشارات:

- يقول الراغب الأصفهاني في مفرداته في معنى «نَحْلَةً»: عطية على سبيل التبرع، وهو أخص من الهبة؛ إذ كل هبة نحلة، وليست كل نحلة هبة، واشتقاقه فيما أرى أنه من النحل نظراً منه إلى فعله، فكأن نحلته: أعطيته عطية النحل. كما فسّر بعض النحلة بـ «الدين» بمعنى أنّ المهر دين قطعي في ذمة الرجل.
- وقد ورد في الحديث الدعوة إلى أن يصرف الإنسان أفضل أمواله، في:

(١) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٤٣٩؛ الكافي، ج ٥، ص ٣٦٣.

المهر، والحج، والكفن؛ ومن صرف خير ماله في المهر، رزقه الله صالح الذرية والولد^(١).

□ كان الرجل إذا تزوج امرأة ترك أمر صداقها، جرياً على عادة الجاهلية وبعض الملل، إلى أبيها أو أوليائها، فأبطل الإسلام هذه العادة إذ جاء نهي الله تعالى في القرآن الكريم ليعين أن المستحق للمهر هو المرأة فقال: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ﴾، ولم يقل: «وأتوا صدقات النساء» لوليها أيّاً كان، وبذلك حدّد المستحق للمهر ولم يترك الأمر على عواهنه.

التعاليم:

- ١ - المهر حقٌّ للزوجة وهو إلزامي، ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ...﴾.
- ٢ - ليس المهر ثمن الزوجة؛ بل عنوان صدق محبة الزوج لزوجته وعربون وفائه لها، ﴿صَدَقْتِهِنَّ﴾.
- ٣ - المهر ملك خالص للزوجة، ولا يملك أولياؤها (أبوها أو أرحامها) حق التصرف به، ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَتِهِنَّ﴾.
- ٤ - المهر عطية الزوج إلى زوجته، وليس ثمناً لها، ﴿غِلَّةٌ﴾.
- ٥ - للزوجة كامل الحرية في أن تأخذ مهرها أو تهبه، ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ﴾.
- ٦ - المال الطيب الهنيء هو الذي يهبه صاحبه عن طيب نفس ورضاً تامين، ﴿فَإِنْ طِبْنَ... هِنِيئًا﴾.
- ٧ - لا يكفي الرضا الظاهري، بل لا بدّ من رضا القلب. فلا اعتبار للهبة التي تحصل في أجواء الإكراه، والمجاملة، والحياء، ﴿فَإِنْ طِبْنَ... نَفْسًا﴾.
- ٨ - المهر والهبة من أسباب الملكية، ﴿صَدَقْتِهِنَّ... فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ﴾.
- ٩ - لا يحسن أن تنساق الزوجة وراء عواطفها فتهد كل مهرها، ﴿شَيْءٍ مِنْهُ﴾.

(١) تفسير أطيب البيان، ذيل الآية.

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا
وَأَكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾

إشارات:

- ورد في الروايات أن السفهية هو الفاسق وشارب الخمر^(١). إذاً، لا ينبغي أن نسلط مثل هؤلاء الأفراد على الأموال العامة؛ وذلك لأن قوام المجتمع بالمال، وإناطة أي منصب أو مسؤولية مالية بهؤلاء تعدّ خيانة بحق المجتمع.
- قيل لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: رجل يكون له مال فيضيعه فيذهب ماله قال: احتفظ بمالك فإنه قوام دينك ثم قرأ: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾^(٢).
- ويقول الإمام الباقر عليه السلام في معنى ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾: «من لا تشق به»^(٣).

التعاليم:

- ١ - لا يحقّ للسفيه التصرف في أمواله، ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ﴾.
- ٢ - يجب أن لا نضع المال الذي هو قوام المجتمع تحت تصرف السفهاء، ﴿أَمْوَالَكُمُ ... الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ ... قِيَمًا﴾.
- ٣ - إدارة السفهية حتى لأمواله تعود بالضرر الاقتصادي على المجتمع أيضاً؛ لذا فالمجتمع له حق في الأموال الخاصة كذلك. لم تقل الآية الكريمة «أموالهم» بل ﴿...أَمْوَالَكُمُ﴾.
- ٤ - ينبغي أن نفكر في المصالح الاقتصادية للمجتمع وبالنضج الفكري لأفراده، بدلاً من أن نقحم لحظات العاطفة والإشفاق العابرة في المعاملات، ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾.
- ٥ - المال والثروة قوام المعاش والحياة، ووسيلة النظام، ﴿جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾.

(٣) المصدر نفسه، ج ١٦، ص ٣٦٩.

(١) الكافي، ج ٥، ص ٢٩٩.

(٢) وسائل الشيعة، ج ٧، ص ١٢٦.

٦ - ينبغي عدم تجميد الثروات، بل لا بد من تشغيل أموال اليتامى والسفهاء في ميادين الإنتاج والاستثمار، ليواصلوا تدبير شؤون حياتهم وكسب معاشهم من أرباح رؤوس أموالهم، لا من أصولها، تقول الآية الكريمة: ﴿وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ بدلاً من «منها».

٧ - لا ينبغي أن ننسى مراعاة الجوانب النفسية والروحية في شخصية الإنسان المحروم وترميم نفسيته، ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾.

٨ - منع الأفراد من التصرف بأموالهم سيولد عندهم ردود أفعال، والحل هو في المعاملة الطيبة والسلوك الحسن، ﴿قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾.

﴿وَابْتَلُوا الَّذِينَ حَقَّ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾

إشارات:

□ روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه سئل عن قول الله ﷻ: ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ قال: «إناس الرشد حفظ المال»^(١).

□ وقال عليه السلام أيضاً في المراد من قوله ﷻ: ﴿فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ «المعروف هو القوت وإنما عنى الوصي أو القيم في أموالهم وما يصلحهم»^(٢).

التعاليم:

نظام إيتاء اليتامى أموالهم

١ - يجب اختبار اليتامى عند الحلم ومعرفة مقدرتهم على خوض غمار الحياة الاقتصادية وتعليمهم إدارة شؤونهم المالية وفنون التعامل ومهارات البيع والشراء، لإعدادهم وترشيدهم عقلياً، ﴿وَابْتَلُوا الَّذِينَ حَقَّ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ...﴾.

(١) من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ٢٢٣. (٢) الكافي، ج ٥، ص ١٣٠.

٢ - لليتيم حق التصرف بأمواله؛ ولكن تحت إشراف ورقابة وليه، فالعمل بكلمة ﴿وَابْتَلُوا﴾ يقتضي أن يكون تصرفه بأمواله تحت إشراف وليه ليتّم بذلك اختباره وتمحيصه.

٣ - مضافاً إلى الرشد الجنسي لا بدّ لليتيم من أن يجتاز اختبار البلوغ الاقتصادي والاجتماعي ليحظى بحق التصرف بأمواله، ﴿إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾.

٤ - لا يكفي الظنّ والحدس حتى ندفع إلى اليتيم أمواله، بل يجب أن نتيقن من رشده وبلوغه أيضاً، ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾.

٥ - الملكية لا تعني دوماً جواز التصرف، فاليتيم مالك ولكن مع وقف التنفيذ إلى أن يصبح راشداً، ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾.

٦ - الميسور يقدم خدماته الاجتماعية ليس طمعاً في المقابل، ﴿وَمَنْ كَانَ عَنِيًّا فَلْيَسْتَوْفَ﴾.

٧ - أجره القيام بأموال اليتيم ومنفعته تكون بمقدار ما هو متعارف عليه، ﴿فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

٨ - حافظوا على أموال اليتيم، وكذلك صونوا كرامتكم بإشهاد الناس دفعاً لأيّ تنازع أو اتهامات في المستقبل، ﴿فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ﴾.

٩ - إشهاد الناس هو لحفظ العزة والكرامة في الدنيا، أما شهادة الله فهي لعزة ورفعة الوليّ في الآخرة، ﴿وَكُنْ بِاللهِ حَسِيبًا﴾.

١٠ - الإشهاد هو لحسم النزاعات في المجتمع؛ ولكن الشاهد الحسيب في يوم القيامة هو الله تعالى، ﴿وَكُنْ بِاللهِ حَسِيبًا﴾.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرٌ نَّصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾﴾

التعاليم:

١ - للمرأة، كما الرجل، حقّ في الإرث، والدين هو الحافظ لحقوقها، ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ... وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ﴾.

- ٢ - الإرث أحد عوامل الملكية، ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾.
- ٣ - الأقربون أولى بالإرث، ﴿وَالْأَقْرَبُونَ﴾.
- ٤ - التوزيع العادل للإرث هو المهم وليس مقداره، ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾.
- ٥ - أسهم الإرث غير قابلة للتبديل، ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾.

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ
وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾

إشارات:

يتضح من الكلمات ﴿أُولُو الْقُرْبَىٰ﴾ و﴿الْيَتَامَىٰ﴾ و﴿الْمَسْكِينِ﴾ أن المراد بذوي القربى هم الأرحام الفقراء المحجوبون عن الإرث لوجود من هم أقرب منهم إلى الميت، وما يؤكد هذا المعنى هو أن الآية الكريمة استوصت بهم خيراً.

التعاليم:

- ١ - لا تغفلوا عن نظرات المحرومين وحضورهم ورغباتهم الطبيعية، ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾.
- ٢ - لا تقسموا الإرث خفية، لإفساح المجال للآخرين بالحضور، ﴿حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ﴾.
- ٣ - بالإضافة إلى الورثة الذين لهم سهام محدّدة، لا تنسوا دعوة الفقراء والمحرومين، واليتامى، لحضور تقسيم الإرث، ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا... فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾.
- ٤ - امنعوا شعور الحسد والبغضاء وشدّدوا على العلاقات الأسرية بتقديم الهدايا والعطايا المشفوعة بالكلمة الطيبة، ﴿فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا﴾.
- ٥ - ينبغي للهدايا المادّية أن تكون مقرونة بمشاعر الحبّ والعواطف الصادقة، ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾.

﴿وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ضِعْفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾

إشارات:

□ جاء في الروايات أن الله تعالى تواعد على أكل مال اليتيم عقوبتين: عقوبة في الدنيا، وعقوبة في الآخرة، أما عقوبة الدنيا فيسلط الله على أكل مال اليتيم من يظلمه أو عقبه، وهو ما تطرحه هذه الآية الكريمة، أما في الآخرة فينتظر أكل مال اليتيم عذاب النار كما سيرد في الآية اللاحقة^(١).

□ ويُحتمل أن يكون المراد من الآية هو النهي عن الإسراف في الإنفاق والجنف في الوصية، بمعنى: أن من له أولاد صغار وضعاف ينبغي ألا يوقف أمواله، أو ينفقها كلها فيجعل أولاده من بعد موته في عيلة وفقر^(٢). وربما كان الخطاب موجهاً إلى من يخلف من بعده أبناء متخلفين لئلا يغفل عن تأمين مستقبلهم بالتدبير السليم^(٣).

□ إذن لا بد من أن نعلم أنه في بلوغ الخير أو الشر علاقة تربط بين الأجيال المتعاقبة، فآثار أعمالنا لا تقتصر على أعمارنا؛ لأن ما يجنيه الأب من شرور ينتقل أثرها إلى أبنائه، والعكس صحيح أيضاً، فآثار أعمال الأبناء يصل مردودها، خيراً كان أم شراً، إلى الآباء. ولا شك في أن قصة موسى والخضر عليه السلام في سورة الكهف وبناء الخضر الجدار الذي كان يخفي كنز اليتيمين خير دليل على ذلك، ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾^(٤).

التعاليم:

١ - يجب أن ننزل أنفسنا منزلة الآخرين حتى نفهم آلامهم ومعاناتهم بشكل أكبر. علينا أن نعامل يتامى الآخرين كما نحب أن يعامل الناس يتامانا، ﴿تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ضِعْفًا﴾.

(٣) التفسير الكبير، الفخر الرازي.

(٤) سورة الكهف: الآية ٨٢.

(١) تفسير نور الثقلين.

(٢) تفسير مجمع البيان.

- ٢ - من حفر حفرة لأخيه وقع فيها. إِنَّ ظَلَمَ الْإِنْسَانَ الْيَوْمَ أَيَّتَمَّ الْآخَرِينَ سَوْفَ
يَتَحَوَّلُ بِمَرُورِ الْوَقْتِ إِلَى سَنَةٍ فِي الْمَجْتَمَعِ تَسْرِي عَلَى أَوْلَادِهِمْ وَأَيَّتَمَهُمْ
أَيْضاً، ﴿وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا...﴾.
- ٣ - يجب تضمين الأساليب الدعوية القضايا العاطفية والفطرية، ﴿ذُرِّيَّةٌ
ضَعُفَاءُ﴾.
- ٤ - لا لخيانة اليتامى في أموالهم ولا لاستعمال العنف الكلامي معهم، ﴿فَلْيَتَّقُوا
اللَّهَ وَلْيَقُولُوا...﴾.
- ٥ - يحتاج اليتيم، بالإضافة إلى جانب المأكل والملبس، إلى الحنان والعاطفة،
والإرشاد، ﴿وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا
إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (١٠)

إشارات:

□ اعتبر العلامة الطباطبائي (قدس سره) هذه الآية دليلاً على تجسّم أعمال الإنسان في
يوم القيامة؛ وذلك لأنّ القرآن الكريم يقول إِنَّ مَالَ الْيَتِيمِ يَصِيرُ نَاراً فِي جَوْفِ
مَنْ اسْتَبَاحَهَا^(١).

التعاليم:

- ١ - إن أموال اليتيم التي يأكلها الإنسان في هذه الدنيا ستجسّم ناراً تحرق جوفه
في يوم القيامة، ﴿يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى... يَأْكُلُونَ... نَارًا﴾.
- ٢ - لا ضير من الحضور في منزل اليتيم والأكل من ماله ما لم يسبّب ذلك ضرراً
وعدواناً عليه، ﴿يَأْكُلُونَ... ظُلْمًا﴾.

(١) الميزان في تفسير القرآن، ج ٤، ص ٢٠٣.

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ الشُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٌ وَأَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾

إشارات:

□ صحيح أَنَّ الرجل يرث ضعف ما ترثه المرأة، لكننا إذا تأملنا في الأمر قليلاً سنجد أَنَّ المرأة ترث، في الحقيقة، ضعف ما يرثه الرجل. لنفرض أَنَّ مقدار الثروة هو ٣٠ سهماً، فستكون حصّة المرأة ١٠ أسهم، وحصّة الرجل ٢٠ سهماً، وحيث إِنَّ المرأة قد أعفيت من أي التزامات أو تعهّدات، فيكون بإمكانها أن تدّخر ما تحصل عليه عن طريق الإرث، وتشارك الرجل أسهمه العشرين وذلك لما فرض الله على الرجال من نفقة النساء، وبذلك تؤمّن احتياجاتها من خلال مشاركة الرجل حصّته من الإرث، وتحتفظ بإرثها كاملاً غير منقوص. على ذلك تحتفظ المرأة بنصف الإرث لنفسها، مضافاً إلى تأمين نفقتها من قبل الرجل بشكل كامل.

□ سئل الإمام الجواد عليه السلام ما بال المرأة المسكينة الضعيفة تأخذ سهماً واحداً ويأخذ الرجل سهمين؟ فقال عليه السلام: «إِنَّ المرأة ليس عليها جهاد ولا نفقة ولا عليها معقلة، إنّما ذلك على الرجال»^(١).

□ على أَنَّ أحكام الإرث قد وردت في التوراة أيضاً^(٢)، كما نقل عن السيّد

(١) تفسير نور الثقلين.

(٢) «وتكلّم إسرائيل قائلاً: أيّما رجل مات وليس له ابن تنقلون ملكه إلى ابنته، وإن لم تكن له ابنة، تعطوا ملكه لإخوته، وإن لم يكن له أخوة تعطوا ملكه لإخوة أبيه، وإن لم يكن لأبيه أخوة، تعطوا ملكه لنسيبه الأقرب إليه من عشيرته فيرثه فصارت لبني إسرائيل فريضة قضاء كما أمر الرب موسى يدور لدى بني إسرائيل». سفر الأعداد، الباب ٢٧، الإصحاح ٨ - ١١.

المسيح قوله: «إني لم أبعث لأغيّر من أحكام التوراة شيئاً».

□ كانت العرب في الجاهلية لا تورث النساء والأطفال، حتى جاء الإسلام فجعل لكلّ منهما سهماً محدّداً من الإرث يتناسب واحتياجاته.

□ فإعطاء الأبناء سهماً من الإرث هو بمثابة حافز للآباء على النشاط والفعالية، ولولا توريث الأبناء لما جهد المورثون في تحصيل الرزق والكسب والتجارة. والشاهد في المقام ما حصل في فرنسا عندما ألغت الحكومة قانون الإرث، فشهدت البلاد تراجعاً حاداً غير مسبوق في النشاطات الاقتصادية.

□ ربّما تكون الحكمة وراء تشريع سهم لأبناء المتوفّى يفوق سهم والديه، هي أنّ والديه قد دخلا خريف العمر، ولا حاجة بهما لمال ابنهما المتوفّى أو أنّهما أقل حاجة من الأبناء. وقد جعل الله تعالى سهم الأم من الإرث هو الثلث في حال لم يكن للمتوفّى أخ، وإلا فيكون سهمها السدس، والباقي يذهب إلى الأب، ولعلّ السبب في ذلك هو أنّ نفقات أخوة المتوفّى تكون، عادة، بعهدة الأب لا الأم.

□ يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ الدين قبل الوصية ثم الوصية على أثر الدين ثم الميراث ولا وصية لوarith^(١)». وإذا أوصى الرجل بوصية فلا يحلّ للوصيّ أن يغيّر وصيته يُمضيها على ما أوصى إلا أن يوصي بغير ما أمر الله فيعصي في الوصية ويظلم، فالموصى إليه جائز له أن يرده إلى الحقّ مثل رجل يكون له ورثة فيجعل المال كلّه لبعض ورثته ويحرم بعضاً فالوصيّ جائز له أن يرده إلى الحقّ^(٢).

□ روى أحد أصحاب الإمام عليه السلام قائلا: تزوجت بالمدينة فقال أبو عبد الله عليه السلام: كيف رأيت؟ فقلت: ما رأى رجل من خير في امرأة إلا وقد رأيتها فيها، ولكن خانتني فقال: وما هو؟ قلت: ولدت جارية! فقال: لعلك كرهتها إنّ الله جلّ

(١) تفسير نور الثقلين.

(٢) بحار الأنوار، ج ١٠٠، ص ٢٠١؛ تفسير القمي.

ثناؤه يقول: ﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾^(١).

التعاليم:

١ - الإسلام دين الفطرة. فوجود الأبناء هو امتداد طبيعي لوجود الآباء يرثون عنهم خصائصهم ومواصفاتهم الجسمية والخلقية، كما يرثون أموالهم، ﴿يُؤْصِيكُمْ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾.

٢ - الوصية حق طبيعي للإنسان، وهي مقدمة على حقوق ورثته، ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ﴾.

٣ - حقوق الناس مقدمة على حقوق الورثة وذوي القربى، ﴿مِنْ بَعْدِ دِينِهِ﴾.

٤ - اختلاف أسهم الوراثين ينطوي على حكم لا نعلمها. فهي مبنية على أساس المصالح الواقعية للبشر، وإن كان الإنسان نفسه يجهلها، ﴿لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾.

٥ - العلم والحكمة شرطان مهمان في التشريع. فأحكام الإرث تقوم على العلم والحكمة الإلهية، ﴿فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ... عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يَوْصِيَنَّ بِهِآ أَوْ دِينَ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ تَوْصُونَ بِهِآ أَوْ دِينُهُ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أُخٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يَوْصَى بِهِآ أَوْ دِينَ غَيْرَ مُضْكَرٍ وَصِيَّتِهِ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(١٢)

إشارات:

□ تناولت الآية السابقة موضوع إرث الأبناء والوالدين، أما هذه الآية فتشرح إرث

الزوجة والزوج والأخ والأخت للأم. بطبيعة الحال، تطبيق أحكام الإرث يستلزم الرجوع إلى الروايات، وذلك لتفرعات الموضوع الكثيرة والتي لم يأت القرآن الكريم على ذكرها.

□ ورد لفظ «الكلالة» في موضعين من القرآن، أحدهما في هذه الآية، والثاني في آخر آية من سورة النساء. والكلالة مصدر، وتعني في اللغة الإحاطة، من تكلمه النسب وأحاط به أبناءه وعشيرته، ومنه «الإكليل» وهو التاج والعصابة التي تحيط بالرأس. ولفظ «كل» هو لضمّ أجزاء الشيء وذلك ضربان؛ أحدهما: الضام لذات الشيء وأحواله المختصة به، ويفيد معنى التمام، والثاني، الضام للذوات.

لفظة «كلالة» تحمل معنيين في موضوع الإرث هما:

١ - إخوة المتوفى وأخواته لأمه، وهذا المعنى هو المستفاد في هذه الآية.

٢ - إخوة وأخوات المتوفى لأبيه أو لأبويه، وهذا هو مراد الآية الأخرى.

□ عرفنا أنّ الدين مقدّم على الوصية، ولكن بما أنّ تنفيذ الوصية عملياً أشقّ، فقد فرض الله تعالى في الآية العمل بالوصية ومن ثمّ تسديد ما على المتوفى من ديون^(١).

□ جاء في الحديث النبوي الشريف: «الثلث والثلث كثير إنك إن تترك ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس، والإضرار في الوصية من الكبائر، ولا يلزم العمل بها»^(٢).

□ وبالنسبة إلى الرجل الذي يترك زوجات عدّة، فيقسّم ثمن الإرث أو ربهه عليهنّ بالتساوي.

□ وجدير بالإشارة هنا أنّ الديون تشمل ديون الله على المتوفى من قبيل الحجّ، والخمس، والزكاة والكفارة، فضلاً عن ديون الناس^(٣).

(٣) المصدر نفسه.

(١) تفسير الصافي.

(٢) الفخر الرازي، التفسير الكبير.

التعاليم:

١ - يكفي في بيان أهمية تسديد ديون الناس أنها ذكرت أربع مرّات في هذه الآية فقط، ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ... أَوْ دَيْنٍ﴾؛ وقد ورد في الأحاديث الشريفة: «يغفر الله للشهيد يوم القيامة كلّ ذنب إلّا الدين»^(١).

٢ - أن يكون للمرء ابن - وإن من زوجة أخرى - يقلّل سهم كلّ من الزوجين إلى النصف وذلك ليصيب أبناء المتوفى نصيباً من الإرث، سواء أكانت بنتاً أم ولداً، ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾.

٣ - يجب مراعاة أحوال الورثة عند الوصية وعدم الإضرار بهم، ﴿غَيْرَ مُضَارٍّ﴾.

٤ - الإسلام لا يجيز الإضرار لا في الحياة ولا بعد الموت، ﴿غَيْرَ مُضَارٍّ﴾.

٥ - تقسيم القرآن للإرث تقسيم علمي، والله حليم في غضبه لا يعجله شيء، ﴿وَصِيَّةٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

التعاليم:

١ - أحكام الإرث من الحدود الإلهية، فلا ينبغي تجاوزها، ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾.

٢ - طاعة رسول الله بمثابة طاعة الله، ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

٣ - السعادة والفوز رهن بالحركة في الطريق الإلهي، لا بالحصول على إرث أكبر، ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ﴾.

﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِيتٌ﴾

التعاليم:

- ١ - الذي يتخلف عن تنفيذ الوصية، ويمتنع عن تسديد ديون المتوفى، ويتنكر لحقوق الورثة في الإرث أو لبعضها، أو يسعى إلى الاستيلاء على الأموال، سوف يبوء بغضب من الله ويخلد في العذاب، ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ... وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ﴾.
- ٢ - طاعة الله ورسوله أو معصيتهما هي معيار السعادة والشقاء، ولا شيء آخر غيرها، ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ... وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.
- ٣ - معصية رسول الله معصية لله تعالى، ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.
- ٤ - المعصية المستمرة سبب الخلود في النار، ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ... يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا﴾؛ «يعص» فعل مضارع يفيد الاستمرارية.
- ٥ - مثل المعتدين على حقوق الآخرين كمثل الكفار في عذاب النار خالدين فيها، ﴿خَالِدًا فِيهَا﴾.
- ٦ - غضب الله يشمل عذاب الجسد والروح معاً، ﴿عَذَابٌ مُهِيتٌ﴾.

﴿وَالَّذِينَ يَأْتِيكَ الْفَجْشَةُ مِنْ إِسَابِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾

إشارات:

□ عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «جعل السبيل الجلد، والرجم، والإمساك في البيوت»^(١).

- «الفاحشة» في الآية الشريفة تشير في بعض معناها إلى السحاق بين النساء وقد ورد في تفسير مجمع البيان حديث نبوي شريف يؤيد هذا المعنى^(١).
- كما نقرأ في رواية أخرى أنّ موضوع الحبس المؤبد للزانية كان معروفاً أيضاً في العهد الجاهلي، وقد أمضى الإسلام هذا الحكم في بداية البعثة، ولكن بعد أن ضرب الإسلام بجرائمه تغير من الحبس المؤبد إلى تنفيذ حدّ الزنا^(٢).

التعاليم:

- ١ - وضع الإسلام شروطاً ثقيلة لإثبات ارتكاب الزنا وهي أن يشهد أربعة من الرجال على هذا الفعل الشنيع وذلك من أجل المحافظة على شرف الآخرين وصيانة عرضهم، وفي المقابل، إذا لم يكتمل نصاب الشهود كأن شهد ثلاثة فقط، فإنهم يُجلدون جميعاً، في حين نجد أنّه يكفي لإثبات وقوع جريمة القتل أن يشهد شاهدان، ﴿أَزْبَكَةُ مِنْكُمْ﴾.
- ٢ - شروط الشاهد على ارتكاب الزنا أن يكون ذكراً ومسلماً، ليكون إثبات وقوع الفاحشة دقيقاً، ﴿أَزْبَكَةُ مِنْكُمْ﴾.
- ٣ - الشهادة على ارتكاب الزنا غير واجبة، ﴿فَإِنْ شَهِدُوا﴾.
- ٤ - في القضاء بين الناس لا يكفي علم القاضي وحده، بل يجب أن يستعين بالشهود، ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُمْ﴾.
- ٥ - حدّ الزانية الحبس في الدار، لا في السجون العامة للدولة حيث تشكل مراكز لتعليم شتى أصناف الانحراف والجريمة، ﴿فَأَمْسِكُوهُمْ فِي الْبُيُوتِ﴾.
- ٦ - الهدف من حبس المرأة في بيتها هو الحيلولة دون نشر الفساد بين أفراد المجتمع، وحرمانها من الزواج ومن أيّ مجال للذة، ﴿فَأَمْسِكُوهُمْ﴾.
- ٧ - حبس المجرم ضروري من أجل المحافظة على سلامة المجتمع وطهارته، ﴿فَأَمْسِكُوهُمْ﴾.
- ٨ - الحبس المؤبد هو جزاء المحصنة التي ترتكب جريمة الزنا، ﴿حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ﴾.

(١) تفسير راهنما «التفسير المرشد».

(٢) وسائل الشيعة، ج ٢٨، ص ٦١.

أَلَمَوْتُ؛ طبعاً، لا ننس أن هذا الحكم كان مؤقتاً، إذ تغيّر إلى الجلد والرجم في ما بعد، ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾.

﴿وَالَّذِينَ يَأْتِيْنَهَا مِنْكُمْ فَكَادُوْهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوْا عَنْهُمَا﴾
 إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيْمًا ﴿١٦﴾

إشارات:

□ ذكرت المصادر تفاسير عدّة لهذه الآية، إلّا أننا أوردنا التفسير الذي ذكره «تفسير الأمل». ويوجد، بالطبع، تفسير آخر خطر في أذهاننا نذكره فيما يلي:

إذا همّ رجلان بارتكاب الفاحشة (اللواط)، وهما مقدّمتان هذا العمل على نحو يوحى بحتمية ارتكابه، فيجب عليكم، عملاً بفريضة النهي عن المنكر، إيذاؤهما، وتعزيرهما، وتهديدهما، فإذا ارتدعا، وعادا عن فعلتهما، وتابا عما بدر منهما، فاعفوا عنهما لأنّ الله توّاب رحيم.

وعلى هذا، فإنّ كلمة ﴿وَالَّذِينَ﴾ تعني رجلان وليس رجلاً وامرأة على سبيل التغليب كما قد يتبادر إلى الذهن، وكلمة ﴿فَكَادُوْهُمَا﴾ تعني التعنيف، والنضيق، والمعاقبة، لا تنفيذ الحدّ بحقهما. أمّا التوبة والإصلاح فهي العودة الحقيقية والتوبة النصوحة عن الفاحشة، لا أن يتوبا قبيل صدور حكم القاضي. و﴿يَأْتِيْنَهَا﴾ أن يهتما بارتكاب الفاحشة ويهيئا لذلك، وقد درجت العادة في العرف أن ينسب ارتكاب الفعل إلى من عزم عليه، كأن يوجّه المرء دعوة ضيافة إلى عدد من الأشخاص، ويقوم بإعداد مستلزمات الدعوة فيقال إنّ لديه ضيوفاً، (والله العالم).

□ الحقيقة هي أنّ توبة الزاني والإغضاء عن تنفيذ الحدّ بحقه تكون ما دام الأمر لم يصل إلى المحكمة، وإقامة الشهود، وصدور الحكم، وإلّا فإنّ التوبة بعد صدور الحكم لا يسقط الحدّ.

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١٧)

إشارات:

□ تشير الآية الكريمة إلى بعض من شروط التوبة منها:

أ - أن يكون ارتكاب المعصية عن غفلة وجهل بالعواقب السيئة التي تتبعها، لا عن كفر وجحود وعناد.

ب - قيل في معنى ﴿مِنْ قَرِيبٍ﴾: هو أن على مرتكب المعصية أن يتوب قبل أن تحيط به معصيته فتصبح ملكة وعادة، أو قبل ظهور بوادر سخط الله تعالى وعذابه.

□ وعن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام في هذه الآية أنه قال: «يعني كل ذنب عمله العبد وإن كان به عالماً فهو جاهل حين خاطر بنفسه في معصية ربه»^(١).

التعاليم:

١ - من حقوق العباد على الله تعالى قبول التوبة الحقيقية الصادقة، ﴿التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾.

٢ - العلم الذي لا يصمد أمام طغيان الأهواء والغرائز إنما هو جهل مطبق، ﴿يَعْمَلُونَ... بِجَهْلَةٍ﴾.

٣ - التوبة ميسرة ما لم تتراكم المعاصي. الآية الكريمة تقول: ﴿يَعْمَلُونَ السُّوءَ﴾؛ أي ارتكاب معصية واحدة، فيما نقرأ في الآية اللاحقة: ﴿يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾، والمراد بها تراكم السيئات وازدحامها فتجعل من التوبة أمراً مشكلاً.

٤ - يشجع الله العاصين على التوبة العاجلة والفورية، ﴿يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾.

٥ - الإسراع إلى التوبة، مفتاح قبولها، ﴿يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾.

٦ - ينبغي للتوبة أن تكون حقيقة خالصة، لأن الله يعلم بالنيات إذا تظاهرت بالتوبة، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾.

٧ - قبول توبة العاصين غير المعاندين ينطوي على الحكمة، ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٨)

التعاليم:

١ - التوبة الخالصة هي التي تكون بملء إرادة العبد وحرية، لا في حال الاضطرار عندما تلوح ملامح الخطر، ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ﴾.

٢ - التماسي في ارتكاب المعاصي يسلب الإنسان توفيق التوبة. تشير كلمة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ إلى الاستمرارية، و﴿السَّيِّئَاتِ﴾ إلى تعدد المعاصي والإصرار على ارتكابها.

٣ - ينبغي عدم التسويف في التوبة؛ لأن الآجال تأتي على حين غرة، والتوبة حين الاحتضار غير مقبولة، ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ...﴾.

٤ - عندما تلوح بوادر الخطر والموت، تتجلى الفطرة الإلهية عند الإنسان، ﴿إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ﴾.

٥ - الموت على الكفر وسوء العاقبة يحبط جميع الأعمال الصالحة بما فيها التوبة، ﴿يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرَاهًا وَلَا تَقْضُوا لَهُنَّ إِنْ تَزَهِبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحْشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (١٩)

إشارات:

□ بخلاف ما كان معهوداً في سنن عرب الجاهلية الذين كانوا إذا هلك الرجل ورثوا نساءه، نزلت الآية الكريمة لتنهى عن ذلك وتقتصر الإرث على الأموال،

ولتؤكد أن للزوجة الحق في اختيار الزوج المناسب إذا مات عنها زوجها، وهي، بالتالي، ليست إرثاً لأحد.

التعاليم:

- ١ - الإسلام خير مدافع عن حقوق المرأة، ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾.
- ٢ - استعادة المهور بالقسر والإكراه حرام، ﴿وَلَا تَقْضُوا لَهُمْ لَتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾.
- ٣ - لا يحق للزوج أن يعضل زوجته إلا إذا نشزت وبدر منها ما يخدش عفتها وشرفها، ﴿وَلَا تَقْضُوا لَهُمْ... إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾.
- ٤ - ينبغي معاملة الزوجة بالحسنى، ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.
- ٥ - الزوج قطب الرحى في الحياة الأسرية، ويجب عليه أن يتجلد بالمعاملة الطيبة للتغلب على الصعاب، (الآية توجه خطابها إلى الزوج) ﴿وَلَا تَقْضُوا لَهُمْ... وَعَاشِرُوهُنَّ﴾.
- ٦ - لعل في مكاره الحياة كثير من الخير المستتر، ﴿وَيَجْعَلِ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.
- ٧ - الاستعانة بالحلم والصبر لحل مشاكل الأسرة أفضل لسعادة الأبناء من الانفصال والطلاق، ﴿فِيهِ خَيْرٌ كَثِيرًا﴾.
- ٨ - لم يكن الخير والشر دوماً وفقاً لما نشتهي، ربما جعل الله لنا الخير العميم في ما نكره، فلا يحيط علم الإنسان بكل ما ينفعه، ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا... فِيهِ خَيْرٌ كَثِيرًا﴾.

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَاتٍ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بِهَيْئَتِنَا وَإِنَّمَا مِثْلُنَا﴾

إشارات:

□ ورد في مفردات الراغب «القنطار» جمع القنطرة، والقنطرة من المال: ما فيه عبور الحياة تشبيهاً بالقنطرة.

□ كان الرجل في العصر الجاهلي إذا أراد تطليق زوجته والزواج بأخرى، يتهم الزوجة الأولى بشتى التهم للضغط عليها من أجل أن تهب مهرها، حينذاك يطلقها، فيعمد بذاك المهر إلى الزواج بزوجة ثانية فيمهرها به، فنزلت هذه الآية لتستقبح هذه السنة الجاهلية المشينة.

التعاليم:

- ١ - الزواج المجدد مباح في الإسلام، ﴿أَسْبَدَالَ زَوْجٍ مَكَاتَ زَوْجٍ﴾.
- ٢ - عقدة الطلاق بيد الزوج، ﴿أَرَدْتُمْ أَسْبَدَالَ زَوْجٍ﴾.
- ٣ - لا إشكال في رفع المهور، على الرغم مما ورد في الروايات من الحث على تقليلها، ﴿وَأَتَيْتُهُ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا﴾.
- ٤ - لا حدود لملكية الإنسان في إطار الشرائع السماوية، ﴿قِنْطَارًا﴾.
- ٥ - الإسلام يدافع عن حقوق المرأة، وقد حرّم الزواج الثاني الذي يكون على حساب حقوق الزوجة الأولى، ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾.
- ٦ - للزوجة حق التملك؛ لذا يجب إعطاؤها مهرها كاملاً غير منقوص، ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾.
- ٧ - لا يمكن نزع ملكية من تملك بالحق، ولو كان قنطاراً، ﴿فَلَا تَأْخُذُوا...﴾.
- ٨ - من أقبح الظلم أخذ أموال الناس بغير حق وتبرير ذلك، واتّهامهم وإهدار كرامتهم، ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بِهَتِّنَا وَإِنَّمَا﴾.

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ
إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذَتْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾

التعاليم:

- ١ - عند النهي عن المنكر يجب توظيف المشاعر الإنسانية. كيف تنازعون أزواجكم مهورهنّ دون وجه حقّ وقد عشتن زماً طويلاً في وئام وصفاء تربطكم علاقات حميمة، ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾.

- ٢ - حين تعكر المشاكل صفو حياتكم، استعيدوا ذكرى اللحظات الجميلة السابقة، ﴿وَقَدْ أَفْنَى﴾.
- ٣ - لا بدّ من مراعاة أصول الأدب عند الخوض في المسائل الزوجية، ﴿أَفْنَى﴾.
- ٤ - الصداق حقّ الزوجة في مقابل الدخول والاستمتاع، ﴿وَقَدْ أَفْنَى﴾.
- ٥ - عقد الزواج ميثاق غليظ ومحكم، ﴿يَيْتَقًا غَلِيظًا﴾.
- ٦ - إذن، استرداد الصداق هو نقض للميثاق، ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ... وَأَخَذْتَ مِنْكُمْ يَيْتَقًا غَلِيظًا﴾.

﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾

إشارات:

□ كان من تقاليد الجاهلية أن يتزوَّج الرجل زوجة أبيه بعد موته، وقد حدث هذا بعد الإسلام أيضاً عندما مات أبو قبيس بن الأسلت، وكان من صالحى الأنصار، فخطب ابنه امرأته، فقالت: إنما أعدك ولدأ وأنت من صالحى قومك، ولكن أتى رسول الله ﷺ فاستأمره فأنت رسول الله ﷺ، فقالت: إن أبا قيس توفي، فقال: «خيراً» ثم قالت: إن ابنه قيساً خطبني، وهو من صالحى قومه، وإنما كنت أعدّه ولدأ فما ترى؟ فقال لها «ارجعي إلى بيتك»، فنزلت ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾.

التعاليم:

- ١ - الإسلام دين الفطرة. ينفر المرء، بطبيعة الحال، من الزواج بأمه أو زوجة أبيه؛ ولذلك حرّم الإسلام هذه الأمور، ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ﴾.
- ٢ - زوجة الأب بمثابة أمّ ثانية، وعليها أن تغمر أبناء الزوج بحنان الأمومة بدلاً من زرع الضغائن والخلافات، ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ﴾.
- ٣ - يجب على الأبناء إذا ما أرادوا الزواج أن يصونوا حرمة الأب، ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ﴾.

- ٤ - يجب أن ينظر الأبناء إلى زوجة أبيهم كأم لهم، ﴿مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ﴾.
- ٥ - الإسلام يعفو عما سلف من المعاصي، فمن اقترن بزوجة أبيه قبل هذا الحكم فلا شيء عليه، ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، وقد ورد أن: «الإسلام يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ»^(١).
- ٦ - عند القول، يجب أن تقدّم الدليل المجمل أو المفصل، ﴿إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾.
- ٧ - الاقتران بزوجة الأب نهج سيئ يفتح الباب أمام زواج المحارم، ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَوَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرَّضْعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبَاتُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِن لَّمْ يَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَخَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾

إشارات:

□ يشير الله تعالى في هذه الآية إلى محارم الرجل من النساء اللاتي يحرم نكاحهن. وتحصل هذه الحرمة من طرق ثلاث هي:

١ - الولادة (الرابطه النسبية).

٢ - الزواج (الرابطه السببية).

٣ - الرضاع (رابطه الرضاعة).

□ على أنّ تحريم الزواج بالمحارم كان معروفاً في الأديان السابقة كذلك^(٢).

(١) مسند أحمد ج ٤، ١٩٩؛ كنز العمال، ج ١١، ص ٧٥١، الحديث ٣٣٦٦٤؛ عوالي اللآلي، ج ٢، ص ٥٤؛ وجاء في بعض المصادر ما يشبهه، مثل: «الاسلام يهدم ما كان قبله».

(٢) التوراة، سفر اللاوين، الباب ١٨، الإصحاح ٦ - ٢٣.

□ ويعتبر الزواج بغير المحارم عاملاً مهماً في توسيع دائرة العلاقات الأسرية.
 □ وبالنسبة للجمع بين الأختين في الزواج، فإن ذلك يولد في العادة مشاعر الضغينة والحسد ويجرّ إلى التنافس الشخصي والجنسي، وربما انتهى الأمر إلى العداوة والبغضاء، لذلك، قد يكون مرة النهي إلى هذه الأسباب، ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ...﴾.

التعاليم:

- ١ - التحريم والتحليل (الأطعمة، الأشربة، المعاملات، العقود، الزيجات...)
 بيد الله وحده، ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ﴾.
- ٢ - لبن الأم، كما الولادة، يعتبر من أسباب الحرمة. فلنتوخّ الدقة والحذر في اختيار المرضعة، ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَعَةِ﴾.
- ٣ - لتكن نظرة الزوج إلى ربابته (بنت الزوجة من زوجها السابق والتي تتربى في حجره) كنظرته إلى ابنته التي من صلبه، وليكن بمثابة المربي لها، ﴿وَرَبِّبُكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾.
- ٤ - ليس للقانون أثر رجعي، ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾. (لا تثريب على من جمع بين أختين قبل هذا التشريع، ولكن بعد أن أدركه عليه بعد ذلك أن يحتفظ بإحداهما ويسرّح الأخرى).

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَإِجَلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

إشارات:

□ «الإحصان» في اللغة من الحصن والتحصن وهو التمتع، ومنه الحصان بكسر الحاء للفرس؛ لأنه يمنع صاحبه من الهلاك. وقد استخدم القرآن الكريم أصل هذه الكلمة في معانٍ هي:

١ - أطلقت على النساء العفيفات نقيات الجيب، إذ يقول الله سبحانه عن مريم العذراء عليها السلام: ﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾^(١).

٢ - المرأة ذات الزوج: لأنها بزواجها من رجل تكون قد أحصنت شرفها وصانت عفافها. وهو المعنى المراد هنا في ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾.

٣ - الحرائر في مقابل الإماء والأسيرات، ذلك لأن الأسر هو بمثابة تمزق لأستار العفة والحياء لدى المرأة، وقد كان عدم الحياء شائعاً بين الإماء في ذلك العصر. وهذا هو المعنى المقصود من ﴿الْمُحْصَنَاتُ الْمُؤْمِنَاتُ﴾ في الآية اللاحقة.

□ ﴿مُسْفِهِينَ﴾ من «السفاح» أي الزنا وأصله من «السفح».

□ لقد اعتبر الإسلام الأسر بالنسبة إلى النساء الكافرات بمثابة الطلاق من أزواجهن، وكذا الحال مع اعتناق الزوجة للإسلام إذ تنقطع علاقتها بزوجها إن هو بقي على كفره.

إن الدين الإسلامي يحرم على المسلم أن يتزوج بالمرأة المحصنة مهما كان دينها وعرقها، بيد أنه يعتبر الأسر بمثابة طلاق للمحصنة الكافرة عن زوجها، ولذلك سمح بالزواج منها ولكن بعد انقضاء عدتها، وأن تضع حملها إن كانت حاملاً من زوجها السابق، وفي هذه الفترة يحرم ملامستها. ومن المتيقن به أن هذا الحكم بجعلها زوجة أو أمة في ديار المسلمين، أفضل لها من أن تعاد إلى دار الكفر، (وهو ما يتنافى مع الأسس الإسلامية)، أو أن تبقى هكذا بدون زوج من المسلمين (وهي بلا شك عملية ظالمة).

□ تحمل كلمة «المتعة» مفهوماً شرعياً لا لغوياً كما هو الحال مع ألفاظ الحج، الصلاة، الربا، الغنيمة. من هنا، فإن المراد، بكل تأكيد، من هذه الكلمة كما يقول العلامة الطباطبائي في تفسيره «الميزان»: هو زواج «المتعة»^(٢).

(١) سورة التحريم: الآية ١٢.

(٢) الميزان في تفسير القرآن، ج ٤، ص ٢٧١.

إنَّ دفع المهر أو الصداق في المتعة والوارد في الآية ﴿فَتَأْتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ يتعلّق بالاستمتاع ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾.

في حين أننا نعلم أنّ دفع الصداق أو المهر يكون واجباً على الزوج في حال كان النكاح دائماً ولا يشترط فيه الاستمتاع بالزوجة، وبمجرد العقد للزواج الدائم على الزوجة وقبل الدخول بها يتوجّب على الزوج دفع نصف المهر.

□ بحسب الروايات المنقولة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام^(١)، ومعظم تفاسير أهل السنة فإنّ عبارة ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ تتحدّث عن الزواج المؤقت الذي حرّمه الخليفة الثاني، علماً أنّه ليس لأحد أن يحرم ما أنزل الله تعالى من أحكام. ولولا ذلك التحريم لما زنا إلّا شقي، كما ورد في الروايات^(٢). إنّ الزواج المؤقت هو برنامج سليم ومحكم، وقد شاع الزنا في أرجاء العالم بسبب افتقاده هذا البرنامج. ولا ريب في أنّ الزواج المؤقت ضرورة تملّئها الظروف الاجتماعية، وإنّا نقرأ في مصادر أهل السنة أنّ هذا الزواج قد شُرّع بسبب البعد عن الزوجة وظروف الحرب والمعارك، وهي الظروف نفسها الموجودة في العصر الراهن. إذن، زواج المتعة هو برنامج متكامل لحل هذه المعضلة الاجتماعية، والتصديّ لظاهرة الفساد، وهو يعتبر حقيقة شرعية حتى قيام الساعة. وحجّة بعض هي أنّ القرآن الكريم ذكر العدة، والإرث، وحفظ الفروج، وهذا كلّ يتعلّق بالزواج، في حين أنّ المتعة لا تعدّ زواجاً أساساً. والجواب على ذلك هو:

أولاً، يطلق لفظ الزواج على المتعة أيضاً، ثانياً، على المرأة المتمتع بها أن تلتزم بالعدة، ولا استثناء في ذلك سوى في الإرث، أي لا يتوارث الزوجان في الزواج المؤقت.

(١) الكافي، ج ٥، ص ٤٤٨؛ وسائل الشيعة، ج ٢١، ص ٥.

(٢) التفسير الكبير، الفخر الرازي، ذيل الآية.

بضعة أسئلة:

١ - أليس الزواج المؤقت قناعاً على وجه الرذيلة والزنا؟

الجواب: كلا، وذلك لأنه:

أ - المرأة المتمتع بها تكون خاصةً برجل واحد فقط.

ب - يجب أن تعتدّ لمدة ٤٥ يوماً على الأقل.

ج - لا فرق بين أولاد المتعة وبين أولاد الزوجة الدائمة.

٢ - ألا يخشى أن يسيء الرجال من طلاب الهوى استخدام هذا القانون؟

الجواب: من الممكن إساءة استخدام أيّ قانون مفيد وضروري، ألا يُصنع

من الكروم نبذاً؟ أفلا يستغلّ بعض الأشخاص رحلة الحجّ لأغراض أخرى غير

مقاصدها التي شرّعت من أجلها، فهل علينا منع أداء فريضة الحج؟

٣ - وماذا عن حقوق أولاد المتعة؟

الجواب: لا فرق أبداً بينهم وبين أولاد الزوجة الدائمة في الحقوق والإرث

وما شابه.

التعاليم:

١ - ينبغي على الرجل أن لا يبحث بين المحصنات عن زوجة له، ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾.

٢ - لا يجوز لأسيرات الحروب مع الكفار أن يبقين بلا أولياء. فإما إعادتهنّ إلى

دار الكفر أو بقاءهنّ في ذمة علاقة شرعية مع المسلمين كزوجات أو كإماء،

﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾.

٣ - حرمة الزواج بالمحارم والمحصنات من النساء والجمع بين الأختين من

الأحكام الإلهية الثابتة والقطعية التي لا تتغير، ﴿حُرِّمَتْ... كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾.

٤ - يحرم تخصيص الأموال لمصارف الفحشاء والرذيلة، ﴿تَبَتَّغُوا بِأَمْوَالِكُمْ... غَيْرَ

مُسَوِّغِينَ﴾.

٥ - الزواج المؤقت حقيقة شرعية، ويجب أن يدفع المتمتع الصداق إلى المتمتع

بها، ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ... فَآتَوْهُمْ أَجْرَهُنَّ﴾.

- ٦ - يشترط في الصداق موافقة الطرفين، ﴿فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ﴾.
- ٧ - بعد انتهاء أمد الزواج المؤقت يمكن تمديده أو زيادة الصداق، ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيقَةِ﴾.
- ٨ - الزواج المؤقت وأحكام ومقررات الزواج نابعة عن علم الله وحكمته، ﴿عَلَيْمَا حَكِيمًا﴾.
- ٩ - العلم والحكمة شرطان لازمان للتشريع، ﴿كَتَبَ اللَّهُ... عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

الجزء (٥)

﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْنَتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفُوحَاتٍ وَلَا مُتَّخَذَاتٍ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

إشارات:

□ قلنا في الآية السابقة إنَّ المراد بـ ﴿الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ الحرائر في مقابل، ﴿فَتَيِّبَتُكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ وهنَّ الإماء، وقد ورد هذا التعبير الأخير «فتيات» في موضع آخر من القرآن الكريم إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْإِغَاءِ﴾^(١).

□ ﴿أَخْدَانٍ﴾ جمع «خِدن» وهو الرفيق أو الخليل في السرّ، وتستعمل عادةً للذين يقيمون علاقات غير مشروعة، وقد ورد في مفردات الراغب الأصفهاني: الخدن: أي المصاحب، وأكثر ذلك يستعمل في من يصاحب بشهوة. وقد جاءت هذه الكلمة في مقابل ﴿مُسَفُوحَاتٍ﴾ والتي تعني الزنا جهاراً وبصورة علنية.

□ ﴿الْطَّوْلِ﴾ بمعنى المُكَنَّة والسعة في المال، و﴿أَلَمَنْتَ﴾ المشقة والضيق والحرَج.

□ على أَنَّ المقصود من الفتيات أو الإماء في الآية الكريمة هو إماء الغير؛ لأنَّ مالك الأمة له الحقُّ في مقاربتها دون عقد زواج، وزواج الرجل من إماء الغير يجب أن يكون بإذن وليها.

□ هذا، وقد وردت كراهة في الزواج من الإماء، ولكن مع ذلك، برز من بين هؤلاء نساء عظيمات حظين بقدر كبير من الكمال والخلق، ما دفع بعض أولياء الله إلى اتخاذهن زوجات، فأنجن أبناء عظاماً.

التعاليم:

- ١ - طريق الزواج في الإسلام غير مسدود، ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ﴾.
- ٢ - على المشرِّع أن يأخذ في الحسبان الاحتياجات الطبيعية لأفراد المجتمع، وكذلك الضغوط الاقتصادية التي تواجههم، ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ...﴾.
- ٣ - الزواج بالأمة خير من عار المعصية، ﴿فَإِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾.
- ٤ - يمكن الاستغناء عن شرط الحرية، ولكن لا يمكن التخلّي عن الإيمان، ﴿فَلْيَتَّخِذُوا مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾.
- ٥ - الإيمان هو الشرط الأساس لكل زواج، ﴿الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾، ﴿فَلْيَتَّخِذُوا مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾.
- ٦ - يكفي في الزواج الإيمان الظاهري، فنحن غير مأمورين بالسرائر، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾.
- ٧ - ليس في الزواج من الأمة أيّ تحقير، ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾.
- ٨ - يشترط في زواج الأمة إذن سيدها تماماً كما بالنسبة إلى إذن والد البنت، ﴿بِإِذْنِ أَهْلِيهِ﴾.
- ٩ - على الأسياد أن يعتبروا إماءهم مثل أهليهم، ﴿أَهْلِيهِمْ﴾.
- ١٠ - يجب على الرجل أن يمهر الأمة مهراً مناسباً كما يفعل مع الحرّة،

﴿وَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

- ١١ - يجب إعطاء الصداق للأمة نفسها، إذ لا بد من مراعاة الحقوق الاقتصادية والاجتماعية للإماء والعبيد، ﴿وَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾.
- ١٢ - مقدار الصداق يجب أن يتناسب مع الأعراف ومكانة المرأة وشأنها، ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾.
- ١٣ - استمرارية الزواج ودوامه رهن بتوفر العفة واجتناب الفواحش والعلاقات غير المشروعة، ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفُوحَاتٍ﴾.
- ١٤ - عقوبة الزنا بالنسبة للأمة تنزل إلى النصف بسبب عبوديتها وحرمانها، ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ﴾.
- ١٥ - توفير أسباب الزواج السهل والمريح في المجتمع، يسد الباب بوجه المفاسد والموبقات الجنسية، ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ﴾.
- ١٦ - الصحة النفسية من أهداف الإسلام، ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ﴾.
- ١٧ - أحياناً يكون الصبر والتحمل خيراً من بعض الزيجات، ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّبَ لَكُمْ وَيَذَيِّبَ كُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ
وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾

التعاليم:

- ١ - تلخص سنة الله في الهداية، والبيان، والبلاغ، ﴿لِيُذَيِّبَ لَكُمْ وَيَذَيِّبَ كُمْ﴾.
- ٢ - يجب التمسك بالسنة الحميدة للماضين، ﴿سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾.
- ٣ - أحكام الإسلام تشريعاته في الزواج تحاكي أحكام سائر الشرائع السماوية الماضية، ﴿سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾.
- ٤ - يشمل الله تعالى عباده بالطافه، ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾.
- ٥ - حالات التحريم والإباحة في الزواج تتم على أساس العلم والحكمة

والمصلحة، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يُمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا﴾ (٢٧)

إشارات:

□ للهولة الأولى، قد تبدو الحريات الجنسية أمراً يؤمن اللذة والنشوة، ولكن إذا ما تأملنا الآثار والعواقب السيئة المترتبة عليها على الصعيدين الفردي والاجتماعي ستبين بأنها ليست إلا سقوطاً في هاوية الانحراف والرديلة. إن من نتائج التحلل وانفلات الحريات ما نراه بأم أعيننا من انهيار الجسم، وانشغال الفكر، وضياع الأموال والثروات، وانعدام الراحة والاستقرار، وذهاب كل رغبة في تشكيل الأسرة، واستيلاد الأبناء غير الشرعيين في المجتمع، وتزايد الأمراض التناسلية والنفسية. وبكلمة واحدة، إن الحريات الجنسية هي طوق كبير يلتفت حول عنق البشرية.

التعاليم:

- ١ - تشريع القيود والحدود التي تنظم الزواج يمثل سرّ الألفاظ الإلهية التي تغمر الإنسان والمجتمع الإنساني، ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾.
- ٢ - لا تسيروا في المسالك الوعرة لطلاب الشهوة ولا تتبعوا خطاهم، هم الأعداء فاحذروهم، ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ...﴾.
- ٣ - يريد عبید الأهواء وطلاب الانحلال والتفسخ أن يغرقكم في بحر الشهوات، وأن تتبعوا خطاهم، ﴿أَنْ يُمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا﴾.
- ٤ - الأخلاق الجنسية الإسلامية متوازنة ومعتدلة، وهي بعيدة عن الإفراط والتفريط؛ لكن طلاب الشهوات يريدون أن تنهجوا سبيل الإفراط، ﴿مِيلًا عَظِيمًا﴾.
- ٥ - لتتوخّ الدقة والحذر في سلوك الطريق، لقد ذكرت الآية الكريمة كلمة ﴿يُرِيدُ﴾

مرتين؛ عبّرت في الأولى عن إرادة الله العليم الحكيم، وفي الثانية بيّنت إرادة طلاب الشهوات الحاقدين. فلتبَيّن أيّ الإرادتين نختار، ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ... وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾

إشارات:

□ تكشف الآيات الثلاث الأخيرة تبعاً عن جوانب من الألفاظ الإلهية في موضوع الزواج. فالله يبيّن لكم الأحكام ﴿لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾، ويدلّكم ويهديكم إلى الطريق القويم ﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾، ويشملكم بلطفه وعنايته ﴿وَيَتَوَبَّ عَلَيْكُمْ﴾، ويسهل عليكم ولا يشقّ ﴿يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾، وما ذلك إلّا لأنّ الإنسان خلق ضعيفاً بوجه طوفان الغرائز والشهوات، وقدرته على التحمّل، والجلد، وضبط النفس، قليلة.

التعاليم:

- ١ - الشريعة الإسلامية هي الشريعة السمحة السهلة، ولا انسدادات فيها، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾.
- ٢ - جاءت التكاليف الدينية على قدر وسع الإنسان وطاقته، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾.
- ٣ - وضع الشروط الثقيلة في الزواج خلاف إرادة الله، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ﴾.
- ٤ - التمسك بأحكام الزواج يهيئ أجواء وظروف تسهيله، ويبعد عن المجتمع المشاق والآفات، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾.
- ٥ - قدرة الإنسان على مقاومة الغريزة الجنسية ضعيفة، ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾.
- ٦ - هناك توافق وانسجام بين تكوين الإنسان وخلقته، وبين تشريع الأحكام الإلهية، ﴿يُخَفِّفُ... ضَعِيفًا﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا الذِّبْنَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝٢٩﴾

إشارات:

□ لعل السر وراء تتالي ورود الحكمين في الآية الكريمة، حكم النهي عن أكل المال بالباطل ﴿لَا تَأْكُلُوا﴾، وحكم النهي عن القتل ﴿وَلَا تَقْتُلُوا﴾، هو أن المنظومة الاقتصادية في المجتمع إذا لم تكن قائمة على أسس سليمة، فإنها ستؤلب المحرومين ضدّ الجشعين من مكتنزي الثروات، وستؤدي إلى نشوب النزاعات وتساعد حالات القتل والانتحار في المجتمع.

□ عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه تلا هذه الآية الكريمة ثم قال: «من كان عليه دين فينوي قضاءه كان معه من الله ﴿يُحِبُّ﴾ حافظان يعينانه على أداء أمانته، فإن قصرت نيته عن الأداء قصرت عنه المعونة بقدر ما قصر من نيته»^(١). وقد قال الإمام الباقر عليه السلام في (الباطل) في ذيل الآية: «إنه الربا والقمار والبخس والظلم عن السدي»^(٢).

□ وعن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عن الجائر تكون على الكسر كيف يتوضأ صاحبها وكيف يغتسل إذا أجنب؟ قال: يجزيه المسح بالماء عليها في الجنابة والوضوء، قلت: فإن كان في برد يخاف على نفسه إذا أفرغ الماء على جسده، فقرأ رسول الله صلى الله عليه وآله ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾^(٣).

□ ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «كان الرجل يحمل على المشركين وحده، حتى يقتل أو يُقتل، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾»^(٤).

(٣) المصدر نفسه.

(١) الكافي، ج ٥، ص ٩٥.

(٤) تفسير البرهان.

(٢) تفسير نور الثقلين.

□ على أن قتل القادة المعصومين هو أيضاً من أمثلة الانتحار واهتلاك المجتمع، فالإمام الصادق عليه السلام في تفسيره عبارة ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ يقول: «أهل بيت نبيكم عليه السلام»^(١).

التعاليم:

- ١ - الملكية محترمة، ولا يجوز التصرف في أموال الآخرين إلا عن طريق المعاملات القائمة على رضا الطرفين، ﴿لَا تَأْكُلُوا... إِلَّا... بِحَرَءَ عَنْ تَرَاضٍ﴾.
 - ٢ - للمجتمع روح واحد ومصير مشترك. فلنحترم أموال الآخرين كأنها أموالنا، ﴿أَمْوَالُكُمْ بَيْنَكُمْ﴾.
 - ٣ - أي تصرف لا يقوم على «الحق» فهو غير جائز، ﴿لَا تَأْكُلُوا... بِالْبَاطِلِ﴾.
 - ٤ - المعاملات والصفقات يجب أن تتم بموافقة ورضى الطرفين، وليس بالقسر والإكراه، ﴿عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾.
 - ٥ - النفس محترمة، والانتحار وقتل الآخرين حرام، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾.
 - ٦ - أحكام الإسلام وتعاليمه قس من رحمة الله تعالى، ﴿كَانَ يَكُم رَحِيمًا﴾.
- ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا
وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾

إشارات:

- قد يكون الفرق بين «العدوان» و«الظلم» هو أن الأول يعني الاعتداء على الآخرين، فيما يشمل الثاني ظلم النفس أيضاً.
- مادة «صَلَوْ» تعني الدخول في الرحمة، و«صَلَّى» الورود في النار، لذا، فإن ﴿نُصْلِيهِ﴾ تعني ندخله نار جهنم.

□ وروي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قوله: «من قتل نفسه متعمداً فهو في نار جهنم خالداً فيها ثم تلا الآية الكريمة»^(١).

التعاليم:

١ - إذا لم تكن أفعال الإنسان بدافع الظلم والعدوان فليأمن غضب الله، ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا...﴾.

٢ - للنية دور أساس في العقاب والثواب، ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا...﴾.

﴿إِنْ جَحْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ
وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾

إشارات:

□ يستفاد من هذه الآية أنّ المعاصي على قسمين: الصغائر والكبائر. وقد ورد هذا اللفظ في الآية ٤٩ من سورة الكهف التي تفيد أنّ المجرمين حين تعرض عليهم صحيفة أعمالهم يقولون: ما بال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾.

□ سئل الإمام الكاظم عليه السلام عن وعد الآية إن كان غفران الصغائر لمن اجتنب ما أوعده الله عليه النار من الكبائر، فماذا عن الشفاعة؟ فقال عليه السلام: الشفاعة لأهل الكبائر من الأمة^(٢).

□ والمعصية الكبيرة، طبقاً لما ورد في الروايات، هي التي أوجب الله تعالى عليها النار^(٣). ولعلّ في وعيد الآية السابقة بالنار لمن قتل أو انتحر أو اعتدى على أموال الناس إشارة إلى هذا المعنى، وهو أنّ المعاصي الكبائر التي أوعده الله عليها النار هي الاعتداء على أموال الناس وأنفسهم.

(١) من لا يحضره الفقيه، ج ٣، ص ٣٦٤. (٢) الكافي، ج ٢، ص ٢٧٦.

(٢) توحيد الصدوق، ص ٤٠٧.

□ وبحسب الروايات، فإنّ المعاصي الكبيرة متعدّدة ومتنوّعة، والسبب وراء ذلك هو أنّ الكبائر أيضاً على درجات ومراتب، إذ يطلق على بعضها «أكبر الكبائر»^(١).

التعاليم:

- ١ - الصفح، عن صفائر الذين لهم أصول فكرية وعملية صحيحة، أولى وأليق به تعالى، ﴿إِنْ جَحْتَنِوْا كَبَاۡرَ... نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّاَتِكُمْ﴾.
- ٢ - أجر من ينتهي عن كبائر المعاصي أن يكفر الله تعالى عنه الصغائر، ﴿إِنْ جَحْتَنِوْا كَبَاۡرَ... نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّاَتِكُمْ﴾.
- ٣ - لن ندخل الجنّة ما لم نتطهر من الكبائر والصغائر، ﴿نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّاَتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُّدْخَلًا كَرِيْمًا﴾.

﴿وَلَا تَسْمَنُوْا مَا فَضَّلَ اللّٰهُ بِهِۦ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوْا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَسَلُوْا اللّٰهَ مِنْ فَضْلِهِۦ ۚ إِنَّ اللّٰهَ كَانَ يَكُوْنُ عَلِيْمًا ۝٣٢﴾

إشارات:

- في الآيات السابقة نهي عن أكل المال الحرام، وهنا، تسبر هذه الآية جذور أكل الحرام وتعزوه إلى الجشع، والآمال العريضة، والتنافس على حطام الدنيا.
- العدل غير المساواة، فالعدل له مكانته وقيّمته أينما كان، بينما المساواة تكون ذات قيمة أحياناً، وظلماً في أحيانٍ أخرى. على سبيل المثال، إذا وصف الطبيب دواءً مشابهاً لكل مرضاء، أو أعطى المعلم نفس الدرجة والتقييم لجميع الطلاب، فإنّ ذلك يعتبر مساواة، ولكن، بكل تأكيد، ليس عدلاً، إذ إنّ العدل أن تعطي كلّاً بحسب استحقاقه وكفاءته، حتى وإن بدا لك ذلك تفاوتاً، فلا جرم أنّ التفاوت والتباين على أساس الجدارة والاستحقاق حقّ، فيما التمييز أمر باطل. فالتمييز هو مفاضلة أحدهم على الآخر دون وجه حقّ، واتباعاً لهوى في نفس الإنسان، في حين أنّ التفاوت هو المفاضلة على أساس المعايير

والأصول. لذا، ينبغي أن تكون العدالة مطمئنا، لا المساواة بين كل الأشياء وجميع الأشخاص. فنحن نلاحظ أنّ أعضاء الجسم وأجزاء الآلة تتفاوت من حيث الجنس، والشكل، والعمل؛ لكنّه بلا شك، تفاوت ينطوي على حكمة. فإذا كان الله قد ارتأى أن يخلق الخلائق في صور وأشكال مختلفة فذلك لحكمة ارتأها سبحانه وتعالى. وخلاصة القول، لا بدّ أن نرضى بقسم الله وتقديره ممّا لا يدخل في دائرة إرادتنا أو استطاعتنا مثل الجنسية، والجمال، والقابلية، والبيان، والذكاء، والعمر وغير ذلك. إنّنا ما دما نؤمن بحكمة الله وعدله، فينبغي ألاّ نتعجل بإصدار الأحكام الجاهلة من منطلق سوء الظنّ أو التوقعات غير الواقعية إذا ما عجزنا عن فهم الحكمة الإلهية وراء ظاهرة ما، أو أن نكنّ الحسد والبغضاء لمن أنعم الله عليهم، ذلك أنّ مسؤولية العبد تتعاضم وتكبر مع زيادة النعم، وعليه مع نزول كلّ نعمة أن يستعد لمصيبة فراقها. إنّها الحقيقة التي ينطق بها لسان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة.

□ يجب علينا في الحالات الاختيارية أن نشمّر عن سواعد الجدّ والاجتهاد ونطرد عنّا شعور التراخي والضعف لبلوغ حالة المنافسة الشريفة من أجل امتلاك عناصر القوة، والكثرة، والاستقلال، وألاّ نسمح للآخرين باستغلالنا أو استعمارنا، أمّا في الحالات الخارجة عن إرادتنا، فعليّنا أن نجعل من التمايزات والاختلافات دليل رشد، واختبار، وحركة، وتعاون، وتضامن، بين أفراد المجتمع، فلو كان الناس على قدر متساوٍ من الإمكانيات، والقابليات، والمواهب، لما وجد الإنسان مندوحة للارتقاء بخصال السخاء والشجاعة. فمعدن الإنسان يُصقل في منعرجات الحياة ومضائقها، وينصهر مع الآخرين بمقتضى احتياجاته ومتطلباته الحياتية.

□ سئل الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام عن تفسير هذه الآية فقال: «لا يتمنى الرجل امرأة الرجل ولا ابنته ولكن يتمنى مثلهما»^(١).

□ عن إسماعيل بن كثير رفع الحديث إلى النبي الكريم صلى الله عليه وآله قال: لمّا نزلت هذه

الآية ﴿وَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾، قال فقال أصحاب النبي: ما هذا الفضل أَيْكُمْ يسأل رسول الله ﷺ عن ذلك؟ قال: فقال علي بن أبي طالب عليه السلام: أنا أسأله عنه، فسأله عن ذلك الفضل ما هو؟ فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ خَلْقَهُ وَقَسَمَ لَهُمْ أَرْزَاقَهُمْ مِنْ حُلْهَا، وَعَرَضَ لَهُمْ بِالْحَرَامِ، فَمَنْ انْتَهَكَ حَرَاماً نَقَصَ لَهُ مِنَ الْحَلَالِ بِقَدَرِ مَا انْتَهَكَ مِنَ الْحَرَامِ وَحُوسِبَ بِهِ»^(١).

التعاليم:

- ١ - لنرضَ بقسم الله وتقديره، ولا يدفعنّا الحسد إلى تمنّي مواهب الآخرين، ﴿وَلَا تَنَّمَنُوا﴾.
- ٢ - في الإسلام، لا انفكاك بين القضايا الاقتصادية والأخلاقية، ﴿لَا تَأْكُلُوا... يَالبَطِلِ... وَلَا تَنَّمَنُوا﴾.
- ٣ - التمييزات الاستعمارية الزائفة والظالمة شيء، والمواهب الإلهية شيء آخر، ﴿فَضَّلَ اللَّهُ يَهُدَى بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾.
- ٤ - الفوارق بين الرجل والمرأة في الخلقة والطبيعة البيولوجية هي من أمثلة المواهب الإلهية في الخلق، ﴿فَضَّلَ اللَّهُ... لِلرِّجَالِ... وَلِلنِّسَاءِ﴾.
- ٥ - يملك كل من الرجل والمرأة ما أبدعته يده سواء بسواء، ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ... وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ﴾.
- ٦ - لنجد ونجتهد بدلاً من تمنّي ما في أيدي الآخرين، ﴿نَصِيبٌ وَمَا أَكْتَسَبُوا...﴾.
- ٧ - للإنسان نصيب مما اكتسب، ﴿وَمَا أَكْتَسَبُوا﴾؛ أما الباقي فهو من حصة الفقراء والدولة الإسلامية.
- ٨ - العمل والدعاء جنباً إلى جنب، ﴿أَكْتَسَبُوا... وَسْأَلُوا اللَّهَ﴾.
- ٩ - بدلاً من تمنّي مواهب الآخرين، لنسأل الله تعالى من فضله ولطفه، ﴿وَلَا تَنَّمَنُوا... وَسْأَلُوا اللَّهَ﴾.

١٠ - لنضع الخصال في مساراتها الصحيحة، والأمنية خصلة طبيعية في الإنسان، فلنضعها في مسار تمنّي نعم الله لا سلب نعم الآخرين، ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا... وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

١١ - ما يهب الله لعباده أو يسلبهم إياه فهو عن علم وحكمة، ﴿يَكُلُّ شَيْءٌ عِلْمًا﴾؛ (الإيمان بعلم الله هو الذي يردع الإنسان عن الدخول في دوائر الطمع والأمانى غير المشروعة).

﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلًى مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ (٣٣)

إشارات:

□ «الموالي» جمع «مولى» وتحمل معاني عدّة، لكنّ الآية الكريمة قصدت من الكلمة الورثة.

□ وعبارة ﴿عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ إشارة إلى عقد «ضمان الجريمة» (هكذا يعرف في المصادر الفقهية)، الذي كان يعقد بين شخصين وكان منتشرًا عند العرب قبل الإسلام وأقرّه الأخير بعد إدخال بعض التعديلات عليه، إذ كان الرجل في الجاهلية يعاقد الرجل فيقول له: دمي دمك، وهدمي هدمك، وترثني وأرثك، وتطلب بي وأطلب بك. (وهو أشبه بما يعرف الآن ببوليصة التأمين)، فإن وقع لأحدهما ضرر أو مكروه، دفع حليفه عنه ذلك الضرر بدفع الدية أو ما شاكل. ولما جاء الإسلام أقرّ هذا النوع من الأحلاف، ولكن اشترط أن لا يكون هناك رحم يحول بينهما فيصبح الإرث من نصيبه.

□ سئل الإمام أبو الحسن الرضا عليه السلام عن قوله ﷺ: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلًى مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ فقال: «إنما عنى بذلك الأئمة عليه السلام، عقد الله ﷻ إيمانكم»^(١).

التعاليم:

- ١ - تحديد أسهم الإرث يكون بأمر الله تعالى، ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي﴾.
- ٢ - الأقربون أولى بالإرث، ﴿وَالْأَقْرَبُونَ﴾.
- ٣ - يحق للإنسان في شروط معينة أن يخول ملكيته بموجب حلف أو عقد إلى شخص آخر، ﴿عَقَدْتَ أَيْتُنُكُمْ﴾.
- ٤ - التزامات الإنسان وتعهدهات التي أبرمها في حياته محترمة وناظرة بعد مماته، ﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْتُنُكُمْ فَكَاثُوهُمْ نَصِيْبُهُمْ﴾.
- ٥ - الوفاء بالعهد واجب، ﴿فَكَاثُوهُمْ نَصِيْبُهُمْ﴾.
- ٦ - يجب على المدين أن يذهب إلى الدائن لتسديد ما بذمته، ﴿فَكَاثُوهُمْ نَصِيْبُهُمْ﴾.
- ٧ - الإيمان بوجود الله سرّ التقوى وإنذار لمن يضرب بعهوده والتزاماته عرض الحائط، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾.

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَإِذَا فَضَّلْتُمْ إِلَى الْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّيْنُ وَالْحَنُوءُ فَشُورُهُمْ فَعُولُهُمْ وَأَنْفِقُوا فِي الْمَضَاجِعِ وَأَصْرِتُمْ أَنْتُمْ فَأَنْفِقُوا فَإِنْ أَطَعْتُمْ فَلَا بُغْيَاءَ عَلَيْكُمْ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾

إشارات:

- ﴿الْقَوْمُ﴾ بمعنى القائم على إصلاح الغير وتدبير شؤونهم.
- «النشوز» من «نشز» ما ارتفع من الأرض، والمرأة الناشز هي المترفعة على زوجها، التاركة أمره، المعرضة عنه.
- إن وظيفة القوام والرئاسة تقتضي التعهد بتأمين النفقات وتدبير المعيشة، ومن هذا الجانب، فإن الرجال ليسوا فقط أجدر من النساء في القيام بشؤون الأسرة، بل بالشؤون الاجتماعية، والقضاء، والحرب أيضاً، ﴿بِمَا فَضَّلَ

اللَّهُ... ﴿وَيْمًا أَنْفَقُوا﴾، لذا لم يقل سبحانه وتعالى «قوامون على أزواجهم»، لأنّ مسألة الزوجية خاصّة بالحياة الزوجية، والله لم يقصر هذه القوامة على البيت.

□ نعم، قد يوجد هناك بعض النسوة ممّن يتفوّقن على أزواجهنّ في النواحي الجسمية أو المالية، ولكن ذلك استثناء لا يعتدّ به؛ وتشريع القوانين يجري الأخذ بحسب الحالات العامة الشائعة لا النادرة الخاصة.

□ وردت لعبارة ﴿حَفِظْتُ لِلْفَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ معانٍ عدة هي:

أ - الزوجة التي تقوم بحفظ ما أمر الله بحفظه.

ب - الزوجة التي تحفظ حقوق زوجها كما حفظ الله حقوقها بما فرض لها على زوجها من واجبات.

ج - الزوجة حافظة بتوفيق الله وحفظه.

□ حينما تسدّ الطرق بوجه الحلول السلمية، يبرز خياران أمام الإنسان، إمّا أن يتخلّى عن مسؤوليته، وإمّا أن يلجأ إلى العنف في حال لم تنفع الموعظة والنصح والهجر. يقول علماء النفس إنّ بعض الأفراد يصاب بما يعرف بالمازوشية، وهي حالة من الشذوذ الجنسي يرتبط فيها الإشباع بتسليط العذاب والألم على النفس جسدياً ومعنوياً^(١). على أنّ الإسلام أوصى بأن يكون الضرب خفيفاً غير مبرّح، وألا يبلغ مرحلة السواد أو الجرح والكسر، هذا فضلاً عن أنّ الرجل المذنب أيضاً يتعرّض أحياناً للعقوبة الجسمية من قبل القاضي.

□ عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «اضربوهن إذا عصيكنم في المعروف، ضرباً غير مبرّح»^(٢).

(١) معجم مصطلحات علم النفس، عبد المجيد سالمى، نور الدين خالد، شريف بدوي، دار الكتاب المصري - دار الكتاب اللبناني، مادة المازوشية.

(٢) تفسير الطبري، ج ٥، ص ٦٨؛ الدرّ المثور، ج ٢، ص ٥٢٢.

□ يقول الإمام الصادق عليه السلام: «نشوز المرأة في الفراش هو إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت عليه، وقوله لَكَ ﴿وَأَضْرِبُوهُنَّ﴾، والضرب بالسواك وشبهه ضرباً رقيقاً»^(١).

التعاليم:

- ١ - في أي جماعة، حتى المؤلفة من شخصين لا بدّ من أن يتولّى أحدهما القيادة ويكون الثاني معاوناً له. الرجل هو مدير البيت والقائم بشؤونه، ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾.
- ٢ - يحتاج الإنسان لكي يدير شؤون حياته إلى تحكيم العقل والتدبير على العواطف والمشاعر، ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾.
- ٣ - يتناغم النظام التشريعي الإسلامي مع نظام الخلق والتكوين، فإناطة مسؤولية القوام والرئاسة بالرجل هي بسبب امتلاكه بنيةً جسمية وروحية خاصة، ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾.
- ٤ - المواهب الطبيعية هي من فضل الله ولطفه، ﴿يَمَّا فَضَلَ اللَّهُ﴾.
- ٥ - نفقات المعيشة هي مسؤولية الرجل، ﴿وَيِمَّا أَنْفَقُوا﴾.
- ٦ - لا بدّ للمشرع من أن يلحظ الفوارق البيولوجية بين الرجل والمرأة عند سنّ القوانين، ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ... يَمَّا فَضَلَ اللَّهُ﴾.
- ٧ - عنوان لياقة المرأة وصلاحتها، هو طاعتها وتواضعها لבעلها، ﴿قَنِينَتْ﴾.
- ٨ - المرأة اللائقة هي الحافظة لنفسها إذا ما غاب عنها زوجها، ﴿حَفِظَتْ لِلْغَيْبِ﴾.
- ٩ - للزوج على زوجته حقّ الطاعة وحفظ حقوقه شرط تأمين نفقتها، ﴿وَيِمَّا أَنْفَقُوا... فَأَصْلَحْتُ قَنِينْتُ حَفِظْتُ﴾.
- ١٠ - الوقاية خير من العلاج. على الزوج أن يتدارك أمر زوجته قبل أن تنشز، ﴿تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾.

١١ - لا حق للزوج في إيذاء زوجته المطيعة، ﴿فَإِنْ أُلْمَعَكُمْ فَلَا تَبْعُوا عَلَيْهِنَّ سُبُلًا﴾.

١٢ - اللجوء إلى المراحل الثلاث الموعظة، والهجر في المضاجع، والضرب، هو لأجل أن تعود الزوجة إلى الطاعة. أما إذا لبست الزوجة ثوب الطاعة من طريق آخر فلا حق للزوج عندئذ في تأديبها، عبارة ﴿فَإِنْ أُلْمَعَكُمْ﴾ دليل على أن الهدف هو طاعة الزوجة وإن حصل من طريق آخر.

١٣ - تواضع الزوجة ليس ضعفاً بل قيمة ورفعة، ﴿فَالصَّلَاحُ قَدْ نَلَيْتَ﴾.

١٤ - عنوان الزوجة الصالحة هو أن تحفظ السر، وتحفظ على زوجها ماله وفرجها حتى يرجع، ﴿فَالصَّلَاحُ... حَفِظْتُ لِلْغَيْبِ﴾.

١٥ - التصدي للمنكر يجب أن يكون بالتدرج خطوة فخطوة ومرحلة فآخرى، فيبدأ الرجل بالموعظة، ثم الهجر في المضاجع، وأخيراً الضرب، ﴿فَيَعْطُوهَا وَأَهْجُرُوهَا...﴾.

١٦ - ما دامت الموعظة تنفع، فلا يجوز اللجوء إلى الهجر والعنف، وما دام الهجر المؤقت ينفع فلا يجوز الضرب، ﴿فَيَعْطُوهَا وَأَهْجُرُوهَا... وَأَضْرِبُوهَا﴾.

١٧ - المعاملة القاسية والضرب إنما هي امتثال للواجب، لا بدافع الانتقام، والحق، واختراع الأسباب، ﴿فَإِنْ أُلْمَعَكُمْ فَلَا تَبْعُوا عَلَيْهِنَّ﴾.

١٨ - يجب أن لا يغتر الزوج بقوامته، لأن الله فوق كل شيء، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً﴾.

١٩ - إذا تأملنا قدرة الله وعلوه، كان ذلك مفتاحاً للتقوى واجتناب ظلم الزوجة، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً﴾.

﴿وَأَنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً﴾ (٣٥)

إشارات:

□ تناول مسألة حل الخلافات بين الزوج وزوجته والحيلولة دون تفاقم الأمر إلى

حدود الطلاق، وتقتصر لأجل ذلك تشكيل محكمة عائلية لإصلاح ذات البين على النحو التالي:

١ - انتداب حَكَمٍ من أسرة الرجل وآخر من أسرة الزوجة، لأنَّ رابطة القرابة تجعلهما أكثر حرصاً وشعوراً بالمسؤولية من الغرباء، وبالتالي تحدهما رغبة صادقة لإصلاح ذات البين.

٢ - محكمة الصلح العائلية هذه لا تحتاج إلى نفقات.

٣ - تكون مهمة المحكمة العائلية النظر في الاختلافات المطروحة على وجه السرعة ودون انتظار طويل أو مواجهة مشكلات العمل الإداري والروتين كما يحصل في المحاكم العامة.

٤ - لا تذيع هذه المحكمة أسرار الزوجين على الغرباء وبالتالي تُحلّ المشاكل في إطار عائلي.

٥ - ولما كان الحكمين من أقرباء الزوجين، فإنَّهما بالنتيجة موضع ثقة الطرفين.

□ وبغية حلّ المشكلات العالقة، فإنَّه يجوز للزوجين اختيار الحكم.

□ وروي أنَّ نافع بن الأزرق جاء إلى محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنه فجلس بين يديه يسأله عن مسائل في الحلال والحرام، فقال له أبو جعفر عليه السلام في عرض كلامه: «قل لهذه المارقة مما استحللتُم فراق أمير المؤمنين عليه السلام وقد سفكتُم دماءكم بين يديه في طاعته والقربة إلى الله تعالى بنصرتِه؟ فسيقولون لك: إنَّه حكم في دين الله، فقل لهم: حكم الله تعالى في شريعة نبيه بين رجلين من خلقه، فقال جل اسمه: ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾^(١).

□ كما سُئل الإمام الصادق عليه السلام عن الآية الكريمة ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ...﴾ فقال: «قال ليس للحكمين أن يفرقا حتى يستأمرَا»^(٢).

(١) تفسير نور الثقلين؛ الطبرسي، الاحتجاج، ج ٢، ص ٥٨.

(٢) الكافي، ج ٦، ص ١٤٦.

التعاليم:

- ١ - الوقاية خير من العلاج، فالخشية من التفريق والطلاق تكفي للمبادرة لانتداب الحكمين، ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾.
- ٢ - الأفضل عدم التدخل في الحياة الخاصة للناس ما لم نخش وقوع الشقاق، ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾.
- ٣ - الطلاق جدير بإثارة المخاوف والهواجس، ﴿خِفْتُمْ شِقَاقَ﴾.
- ٤ - الزوجان روح واحدة في جسدين. كلمة «شقاق» تستخدم في موضع يتم فيه تشطير الشيء إلى نصفين.
- ٥ - يجب الإسراع في إصلاح ذاتِ بَيْنِ الزوجين، الفاء في عبارة «فابعثوا» تدل على الإسراع في الأمر.
- ٦ - المجتمع يضطلع بمسؤولية تجاه حلّ الخلافات العائلية، ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ... فَابْعَثُوا﴾.
- ٧ - الأقارب يتحملون مسؤولية مضاعفة لحلّ الخلافات العائلية، ﴿مِّنْ أَهْلِيهِ... مِّنْ أَهْلِيهَا﴾.
- ٨ - للزوج والزوجة حقّ متساوٍ في اختيار الحكم، ﴿حَكَمًا مِّنْ أَهْلِيهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِيهَا﴾.
- ٩ - يجب على المجتمع أن يضع ثقته في بعض الأفراد وينتدبهم للتحكيم، ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا﴾.
- ١٠ - مشاكل الناس تحلّ بجهودهم هم، ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِيهِ﴾.
- ١١ - يجب عدم اليأس من إصلاح ذات البين، وأن نبذل سعيينا لتحقيق ذلك، ﴿فَابْعَثُوا﴾.
- ١٢ - لنسع ألاً نبالغ في قلقنا، حَكَمٌ واحد من كل طرف يكفي، ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِيهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِيهَا﴾.
- ١٣ - يهتم الإسلام بقضايا الشورى والتحكيم، ﴿حَكَمًا مِّنْ أَهْلِيهِ... أَهْلِيهَا﴾.

- ١٤ - الأفضل حلّ الخلافات عائلياً لا عند القاضي والمحاكم، ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ﴾.
- ١٥ - عندما يتعلق الأمر بالحقوق، ينبغي حضور الطرفين، ﴿حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾.
- ١٦ - على الزوجين القبول بكلّ ما يصدر عن الحكّمين. (مقتضى انتداب الحَكَم القبول بحكمه)
- ١٧ - يجب توافر عناصر الوعي، والحفاظ على السرّ، وإصلاح ذات البين، في الحُكَم، ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا﴾.
- ١٨ - توافر النوايا الحسنة ومقاصد الإصلاح يفتح الباب أمام التوفيق والسداد الإلهي، ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾.
- ١٩ - الله هو المتكفل بالقلوب، ﴿يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾.
- ٢٠ - لا ينبغي أن يغترّ الإنسان بعقله وتدبيره، بل عليه أن يعزو التوفيق إلى الله تعالى، ﴿يُوَفِّقِ اللَّهُ﴾.
- ٢١ - برنامج القرآن لإصلاح الأسرة نابع من العلم والحكمة الإلهيّة، ﴿عَلِيمًا حَيِيرًا﴾.
- ٢٢ - فلتصدق النوايا؛ لأنّ الله تعالى عليم بها، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَيِيرًا﴾.

﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْعًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾

إشارات:

□ تطرح الآية الكريمة سلسلة من الحقوق بدءاً بالحقوق الإلهيّة، ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ﴾، وانتهاءً بحقوق العبيد والإماء، ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾، وإن دلّ هذا على شيء فإنّما يدلّ على شموليّة الإسلام وجامعيّته.

□ ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْبُيُوتِ﴾، يعني الجار الذي بينك وبينه قرابة والجار البعيد، أو الذي يشترك معك في العقيدة والمخالف. هذا وقد جاء في الروايات أَنَّ حَدَّ الْجَوَارِ أَرْبَعُونَ دَارًا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، وَمِنْ خَلْفِهِ، وَعَنْ يَمِينِهِ، وَعَنْ شِمَالِهِ^(١)، وهذا يعني أَنَّهُ فِي الْمَنَاطِقِ الصَّغِيرَةِ يَكُونُ الْجَمِيعُ جِيرَانًا.

□ ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنَيبِ﴾، وهو الرفيق والصديق، وكلٌّ مِنْ رَافِقِ الْإِنْسَانِ حِينًا سِوَا أَكَانَ صَدِيقًا دَائِمًا أَمْ مُؤَقَّتًا، كَرَفِيقِ السَّفَرِ مَثَلًا، أَوْ الَّذِي يَقْصِدُ الْإِنْسَانُ رَجَاءَ نَفْعِهِ.

□ «ابْنُ السَّبِيلِ»، هو الذي ينقطع في السفر وربما كان متمكنًا في بلده لكننا لا نعرفه ولا نعرف أصله ونسبه، كل ما نعلم هو أَنَّ السَّبِيلَ قَدْ انْقَطَعَتْ بِهِ فِي السَّفَرِ وَأَنَّهُ بِحَاجَةٍ إِلَى الْمُسَاعَدَةِ وَالْعَوْنِ الْمَالِيِّ.

□ «الْمُخْتَالِ»، مِنْ مَادَّةِ «خِيَالٍ» وَالْمَقْصُودُ عِنْدَمَا يَرَى الشَّخْصُ نَفْسَهُ بِسَبَبِ بَعْضِ الْمُتَخَيَّلَاتِ عَظِيمًا وَكَبِيرًا، وَسَمِيَ الْخَيْلُ «خِيَالًا» لِأَنَّ مَشِيَّتَهُ تَشْبَهُ مَشْيَةَ الْمُتَكَبِّرِ^(٢).

□ تَوْصِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدَيْنِ وَيَشْمَلُ ذَلِكَ مَحَبَّتَهُمَا، وَخِدْمَتَهُمَا، وَتَقْدِيمَ الْعَوْنِ الْمَالِيِّ وَالْعِلْمِيِّ وَالْعَاطْفِيِّ لَهُمَا، وَالتَّشَاوُرَ مَعَهُمَا.

□ وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ الْإِحْسَانَ إِلَى الْوَالِدَيْنِ لَا يَشْتَرِطُ بِأَنْ يَكُونَا صَالِحِينَ، بَلِ الطَّاعَةُ الْمَطْلُوقَةُ مَا لَمْ يَأْمُرَا بِمَا يَخَالِفُ رِضَا اللَّهِ تَعَالَى.

□ وَعَنْ أَبِي بَصِيرٍ عَنِ الْإِمَامِ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَحَدَ الْوَالِدَيْنِ وَعَلِيٌّ الْآخَرُ، فَقُلْتُ: أَيْنَ مَوْضِعُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ؟ قَالَ: اقْرَأ: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾»^(٣).

(١) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ١٣١.

(٢) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٣، ص ١٣١.

(٣) تفسير العياشي، ج ١، ص ٢٤١.

التعاليم:

- ١ - عبادة الله وحدها لا تكفي، بل يجب معها اجتناب الشرك والرياء، ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ...﴾.
 - ٢ - ذكرت الآية الكريمة الإحسان إلى الوالدين إلى جانب عبادة الله وتوحيده، ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ ... وَإِلَىٰ الْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا؟﴾
 - ٣ - العابد الحقيقي لله هو من يجد نفسه مسؤولاً عن ذوي القربى والمحرومين والجيران، ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ... وَيَذَى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ﴾.
 - ٤ - للجار البعيد أيضاً حقوق على الإنسان، ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾.
 - ٥ - عند الإحسان إلى الآخرين يجب مراعاة الأولوية، فالوالدان أولاً ثم ذوو القربى فاليتامى.
 - ٦ - عدم الاهتمام بالوالدين، والأرحام، واليتامى، والمحرومين، في المجتمع مؤشر كبير وفخر، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾.
 - ٧ - يجب أن يقترن الإحسان بالتواضع. يوصي الله تعالى بالإحسان في بداية الآية الكريمة، ويختتمها بالنهي عن التكبر، ﴿لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾.
- ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾

إشارات:

- البخل نوعان، بخل بالمال وعدم إنفاقه على الآخرين وبخل بالعلم، والمقام، والقدرة، والإمكانات.

التعاليم:

- ١ - الأمراض النفسية للإنسان لها القابلية على الانتشار، فالبخيل يرغب في أن يحذو الآخرون حذوه، ﴿يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾.

- ٢ - البخل محروم من محبة الله، ﴿لَا يُحِبُّ... مُخْتَالًا... الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾.
- ٣ - البخل من علامات الكبر والفخر، ﴿مُخْتَالًا فَخُورًا... الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾.
- ٤ - إظهار النعم الإلهية نمط من الشكر، وإخفاؤها هو نوع من عدم الشكر والجحود، ﴿رَبِّكُم مَّا آتَاهُمُ اللَّهُ﴾.
- ٥ - البخل يتظاهر بالفقر ليتهرب من الإحسان، ﴿يَبْخُلُونَ... رَبِّكُم﴾.
- ٦ - النعم هي من فضل الله وليست ثمرة جهودنا وتدبيرنا، ﴿آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.
- ٧ - لو علم الإنسان بحق أَنَّ النعم من عند الله، ما بخل بها، ﴿آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.
- ٨ - يكون البخل، أحياناً، باباً إلى الكفر، ﴿يَبْخُلُونَ... لِلْكَافِرِينَ﴾، وفي آية أخرى يقول ﷺ: ﴿...وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ...﴾^(١).
- ٩ - جزاء الغرور والكبر في الدنيا، الخزي والمهانة في الآخرة، ﴿مُخْتَالًا فَخُورًا... مُهِينًا﴾.

﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنْ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ (٣٨)

إشارات:

□ أحياناً، يلقي الشيطان وساوسه من بعيد في نفس الإنسان، وأحياناً يصاحب الإنسان فيكون له قريناً. والمؤمن من هو يتجنب وساوسه وإغوائه، ولكن ما يستفاد من الآية ٣٦ من سورة الزخرف ﴿وَمَنْ يَقْسُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ هو أَنَّ من يعرض عن ذكر الله فَإِنَّ الله سيهيئ له شيطاناً لا يفارقه، ويكون له كظله.

التعاليم:

- ١ - البخل وترك الإنفاق، والإنفاق رثاء الناس كلاهما مذموم. فالآية السابقة تذم البخل، وهذه الآية تستقبح الرياء في الإنفاق ﴿يَبْخُلُونَ... يُنْفِقُونَ... رِثَاءَ النَّاسِ﴾.
- ٢ - سبب الرياء هو غياب الإيمان الحقيقي بالله ويوم القيامة، ﴿رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.
- ٣ - الغاية من الإنفاق ليس إشباع الجوعى فحسب؛ إذ يمكن تحقيق ذلك عبر مراعاة الناس أيضاً، بل الغاية هي الارتقاء بروحية المنفق، ﴿يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ﴾.
- ٤ - لا يحب الله المرأين، ﴿لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا... وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ﴾.
- ٥ - عندما يخلو القلب من الله يتحول مقراً دائماً للشيطان، ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ... يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا﴾.

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ (٣٩)

التعاليم:

- ١ - الرثاء لحال المنحرفين أحد طرق الإنذار والتبليغ، ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ...﴾.
- ٢ - من مقتضيات الإيمان بالله الإنفاق على المحرومين، ﴿ءَامَنُوا... وَأَنْفَقُوا﴾.
- ٣ - لا يقتصر الإنفاق على المال، بل إنه يستحب الإنفاق من كل ما أنعم الله به علينا، (العلم، المكانة، السمعة...)، ﴿مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾.
- ٤ - إذا علم الإنسان أنّ النعم والرزق من الله تعالى، فإنّ ذلك سيقوّي في نفسه روح السخاء، ﴿رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾.
- ٥ - فليعلم البخيل أو المرأى أنّه في عين الله العليم، ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُمْضِعْهَا
وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

إشارات:

□ في العادة ينبت الظلم في أرض الجهل أو الخوف، أو الفاقة، أو الجشع، أو غير ذلك، إلا أن الله الغني العليم منزّه عن كلّ ذلك، لذا، فحاشا له أن يُنسب إلى الظلم. ناهيك عن أنه ﷻ قد أمر بالعدل والإحسان، فكيف يستقيم ذلك مع الظلم؟ لقد ضاعف الثواب لعباده إلى عشرة أضعاف (من عشرة أضعاف إلى سبعمائة ضعف)، وهذا هو الإحسان واللفظ الإلهي.

التعاليم:

- ١ - الله تعالى عادل لا يظلم، وعقوبته لعبده إنما هي جزاء لما اقترفته يده، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ﴾.
- ٢ - العقوبات الإلهية على قدر المعاصي؛ لكنّه سبحانه عند الثواب يجزل العطاء لعباده أضعافاً مضاعفة، ﴿يُمْضِعْهَا﴾.
- ٣ - يضاعف الله تعالى الحسنات، ويزيد ذلك بأجرٍ عظيم من لدنه، ﴿مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾

إشارات:

□ لقد ورد نظير مضمون هذه الآية في مواضع أخرى من القرآن الكريم، وهي تدلّ على مسألة الشهود، وأن رسول الله ﷺ سيكون شاهداً على أمته في يوم القيامة^(١). وجاء في الروايات: أن النبي ﷺ قال لابن مسعود: «اقرأ القرآن

(١) سورة البقرة: الآية ١٤٣؛ سورة النحل: الآية ٨٩؛ سورة الحج، الآية الأخيرة.

علي، قال: فقلت يا رسول الله أنت الذي علمتني فقال: «أحب أن أسمع من غيري»، قال ابن مسعود: فافتتحت سورة النساء، فلما انتهيت إلى هذه الآية بكى الرسول ﷺ، قال ابن مسعود فأمسكت عن القراءة^(١).

□ من المعلوم أنّ الله تعالى في غنى عن الإتيان بشهود في يوم القيامة، إلا أنّ تربية الإنسان ونفسيته تستأنس بالشهود، إذ كلما كان حضورهم أكبر ترك ذلك أثراً بليغاً في تربيته وتقواه. فمثلاً، من يتحدّث في التلفزيون وعلى الهواء أمام الملايين من المشاهدين يكون أكثر تقيداً بالأصول، لأنّ حدوث أيّة غلطة أو عطسة مثلاً، سوف تسبّب له إحراجاً أكبر.

□ الشهود في يوم القيامة كثر، بحسب ما تؤكد ذلك آيات القرآن الكريم، ومن جملة هؤلاء الشهود:

١ - الله سبحانه وتعالى، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^(٢).

٢ - الأنبياء، ﴿جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾^(٣).

٣ - الأئمة المعصومين، ﴿جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾^(٤).

٤ - الملائكة، ﴿وَحَآتَ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾^(٥).

٥ - الأرض، ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾^(٦).

٦ - الزمان، ففي رواية عن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام نقراً: «ما من يوم يمرّ على بني آدم إلا قال له ذلك اليوم: أنا يومٌ جديد وأنا عليك لشهيد، فافعل فيّ خيراً، واعمل فيّ خيراً أشهد لك به يوم القيامة، فإنك لن تراني بعد هذا أبداً»^(٧).

(١) التفسير الكبير، الفخر الرازي؛ تفسير (٤) سورة البقرة: الآية ١٤٣.

(٥) سورة ق: الآية ٢١. المراغي.

(٢) سورة الحج: الآية ١٧. (٦) سورة الزلزلة: الآية ٤.

(٣) سورة النساء: الآية ٤١. (٧) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ١١٢.

٧ - أعضاء جسم الإنسان، ﴿تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ﴾^(١).

والقيامة، حيث يقوم فيها الشهود للشهادة، ﴿...وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾^(٢).

□ جرت سنة الله على أن يكون كل نبي شاهداً على أمته. بعد انتقال النبي الأعظم ﷺ إلى الرفيق الأعلى، كان لازماً أن يوجد شخص أقرب في صفاته إلى النبي يكون شاهداً على الناس. قال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام في قول الله ﷻ ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ قال: «نزلت في أمة محمد ﷺ خاصة، في كل قرن منهم إمام منا شاهدٌ عليهم ومحمد ﷺ شاهدٌ علينا»^(٣).

□ كما يُنقل عن الإمام علي عليه السلام بعد تلاوته هذه الآية الكريمة: «هو - محمد - شهيد على الشهداء والشهداء هم الرسل»^(٤).

التعاليم:

١ - الأنبياء أسوة الناس في الدنيا، والشهود عليهم في الآخرة، ﴿وَمِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدٌ﴾.

٢ - شرط الشهادة العلم، وعليه فإن الأنبياء مقلعون على أعمالنا، ﴿بِشَهِيدٍ﴾.

٣ - النبي ﷺ أشرف الأنبياء؛ لأن الأنبياء شهداء على أعمال أممهم، والنبي الكريم شاهد على أعمال الأنبياء، ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾.

﴿يَوْمَ يَدْعُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ

وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾

إشارات:

□ العاصون من الكفار يتنكرون، قبل قيام الشهود، لما ارتكبوا من معاصي

(٣) نور الثقلين، ج ١، ص ٣٩٩.

(١) سورة النور: الآية ٢٤.

(٤) تفسير البرهان؛ تفسير العياشي.

(٢) سورة غافر: الآية ٥١.

وفساد، لذا يفتشون عن سبل الفرار والخلاص، فيقولون: ﴿وَاللَّهُ رِيتَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾^(١). ولكن حين يعرض الشهود الحقائق على الملأ، فلا يبقى مجال لكتمانها والتستر عليها.

□ تعرض آيات القرآن أمانى العاصين وحسراتهم في يوم القيامة على هذا النحو:

﴿يَلْتَنِي كُتٌّ رُبَابًا﴾^(٢) ﴿يَلْتَنِي مِثُّ قَبَلِ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًا مَنْسِيًّا﴾^(٣) ﴿...يَلْتَنِي لَوْ أَخَذْتُ فَلَانًا خَلِيلًا﴾^(٤) ﴿يَلْتَنِي قَدَمْتُ لِيَلَاكِي﴾^(٥).

التعاليم:

١ - التمرد على أوامر الرسول الكريم ﷺ هو بمثابة الكفر بالله، ﴿كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ﴾.

٢ - يوم القيامة، يوم الحسرات والأمانى الضائعات، ﴿يَوَدُّ ... لَوْ كُنتَ سَوِيًّا﴾.

٣ - في يوم القيامة سيكشف الستار عن كل قول وفعل ولن تخفى خافية، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾^(٤٣)

إشارات:

□ نزل حكم تحريم شرب الخمر في صدر الإسلام على مراحل، ففي البداية، اعتبر الخمر شراباً مذموماً، ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا

(٤) سورة الفرقان: الآية ٢٨.

(٥) سورة الفجر: الآية ٢٤.

(١) سورة الأنعام: الآية ٢٣.

(٢) سورة النبا: الآية ٤٠.

(٣) سورة مريم: الآية ٢٣.

حَسَنًا^(١)، ثُمَّ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الَّتِي نَحْنُ بِصَدْدِهَا^(٢) وَالَّتِي تَنْهَى عَنْ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ فِي حَالَةِ السُّكْرِ، بَعْدَ ذَلِكَ بَيَّنَّتْ آيَةٌ أُخْرَى بِأَنَّ مَضَارَّ الْخَمْرِ أَكْثَرُ مِنْ مَنَافِعِهِ، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا^(٣)﴾، وَأَخِيرًا نَزَلَ حُكْمُ تَحْرِيمِ شَرْبِ الْخَمْرِ بِاعْتِبَارِهِ نَجَسًا وَمِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ... مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ^(٤)﴾.

□ هذا، وَقَدْ نَهَتْ الرِّوَايَاتُ الْمُؤْمِنُ عَنِ الْقِيَامِ إِلَى الصَّلَاةِ مُتَكَاسِلًا، أَوْ مُتَنَاعِسًا، أَوْ مُتَاقِلًا^(٥).

□ كَمَا أَشَارَتْ بَعْضُ الْآيَاتِ إِلَى أَنَّ الْقِيَامَ إِلَى الصَّلَاةِ فِي حَالَةِ الْكُسْلِ وَعَدَمِ الرُّعْيِ الْكَامِلِ هُوَ مِنْ خِصَالِ النِّفَاقِ^(٦).

□ «الْغَائِطُ» هُوَ الْوَادِي أَوْ الْمُنْخَفِضُ مِنَ الْأَرْضِ، ذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ فِي تِلْكَ الْعُصُورِ كَانَ يَلْتَمِسُ مَكَانًا مُنْخَفِضًا لِقَضَاءِ حَاجَتِهِ لِيَكُونَ فِي سِتْرٍ عَنْ أَعْيُنِ النَّازِلِينَ، لِذَا فَالْغَائِطُ كُنَايَةٌ عَنْ قَضَاءِ الْحَاجَةِ.

□ يَقُولُ الْإِمَامُ الصَّادِقُ عليه السلام: «(الصَّعِيدُ) الْأَرْضُ الْمُرْتَفَعَةُ الَّتِي يَنْحَدِرُ مِنْهَا الْمَاءُ»^(٧).

□ وَسُئِلَ عليه السلام أَيْضًا عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تعالى: ﴿أَوْ لَعَسَئِمُ الْنِّسَاءِ^(٨)﴾ فَقَالَ: «هُوَ الْجَمَاعُ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَتِيرٌ يَحِبُّ السِّرَّ فَلَمْ يُسَمِّ كَمَا تَسْمُونَ»^(٩).

التعاليم:

١ - مَنْزِلَةُ الصَّلَاةِ مِنَ الرَّفْعَةِ بِحَيْثُ لَا يَجُوزُ لِشَارِبِ الْخَمْرِ أَنْ يَقْرِبَهَا، ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى^(١٠)﴾.

(٦) سورة النساء: الآية ١٤٢؛ سورة التوبة: الآية ٥٤.

(٧) بحار الأنوار، ج ٧٦، ص ٣٤٧.

(٨) وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ١٣٣.

(١) سورة النحل: الآية ٦٧.

(٢) تفسير المياشي.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢١٩.

(٤) سورة المائدة: الآية ٩٠.

(٥) الكافي، ج ٣، ص ٣٧١.

- ٢ - ليست الصلاة مجرد التفوه بالأذكار وأداء حركات الركوع والسجود، بل لا بد من الخشوع واستنفار المشاعر والحواس، ﴿حَتَّى تَقْلَمُوا﴾.
- ٣ - لا قيمة تُذكر لعبادة من دون وعي أو خشوع، وإن أدت إلى سقوط التكليف، ﴿حَتَّى تَقْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾.
- ٤ - لا يجوز للمسلم دخول المسجد وهو جُنُب، ﴿وَلَا جُنُبًا...﴾.
- ٥ - لا بد للغسل من أن يشمل جميع أعضاء الجسم، فالآية الكريمة لم تذكر عضواً محدداً، ﴿تَغْتَسِلُوا﴾.
- ٦ - احتمال حدوث الخطر أو الضرر يرفع التكليف عن الإنسان أو يخففه، ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضَى... فَتَيْمَّمُوا﴾.
- ٧ - يجب التزام أصول الأدب في التعبير والكلام، (فعبارة ﴿جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَبَسَ مِنْ الِئْسَاءِ﴾ كناية عن الجماع)^(١).
- ٨ - يوجد تخفيف في أحكام الله لا تعطيل. فإذا لم يحضر الماء وجب التيمم، ﴿فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيْمَّمُوا﴾.
- ٩ - الطهارة هي شرط العلاقة بالله عن طريق الصلاة؛ والطهارة يتم من خلال الوضوء والتيمم، ﴿فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيْمَّمُوا﴾.
- ١٠ - تخفيف الأحكام مظهر من مظاهر الرحمة والمغفرة الإلهية، ﴿فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيْمَّمُوا... عَفْوَ غُفُورًا﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشَرُّونَ الصَّلَاةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تُلْغَوْا السُّبُلَ﴾^(١١)

التعاليم:

- ١ - العلم بالكتاب لا يكفي لتحقيق الهداية، ﴿أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشَرُّونَ الصَّلَاةَ﴾.

- ٢ - إحاطة علماء أهل الكتاب بالتحاليم الإلهية ناقصة، وهذا النقص يؤدي إلى الانحراف، ﴿نَمِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشَرُّونَ الصَّلَاةَ﴾.
- ٣ - العلماء المنحرفون يستغلون علمهم ومقامهم كشرك لحرف الآخرين وإضلالهم، ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ (٤٥)

التعاليم:

- ١ - إننا قد نخطئ في تشخيص أعدائنا، لكن الله أعلم بأعدائنا الحقيقيين، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾.
- ٢ - في ظلّ الوعود الإلهية المبنية على ولاية المؤمنين ونصرتهم، لا ينبغي أن نخشى المؤامرات والعداوات، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾.
- ٣ - يجب استتباع الولاية بالقدرة والنصرة، ﴿وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾.

﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مَسْمُوعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَّنَبْنُ اللَّهَ يُكَفِّرُهُمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٤٦)

إشارات:

- تعبير ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ هو كمن يقول على سبيل الاستهزاء والسخرية: سمعنا قولك وعصينا أمرك، أو كما يقال: «منك القول ومنا عدم الطاعة».
- كان المسلمون يقولون لرسول الله ﷺ ﴿رَاعِنَا﴾^(١) أي تفقدنا وأمهلنا وكانوا صادقين في قولهم، أما اليهود فاستغلوا الكلمة لتحريفها عن معناها إلى معنى

(١) إذا اشتقت «راعنا» من مادة «الرحي» تكون بمعنى فعل الطلب من المراجعة والمراقبة، وبمعنى أمهلنا، أما إذا اشتقت من «الرعونة» أي «راعنا» بتشديد النون فتعني «أخذنا واجعلنا حمقى» يقولون ذلك على سبيل الاستهزاء والسب.

قبيح قصداً للاستهزاء بالنبي والإساءة إليه. فكانوا يلجأون إلى تشديد النون «راعنا» والتي تعني أنّ النبي الكريم ﷺ كان - والعياذ بالله - يمارس خداع الناس واستغلال سذاجتهم. فاليهود بليهم ألسنتهم وتحريف الكلمات وتغييرها، إنّما يريدون احتقار المسلمين والاستهزاء بالنبي الأكرم.

التعاليم:

- ١ - يجب أن لا يتحمل الآخرون وزر بعض العاصين، ﴿مِنَ الَّذِينَ...﴾.
 - ٢ - تحريف معاني بعض الكلمات والعادات، من المعاصي الأساس الممهدة لغيرها من المعاصي والتي تسبّب في إضعاف الدين، ﴿لَيَّا بِأَلْسِنِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ﴾.
 - ٣ - الإساءة إلى المقدّسات وانتهاك الحرمات هو سلاح الكفار على الدوام، ﴿وَأَمْتَعَ غَيْرَ مُسْمَحٍ﴾.
 - ٤ - التصديق بدعوة الأنبياء، مدعاة للصالح والثبات، ﴿خَيْرًا لَّكُمْ وَأَقْوَمَ﴾.
 - ٥ - مصير الإنسان هو جني عمله وخياره الشخصي، ﴿لَقَعْنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾.
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَلْكَتُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْغَسَ وَجُوهَهَا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ تَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾

إشارات:

□ لعل المقصود بـ ﴿أَن نَّطْغَسَ وَجُوهَهَا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾ هو حرف الفؤاد والفترة السليمة، والعقل، والذهن، عن التماس طريق السعادة، فإنك ترى الإنسان، بسبب اللجاج والعناد إزاء آيات الله، يتقدّم خطوة ويتأخّر خطوتين، أو قد يكون المقصود أنّ الله تعالى يمسح وجوههم الإنسانية على غير خلقها ويمحو صورهم، أو يجعل وجوههم من قبل أقيمتهم فيمشون القهقري، أو يمسح صورهم في يوم القيامة.

□ أصحاب السبت، هم جماعة من اليهود عصوا أمر ربهم القاضي بتحريم صيد

السّمك في أيام السبت، فلجأوا إلى حيلة مأكرة وهي حبس الأسماك في يوم السبت، ثمّ اصطيدوها في يوم الأحد، وقد باؤوا بغضب الله من وسخطه، فمسخهم قردة^(١).

التعاليم:

- ١ - يدعو الإسلام أتباع الأديان الأخرى إلى الإيمان بدين الله، ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا﴾.
- ٢ - الخطاب الإلهي موجّه بصورة خاصّة إلى النخب العلمية والواعية في المجتمع إذ يتحمّلون مسؤولية أكبر، ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا﴾.
- ٣ - حبّذا لو ينطوي أسلوب الدعوة والتبليغ على احترام العقائد والمشاركات الحقّة للآخرين، ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾.
- ٤ - رسالات جميع الأنبياء منسجمة في خطوطها العامة، ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾.
- ٥ - يجب رفع عصا الوعيد بوجه الأشخاص المعاندين، ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ﴾.
- ٦ - لكي يكون التهديد مؤثراً، من الأفضل التنبيه إلى أمثلة موضوعية وعملية، ﴿كَمَا لَعَنَّاهُ أَصْحَبَ السَّبْتِ﴾.
- ٧ - السخط على المعاندين اللجوجين سنة إلهية، ﴿كَمَا لَعَنَّاهُ أَصْحَبَ السَّبْتِ﴾.
- ٨ - أمر الله تعالى نافذ وواقع لا محالة، ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ

بِاللَّهِ فَقَدْ أَفْرَأَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (٤٨)

إشارات:

□ لقد ذكر القرآن الكريم موضوع الشّرك مئات المرات، وحمل بشدّة على أيّ توجّه لغير الله تحت أيّ عنوان أو ذريعة كانت (عبادة الأوثان، الرياء،

الاتجاهات غير الإلهية، المادية، وغيرها). وبالنسبة إلى هذه الآية الكريمة، فقد تكرّرت بالمضمون نفسه والألفاظ نفسها في الآية ١١٦ من السورة نفسها، ولا شك أنّ في التكرار هداية.

□ لما كان الشرك خروجاً عن دائرة الحقّ، والانقطاع عن الله، والالتحاق بالآخرين، فإنّ هذا الذنب لا يُغفر بدون الرجوع والتوبة، فإذا تحوّل المشرك عن شركه وكانت توبته حقيقية، فحينئذٍ حقّ على الله تعالى أن يغفر له ويتوب عليه. يقول ﷺ في الآية ٥٤ من سورة الزمر: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْتَفْهَوْا عَلَيَّ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

□ ما دام لا أحد يعرف من سيشمله الله تعالى برحمته وحكمته، فلا مجال للغرور والجرأة على ارتكاب المعصية.

□ طرق العفو والمغفرة الإلهية عديدة هي: ١ - التوبة، ٢ - القيام بالأعمال الصالحة، ٣ - اجتناب الكبائر، ٤ - الشفاعة، ٥ - العفو الإلهي الذي يشمل الأشخاص اللاتقيين له.

□ عن سليمان بن خالد عن الإمام الصادق ﷺ قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ الكبائر فما سواها، قال، قلت: دخلت الكبائر في الاستثناء، قال: نعم^(١).

التعاليم:

١ - الشرك أقبح المعاصي، وحجاب دون المغفرة والصفح الإلهي، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾.

٢ - غفران المعاصي رهن بإرادة الله الحكيمة، ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

٣ - الشرك زعم بلا برهان، وفرية كبرى، ﴿فَقَدْ أَفْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيماً﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزْكِي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (٤٩)

إشارات:

□ يحمل القرآن الكريم في هذه الآية على صفة ذميمة وهي أن يمتدح الإنسان ذاته، ويزكيها، ويدعي الفضل والامتياز والتفوق لها. وفي موضع آخر يقول ﷺ: ﴿لَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ (١). يقول الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام في حديثه إلى «همام» يذكر فيه صفات المتقين: «لَا يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ وَلَا يَسْتَكْبِرُونَ الْكَثِيرَ فَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ مُتَّهَمُونَ وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ إِذَا رُكِّي أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا يَقَالُ لَهُ فَيَقُولُ أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي وَرَبِّي أَعْلَمُ بِي مِنِّي بِنَفْسِي اللَّهُمَّ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ وَاجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ وَاغْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُونَ» (٢).

التعاليم:

- ١ - امتداح الذات النابع من الغرور والشعور بالتفوق مذموم، ﴿يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾.
- ٢ - التزكية القيمة هي المستندة إلى الأحكام الإلهية لا الإرشادات البشرية، ﴿بِاللَّهِ يَزْكِي مَنْ يَشَاءُ﴾.
- ٣ - العقوبة الإلهية مردّها قبائح الإنسان، فالله لا يظلم أحداً، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَقَرُّونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِمْ إِثْمًا مُبِينًا﴾ (٥٠)

إشارات:

□ إن الشعور بالتفوق والاستعلاء لدى اليهود - إذ يعتبرون أنفسهم العنصر البشري الأرقى وأنهم أبناء الله وأحباؤه - هو نوع من الكذب وافتراء عظيم على الله،

(١) سورة النجم: الآية ٣٢.

(٢) نهج البلاغة، خطبة المتقين.

ذلك أنه ﷺ لم يتخذ أحداً ولدأ له، فجميع عبادِه سواسية عنده، ولا فضل إلا بالإيمان والتقوى.

□ يشمل الافتراء، مضافاً إلى الكذب، الاتهام، والأذى، والظلم، وانتهاك الكرامة، والافتراء على الله مبطل للصوم.

□ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - جَعَلَ لِلشَّرِّ أَفْقَالاً، وَجَعَلَ مَفَاتِيحَ تِلْكَ الْأَفْقَالِ الشَّرَابَ، وَالْكَذِبُ شَرٌّ مِنَ الشَّرَابِ»^(١). ومعلوم أن الافتراء أعظم من الكذب.

التعاليم:

١ - النبي مكلف بالكشف عن أعمال أهل الكتاب وعقائدهم وتقييمها، ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْرَءُونَ...﴾.

٢ - تزكية النفس بغير حق، وادعاء الاصطفاء من الله والقرب إليه، افتراء على الله وحاجب دون الاعتلاء. «الإثم» في البلغة يطلق على الأفعال المبטئة للشواب والصلاح، ﴿وَكُنْ يَدِهِ إِثْمًا تُبَيِّنُ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾^(٥١)

إشارات:

□ قيل في سبب نزول هذه الآية: إنه بعد معركة أحد توجه أحد أقطاب اليهود وهو «كعب بن الأشرف» مع سبعين شخصاً من اليهود إلى مكة للتحالف مع مشركي مكة ضد رسول الله ﷺ والمسلمين ونقض ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من الحلف. فنزل كعب على أبي سفيان فأحسن مثواه ونزلت اليهود في دور قريش فقال أهل مكة: إنكم أهل كتاب ومحمد صاحب كتاب، فلا نأمن أن يكون هذا مكرأ منكم، فإن أردت أن نخرج معك فاسجد لهذين

الصنمين (وأشاروا إليها) وآمن بهما، ففعل. ثم اقترح كعب بن الأشرف على أهل مكة قائلاً: يا أهل مكة ليحيى منكم ثلاثون ومئاً ثلاثون فنلصق أكبادنا بالكعبة، فنعاهد ربّ هذا البيت لنجهدّ على قتال محمّد، ففعلوا ذلك. فلمّا فرغوا قال أبو سفيان لكعب: إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم، ونحن أميون لا نعلم، فأتينا أهدى طريقاً وأقرب إلى الحقّ، نحن أم محمّد؟ قال كعب: اعرضوا عليّ دينكم، فقال أبو سفيان: نحن ننحر للحجيج الكوماء (وهي الناقة العظيمة السنام)، ونسقيهم الماء، ونقري الضيف، ونفك العاني، ونصل الرحم، ونعمر بيت ربّنا، ونطوف به، ونحن أهل الحرم، ومحمّد فارق دين آبائه، وقاطع الرحم، وفارق الحرم، وديننا القديم، ودين محمّد الحديث. فقال كعب: أنتم والله أهدى سبيلاً ممّا عليه محمّد. فأنزل الله تعالى هذه الآيات إجابة لهم وردّاً عليهم^(١).

□ يقال لكل ما عبد من دون الله: جبتاً، وسَمّي الساحر والكاهن جبتاً^(٢). وهذه المرة الوحيدة التي وردت فيها الكلمة في القرآن الكريم. أمّا لفظة «الطاغوت» فهي صيغة مبالغة من مادة «الطغيان» والتي تعني التعديّ وتجاوز الحدّ، والطاغوت عبارة عن كل معتد، وكل معبود من دون الله، ويستعمل في الواحد والجمع، ولهذا سَمّي الساحر، والكاهن، والمارد من الجن، والصارف عن طريق الخير، طاغوتاً. وقد وردت في ثمانية مواضع في الكتاب. وربّما كان المقصود بالجبت والطاغوت الصنمين اللذين سجد لهما اليهود، أو أنّ الجبت هو اسم الصنم، والطاغوت عبدة الأصنام والمدافعون عن هذه العبادة.

التعاليم:

١ - العلم الناقص بالدين يفضي إلى الانحراف، ﴿نَمِيْبًا مِّنَ الْكُتُبِ﴾.

(١) تفسير نمونه، ج ٣، ص ٤١٧.

(٢) «الجبت» ليس من محض العربية؛ وقيل: إنّ أصلها كان «جيس» والجيس هو الفسل، أي الرذل والنذل الذي لا مروءة له، ولا خير فيه وقيل: التاء بدلاً من السين تنبيهاً على مبالغته في الفسولة. (بالاقتباس من مفردات القرآن الكريم للراغب الأصفهاني).

٢ - الأعداء مستعدون للتخلي حتى عن معتقداتهم في سبيل محاربة الإسلام.
(سجود اليهود للصنم كان إرضاءً للمشركين وعداءً للمسلمين، ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾.

٣ - روح اللجاج والعناد تسلب المرء القدرة على الحكم السليم، ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ... هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ﴾.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن نَّجِدَ لَهُ نَصِيرًا ٥٢﴾

التعاليم:

- ١ - كل اتحاد ضد الحق ملعون، ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾.
- ٢ - الحلف المشؤوم للأعداء ضد الحق لن يحقق أهدافه أبداً، ولن يفيد في شيء في مقابل الإرادة الإلهية، ﴿فَلَن نَّجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾.
- ٣ - من ينبذه الله محكوم عليه بالخسران والهزيمة أبداً، ﴿وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن نَّجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾.

﴿أَمْ لَمْ نَصِيبْ مِنَ الْمَلَكِ فَإِذَا لَا يُؤْمِنُونَ النَّاسَ نَصِيرًا ٥٣﴾

إشارات:

□ «النقير» ما في شق ظهر نواة التمر، ومنه تنبت النخلة وهي مشتقة من «نقر» وهو الدق في شيء بحيث يوجد فيه ثقباً واشتق منه المنقار، وقيل: النقير وقبة صغيرة جداً في ظهر النواة ويضرب به المثل في الشيء الطفيف^(١)، أو ما يلتقطه الطائر بمنقاره، والمقصود به المبالغة في الحقارة.

□ سئل الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿نَصِيبٌ مِّنَ الْمَلَكِ﴾ فكان جوابه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾، يقولون لأئمة الضلالة والدعاة إلى النار: ﴿هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ﴾ من آل محمد ﴿سَبِيلًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾

(١) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل، ذيل الآية.

وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهَ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ نَصِيرًا أَمْ هُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمَلَكِ ﴿١﴾ قال: يعني الإمامة والخلافة ﴿فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَصِيرًا﴾ نحن الناس الذين عنى الله والنكير النقطة التي في وسط النواة^(١). والمعنى، أن أناساً إذا ما قِيضَ لهم أن يحكموا، فلن يمكنوا أهل بيت النبي ﷺ مقدار النقطة التي في وسط النواة.

□ ورد في تفسير مجمع البيان أن اليهود اشتهروا بخصلة الاستئثار لدرجة أنهم لو مكنوا في الأرض فلن يعطوا الآخرين شيئاً، وهو ما يتفق مع روح البخل وضيق الأفق التي يتصف بها هؤلاء القوم.

التعاليم:

- ١ - لا تهتمكم الآراء المغرضة للآخرين في دينكم، ﴿أَمْ هُمْ نَصِيبٌ﴾.
- ٢ - الحكومة السرمدية لله وحده، أما الأفراد والجماعات فلهم أن يقضوا وطهرهم من الحكومة لأيام قليلة، ﴿نَصِيبٌ مِّنَ الْمَلَكِ﴾.
- ٣ - انتبهوا إلى أعدائكم، لأنهم إذا استلموا زمام الأمور، فسيجاهلونكم تماماً، ﴿لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ...﴾.
- ٤ - من استلم مقاليد السلطة عليه أن يهتم بمعاش الناس ورفاهيتهم، ﴿نَصِيبٌ مِّنَ الْمَلَكِ... لَا يَأْتُونَ﴾.

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾

إشارات:

□ أشارت الآية السابقة إلى بخل اليهود، وهنا تتناول الآية صفة أخرى لهؤلاء القوم وهي الحسد، ولا غرو أن الحسد أبغض من البخل. ففي البخل، يمتنع البخيل عن بذل ماله، أما الحسود، فهو يتزعج لبذل غيره ماله. لقد كان اليهود في الماضي موضع لطف الله وكرمه إذ أغدق عليهم

المواهب والنعم، فلماذا يستشيطنون غضباً ويحسدون الآخرين إذا ما أناط الله بهم القدرة والنعمة؟ ولكن لماذا ينعم آل إبراهيم بالمقام الإلهي والملك إلى الأبد، ويُحرم آل محمد وبنو هاشم؟

وقد ورد في الروايات عن أهل البيت عليهم السلام قولهم في المحسودين في هذه الآية: «نحن المحسودون»^(١).

□ يقول أحد الأصحاب، سألت الإمام الصادق عليه السلام عن قول الله تعالى: «فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ» فقال: النبوة، قلتُ: «وَالْحِكْمَةَ» قال: الفهم والقضاء، قلتُ: «وَأَتَيْنَهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا» فقال: الطاعة»^(٢).

ويقول الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام في تفسير قوله تعالى: «مُلْكًا عَظِيمًا»: «الملك العظيم أن جعل فيهم أئمة من أطاعهم أطاع الله ومن عصاهم عصى الله فهو الملك العظيم»^(٣).

كما نُقل عن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام قوله: «نحن آل إبراهيم»^(٤).

التعاليم:

- ١ - الحسود يقف ضد إرادة الله تعالى، «يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ».
- ٢ - فضل الله مصدر جميع النعم والمواهب، «مِنْ فَضْلِهِ»، بدلاً من تمنّي زوال نعمة الآخرين، ادعوا الله أن يرزقكم من فضله.
- ٣ - توافق أهواء أهل الكتاب والمشرّكين، والحكم بأنّ شرك المشرّكين أفضل من توحيد المسلمين منشؤه الحسد. قرأنا في الآيات السابقة أنّ اليهود قالوا للمشرّكين: «هَؤُلَاءِ أَهْدَى»، وفي هذه الآية نقراً: «أَمْ يَحْسُدُونَ».
- ٤ - إنّهُ سبحانه وتعالى مصدر جميع الألفاف، (تكرّر ذكر كلمة «آتَيْنَا» ثلاث مرات).

٥ - يجب أن يناط الحكم الإلهي بمن كانت له منزلة علمية وروحية قبل الحكم، وكان يحظى بالحكمة. لاحظ أنّ «الْكِتَابَ» جاء قبل «الحكمة» و«الملك»

(٣) المصدر نفسه.

(١) الكافي، ج ١، ص ١٨٦.

(٤) بحار الأنوار، ج ٢٨، ص ٢٧٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٠٦.

العظيم». (نعم، إِنَّ النعم المعنوية لها الأولوية على النعم المادية)، ﴿وَأَتَيْنَا...
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾.

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا
سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَمَا يُفْضَتُ جُلُودُهُمْ بَدَلَتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ
إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَنِيًّا حَكِيمًا ٥٦﴾

إشارات:

□ تبديل الجلود الناضجة في كل لحظة بجلود جديدة هو جزاء ما أبدوا من لجاج وعناد. ورد في تفسير الصافي: «إِنَّ أَبِي العوجاء، أحد المنكرين للدين في عصر الأئمة، سأل الإمام جعفر الصادق عليه السلام بعد تلاوة هذه الآية: «وما ذنب الغير؟ يعني ما ذنب الجلود الجديدة، فردَّ الإمام عليه السلام على السؤال قائلاً: «هي هي وهي غيرها»؛ يعني أَنَّ الجلود الجديدة هي الجلود السابقة نفسها في حين أَنَّها غيرها. فقال ابن أبي العوجاء الذي كان يعلم أَنَّ في هذه العبارة القصيرة سرّاً: مثل لي في ذلك شيئاً من أمر الدنيا. فقال الإمام عليه السلام: «أرأيت لو أَنَّ رجلاً أخذ لبنة فكسرها، ثم ردها في ملبنها، فهي هي، وهي غيرها»^(١).

التعاليم:

- ١ - عذاب الكافرين خالد ودائم، ﴿بَدَلَتْهُمْ جُلُودًا﴾.
- ٢ - الجلود الجديدة إمعانٌ في العذاب وزيادة في الإيذاء، (لأنَّه عند الصلي تكون الجلود أكثر مناطق الجسم شعوراً بالألم والعذاب، وإذا وصلت النار إلى العظام، سيخفت الألم حيثئذ)، ﴿بَدَلَتْهُمْ جُلُودًا﴾.
- ٣ - المعاد هو معاد جسماني، ﴿بَدَلَتْهُمْ جُلُودًا﴾.
- ٤ - لا يعتاد الكافر أبداً على العذاب بسبب استمراره، ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾.
- ٥ - خلود العذاب بالنسبة إلى الكفار من شؤون الحكمة الإلهية، وما من قوة قادرة على وقف غضب الله في نار جهنم، ﴿غَزِيرًا حَكِيمًا﴾.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا
لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا ظِلَالٌ ۖ لَبَّيْكَ ۝٥٧﴾

إشارات:

- الأسلوب التربوي يقتضي اتباع مبدأي الخوف والرجاء معاً. الآية السابقة استخدمت أسلوب الخوف، وهنا تتناول الآية أسلوب الرجاء.
- «الظليل»، الكثيف والدائم الممتد الذي لا يزول، واشتقاق الصفة من لفظ الموصوف للمبالغة.
- سئل الإمام الصادق عليه السلام ﴿أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ فقال: «من الأدناس التي تكون في نساء الدنيا من حيض وحدث»^(١).

التعاليم:

- ١ - الإيمان والعمل الصالح شرطان يجب توافرهما للدخول إلى الجنة، ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ﴾.
 - ٢ - لطف الله سبق غضبه. (وردت كلمة «سوف» في الآية السابقة وهي في العربية تستخدم للمستقبل البعيد، فيما تستخدم «السين» للمستقبل القريب).
 - ٣ - طهارة نساء الجنة جسمية وروحية، ﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ تطلق على التي تطهر جسمها وروحها من كل دنس).
- ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٥٨﴾

إشارات:

- الأمانة والعدل واجتناب التمييز من العلائم المهمة للإيمان. كما إن خيانة الأمانة علامة على النفاق. وفي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «لا

تنظروا إلى طول ركوع الرجل وسجوده، فإن ذلك شيء اعتاده، فلو تركه استوحش، لذلك، ولكن انظروا إلى صدق حديثه وأداء أمانته^(١).

□ وقد ذكرت روايات عدة أنّ مراد الآية الكريمة من الأمانة هم الأئمة من آل محمد ﷺ أن يؤدي الإمام الأمانة إلى من بعده ولا يخص بها غيره ولا يزويها عنه^(٢). وهذا هو المصداق الأبرز للعمل بهذه الآية.

نعم، إنّ مفتاح السعادة في المجتمع هو أن يمسك بزمام الأمور أشخاص مؤهلون جديرون بتحمّل المسؤولية، وأن يسوسوا الناس بالعدل، لأن التاريخ قد أثبت أنّ منشأ القلاقل الاجتماعية هو أن يتبوأ المنحرفون وغير الأكفاء المناصب والمسؤوليات، وكذلك الأحكام الظالمة والجائرة. يقول الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «من تقدّم على قوم من المسلمين وهو يرى فيهم من هو أفضل، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين»^(٣).

□ يمكن القول إنّ: خيانة الأمانات تشمل كتمان العلم، والصناعة، والحقائق، والاستيلاء على أموال الناس بغير الحق، وطاعة حكام الجور، واختيار الزوجة غير الصالحة، أو اختيار المعلم غير الكفء للأبناء وغير ذلك.

□ وقيل في معنى هذه الآية نقلاً عن الإمام الباقر عليه السلام: «أحدها أنّها في كلّ من أوّتمن أمانة من الأمانات، أمانات الله تعالى أوامره ونواهيه»^(٤).

□ كما سئل الإمام الصادق عليه السلام عن قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا» فقال: «أمر الله الإمام الأول أن يدفع إلى الإمام الذي بعده كلّ شيء عنده»^(٥).

□ ولا بدّ من القول إنّ الأمانة على ثلاثة أوجه:

أ - بين العبد وربّه، (وهي التكاليف والواجبات التي فرضها الله تعالى على عباده)^(٦).

(١) الكافي، ج ٢، ص ١٠٥.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٢٧٧.

(٣) تفسير مجمع البيان.

(٤) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٤٩٦.

(٥) الغدير، ج ٨، ص ٢٩١.

ب - بين الإنسان وأخيه الإنسان، (أن يستأمنه الآخرون على أموالهم وأسرارهم).

ج - بين الإنسان ونفسه، (من قبيل أن يُستودع الإنسان العلم والعمر والسلطة، وهي جميعها أمانات).

التعاليم:

١ - إناطة المسؤوليات بأهلها، والقضاء العادل، من أمثلة العمل الصالح، وإحدى علائم الإيمان، (في ضوء مفهوم الآية السابقة).

٢ - لكل أمانة صاحب، ولكل أهلية واستعداد لأداء عمل معين أو تبوء منصب ما، ﴿أَهْلُهَا﴾.

٣ - لا يشترط الإيمان في أداء الأمانة أو إقامة العدل. فعلى المرء أن يكون أميناً وعادلاً مع جميع الناس، ﴿أَهْلُهَا... النَّاسِ﴾.

٤ - على القاضي والحاكم أن يحكما بالعدل، ﴿تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾.

٥ - لا بدّ من وجود حكومة، فمن مستلزمات إناطة المسؤوليات إلى من يستحقها والقضاء العادل هي إقامة الحكومة الإلهية، ﴿تُؤَدُّوا الْأَمْنَتِ... تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾.

٦ - الموعظة الحسنة تعني، مضافاً إلى إسداء النصيحة الأخلاقية، الاهتمام بالقضايا الاجتماعية والقضائية، ﴿نَبِيًّا يَعْظُمُ بِهِ﴾.

٧ - حتى لو لم يكتشف الناس خيانة الأمانة أو عدم مراعاة العدالة في القضاء، فإن الله من فوقهم سميع بصير، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾

إشارات:

□ تعرّفنا في الآية السابقة على مسؤوليات الحاكم، وضرورة توافره على صفتي

العدالة والأمانة، لتنقلنا هذه الآية إلى مسؤوليات الناس تجاه الله والنبى الأكرم ﷺ. من البديهي، أنه مع وجود ثلاث مرجعيات هي «الله»، و«النبى»، و«أولى الأمر»، لن تضلّ الأمة ولن تدخل في متاهة. والحقيقة أنّ طاعة هذه المرجعيات لا تصطدم بالتوحيد القرآني؛ لأنّ طاعة النبى وأولى الأمر هي قبس من طاعة الله، وتقع في طولها وليس في عرضها، وأنّ الله تعالى هو الذي فرض طاعة تينك المرجعتين لذلك فإنّ طاعة النبى وأولى الأمر ناشئة من أمر الله.

□ جاء في تفسير «الأمل في تفسير كتاب الله المنزل» نقلاً عن ابن عباس أنّ النبى الأكرم ﷺ حين عزم على غزوة تبوك، استخلف الإمام علياً عليه السلام فقال ﷺ: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى»، فنزلت هذه الآية.

□ حثّت الآية السابقة على ردّ الأمانات إلى أهلها، فيما تقول هذه الآية: ردّ الأمانة إلى أهلها يكون في ظلّ طاعة الله ورسوله وأولى الأمر.

□ يشير تكرّر أمر ﴿أَطِيعُوا﴾ في الآية إلى مسألة تعدّد الأوامر، فالنبى الكريم ﷺ كان يقوم أحياناً بتفسير الأحكام الإلهية وتبيينها، وأحياناً أخرى كان هو نفسه يصدر أحكاماً وقرارات، وهذا يعني أنّه ﷺ كان يجمع بين مقامي الرسالة والحكومة في آن معاً. يخاطب القرآن الكريم في أحد المواضع الرسول الكريم بالقول: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَفْكَرُونَ﴾^(١). وفي موضع آخر يقول: ﴿لِنَحْكُمُ بَيْنَ الَّذِينَ يَمُنُ بِكَ اللَّهُ﴾^(٢).

□ كما إنّ القرآن الكريم يأمر النبى ﷺ بعدم طاعة المفسدين، والمسرّفين، والضالين، والجاهلين، والجبارين، بقوله «لا تطع» و«لا تتبع». وعليه، فإنّ المعنيين بالحكم القرآني «أطيعوا» يجب ألا يكونوا ممّن نهى الله تعالى عن طاعتهم، وأن لا تتعارض طاعتهم مع طاعة الله ورسوله.

□ تذكر الآية الكريمة وجوب طاعة أولى الأمر، ولكن لم تحكم بمراجعتهم في

حال نشوب خلاف أو نزاع، بل أوضحت أنّ المرجع الوحيد لفضّ النزاعات هو الله تعالى ورسوله. وفي هذا دليل على أنّه لو برز أيّ خلاف حول من هم أولو الأمر ومصاديقهم، فإنّ الرجوع في هذه الحالة يكون إلى الله ورسوله، إذ ذكرت الأحاديث النبوية الشريفة أنّ أهل بيت النبوة ﷺ هم مصاديق أولي الأمر^(١).

□ عن الحسين بن أبي العلاء قال: ذكرت لأبي عبد الله ﷺ قولنا في الأوصياء إنّ طاعتهم مفترضة، فقال: نعم هم الذين قال الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾، وهم الذين قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾^(٢).

□ يقول الإمام أمير المؤمنين علي ﷺ في (الخطبة ١٢٥ في نهج البلاغة): «فقد قال الله تعالى لقوم أحبّ إرشادهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾، فالردة إلى الله: الأخذ بمحكم كتابه والردة إلى الرسول: الأخذ بسنّته الجامعة غير المفترقة».

□ ويقول الإمام علي ﷺ: «الحاكم بغير ما حكم به أهل بيت النبوة طاغوت»^(٣).

التعاليم:

١ - على الأمة الانقياد للنظام الإسلامي والدفاع عن القادة الإلهيين قولاً وفعلاً، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾.

٢ - الإسلام دين امتزجت عقائده بسياسته. طاعة الرسول وأولي الأمر مسألة سياسية، امتزجت بعقيدة الإيمان بالله ويوم القيامة، ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾.

٣ - يجب الالتزام بالسلسلة التراتبية عند الطاعة، ﴿اللَّهُ﴾، ﴿الرَّسُولُ﴾، ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ﴾.

(١) الشيخ الصدوق، كمال الدين، ص ٢٢٢. (٢) دعائم الاسلام، ج ٢، ص ٥٣٠.

(٢) الكافي، ج ١، ص ١٨٧.

- ٤ - لا بدّ لأولي الأمر أن يكونوا معصومين كما النبي الكريم، لتكون طاعتهم واجبة دون نقاش كما هي طاعته ﷺ، ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ﴾.
- ٥ - تجب الطاعة للحاكم حينما يكون مؤمناً وينتمي إلى أمة مؤمنة، ﴿أَطِيعُوا... مِنْكُمْ﴾.
- ٦ - علامة الإيمان الحقيقي هي الرجوع إلى الله والرسول عند الاختلاف وتفاقم النزاع، فالطاعة في الظروف العادية لا تنطوي على أهمية، ﴿فَإِنْ لَنْتَزِعَنَّ﴾.
- ٧ - إحدى مسؤوليات الدولة الإسلامية خلق ظروف الوحدة وفضّ المنازعات، ﴿فَإِنْ لَنْتَزِعَنَّ﴾.
- ٨ - الدين الكامل يحمل حلولاً لكل الاختلافات والمنازعات، ﴿فِي شَيْءٍ قُرْدُوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾.
- ٩ - القبول بأوامر الحكومات غير الإلهية والطاغوت حرام، ﴿قُرْدُوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾.
- ١٠ - لو اعتمدت جميع الفرق القرآن الكريم والسنة المطهرة مرجعية لها، لما استعصى خلاف أو نزاع، ولسادت أجواء الوحدة والتضامن، ﴿قُرْدُوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾.
- ١١ - أولئك الذين يعارضون أحكام الله، ورسوله، والقادة الإلهيين، عليهم أن يراجعوا إيمانهم، ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ﴾.
- ١٢ - البرنامج العقائدي للإسلام يشكل القاعدة التي يبنى عليها برنامج العمل، ﴿أَطِيعُوا... إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ﴾، بعبارة أوضح، إنّ الإيمان بالله وبيوم القيامة يشكل الضمان لتنفيذ أحكام الإسلام، وأساس اجتناب معصية الله ورسوله.
- ١٣ - التبصّر ورعاية المصالح طويلة الأمد، هو معيار القيمة والفضل، ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ
وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ. وَيُرِيدُ
الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾

إشارات:

□ أوضحت الآية السابقة أَنَّ الله ورسوله هما المرجع والحكم في فضّ النزاعات،
أما هذه الآية فتحمل بشدّة على أولئك الذين يتحاكمون إلى الطاغوت لفضّ
النزاع والاختلاف.

□ نشب خلاف وخصومة بين رجل من المسلمين المنافقين وأحد اليهود، فصار
الأمر إلى التحكيم، فاختار اليهودي النبي الأكرم ﷺ حكماً بينهما وذلك لما
عرف عنه من عدل وحياد، وعلمه أنّه لا يجور في الحكم ولا يأخذ الرشوة،
فقال: أحاكم إلى محمد، ولكن المنافق قال: لا بل بيني وبينك كعب بن
الأشرف (لأنّه يأخذ الرشوة وهو من أقطاب اليهود)، وبذلك رفض التحاكم إلى
رسول الإسلام ﷺ، فنزلت الآية الكريمة لتوبّخ أمثال هذا الرجل المنافق،
وتشجب بشدّة موقفهم المشين.

□ وفي رواية عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنّه قال: «الطاغوت كلّ من يُتَحاكم
إليه ممّن يحكم بغير الحقّ»^(١).

التعاليم:

- ١ - الإيمان هو ما كان مشفوعاً بالتبرّي من الطاغوت، وإلاّ فإنّه لا يعدو كونه
خيالاً، ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا... يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾.
- ٢ - تشترك الأديان في الأهداف والجوهر، ولا بدّ من الإيمان بتعاليم جميع
الأنبياء، ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾.

(١) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

- ٣ - مهادنة الطواغيت حرام، ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾.
- ٤ - علينا أولاً أن نرسم طريق الحق، ثم بعد ذلك نحمل على طريق الباطل، ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ... يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾.
- ٥ - مجرد فكرة التحاكم إلى الطاغوت والاهتمام لها، مسألة موضع نقد وإدانة، ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾.
- ٦ - نجاح غواية الشيطان تتيسر في إطار انقياد الناس للطاغوت، ﴿يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ... وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ﴾.
- ٧ - المنافق، والطاغوت، والشيطان، على خط متوازٍ واحد في مواجهة الأنبياء، ﴿الَّذِينَ يَزْعُمُونَ... يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ... وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ﴾.
- ٨ - تكفير الطاغوت وحرمة التحاكم إليه، تعليم تقرّ به جميع الأديان السماوية، ﴿أَلَمْ تَرَ... أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ... يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾.
- ٩ - التحاكم إلى الأجانب والغرباء للفصل في النزاعات الداخلية من إلقاءات الشيطان ومن الأفعال المحرمة، ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ...﴾.
- ١٠ - إرادة الشيطان تمسك بزمام المنافقين، والطواغيت كمائن الشيطان وحبائله، ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ﴾.
- ١١ - عاقبة التحاكم إلى الطاغوت واللجوء إليه هي السقوط في هاوية مرعبة، ﴿صَلَّاءًا بِعِيدًا﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتُفِفِينَ

يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ (٦١)

التعاليم:

- ١ - لا بدّ من دعوة المنافقين، وإن كانوا لا يسلمون بشرعة الله وتعاليم النبي الكريم، ﴿قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا﴾.
- ٢ - في التسليم لدعوة الأنبياء رشد ورفعة، ﴿تَعَالَوْا﴾ (هي دعوة إلى الصعود والارتقاء).

٣ - الكتاب والسنة متوافقان، وإلا فإنه ليس من الحكمة إرجاع الناس إلى مصدرين متناقضين، ﴿إِلَّا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾.

٤ - الرجوع إلى الطاغوت والتحاكم إلى الغرباء والأجانب، من خصال وطباع المنافقين الذين يعارضون قائدهم الإلهي، ويعرضون عن طريق الحق، (كلمة ﴿يَصُدُّونَ﴾ تنطوي على الطبع والاستمرار).

٥ - المنافق يعرض عن الحق ويصد الآخرين عنه، ﴿يَصُدُّونَ﴾.

٦ - معارضة المنافقين قائدهم الإلهي، هي التي تفضح كفرهم، ﴿عَنْكَ﴾.

٧ - لا يشعر المنافقون بالحسد تجاه الإيمان القلبي للناس بالله، بل إن ما يقض مضاجعهم هو اجتماع الناس حول القائد الإلهي، ﴿يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾.

﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ

بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا أَحْسَنًا وَتَوَفِّيْنَا ۖ﴾

إشارات:

□ الذرائع التي تحجج بها المنافقون لتبرير تحاكمهم إلى الطواغيت وحكام الجور هي أن الهدف من ذلك هو المصالحة، ولو أنهم راحوا إلى عند النبي الأكرم ﷺ للتحكيم، وحكم لصالح أحدهما، فإن الطرف الآخر، يقيناً، سيدي عدم ارتياحه تجاه النبي الأكرم وسيحتج، ويرفع صوته في حضرة النبي، وهذا ما لا يتناسب مع مكانة النبي وشأنه العظيم. من هنا، فإنهم ومن أجل ألا يحدث ما يسيء إلى هيبة النبي ومكانته ومحبيته، ذهبوا بالنزاع إلى جهة أخرى للتحاكم.

التعاليم:

١ - المخاطر الناجمة عن تصرفات الإنسان سببها الإنسان نفسه، ﴿مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾.

٢ - المسلمون المتلونون والمنافقون، يعرفون القادة الإلهيين عندما يجدد الجد ويبرز الخطر، ﴿جَاءُوكَ﴾.

- ٣ - في التحاكم إلى الطاغوت مصائب وعواقب وخيمة، ﴿أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ﴾
يضطرّ الإنسان معها إلى العودة إلى حظيرة الأنبياء، ﴿جَاءُوكَ﴾.
٤ - اعتاد المنافقون على تبرير موبقاتهم، ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا﴾.
٥ - يتخذ المنافق من قسمه بالله غطاء لتحقيق مآربه، ﴿يَخْلُقُونَ بِاللَّهِ﴾.
٦ - أحياناً، تكون العناوين المقدسة واجهة للأشرار، ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا
وَتَوْفِيقًا﴾.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي
أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ (٦٣)

التعاليم:

- ١ - محاولات المنافقين هواء في شبك، لأن الله عليم بنواياهم المبيتة،
وسيفضحهم في الوقت المناسب، ﴿يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾.
٢ - لم يكن المنافقون صادقين في اعتذارهم، وإلا لما صدر بحقهم أمر الإعراض
عنهم، ﴿يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾.
٣ - سياسة القائد تجاه المنافقين يجب أن تجمع بين الإعراض والموعظة،
﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾.
٤ - عند الموعظة، يجب مصارحة المنافقين بعواقب أفعالهم وما سيؤول إليه
مصيرهم، ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنْهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ
جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَجِيمًا﴾ (٦٤)

إشارات:

□ ملامح المجتمع السليم والقيادة الحكيمة هي أن يتحلّى أفرادها بالإيمان،
وقائدهم إلهي، وأن يخلص الناس في طاعتهم له ويتمسكون بها، ويكون

المنحرفون نادمين ومستغفرين، وأن يكون قائلهم ذا صدر رحب مفعم بالعطف والرافة.

□ كما إنَّ دعاء النبي الكريم في حقِّ المؤمنين مستجاب ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَهُمْ الرَّسُولُ لَوْجَدُوا اللَّهَ﴾، فإنَّ دعاء الصالحين والملائكة في حقِّهم أيضاً ذو أثر. فالقرآن الكريم يذكر في إحدى الآيات هذه المسألة وهي استغفار الملائكة للناس ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾^(١)، وفي موضع آخر يستغفرون للمؤمنين، ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾^(٢).

التعاليم:

- ١ - طاعة الناس للأنبياء، هي الهدف من بعثة الأنبياء والمرسلين، ﴿وَالَا يُطِيعُ﴾.
- ٢ - الطاعة لله وحده. حتى طاعة الأنبياء يجب أن تكون بإذن الله ﷻ، ﴿وَالَا فَإِنَّهَا تَصْبِحُ شِرْكَاً، ﴿لِيُطِيعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.
- ٣ - التوبة عن الإعراض عن القائد، هي في العودة إليه ﴿...لِيُطِيعَ... جَاءُوكَ﴾.
- ٤ - الإعراض عن الأنبياء والرجوع إلى الطاغوت ظلم للنفس ولمنزلتها الإنسانية، ﴿ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾؛ (في ضوء ارتباط هذه الآية بالآيات السابقة).
- ٥ - يجب أن يوثق جميع الناس ارتباطهم مع رسول الله ﷺ. بما في ذلك المؤمن والفاسق، المؤمن لينعم بالبركة والفيض والفاسق لينال الشفاعة، ﴿جَاءُوكَ﴾.
- ٦ - باب التوبة مفتوح للعاصين وحتى المنافقين؛ (نظراً إلى الآيات السابقة التي تتحدث عن المنافقين)، ﴿فَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾.
- ٧ - زيارة القادة الإلهيين، وطلب العون، والمدد منهم، والتوسل بهم، كلها تحظى بمباركة القرآن الكريم وتأييده، ﴿جَاءُوكَ فَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ وَأَسْتَغْفِرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾.

(١) سورة الشورى: الآية ٥.

(٢) سورة غافر: الآية ٧.

- ٨ - لا يغفر النبي الذنب بل إنه وسيلة العفو الإلهي، ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَلْرَّسُولُ﴾.
- ٩ - من ينوي التوبة، عليه أولاً إبداء الأسف والندم والرجوع إلى الحق تعالى، ومن ثم يستمدّ العون من الرسول الأمين ﷺ من أجل تمتين علاقته بالله تعالى، ﴿فَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَلْرَّسُولُ﴾.
- ١٠ - لا ينبغي للعاصي أن ييأس من رحمة الله ما دام الاستغفار، والتوبة، وزيارة أولياء الله، بمثابة وسائل لإعادة بناء روحه من جديد، ﴿جَاءُوكَ فَاسْتَغْفِرُوا﴾.
- ١١ - عند زيارة الرسول الكريم ﷺ، والاعتراف بالخطأ، والاستغفار، يشعر المرء بأنّ أعباء الذنوب قد أزيلت عن صدره، ﴿لَوْجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا﴾.
- ١٢ - إذا عفوتكم عن المسيء فاشفعوا ذلك بالمحبة والعطف عليه، ﴿تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾.
- ١٣ - المعصية حجاب يحول بين الإنسان وبين الرحمة الإلهية، وما إن ينزاح هذا الحجاب، تنزل الرحمة الإلهية على العبد، ﴿أَسْتَغْفِرُ... لَوْجَدُوا اللَّهَ﴾.
- ١٤ - الاعتراف بالمعاصي والإقرار بالذنوب في حضرة أولياء الله تعالى، يمهد لاستئصال شأبيب العفو الإلهي، ﴿جَاءُوكَ فَاسْتَغْفِرُوا... لَوْجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾.

﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾

إشارات:

□ قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال الطبرسي رحمه الله قيل نزلت في الزبير ورجل من الأنصار خاصمه إلى رسول الله ﷺ في شراج من الحرة كانا يسقيان بها النخل كلاهما فقال النبي ﷺ للزبير اسق ثم أرسل إلى جارك؛ فغضب الأنصاري وقال يا رسول الله لأن كان ابن عمك؟! فتلون وجه رسول الله ﷺ،

ثم قال للزبير: اسق ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر واستوف حقك ثم أرسل الماء إلى جارك وكان رسول الله ﷺ أشار على الزبير برأي فيه السعة له ولخصمه فلما أحفظ رسول الله ﷺ استوعب للزبير حقه من صريح الحكم. ويقال إن الرجل كان حاطب بن أبي بلتعة^(١).

□ وعن الإمام الصادق عليه السلام: «لَوْ أَنَّ قَوْمًا عَبَدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ، وَآتَوُا الزَّكَاةَ، وَحَجَّجُوا الْبَيْتَ، وَصَامُوا شَهْرَ رَمَضَانَ، ثُمَّ قَالُوا لشيء صنع الله أو صنع رسول الله ﷺ أَلَّا صَنَعَ خِلافَ الَّذِي صَنَعَ أَوْ وَجَدُوا ذَلِكَ فِي قُلُوبِهِمْ لَكَانُوا بِذَلِكَ مُشْرِكِينَ»؛ ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(٢).

التعاليم:

١ - علامات الإيمان الحقيقي ثلاثة أشياء:

- أ - التحاكم إلى النبي لا إلى الطواغيت، ﴿يُحَكِّمُوكَ﴾
- ب - ألا ينتابهم شك ولا يشعروا بحرج في نفوسهم إزاء أحكام النبي الأكرم ﷺ، ﴿لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا﴾.
- ج - التسليم لأمر النبي تسليمًا مطلقاً، والقبول بها عن طيب خاطر ورحابة صدر، ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

٢ - يهتَمُّ الإسلام، بالأبعاد الروحية والتسليم القلبي مضافاً إلى التسليم الظاهري، ﴿لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا﴾.

٣ - القضاء من شؤون الرسالة والولاية، ﴿مِمَّا قَضَيْتَ﴾.

٤ - وجوب التسليم لأحكام النبي الأكرم ﷺ وأفضيته دليل على عصمته، ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

(١) بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ١٩.

(٢) تفسير نور الثقلين؛ الكافي، ج ١، ص ٣٩٠.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ
وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا ۖ﴾

إشارات:

تشير الآية الكريمة إلى التكاليف الشاقة التي فرضت على الأمم السالفة (على سبيل المثال بنو إسرائيل الذين أمرهم الله تعالى بقتل بعضهم لبعضهم الآخر جزاءً على ما ارتكبه من عبادة العجل، ذلك أن ارتكاب ذنب عظيم مثل عبادة الأوثان أو عبادة العجل تلزمه كفارة عظيمة مثل قتل بعضهم بعضهم الآخر أو النفي خارج وطنهم وديارهم).

التعاليم:

- ١ - ينبغي للمؤمنين أن يختبروا أنفسهم، كيف سيتصرفون إذا ما واجهوا تكليفاً شاقاً، ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾.
- ٢ - قليلون هم الذين يصبرون على أداء الواجب ويثبتون على العهد، ﴿مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.
- ٣ - لقد وعظهم الله خيراً حينما أمرهم بالكفر بالطاغوت، والتحاكم إلى النبي، والتسليم لقضائه وحكمه، ﴿مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾.
- ٤ - الخير والسعادة رهين العمل، ﴿فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾.
- ٥ - الأحكام الإلهية (الأوامر والنواهي) هي مواعظ إلهية، ﴿فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾.
- ٦ - كل خطوة نخطوها في سبيل الله، تثبت أقدامنا وتزيد في إيماننا، ﴿فَعَلُوا... وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا﴾.
- ٧ - العمل يترك بصماته في النفس والروح وفي العمل بالأحكام تثبيت للإيمان، ﴿فَعَلُوا... وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا﴾.
- ٨ - التكاليف الإلهية فيها خير الإنسان وصلاحه وإن بدت شاقة وغير مرغوبة، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا... لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾.

﴿وَإِذَا لَا تَذُنُّهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ۖ وَلَهْدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۖ﴾

التعاليم:

١ - نيل الخير، وثبات القدم، والأجر العظيم، والهداية إلى الصراط المستقيم، كل ذلك رهين العمل بالمواعظ ومثابرة الإنسان وجهوده، ﴿فَعَلُوا... خَيْرًا تَذُنُّنَا... أَجْرًا... مُسْتَقِيمًا﴾.

٢ - حث الخطي في طريق الخير سيفضي إلى خير أسمى وأعم، ﴿فَعَلُوا... وَأَشَدَّ تَذُنُّنَا... أَجْرًا عَظِيمًا... صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾.

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ۖ﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عِلِيمًا ﴿٧٠﴾

إشارات:

□ في سورة الفاتحة المباركة، وردت عبارة ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بعد ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وتكرر استخدام العبارتين هنا أيضاً، إذ ذكر الصراط المستقيم بعد عبارة ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾. وكأنما مراد الآية هو أنَّ الصراط المستقيم يقتصر على الطوائف الأربع المذكورة في الآية وهي: الأنبياء، والصديقون، والشهداء، والصالحون، وأنَّ ما سواهم في متاهة وضلال مبين.

□ ورد في الروايات أنَّ خير نموذج للصديقين هم الأئمة المعصومون عليهم السلام والصديقة الطاهرة السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام ^(١). أما الشهداء فيقصد بهم الذين يقتلون في سبيل الله في ميادين الجهاد، أو الذين يشهدون على الأعمال في يوم القيامة.

□ من البديهي أن نذكر أنَّ صحبة الأنبياء في الدنيا غير متيسرة لجميع الأتباع الحقيقيين، لذلك فإنَّ مراد الآية هو الصحبة في الدار الآخرة.

التعاليم:

١ - السير في طريق الأنبياء والشهداء والحظوة بالأصحاب الأخيار، لا تيسر إلاَّ

بطاعة أوامر الله تعالى ورسوله الكريم ﷺ، ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ...﴾.

٢ - الأنبياء، والشهداء، والصديقون، والصالحون، هم خير الأصحاب. ومن هذه الشاكلة أيضاً يجب أن نختار الأصحاب في هذه الدنيا، ﴿وَحَسَنَ أَوْلِيَٰكَ رَفِيقًا﴾.

٣ - طاعة الرسول هي ظل طاعة الله وتقع في طولها، إذن، فهي لا تتنافى مع التوحيد، ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾.

٤ - ثواب طاعة النبي الكريم هو رفقة جميع الأنبياء، لأنهم من نور واحد ويصبون إلى هدف مشترك، وثواب طاعة أحدهم رفقة جميعهم، ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ... مَعَ... أَلْتَتَّبِعُ﴾.

٥ - علم الله هو الباعث الأكبر على القيام بالتكاليف والواجبات، ﴿بِاللَّهِ عَلَيْهِمَ﴾.

٦ - مقام النبوة أرفع من مقام الصديقين، والشهداء، والصالحين. (يدل على ذلك تقدم طائفة الأنبياء على سائر الطوائف في الآية الكريمة)، ﴿مِنْ أَلْيَتَيْنِ وَالصَّدِيقَيْنِ...﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا حُدُودًا حُدِّرَكُمُ فَأَنْفِرُوا فُبَاتٍ أَوْ أَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ (٧١)

إشارات:

□ لما ذكر الله تعالى في الآية السابقة وجوب طاعة الله، والقائد المعصوم، ودولة النبي الأكرم ﷺ، فهو يأمر في هذه الآية أهل الطاعة باليقظة والتأهب والاستعداد القتالي للأمة الإسلامية والقيادة الحقّة.

□ «الحذر»، يعني اليقظة، والتأهب، والترقب، لخطر محتمل، وأحياناً الوسيلة التي يستعان بها لدفع الخطر. أمّا كلمة ﴿فُبَاتٍ﴾ جمع «ثبة» فمشتقة من مادة «ثبي» وهي العصبية المتفرقة (إشارة إلى السرايا القتالية التي تتحرّش بالعدو فتسلبه الأمن وتشيع في صفوف أفرادها الاضطراب والفرع).

□ على المسلمين أن يتحلّوا باليقظة والحذر، وأن يكونوا على أهبة الاستعداد

للدفاع عن حدود بلادهم، لذا فإن العمل بهذه الآية فيه عزة ومنعة للمسلمين، والغفلة عن مضمونها يؤدي بهم إلى السقوط والهزيمة.

التعاليم:

- ١ - يجب على المسلمين أن يحافظوا على يقظتهم وجهوزيتهم في كل ظرف، وأن يرصدوا خطط العدو، وعديده، وعدته، وأنواع الأسلحة التي يمتلكها، والحالة المعنوية التي يتمتع بها أفرادها، وشبكة ارتباطاته بالداخل والخارج، وأن يضعوا الخطط ويرفعوا درجة الاستعداد بما يتناسب مع هذه العوامل المذكورة، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾.
- ٢ - الجهوزية القتالية تستمد قيمتها من الإيمان، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾.
- ٣ - يجب تعبئة المسلمين واستنفارهم، ﴿أَنفِرُوا جَمِيعًا﴾.
- ٤ - يجب أن لا يتوانى المسلمون عن استخدام مختلف التكتيكات من أجل التصدي للعدو، ﴿ثُبَاتٍ أَوْ أَنفِرُوا جَمِيعًا﴾.
- ٥ - تحديد أساليب الاستنفار، والتعبئة، والنضال، تقع على عاتق المسلمين أنفسهم، ﴿ثُبَاتٍ أَوْ أَنفِرُوا جَمِيعًا﴾.

﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَّيَبْتَغِيَ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ
قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ (٧٢)

إشارات:

- بعد أن طرحت الآية السابقة مسألة خطر أعداء الخارج، توضح هذه الآية الخطر الذي يأتي من أعداء الداخل، والطابور الخامس، والمنافقين.
- «يبطئن» من «بطؤ»: أي البطء، وهو تأخر الانبعاث في السير، وقال أهل اللغة في معنى البطء: يكثُر هو التثبط في نفسه، والمقصد من ذلك أن منكم من يتأخر ويؤخر غيره.

التعاليم:

- ١ - ميادين القتال محك للكشف عن معادن الرجال ضعفاء الإيمان والمنافقين، ﴿وَلَا يَنْفَكُ﴾.
 - ٢ - يفضح الله ﷻ، أفكار وأقوال المنافقين، ﴿وَأَنَّ يَنْفَكُ﴾.
 - ٣ - أحياناً يتلون المنافقون بلون المؤمنين حتى تخالهم منهم، ﴿يَنْفَكُ﴾.
 - ٤ - ليس كل صحابة رسول الله ﷺ عدولاً وسائرين على نهجه، ﴿يَنْفَكُ... إِبْطَانٌ﴾.
 - ٥ - يعمل المنافقون على إضعاف الروح المعنوية للمسلمين «اللبظتن»، لذلك، يجب تشخيصهم لعدم إرسالهم إلى جبهات القتال.
 - ٦ - يرى المنافقون في عدم المشاركة في القتال، والفرار من الجبهات، والنجاة من الموت، فوزاً وسعادة لهم، ﴿أَنَّمْ اللَّهُ عَلَى﴾.
 - ٧ - لا تحسب كل رفاهية مصانة، أو أنها دليل لطف الله ونعمته، ﴿أَنَّمْ اللَّهُ عَلَى﴾.
 - ٨ - تحمّل الصعاب إلى جانب المؤمنين نعمة، لا التمتع بحياة الرفاهية والدعة بعيداً عنهم، ﴿أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ... لَرَأَى أَكُنْ مَعَهُمْ﴾.
- ﴿وَلَا يَنْفَكُ مِنْ اللَّهِ لِيَقُولَنَّ كَانَ لَمْ تَكُنْ يَنْفَكُ وَيَنْفَكُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (٧٣)

إشارات:

□ عندما يصيب الإنسان نعمة وفضلاً، يُذكر اسم الله، ﴿فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ﴾، ولكن عندما تصيبه مصيبة، لا يُذكر اسم الله، كما في الآية السابقة، ﴿أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾، وكان الآية تريد التأكيد على أنه لا يصيبنا من الله سوى الخير، والفضل، والرحمة.

التعاليم:

- ١ - تحقيق النصر والحصول على الغنائم في الحرب هو من فضل الله، ﴿أَصَبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ﴾.
 - ٢ - يضحي المنافقون بعواطفهم من أجل تحقيق مصالح دنيوية، ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾.
 - ٣ - أمانى المنافق تفتقد إلى الصدق، ﴿وَلَيْنَ أَصَبَكُمْ فَضْلٌ... يَلَيْتَنِي﴾.
 - ٤ - المنافق كل يوم هو في شأن، فحين ينزل الخطب يقول: قدر الله ولطف أن لم نكن معهم ﴿أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾، وحين الفتح وتقسيم الغنائم يقول: ﴿يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ﴾.
 - ٥ - من خصال المنافق أنه لا يشارك المؤمنين أحزانهم؛ ولكنه يعتبر نفسه شريكاً في أفراحهم ومغانمهم، ﴿وَلَيْنَ أَصَبَكُمْ فَضْلٌ... يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ﴾.
 - ٦ - الفوز العظيم في نظر المنافق أن ينال حظاً في الدنيا، ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾.
- ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٧٤)

التعاليم:

- ١ - الحرب في الإسلام هي في سبيل الله وليس من أجل فتح البلدان، أو الاستعمار، أو الانتقام، ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.
- ٢ - الجهاد توفيق لا يعطاه أي كان، ﴿فَلْيُقَاتِلْ... الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾، لا يملك طلاب الدنيا الجدارة والشجاعة اللازمين للمشاركة في جبهات القتال.
- ٣ - الجهاد الأكبر وقطع علائق النفس بالدنيا مدخل إلى الجهاد الأصغر ومحاربة الأعداء، ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ...﴾.
- ٤ - المجاهد في سبيل الله لا يعرف الهزيمة أبداً، (يقول ﷺ): ﴿فَيُقْتَلْ﴾ بدلاً من «يُغْلِب».

- ٥ - في جبهات الحق، إِمَّا الشهادة وإِمَّا النصر، لا فرار ولا هزيمة، ﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾.
- ٦ - «الفوز العظيم» في نظر المنافق هو الغنائم فقط (الآية السابقة)، لكنَّ الأجر العظيم من منظار القرآن الكريم هو النصر أو الشهادة، ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾.
- ٧ - البشارة بـ «الأجر العظيم» تشجيع على الذهاب إلى جبهات القتال.
- ٨ - الحياة الآخرة أفضل من الحياة الدنيا، ومبادلة الدنيا بالآخرة أمر عظيم، ﴿يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ... أَجْرًا عَظِيمًا﴾.
- ٩ - أجر المجاهد الشهيد والمقاتل المنتصر واحد، ﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ... أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾

إشارات:

- الآية تتحدث عن المسلمين الذين تجرّعوا الويلات وصنوف التعذيب على يد المكيين، وتوبّخ أولئك الذين تركوا الجهاد في سبيل الحرية.
- وعن الإمام الباقر عليه السلام أنه سُئل عن قوله ﷻ: ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا... نَصِيرًا﴾ فقال: «نحن أولئك». وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه سُئل عن ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ في الآية المذكورة فقال: «هم أهل الولاية، قلت: أي ولاية تعني، قال: ليست ولاية ولكنها في المناكحة والمواريث والمخالطة وهم ليسوا بالمؤمنين ولا الكفار ومنهم المرجون لأمر الله»^(١).

التعاليم:

- ١ - يجب أن يتعاطف المسلمون بعضهم مع بعضهم الآخر من منطلق الغيرة والانتماء العقائدي، وأن يستجيبوا لصرخات الاستغاثة والنجدة، ﴿وَمَا لَكُمْ...﴾.
 - ٢ - من أهداف الجهاد في الإسلام، النضال من أجل نجاة المستضعفين من نير المستبدين الظالمين، ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾.
 - ٣ - الإسلام لا يعترف بالحدود، فحيثما وُجد المستضعفون وجب الجهاد، ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾.
 - ٤ - لا بدّ لجيش الإسلام من أن يمتلك أسباب القوة والمنعة بحيث يكون منقذاً لجميع المحرومين في العالم، ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ﴾.
 - ٥ - في الدعوة إلى الجهاد يجب أن نلجأ إلى أسلوب استشارة عواطف الناس ومشاعرهم، ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ... الَّذِينَ يَقُولُونَ رَيْسًا...﴾.
 - ٦ - الولاية على المسلمين يجب أن تكون من لدن الله ﷻ، ﴿مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾.
- ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (٧٦)

إشارات:

□ صحيح أنّ المكر الشيطاني للكفار كبير، ﴿وَمَكْرُهُمْ كِبَارًا﴾^(١) وأنّ مكر الكفار يكاد يقتلع الجبال، ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِنَزُولِ مِنْهُ الْجِبَالِ﴾^(٢)، لكنّ هذا المكر ضعيف وتافه أمام مكر الله سبحانه وتعالى.

التعاليم:

- ١ - من مستلزمات الإيمان، الجهاد ضدّ الكفار، ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ﴾.

(١) سورة نوح: الآية ٢٢.

(٢) سورة إبراهيم: الآية ٤٦.

- ٢ - الجهاد الإسلامي هو في سبيل الله ومن أجل حماية دين الله، وليس لفتح البلدان أو الانتقام، ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.
- ٣ - يمكن تمييز المجتمع الإلهي عن المجتمع غير الإلهي من خلال طبيعة أهدافهم، ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ... فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾.
- ٤ - النزاع والاختلاف سنة الحياة، ولكن في سبيل من ولأي هدف، ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.
- ٥ - الاتحاد بين أضلاع مثلث الكفر، والطاغوت، والشيطان، اتحاد محكم، ﴿كَفَرُوا... الطَّاغُوتُ... الشَّيْطَانُ﴾.
- ٦ - قارن بين نموذجي النضال والهدف، وتبين أهمية ما تقوم به لتسعى حينئذ إلى القتال، ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾.
- ٧ - لا تخشوا مخططات الأعداء، فهي ضعيفة وواهية، ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.
- ٨ - عاقبة الطاغوت وطريق الشيطان الفشل، ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾

إشارات:

□ ذكرت بعض التفاسير أنّ المسلمين كانوا يعانون ظروفًا صعبة، وهم يومئذ بمكة في فترة ما قبل الهجرة، وكانوا يسارعون إلى قتال المشركين فأتى نفرٌ منهم إلى النبي الأكرم ﷺ يطلبون منه الإذن بقتال المشركين قائلين: يا نبي الله، كُنّا في عزٍّ ونحن مشركون، فلما آمنّا صرنا أذلة؟ ذرنا نقاتل المشركين، فقال: «إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم». ومضت الأيام والشهور على هذا الطلب حتى هاجر المسلمون إلى المدينة وتوقرت الظروف المناسبة لقتال المشركين، وأمر

الله المسلمين بالجهاد، تثبّط بعض من أولئك النفر الذين كانوا يستعجلون النبي على الجهاد وقتال الأعداء في مكة، وأخذوا يهولون من أمر المشركين ويخشون بأسهم، ويظهرون الكسل والتهاون في تنفيذ الأمر الإلهي، ولم يدوا أيّ رغبة في الجهاد، فنزلت هذه الآية الكريمة وهي تحثّ المسلمين على القتال وتوتّخ المتهاونين والمتقاعسين عن ذلك^(١).

□ «الخَشْيَةُ»: خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه^(٢).

□ وعن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير قوله ﷺ: ﴿كُفُوا أَيَّدِيكُمْ﴾ قال: يعني كفوا ألسنتكم. (كانوا يتبجحون بمزاعم وادّعاءات فارغة فنزلت الآية الكريمة تأمرهم بالكف عن إلقاء الشعارات الفارغة)^(٣).

□ وروي عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: والله للذي صنعه الحسن بن علي عليه السلام كان خيراً لهذه الأمة ممّا طلعت عليه الشمس...، وتلا هذه الآية^(٤). نعم، فالإمام المعصوم، أحياناً يأمر بالصلح مثل الإمام الحسن عليه السلام، وأحياناً أخرى يرى وجوب الجهاد والشهادة كما فعل الإمام الحسين عليه السلام.

□ ذكرت روايات عدّة أنّ المراد بالعبرة ﴿إِنَّ أَجَلَ قَرِيبٍ﴾ هو تأخير الجهاد حتى ظهور الإمام المهدي عليه السلام^(٥)، وهذا ما دعا بعض المسلمين إلى القول: إنّ لا جهاد حتى ظهور الإمام الحجة عليه السلام.

التعاليم:

١ - أن نتأمل التاريخ، أمرٌ بقاء، ﴿أَلَمْ تَرَ﴾.

٢ - في خضمّ كلّ تحوّل أو ثورة، ينبغي تحمّل الصعاب والتحليّ بسعة الصدر، ﴿كُفُوا أَيَّدِيكُمْ﴾.

(٤) الكافي، ج ٨، ص ٣٣٠.

(٥) تفسير العياشي، ج ١، ص ٢٥٧.

(١) تفسير نمونه، ج ٤، ص ١٤.

(٢) مفردات الراغب الأصفهاني، مادة «خشي».

(٣) تفسير نور الثقلين؛ الكافي، ج ٢، ص ١١٤.

- ٣ - لا بدّ من كبح العواطف المتسرّعة، والكف عن ترديد الشعارات الفارغة، ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾.
- ٤ - أحكام الله تعالى تنظر إلى المصالح الحقيقيّة لا إلى مطالبات الناس، ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ (في ضوء سبب نزول الآية).
- ٥ - لم يُخلق السيف لكلّ زمان ومكان، ففي الظروف الحرجة وعدم الجاهزية، ينبغي عدم تقديم الذرائع للعدوّ القويّ المتأهب، ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾.
- ٦ - لا تتقدّموا رسول الله وأحكام الله، وتحرزوا من استدخال الآراء الشخصية والمزاجية في المسائل الدينية ﴿... كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾.
- ٧ - بإقامة الصلاة وذكر الله تعالى يحصل الاستقرار النفسي، وبإداء الزكاة يتمّ ردم الهوّة الاقتصادية، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾.
- ٨ - القضايا العبادية في الإسلام لا فكاك لها عن قضايا الاقتصادية، ﴿الصَّلَاةَ﴾، ﴿الزَّكَاةَ﴾.
- ٩ - للصلاة والزكاة موقع خاصّ بين جميع العبادات، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾.
- ١٠ - الصلاة مقدّمة على الزكاة، (فأينما ذكر الاثنان، تقدّم اسم الصلاة على الزكاة).
- ١١ - حكم الصلاة والزكاة شرّع قبل حكم الجهاد، ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ...﴾.
- ١٢ - تهذيب النفس مقدّم على إصلاح المجتمع، فمن لم يكن من أهل الصلاة والزكاة، لن يكون من أهل الإخلاص والإيثار، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾.
- ١٣ - من يغضب بسرعة، يهدأ بسرعة، نعم كلّ فورة تهدأ، ولكن هيهات أن ينخدع اللبيب ويكون ساذجاً، ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ... فَلَمَّا كُتِبَ... لَمْ كُتِبَ﴾.

- ١٤ - ليس الهام أن يكون المرء ثورياً بل أن يبقى ثورياً. أحياناً تكون المسافة بين القول والعمل شاسعة، ﴿فَلَمَّا كُتِبَ... إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ﴾.
- ١٥ - حكم الجهاد، وسيلة لاختبار الناس، ﴿كُتِبَ... الْفِتْنَةُ... فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ﴾.
- ١٦ - الاعتراض على حكم الجهاد مرده إلى الخشية والخوف، ﴿يَخْشَوْنَ... لِرَ كُتِبَ﴾.
- ١٧ - العلائق الدنيوية هي العامل الرئيس وراء الانصراف عن الجهاد وساحات القتال، ﴿لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَآ أَجَلٌ﴾.
- ١٨ - لا تعترضوا على أحكام الله ولا على توقيت نزولها، بل عليكم في قبال الأوامر الإلهية أن تضعوا حسابات الزمان والمكان جانباً، ﴿لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَآ أَجَلٌ قَرِيبٌ﴾.
- ١٩ - الاعتراض على أوامر الله دليل عدم التقوى، ﴿لِرَ كُتِبَ... خَيْرٌ لِّمَنِ الْغَنَى﴾.
- ٢٠ - إذا مددت نظرك لأبعد من حدود هذه الدنيا المادية الضيقة، فلن يغريك متاعها القليل، ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾.
- ٢١ - وحدهم أهل التقوى هم المفلحون في الآخرة، ﴿خَيْرٌ لِّمَنِ الْغَنَى﴾.
- ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِندِ اللَّهِ قُلْ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ (٧٨)

إشارات:

□ تجمع هذه الآية الكريمة بين الأمر بالجهاد وعدم الخشية من الموت في جبهات القتال، وبين الرد على أوهام المنافقين وشكوكهم، وتحثهم على الفهم الصحيح للأمور بدلاً من التطير وإلقاء تبعات الهزائم والمصائب على رسول الله ﷺ.

التعاليم:

- ١ - الموت حقيقة حتمية ومصير واقع لا محالة، فلم إذا، الفرار من القتال؟! ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا﴾.
- ٢ - من أساليب المنافقين وألعايبهم، تشويه سمعة القائد، ﴿هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾.
- ٣ - من العار أن نلقي بتبعات أفعالنا المشينة على الآخرين هرباً من المسؤولية وتبريراً لما اقترفته أيدينا، ﴿يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾.
- ٤ - النصر والهزيمة، الموت والحياة، الأفراح والأتراح، كلّها تدور حول مدار التقدير الإلهي الحكيم للأمور، ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾.
- ٥ - الله تعالى مصدر الوقائع السارة والأليمة، لا ما يدعيه أصحاب العقيدة الشنوية من أنّ مصدر الشرور والأفراح هما أهريمن ويزدان، ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾.
- ٦ - من طبائع المنافق اللجاج، والعناد، وعدم استيعاب الحقّ، ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَٰثِيًا﴾.
- ٧ - أن نعتبر الله تعالى محور كلّ شيء (التوحيد الأفعالي)، فإنّ ذلك يحتاج إلى تدبّر دقيق وعميق، ﴿يَفْقَهُونَ﴾.
- ٨ - من لم يفقه توحيد الله ومحوريته، لن يفقه أيّاً من المعارف والحقائق، ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَٰثِيًا﴾.

﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ

لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَٰهِدًا ﴿٧٩﴾﴾

إشارات:

□ طبقاً للرؤية الكونية الإلهية، فإنّ جميع الأشياء هي مخلوقات الله تعالى، ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾^(١)، وأنّه سبحانه أنقن خلقها وأحسن ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾^(٢)؛ لذا فإنّ ما يتعلّق بالله هو خلق المخلوقات في أحسن صورة، أمّا

المصائب والمكآره التي تصينا، فهي أولاً: فقدان ذلك الحسن والكمال، وهي ليست من خلق الله، وثانياً: إنَّ ما يتسبَّب في حرماننا من المواهب والخيرات الإلهية هو أفعال الفرد والمجتمع.

□ وكما يقول أحد العلماء، فإنَّ الأرض تدور حول الشمس وحول نفسها، ويكون الجزء المواجه للشمس منيراً، أمّا الجزء الآخر فهو مظلم لأنّه يقع في الجهة المعاكسة للشمس، فالشمس تشعّ دائماً بالنور وليس فيها ظلمة، لذا، يمكن أن نقول للأرض: إنَّ الجزء المنير فيها هو بسبب ضياء الشمس، أمّا الجزء المظلم فهو من الأرض نفسها. كذلك الحال مع هذه الآية الكريمة التي تخاطب الإنسان بالقول إنَّ كلّ حسنة هي من عند الله، أمّا السيئة فهي من عندك.

□ والحقيقة أنّ ما ورد من مديح في القرآن في حقّ النبي الأكرم ﷺ يجعلنا نستبعد أن يكون المقصود بعبارة ﴿فَإِنْ نَفْسُكَ﴾ شخص النبي الأكرم، بل نفس الإنسان بصورة عامة، والله العالم.

□ قرأنا في الآية السابقة أنّ الخير والشر كلّ ينسب إلى الله، بينما تحصر هذه الآية الخير وحده بالله، وتنسب الشرّ إلى الإنسان. وتفسير ذلك هو أنّ الشرور تنسب إلى الإنسان باعتبار أنّها صادرة منه، ولما كان الإنسان وإرادته تحت سيطرة الله تعالى، فمن هذا الباب تأتي نسبتها إلى الله تعالى. تماماً كما هو الحال مع الموظف في دائرة حكومية، فإذا صدرت منه مخالفة، فهي تنسب إليه ومن زاوية أخرى تنسب إلى الدولة باعتباره موظفاً لديها.

□ ونُسب إلى الإمام أبي الحسن الرضا ﷺ قوله: «قال الله تبارك وتعالى، يا ابن آدم بمشيئتي كنت أنت الذي تشاء وتقول، وبقوّتي أدبت إليّ فريضتي، وبنعمتي قويت على معصيتي»^(١). إذاً، فالإنسان يريد ويشاء بإذن الله ومشيتته.

التعاليم:

١ - بحسب الرؤية الإلهية، فإنَّ كلّ حسن وجميل من الله سبحانه وتعالى، ﴿مِنْ حَسَنَاتِ رَبِّكَ﴾.

٢ - في أجواء الحرب النفسية وإضعاف الروح المعنوية يجب أن نسعى إلى تعزيز هذه الروح، فعندما ينسب المنافقون السيئات والشرور إلى النبي (والعباد بالله) ترد هذه الآية على تخرصاتهم بالقول: ﴿مِنْ سَيِّئَةٍ مِّنْ نَّفْسِكَ﴾.

٣ - رسالة النبي الكريم ﷺ رسالة عالمية ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ﴾.

٤ - الأنبياء هم واسطة خير للناس كافة، ﴿لِلنَّاسِ﴾.

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ ﴿٨١﴾

التعاليم:

١ - أقوال الرسول الكريم وأفعاله حجة وواجبة الطاعة تماماً كالقرآن الكريم، ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ...﴾.

٢ - الانقياد لأوامر الرسول الحكومية واجب. (المقصود بإطاعة الرسول، إطاعة أوامره الحكومية ﷺ، وإلا، فإن إطاعة الأحكام الإلهية التي تبلغ عن طريق الرسول هي طاعة لله تعالى وليس للرسول)، ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ...﴾.

٣ - الأنبياء معصومون، ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾.

٤ - أوامر النبي الكريم هي قيس من أوامر الله تعالى وتقع في موازاتها، ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾.

٥ - الإنسان مخير وصاحب إرادة، وليس مُسيراً، ﴿مَنْ يُطِيعِ... وَمَنْ تَوَلَّىٰ﴾.

٦ - رسالة الأنبياء تتلخص في الدعوة إلى الدين لا فرضه، ﴿وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾.

﴿وَيَقُولُوا طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَرُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ ﴿٨١﴾

التعاليم:

١ - لا تركنوا إلى كل إعلان بالالتزام أو بالإيمان، ذلك أن المنافقين يظهرون الطاعة بكلامهم المعسول، ﴿وَيَقُولُوا طَاعَةٌ﴾.

- ٢ - للمنافقين اجتماعاتهم، وندواتهم السرية الليلية، وتشكيلاتهم الحزبية، ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ﴾.
- ٣ - يعمد الأعداء إلى استغلال الثغرات والنقاط المظلمة، فلا تأمنوا دسائسهم ومؤامراتهم، ﴿بَيَّتَ﴾.
- ٤ - عند التوخيخ، لا يعمم القرآن حكمه على الجميع، ﴿طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾.
- ٥ - سوف يحاسب الله تعالى المنافقين على مكائدهم ومؤامراتهم، ﴿يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾.
- ٦ - يجب أن نتوكل على الله ونستمد منه العون في التصدي إلى مؤامرات المنافقين السرية، لا جرم أن التوكل هو سر النجاح، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾.
- ٧ - الله تبارك وتعالى هو حامي المسلمين ورسوله الأكرم ﷺ وناصرهم، وقد كشف لهم دسائس المنافقين، وهو الذي يظهرهم عليهم بمدد من عنده، ﴿وَكُنَّا بِأَلَلِهِ وَكَيْلًا﴾.

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (٨٢)

إشارات:

□ من الافتراءات التي وجهت إلى الرسول الأكرم ﷺ، أن أناساً آخرين علموه هذا القرآن، ﴿يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾^(١)؛ لذلك نزلت هذه الآية لترد هذه الافتراءات والتخرصات.

□ جرت العادة - طبقاً لقانون التكامل الإنساني - أن يطرأ تغيير على طبيعة كلام البشر وكتاباتهم لا سيما على المدى الطويل، إن في جهة التكامل والارتقاء أو التناقض والاختلاف. لكننا حينما نجد القرآن الكريم وعلى مدى ٢٣ سنة من نزوله على قلب رجل أُمِّي لا يقرأ ولا يكتب وفي مختلف الظروف، الحرب، والصلح، والغربة، والاستقرار، والقوة، والوهن، وعبر منعرجات الحياة

صعوداً وهبوطاً، خالياً من أي تناقض ولم يطرأ عليه أدنى تغيير، فسنوقن جازمين بأنه كلام الله المنزل، وليس من تعليم البشر.

□ إن أمر التدبر في القرآن الكريم صادر لجميع البشر على مرّ الأعصار والأمصا، ويشير ذلك إلى أنّ كل عالم في كلّ عصر سيتدبر في بعد خاص من أبعاده. يقول الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام حول غور المفاهيم القرآنية وسعتها: «بَحْرٌ لَا يُدْرِك قَعْرُهُ»^(١).

التعاليم:

- ١ - يوبّخ الله تعالى البشر على عدم تدبرهم في القرآن، ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ﴾.
- ٢ - التدبر في القرآن هو الدواء الشافي لداء النفاق، ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ... أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ﴾.
- ٣ - طريق التمسك بالإسلام والقرآن هو التفكير والتدبر لا التقليد، ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ﴾.
- ٤ - القرآن الكريم يدعو الجميع إلى التدبر، إذ إنّ معارفه وعلومه قابلة للفهم والاستيعاب من قبل الإنسان، ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾.
- ٥ - الاعتقاد بوجود اختلاف أو تناقض في القرآن هو نتيجة للنظرة السطحية وعدم التدبر والتعمق في كلماته، ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ﴾.
- ٦ - القرآن الكريم دليل حقّية الرسالة المحمدية، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ...﴾.
- ٧ - التناقض وعدم وجود اختلاف في الآيات دليل على أنّ مصدر القرآن وجود لا يطرأ عليه أيّ تغيير، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ﴾.
- ٨ - كل ما ينزل من عند الله هو حقّ وثابت ولا يشوبه التناقض أو التشكك أو الاختلاف، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا...﴾.
- ٩ - يسود التناقض والتضادّ القوانين الوضعية دائماً، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا...﴾.

١٠ - الاختلاف، والتغير، والتكامل، من خصوصيات النظريات والآراء البشرية، ﴿لَوْ جَدُّوا فِيهِ أَخْلَقْنَا﴾.

١١ - أفضل سبيل لإثبات بطلان عقيدة ما، كشف التناقضات التي تنطوي عليها وتعريتها، ﴿لَوْ جَدُّوا فِيهِ أَخْلَقْنَا كَثِيرًا﴾.

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٨٣)

إشارات:

□ تشير الآية الكريمة إلى تصرف مشين وهو إفشاء الأخبار السرية والسعي بها بين المسلمين بقصد الإضرار بهم وإضعاف معنوياتهم. وعادة ما يتم هذا الأمر أي إذاعة الأخبار السرية من منطلق السذاجة، أو بدافع الانتقام والإساءة، أو أن يكون الساعي بالخبر عميلاً أو ألعوبة، وربما حركته دوافع الطمع المادي وأحياناً الشهرة والرغبة في إظهار المعرفة. إن تناول الإسلام هذه المسألة يدل على جامعته وشموليته، وتحمل هذه الآية الكريمة على مسألة إفشاء الأسرار العسكرية، ونقل أخبار النصر أو الهزيمة قبل عرضها على القادة وأولي الأمر، لأن ذلك يدفع المسلمين إلى حالة من الشعور بالنشوة الكاذبة إزاء انتصارات وهمية أو يؤدي إلى بث الرعب والفرع غير المبرر في صفوف المسلمين. ولولا تحذيرات الله تبارك وتعالى وعناياته المتواصلة لانخرط معظم المسلمين في هذا المسار الشيطاني (إذاعة الأسرار).

□ وعن الإمام الصادق (عليه السلام): «مَنْ أَذَاعَ عَلَيْنَا شَيْئاً مِنْ أَمْرِنَا فَهُوَ كَمَنْ قَتَلَنَا عَمْدًا وَلَمْ يَفْتُلْنَا خَطَأً»^(١). وورد أيضاً في الرواية عن أمير المؤمنين (عليه السلام): «المنذع علينا سرنا كالشاهر بسيفه علينا»^(٢).

(١) الكافي، طبعة المكتبة الإسلامية، ج ٢، ص ٣٧١.

(٢) وسائل الشيعة، ج ٢٧، ص ١٩٧.

□ وعن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ قال: هم الأئمة المعصومون^(١).

التعاليم:

- ١ - صون الأسرار وحفظ الأخبار الأمنية مسؤولية جميع المسلمين، وإذاعتها والسعي بها حرام، ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ... أَذَاعُوا بِهِ﴾.
- ٢ - بثّ الشائعات من جملة أسلحة المنافقين، ﴿أَذَاعُوا﴾؛ (بالنظر إلى مفهوم الآيات السابقة).
- ٣ - يجب إيصال أخبار الجبهات والأسرار العسكرية إلى جهة معينة مسؤولة، ولها، بعد تحليلها ومعالجتها، أن تنشر ما ترى فيه المصلحة، ﴿رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ﴾.
- ٤ - على عامة الناس الرجوع إلى أهل الاستنباط، ﴿رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ...﴾.
- ٥ - لا بدّ من أن يكون أولو الأمر من بين المؤمنين، ﴿أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾.
- ٦ - ينبغي للمسلمين أن تكون لهم الحكومة، والتشكيلات، والقيادة، الخاصة بهم. أولو الأمر هم المسؤولون في الدولة والحكومة والسلطة، ﴿وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾.
- ٧ - لا شك في أنّ ضبط ومعالجة الأخبار الأمنية والأسرار الاجتماعية، واستحداث الأجهزة المخبرية من أجل جمع وتحليل الأخبار المصيرية المهمة ونشر ما تقتضيه المصلحة على الناس كلّ ذلك من صلاحيات القيادة، ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ﴾.
- ٨ - ثمة علاقة وثيقة بين الولاية والفقه، لذا ينبغي أن يكون أولو الأمر من أهل الاستنباط، ﴿أُولَى الْأَمْرِ... يَسْتَنْبِطُونَهُ﴾.
- ٩ - لا يقتصر الاستنباط على مجال الأحكام الفقهية، ﴿أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ... يَسْتَنْبِطُونَهُ﴾.

- ١٠ - وأد المؤامرات والفتن يكون عن طريق إطلاع الجهات الصالحة المختصة على الأخبار وتحليلها، وهي تجسيد للفضل والرحمة والإلهية، ﴿رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ... فَضَّلَ اللَّهُ﴾.
- ١١ - تعيين رسول الله ﷺ وأولي الأمر كمرجعية للناس هو من أعظم أمثلة الفضل والرحمة الإلهية، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ...﴾.
- ١٢ - المركزية السليمة تحول دون الانزلاق والانحراف، وعدم وجود قائد سيوقع المجتمع في شرك الشيطان، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ... لَا تَبْعَتُمُ﴾.
- ١٣ - إفساء الأسرار العسكرية من دون الرجوع إلى القادة الإلهيين، هو انقياد لوساوس الشيطان، ﴿لَا تَبْعَتُمُ الشَّيْطَانَ﴾.
- ١٤ - ينخدع معظم الناس بالإشاعات، ﴿لَا تَبْعَتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.
- ﴿فَقَلِيلٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَكْفَ بِأَسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾

إشارات:

□ ورد في سبب نزول الآية أنه بعد النصر الذي أحرزه المشركون في معركة أحد، توعد أبو سفيان بفرار وكبرياء، وهو في طريق العودة، المسلمين بالمواجهة مرة أخرى في موسم «بدر الصغرى» (أي وقت إقامة السوق التجارية في شهر ذي القعدة الحرام في منطقة بدر). ولما حان موعد المواجهة دعا النبي الكريم ﷺ المسلمين للاستعداد للجهاد والتوجه إلى المنطقة المذكورة، إلا أن نفراً من المسلمين - الذين كانوا حتى ذلك الحين ما زالوا يعانون من مرارة الهزيمة في واقعة أحد - تقاعسوا ولم يبدوا استعداداً للاستجابة لدعوة النبي الكريم ﷺ، فنزلت الآية الكريمة، فجدد النبي الدعوة إلى المسلمين بالتحرك فما تبعه غير سبعين رجلاً منهم الذين حضروا الموقعة، ولكن أبا سفيان الذي كان قد تملكه الرعب من مواجهة المسلمين جبن ولم يحضر إلى المكان الموعود وعاد الرسول الأكرم مع أصحابه سالماً إلى المدينة.

□ «النكول»، من «نكل»، يقال: نكل عن الشيء: ضعف وعجز بدافع الجبن، ونكلته: قيدته، والنكل، قيد الدابة وحديدة اللجام، لكونهما مانعين، و«التنكيل» أداء عمل يردع مشاهده عن الذنب وهو العقاب الذي ينزل بالظالمين فيردعهم ويردع من يتعظ بمصيرهم.

□ وعن الإمام الصادق عليه السلام: «إن الله كلّف رسول الله ﷺ ما لم يكلف به أحداً من خلقه. كلّفه أن يخرج على الناس كلهم وحده بنفسه وإن لم يجد فئة تقاتل معه... ثم تلا هذه الآية^(١). وفي عصرنا قال الإمام الخميني (ره): ليعلم العالم كله لو بقي الخميني وحده لأصرّ على مواجهة الكفر ومحاربة الشرك.

□ يقول الإمام الباقر عليه السلام: «... وما ألقى سرية منذ نزلت عليه ﴿فَقَتِّلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾، إِلَّا وَلِيْ بِنَفْسِهِ»^(٢).

التعاليم:

- ١ - يجب على القائد أن يتقدّم الآخرين، ﴿فَقَتِّلْ﴾.
- ٢ - إذا نكص المسلمون عن الاستجابة لاستغاثة المستضعفين، فعلى القائد أن يبادر إلى ذلك ولو كان وحده، ﴿إِلَّا نَفْسَكَ﴾.
- ٣ - لا بدّ للقائد أن يتّصف بالحزم والصلابة بحيث لا تؤثر فيه نصرة أتباعه له أو تخاذلهم عن الجهاد، ﴿إِلَّا نَفْسَكَ﴾.
- ٤ - كلّ شخص مسؤول عن عمله، ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾.
- ٥ - يجب الاتكال على الله لا على الناس، ﴿إِلَّا نَفْسَكَ﴾.
- ٦ - واجب الأنبياء هو الحثّ والدعوة لا الإكراه، ﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ^ط﴾.
- ٧ - الحرب والجهاد بحاجة إلى إعلام قوي، ﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ^ط﴾.
- ٨ - التكليف المناط بنا هو القتال والجهاد، أمّا هزيمة الأعداء فبيد الله، ﴿فَقَتِّلْ... عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ﴾.

(١) تفسير الصافي.

(٢) تفسير البرهان، ج ١، ص ٣٩٨؛ تفسير العياشي، ج ١، ص ٢٦١.

٩ - قدرة الله تعالى فوق كلّ قدرة، وهي تبعث الأمل في نفوس المؤمنين وتبثّ الرعب في قلوب المتخلفين، ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَاسًا﴾.

﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْبِلًا﴾ (٨٥)

إشارات:

□ «مُقيت»، مشتقة من «القوت»: وهو ما يمسك الرمح، وجمعه: أقوات، وتعني هنا الشخص الذي يعطي الآخرين قوتهم وغذاءهم، وبذلك يكون حافظاً لحياتهم، ولهذا تأتي كلمة «مقيت» بمعنى الحافظ الذي يمتلك القدرة على الحفظ.

□ ذكرت الآية السابقة أنّ كلّ شخص مسؤول عن عمله، فيما توضّح هذه الآية الدعوة والوساطة في العمل الصالح، ودورهما في ما يصيب الإنسان من ثواب أو عقاب.

□ الموعدة، وإصلاح ذات البين، والتدريس، والحثّ على المشاركة في الجبهة، والتعاون على العمل الصالح، كلّها أمثلة على «الشفاعة الحسنة»، كما ورد في الحديث الشريف أنّ الدعاء بحقّ الآخرين، والأمر بالمعروف، والإرشاد، أو حتى الإشارة إلى الخير، هو من أمثلة «الشفاعة الحسنة»^(١).

الغيبة، والنميمة، ووضع العصي في العجلات، وإلقاء التّهم، وإشعال الفتن، والتخويف من أهوال الجبهة، والوساوس والمؤامرات، كلّها أمثلة على الشفاعة السيئة.

(١) تفسير الصافي، نصّ الحديث الشريف: «من أمر بمعروف، أو نهى عن منكر، أو دلّ على خير أو أشار به، فهو شريك، ومن أمر بسوء أو دلّ عليه أو أشار به فهو شريك».

التعاليم:

- ١ - الفردية والانعزالية في الإسلام ممنوعة، ﴿يَشْفَعُ شَفْعَةً حَسَنَةً﴾.
- ٢ - الدعوة إلى الخير أو الشر، تجعل صاحبها شريكاً في الثواب أو العقاب، ﴿نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾.
- ٣ - القيود والمحدوديات لا تسمح بالتدخل المباشر في أي عمل، ولكن يمكن أن يحظى المرء بنصيب من خلال الشفاعة الحسنة، ﴿نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾.
- ٤ - يجب أن ندفع للوسيط نصيبه، فأولئك الذين يتوسطون في الأمور الخيرية أو التجارة، لا بد أن يحفظوا بنصيبهم، ﴿يَشْفَعُ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾.
- ٥ - عند التوسط والشفاعة يجب أن نستحضر الله في ضمائرنا وقلوبنا، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْبِلًا﴾.

﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها١﴾
 إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾

إشارات:

□ المراد بـ «التحية»، السلام وغيره من البر^(١)، والتي تتضمن إهداء الدعاء لدوام حياة الآخرين وسلامتهم وسرورهم، كما هو الحال عندما أهدت جارية إلى الإمام الحسن عليه السلام باقة ورد، فأعتقها لوجه الله، وعندما سُئل عن ذلك استشهد بهذه الآية الكريمة.

لقد حث الإسلام كثيراً على إفشاء السلام بين الناس، سواء أكنّا نعرفهم أم لا نعرفهم، لدرجة أنه اعتبر البخيل هو من يبخل بإلقاء التحية والسلام. وقد جاء في الروايات أن النبي الكريم كان يسلم على كل من يصادفه، حتى على الأطفال.

□ لم يقصر النظام التربوي الإسلامي على الصغار فقط أن يلقوا التحية والسلام على الكبار، بل إن الله ورسوله والمؤمنين قد سلموا على المؤمنين.

سلام الله: ﴿سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْغَايَيْنِ﴾^(١).

سلام النبي: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾^(٢).

سلام الملائكة: ﴿الَّذِينَ نَزَّلْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾^(٣).

التعاليم:

- ١ - لنسع إلى توطيد علاقاتنا الأخوية والعاطفية، ﴿فَحَيَّوْا بِأَحْسَنَ﴾.
- ٢ - لا يَحْسُن ردّ إحسان الناس، بل علينا أن نتقبله ونقابله بأحسن منه، ﴿فَحَيَّوْا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾.
- ٣ - يجب الردّ بالمثل على العواطف الجياشة والهدايا بأسرع وقت، الفاء في ﴿فَحَيَّوْا﴾ استثنائية تدلّ على الإسراع.
- ٤ - التحية الأحسن هي المستحبة في الإسلام، ﴿فَحَيَّوْا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾.
- ٥ - للردّ على الأعمال الصالحة للآخرين، لنبدأ أولاً بالردّ الأفضل، وإذا لم يتح لنا ذلك، نردّ بالمثل، ﴿بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّهَا﴾.
- ٦ - لا تنزعجوا من عدم الردّ على التحية؛ لأنه إذا لم يردّ الناس، فثوابها لن يضيع عند الله، ولا تهملوا عواطف الناس، فيحاسبكم الله على ذلك، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾^(٨٧)

التعاليم:

- ١ - المبدأ والمعاد كلاهما بيد الله الواحد، ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَكُمْ﴾.

(١) سورة الصافات: الآية ٧٩.

(٢) سورة النحل: الآية ٣٢.

(٣) سورة الأنعام: الآية ٥٤.

٢ - يوم القيامة هو يوم الجمع للحساب، لذا، يجب أن نسعى لكسب رضا الله تعالى، وآلا نعبد إلا إياه، ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾.

٣ - مع كل هذه الدلائل على المعاد (مثل عدالة الله، حكمته، علائم البعث والنشور في الطبيعة، والحياة بعد سبات الشتاء، النوم واليقظة، تجدد خلايا الجسم، وغير ذلك) لا يبقى أي مجال للشك في وقوع يوم القيامة، ﴿لَا رَيْبَ﴾.

٤ - حيثما كانت الغفلة أكبر، كان ذلك ادعى أن يكون المرء أكثر حزمًا في تحذيراته. (علائم التأكيد في الآية: اللام، نون التوكيد، جملة ﴿لَا رَيْبَ﴾ و﴿أَصْدَقُ... حَيْثُ﴾، كلها بسبب غفلة الإنسان عن يوم القيامة).

﴿مَّا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَن أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾

إشارات:

□ الإركاس: قلب الشيء على رأسه، ورده أوله إلى آخره، والمراد بـ ﴿أَرْكَسَهُمْ﴾ في الآية هو الانقلاب الفكري للمنافقين.

□ قرأنا في آية سابقة، موضوع الوساطة والشفاعة في كل عمل خيراً كان أم شراً، وهنا، توضّح الآية مثلاً لشفاعة المنافقين.

□ نُقِلَ أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ مِنَ الَّذِينَ كَانُوا قَدْ أَظْهَرُوا الْإِسْلَامَ امْتَنَعُوا عَنْ تَرْكِ مَجَاوِرَةِ الْمُنَافِقِينَ وَمَدَاهِنَتِهِمْ، وَأَحْجَمُوا لِذَلِكَ عَنِ الْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ؛ وَكَانَ هَؤُلَاءِ فِي الْحَقِيقَةِ يَسَانِدُونَ وَيُظَاهِرُونَ عِبْدَةَ الْأَوْثَانِ الْمُشْرِكِينَ، إِلَّا أَنَّهُمْ اضْطَرُّوا فِي النِّهَايَةِ إِلَى الْخُرُوجِ مِنْ مَكَّةَ (وَسَارُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى وَصَلُوا إِلَى مَشَارِفِ الْمَدِينَةِ، وَلَعَلَّهُمْ فَعَلُوا ذَلِكَ لِدَرِّ الْفُضِيحَةِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ أَوْ بِهَدَفِ التَّجَسُّسِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الْمُهَاجِرِينَ)، لَكِنَّ الْمُسْلِمِينَ انْتَبَهُوا إِلَى حَقِيقَةِ هَؤُلَاءِ، غَيْرَ أَنَّهُمْ انْقَسَمُوا إِلَى فِئَتَيْنِ، فِئَةٌ مِنْهُمْ رَأَتْ ضَرُورَةَ طَرْدِ أَوْلَئِكَ النَّفَرِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ كَانُوا فِي الْحَقِيقَةِ يَدَافِعُونَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَأَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ،

والفئة الثانية من المسلمين الذين كانوا لسذاجتهم يرون ظاهر الأمور دون باطنها، فعارضوا طرد المنافقين واعترضوا بزعمهم أنه لا يمكن محاربة أو طرد من يشهد لله بالوحدانية ولمحمد ﷺ بالنبوة، وقالوا: إنه لا يمكن استباحة دماء هؤلاء لمجرد عدم هجرتهم مع المسلمين: فنزلت هذه الآية الكريمة وهي تلوم الفئة الأخيرة على خطئها، وترشدها إلى طريق الحق والصواب.

□ يجب علينا أن نفسر عبارات القرآن مجتمعة لا مجتزأة، ففي هذه الآية نجد عبارة ﴿أَضَلَّ اللَّهُ﴾ وكذلك ﴿يُضِلُّ اللَّهُ﴾، مضافاً إلى عبارة ﴿يَمَّا كَسَبُوا﴾. والمعنى هو أنّ إضلال الله تعالى لنا هو بسبب ما اقترفته أيدينا.

التعاليم:

- ١ - في حضور قائد كالنبي الكريم، لا مجال لاختلاف الآراء، ﴿فَمَا لَكُمْ...﴾.
- ٢ - التصدي للمنافقين يقتضي الحزم والاتحاد، ﴿فَمَا لَكُمْ... فَتَنِينَ﴾.
- ٣ - سقوط الإنسان نتيجة طبيعية لما اقترفته يده، ﴿أَرْكَسَهُمْ يَمَّا كَسَبُوا﴾.
- ٤ - لا يحسن أن نكون أحرص من الآخر على نفسه، فإذا كان يهتئ لأسباب سقوطه بنفسه، فلم الحرص والتباكي إذن؟ ﴿يَمَّا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ﴾.
- ٥ - غضب الله آتٍ لا محالة حينما يطفح كأس المعاصي، كل العوامل والأسباب هباء أمام قدرة الله تعالى، ﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾.
- ٦ - من يطرد من نظام العدل الإلهي بسبب موبقاته، فليس بوسع أحد، حتى أنت أيها النبي، أن ينجي، ﴿فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾.

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾

إشارات:

□ التعامل مع أهل النفاق له مراحل ودرجات، فهذه الأحكام الشديدة والعنيفة الواردة في الآية خاصة بأولئك المنافقين الذين يتواطؤون مع المشركين في نسج المؤامرات والدسائس ضد المسلمين.

التعاليم:

- ١ - الله تعالى يكشف عن الأمانى والأسرار الدفينة للمنافقين، ﴿وَدُّوا...﴾.
- ٢ - يستهدف المنافقون والأعداء إيمانكم، لتصبحوا كفاراً، ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾.
- ٣ - يجب تنقية المجتمع الإسلامي من المنافقين، وقطع جميع روابط الصداقة والمحبة معهم، ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾.
- ٤ - الهجرة من دار الكفر والشرك والدسائس أمر واجب، ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾.
- ٥ - علامة الإيمان الحقيقي الهجرة في سبيل الله تعالى، ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

- ٦ - باب التوبة مفتوح دوماً، ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾.
- ٧ - يجب قتل المنافقين والمتآمرين وقمعهم، وهذا يستلزم أن يكون المجتمع الإسلامي مقتدرًا وقويًا، ﴿فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ﴾.
- ٨ - لا يعترف الإسلام بحدود في عملية ملاحقة المفسدين، ﴿فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾.
- ٩ - ينبغي ألا نعول على الإمكانات المادية والقوات العسكرية للمنافقين، بل ينبغي غض الطرف عن كل ذلك، ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.
- ١٠ - الإسلام يرفض إقامة العلاقات مع المنافقين ومن أي نوع كانت عاطفية، أو سياسية، أو عسكرية، أو اقتصادية، أو ثقافية، ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّثْقَ أَوْ جَاءَكُمْ وَكُم حَصَرْتُمْ صُدُّوهُمْ أَنْ يَقْبَلُواكُمْ أَوْ يَقْبَلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَبَلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يَقْبَلُواكُمْ وَأَلْفَوْا إِلَيْكُمْ أَسَلَّمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ (٩٠)

التعاليم:

- ١ - يجب احترام العهود والمواثيق العسكرية حتى مع الكفار، ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّثْقَ﴾.

- ٢ - أثناء الحروب، لا تتعرضوا للذين يعلنون حيادهم، ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾.
- ٣ - يجب أن يملك المسلمون من أسباب القوة والمنعة ما يردع الكفار حتى عن التفكير في شن الحرب عليهم، ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ﴾.
- ٤ - إذا وضعنا قدرة الله نصب أعيننا فلن نصاب بالغرور، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ﴾.
- ٥ - لا تحسبوا أن قدرتكم وقوتكم هي التي ردت الأعداء عن قتالكم، بل إنها إرادة الله ومشيته، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾.
- ٦ - لم يشرع الإسلام الجهاد من أجل التسلط ونشر العقيدة بالإكراه، بل لدفع الشر وإزالة العقبات؛ لذا ما دام هؤلاء قد كفوا أيديهم عنكم، فعليكم أن تكفوا أيديكم عنهم ولا تتعرضوا لهم، لأنكم إن لم تفعلوا فلربما مكنهم الله وسلطهم عليكم، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ﴾.
- ٧ - يجب احترام المقاصد السلمية والرغبة في وقف إطلاق النار. فالسلام هو الأصل في الإسلام، أما اللجوء إلى خيار الحرب فهو في حالات الاضطرار فقط، ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا عَنْكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ... فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾.
- ٨ - لا يكفي دعوة الأعداء إلى السلام، بل يجب، زيادة في الاحتياط والاطمئنان، وقف الحرب وتطبيق السلام، ﴿فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْفَوْا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ﴾.
- ٩ - الله سبحانه يحدّد معايير وضوابط الحرب والسلام، ﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾.

﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوا بِقَوْمِهِمْ كُلِّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْرِضُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَاذْهَبُوا وَتِلْكَ الْأَوْتَانُ حَيْثُ تَقِفُ مَتَاهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿٩١﴾﴾

إشارات:

□ ذكروا في أسباب نزول الآية الكريمة أن أناساً من أهل مكة كانوا يأتون النبي ﷺ، فيسلمون رياءً، ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون في الأوثان،

يبتغون بذلك أن يأمنوا ههنا وههنا، ودرءاً لخطر المسلمين وخطر قريش عن أنفسهم، فضلاً عن المحافظة على مصالحهم لدى الطرفين، وبالطبع، كان هؤلاء أكثر ميلاً إلى الكفر منهم إلى الإيمان، فنزلت هذه الآية وأمرت المسلمين بقتالهم إن لم يعتزلوا ويصالحوا^(١).

التعاليم:

- ١ - الله سبحانه وتعالى يُطلع المسلمين على نوايا العدو ومقاصده المستقبلية، ﴿سَتَجِدُونَ﴾.
- ٢ - لا بدّ للمسلمين من أن يتعرفوا إلى أعدائهم بمختلف أصنافهم، حتى يتعاملوا مع كلّ صنف بما يناسبه، ﴿سَتَجِدُونَ أَعْرَابَ...﴾.
- ٣ - لا تأمنوا لمقال أيّ كان وحديثه، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُامَنُوكُمْ﴾.
- ٤ - هدف المنافقين تحقيق حياة الرفاهية الآمنة، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُامَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾.
- ٥ - البيئات والظروف المناسبة تعمل على بروز الخصال الباطنية للأفراد، ﴿كُلُّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا﴾.
- ٦ - اتجاه بوصلة المنافق نحو قبلة الكفر، وحينما يجد الظروف ملائمة، ينغمس فيه، ﴿كُلُّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا﴾.
- ٧ - المعاملة العنيفة والقاسية مع المنافقين الذين يتحرّكون للإطاحة بالنظام الإسلامي، ﴿لَمْ يَعْزِلُوا... وَيَكْفُرُوا أَيُّهُمُ﴾.
- ٨ - الكشف عن الوجه الكالح للمنافقين يستلزم الوعي والتحقيق والمعلومات الدقيقة، ﴿يُفْتَنُّوهُمْ﴾ مشتقة من المصدر «ثقافة» الذي يعني الحصول على شيء باستخدام الدقة، والمهارة، والعلم، بينما الفعل «وجد» يعني الحصول على الشيء بصورة مطلقة.
- ٩ - يجب أن يحيط سلطان المسلمين بالكافرين من كلّ جهة، ﴿سُلْطَنَا تُبَيِّنَا﴾.

١٠ - الدولة الإسلامية لها الولاية والصلاحيات الواسعة في قمع المنافقين المتآمرين، لتنقية المجتمع من دنسهم، ﴿جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾.

﴿وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُكْتَابَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١٢)

إشارات:

□ قيل: إنّ مشركاً من أهل مكة هو «الحارث بن زيد» كان يعذب أحد المسلمين - ولفترة طويلة - بالتعاون مع أبي جهل، وكان اسم هذا المسلم هو «عياش بن أبي ربيعة» ولم يكن تعذيبه بسبب جرم اقترفه، بل لمجرد أنّه آمن بالإسلام، وبعد هجرة المسلمين إلى المدينة هاجر «عياش» إليها، فصادف يوماً «الحارث بن زيد» في إحدى طرقات المدينة فقتله ظناً منه أنّه ما زال عدوّاً للمسلمين، ولم يكن على علم أنّ الحارث كان قد تاب وأسلم، فعلم النبي الكريم ﷺ بهذا الحادث، فنزلت الآية الشريفة لتبيين حكم مثل هذا القتل الناجم عن الخطأ^(١).

□ والحقيقة أنّ الآثار الإيجابية المترتبة على دفع الدية هي:

- أ - تعتبر الدية بلسماً لجروح أهل القتل.
- ب - وتحول دون تفشي الشعور بعدم المبالاة بين الناس، ولثلاً يقال إنّ قتل الخطأ ليس له دية.
- ج - وهي، احترام لحياة أعضاء المجتمع وصون للسلم الأهلي.
- د - التعويض عن الخسارة المادية التي قد تلحق بأهل القتل جرّاء فقدهم إياه.

□ لا تدفع الدية لأهل القتل إذا كانوا من أعداء المسلمين، للحيلولة دون تقوية أركان أعداء الإسلام. علاوة على أن الإسلام قد قطع ارتباط القتل المؤمن بأسرته الكافرة، فلا يبقى هنا مجال لأيّ تعويض.

□ يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام في قوله وَإِن كَانَتْ لِيُؤْمِنُ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ: «أما تحرير رقبة مؤمنة ففي ما بينه وبين الله، وأما الدية المسلمة إلى أولياء المقتول»^(١).

□ الدية الكاملة هي بمقدار معدّل الدخل للفرد العادي، ومقدارها ألف مثقال من الذهب، أو مائة بغير أو مائتا بقرة^(٢).

□ لم تحدّد الآية الكريمة مقدار الدية الواجب دفعها إلى أهل القتل، وذلك لكي يلجأ المسلمون إلى المفسرين الحقيقيين للقرآن وسنة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، أعني أهل البيت عليهم السلام، وينهلوا من علومهم.

□ في البداية، إنّ مقدار الدية المعيّنة لأهل القتل المسلم هو أن يحرّر القاتل عبداً مسلماً، ثم يدفع الدية عن دم القتل إلى أهله، فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ، ولكن إذا كان أهله من الكفار، فالحديث في الآية هو أولاً عن دفع الدية ثم تحرير رقبة فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ... وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ، ولعلّ تفسير ذلك هو أن الأهل الكفار ربّما كان اهتمامهم بالأموال المادية أكبر، أو أن دفع الدية يكون له تأثير على استمرار العهد والميثاق.

التعاليم:

- ١ - قتل البريء في الإسلام حرام، وَإِن كَانَتْ لِيُؤْمِنُ أَنْ يَقْتُلَ.
- ٢ - لا يجتمع القتل مع الإيمان، وَإِن كَانَتْ لِيُؤْمِنُ أَنْ يَقْتُلَ.
- ٣ - المؤمن معرّض للخطأ، وعليه أن يحذر، وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً.
- ٤ - حرمة النفس المسلمة هي إلى درجة بحيث لا يمكن التسامح حتى في حال إزهاقها خطأ، وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ.

- ٥ - الخطأ هو أحد معايير رفع التكليف أو تخفيف العقوبة، ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾.
- ٦ - التعويض عن فقدان المؤمن يتم بتحرير إنسان مؤمن، ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾.
- ٧ - الحرية هي نوع من الحياة، فحينما تُسلب حياة شخص، يجب التعويض عنها بتحرير شخص آخر^(١)، ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾.
- ٨ - تحرير العبيد أمرٌ مقررٌ في ثانيا التشريعات الإسلامية، ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾.
- ٩ - دفع الدية غير مشروط بطلب أولياء الدم (أهل القتل)، بل هو فرض ينبغي على القاتل أدائه، ﴿مُسْلَمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾.
- ١٠ - لا تُدفع الدية لأي كان، بل لأسرة القتيل، حتى يصل الحق إلى صاحبه، ﴿مُسْلَمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾.
- ١١ - الدية هي من حق أسرة القتيل، ﴿مُسْلَمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾.
- ١٢ - تعيين دية المجرم، هو سر وجود الجريمة في الحكومة الإسلامية، ﴿وَدِيَةٌ مُّسْلَمَةٌ﴾.
- ١٣ - يجب أن لا نتخلّى عن العواطف والرافة حتى ونحن في ذروة الانفعال، فالعفو عن المجرم صدقة مستحبة، ﴿إِلَّا أَنْ يَصُدَّقُوا﴾.
- ١٤ - للعهد والميثاق حرمة كبيرة لدرجة أنّ الكافر أحياناً يوضع في مصاف المؤمنين، فالآية تصرّح بوجوب دفع الدية إلى الكافر الذي يربطنا به عهد، ﴿وَدِيَةٌ مُّسْلَمَةٌ... وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾.
- ١٥ - يجب توظيف طبيعة الجرائم لتكون، من ناحية، في صالح المجتمع المؤمن ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ ومن ناحية ثانية، أن لا تؤدي إلى تدعيم المجتمع الكافر. لذلك، فإنه لا يجوز دفع الدية إلى العدو الحربي، ﴿فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُمْ مُّؤْمِنُونَ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾.
- ١٦ - شرط الإيمان الموضوع لتحرير الرقبة، هو تشجيع للعبيد للدخول في الإسلام، ﴿رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾.

- ١٧ - تشريعات الإسلام منفتحة ولا تعترئها مسدات، فالأحكام الإسلامية يمكن تخفيفها لا تعطيلها، ﴿فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ﴾.
- ١٨ - الغرامة في الإسلام على قدر القوة الجسدية والمالية للأشخاص، ﴿فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ﴾.
- ١٩ - الصوم المتواصل هو وسيلة لتنقية الروح وتهذيب النفس، ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾.
- ٢٠ - يرتكز الإسلام على الجانب الإيماني للأشخاص، فتحرير العبد ودفع الدية مسألان واضحتان للعيان، أما الصوم، فهو مسألة غير مرئية؛ لأنها مرتبطة بضميره الديني والأخلاقي، وهو الذي يحاسبه، ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾.
- ٢١ - نفس المؤمن لها حرمة كبيرة، والكفارة هي وسيلة إلهية للرافة والرفق، ﴿تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾.
- ٢٢ - القتل الخطأ أيضاً يبعد القاتل عن ألطاف الله، ولا يعيده إليها إلا دفع الدية وتحرير رقبة، ﴿تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾.
- ٢٣ - التشريعات الإلهية تقوم على العلم والحكمة وهي تلحظ جميع الجوانب في الموضوع، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَظُمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (١٦)

إشارات:

□ نزلت في مقيس بن ضبابة الكناني، في ظروف معركة أحد العصبية، وذلك أنه أسلم وأخوه هشام بن ضبابة وكانا في المدينة، فوجد مقيس أخاه هشاماً ذات يوم قتيلاً في الأنصار بين بيوت بني النجار، فانطلق إلى النبي ﷺ فأخبره بذلك، فأرسل رسول الله ﷺ رجلاً من قريش من بني فهر ومعه مقيس إلى بني النجار - ومنزلهم يومئذ بقاء - أن ادفخوا إلى مقيس قاتل أخيه إن علمتم

ذلك، وإلا فادفعوا إليه الدية، فلما جاءهم الرسول قالوا: السمع والطاعة لله وللرسول، والله ما نعلم له قاتلاً ولكن نؤدي إليه الدية، فدفَعُوا إلى مقيس مائة من الإبل دية أخيه، فلما انصرف مقيس والفهري راجعين من قباء إلى المدينة وبينهما ساعة، عمد مقيس إلى الفهري رسول الله ﷺ فقتله، وارتدَّ عن الإسلام^(١).

□ يولي الإسلام أهمية قصوى لنفس المسلم وصون أمنه وماله، ولذلك فإنَّ حكم القاتل المتعمَّد هو أن يخلَّد في العذاب، وذلك للحدِّ من حوادث القتل والجرائم الخطيرة. والحقيقة أنَّ العبارات المستخدمة في هذه الآية بحقَّ القاتل الذي يقتل مؤمناً عن عمد وإصرار لم تذكر في أيِّ معصية أخرى. سئل الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام عن قوله ﷺ: «وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا» قال: من قتل مؤمناً على دينه فذلك المتعمَّد الذي قال الله تعالى في كتابه عنه: «وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا»^(٢).

□ «التعمَّد» مشتقة من كلمة «العمود»، وحيث إنَّ النية هي عماد الأفعال، لذا، يقال لقصد الشيء والاستناد إليه: بـ «العمد».

□ أشارت روايات عدَّة صراحةً إلى فداحة ذنب القتل، ومن ذلك ما تضمَّن المعاني الآتية:

- ١ - أوَّل ما يُسأل عنه الإنسان في يوم القيامة هو قتله الأبرياء.
- ٢ - أشقى الناس هو الذي يسفك دم الإنسان أو يضربه.
- ٣ - لا يتحمَّل القاتل وزر القتل فحسب، بل أوزار المقتول أيضاً.
- ٤ - لو أنَّ أهل السموات والأرض اجتمعوا على قتل مؤمن، أو رضوا به لأدخلهم الله النار.
- ٥ - زوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حقٍّ^(٣).

(١) المغازي، ج ١، ص ٣٠٤، نقلًا عن: «يامبري وجهاد» (النوبة والجهاد)، ص ٣٢٧.

(٢) تفسير نور الثقلين؛ الكافي، ج ٧، ص ٢٧٦.

(٣) وسائل الشيعة، ج ١٩، ص ٢ فما بعد.

التعاليم:

١ - في الحكومة الإسلامية لا يملك أيّ مسؤول الحقّ في قتل أو إعدام الآخرين دون وجه حقّ، ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ... مُتَعَمِّدًا﴾.

(فيما يؤمن النظام الطاغوتي بشعار ﴿أَنَا أُخِي- وَأُمِيْتُ﴾^(١)).

٢ - قيمة الإنسان بأفكاره ومعتقداته السليمة، ﴿مُؤْمِنًا﴾.

٣ - الأخطاء التي تُرتكب عن عمد وسابق إصرار لها حساب آخر، ﴿مُتَعَمِّدًا﴾.

٤ - سفك دم البريء من الكبائر، ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾.

٥ - العقوبات الشديدة والقاسية هي عامل ردع يحول دون الفساد في المجتمع، وفي الوقت نفسه، يبعث على إرساء دعائم السلم الأهلي وتوطيده، ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ... فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَرْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَقَيُّوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَفَازُهُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ بَكَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾

إشارات:

□ بعد عودة الرسول الأكرم ﷺ من غزوة خيبر بعث أسامة بن زيد مع جمع من المسلمين إلى يهود كانوا يسكنون في قرية فدك، من أجل دعوتهم إلى الإسلام، أو الخضوع لشروط الذمة، مرداس اليهودي هو أحد الذين عرفوا بقدوم جيش الإسلام وكان قد أخذ أمواله وأولاده ولجأ بهم إلى أحد الجبال، هبّ لاستقبال المسلمين وهو يشهد بوحدانية الله ورسالة النبي الكريم ﷺ، وقد

ظنَّ أسامة بن زيد أنَّ هذا اليهودي يتظاهر بالإسلام خوفاً على نفسه وحفظاً لماله وأنه لا يبطن الإسلام في الحقيقة، فعمد أسامة إلى قتله والاستيلاء على غنمه، وعندما وصل نبأ هذه الواقعة إلى النبي الأكرم ﷺ، تأثر تأثراً شديداً وغضب من أسامة لقتله الرجل مع عدم علمه بما في قلبه^(١).

□ لقد ذمَّ الإسلام أن تكون الغنائم الحربية والدوافع المادية وراء جهاد المسلم، كما حذّر من مغبة التصرفات المتسرّعة وقتل الإنسان البريء دونما تريث أو تحقيق، بحجة الحماسة الثورية والحزم.

□ لعلّ عبارة ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ تشير إلى أنَّ المسلمين أنفسهم كانوا في البداية مثل هؤلاء المتظاهرين بالإسلام، أو أنَّ المقصود منها (كما ذكر المرحوم العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان) هو: أنتم أيضاً كنتم في الجاهلية تقاتلون بدوافع السلب، والنهب، والحصول على المكاسب المادية والغنائم الحربية، فجاء الإسلام ووضع حدّاً لتلك الدوافع والتزعات الجاهلية.

□ ربّما كان المراد بعبارة ﴿أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ﴾ هو إشهار الإسلام وقبول الشهادتين، والتي تنسجم أكثر مع سبب نزول الآية، أو كان المقصود هو تقديم عرض لوقف إطلاق النار وإنهاء القتال والاستسلام، وليس اعتناق الإسلام، وبذلك يصبح المعنى: لا ترفضوا دعوة من عرض عدم القتال وأظهر الاستسلام وإنهاء القتال وتقولوا له: لست مؤمناً بما تقول، وذلك لتقتلوه وتغنموا ما عنده^(٢).

□ طبعاً، ليس بمستبعد أن يكون معنى كلمة ﴿فَبَيَّنَّا﴾ الواردة في آخر الآية هو دعوة لتأمل تاريخ العصر الجاهلي، بمعنى، أنكم قبل الإسلام كنتم تغزون وتقاتلون من أجل مغانم الدنيا، فتأملوا جيّداً مسيرة التاريخ، لتعرفوا مدى التغيير والرشد الذي طرأ عليكم بفضل الإسلام، لذا، لا تتوقّعوا ممّن اعتنق الإسلام حديثاً أن يكون على مستوى راقٍ من المسؤولية والالتزام^(٣).

(٣) المصدر نفسه.

(١) تفسير نمونه، ج ٤، ص ٧٣.

(٢) تفسير راهنما.

التعاليم:

- ١ - يجب أن يكون الجهاد في ضوء المعلومات والإلمام بأوضاع العدو وغاياته ونواياه، ﴿فَتَيَّيَنُوا﴾.
- ٢ - أولئك الذين يشهرون إسلامهم يجب علينا أن نستقبلهم بالأحضان، ﴿وَلَا تَقُولُوا... لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾.
- ٣ - احترزوا من استغلال قوتكم وسلطتكم في جبهات الجهاد، ﴿وَلَا تَقُولُوا... لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾.
- ٤ - احذروا رمي الآخرين بتهمة عدم الإيمان، والتسرع في تكفير من تشكون فيهم من الأشخاص، ﴿وَلَا تَقُولُوا... لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾.
- ٥ - إنا مأمورون بالتعامل مع الأشخاص بحسب ظاهرهم، فإذا لم نثق بأقوالهم، فلا ينبغي المسارعة إلى التكذيب والرفض، ﴿وَلَا تَقُولُوا... لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾.
- ٦ - ليس المدعي وحده يحتاج إلى دليل، بل من ينكر مدعى لا بد له من دليل أيضاً، ﴿وَلَا تَقُولُوا... لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾.
- ٧ - لا تكفروا الآخرين لدوافع مادية، ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾.
- ٨ - اطرحوا عنكم الأهداف المادية في الحروب، ولا تسيئوا إلى قدسية الجهاد بالله ولاء المغانم، ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾.
- ٩ - زخارف الدنيا تستهوي حتى المقاتلين الذين وضعوا أرواحهم على أكفهم، ﴿إِذَا حَرَسْتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ... تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾.
- ١٠ - الهدف من الجهاد أن ينضوي الآخرون تحت راية الإسلام، لا الحصول على المغانم؛ لذا لا ترموا الآخرين بعدم الإيمان من أجل المكاسب المادية، ﴿وَلَا تَقُولُوا... لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾.
- ١١ - الخطر كل الخطر هو في تغير الدوافع والنوايا في الجهاد، ﴿تَبْتَغُونَ﴾.
- ١٢ - الدنيا واقع زائل غير مقيم، ﴿عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾.

١٣ - يجب أن يتخلَّى المقاتل المؤمن بالزهد وأن يدير ظهره للدنيا، ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

١٤ - توخّوا الدقة والتمحيص في كلّ خطوة تخطونها، أما المسائل المادية فسيتكفل الله بها، ﴿فَوَعَدَ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾.

١٥ - الدنيا تكون حقيرة في عين الإنسان إذا ما تذكر الثواب الإلهي، ﴿فَوَعَدَ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾.

١٦ - لا بأس من أن نطلب من الله أن يرزقنا من نعم الدنيا أيضاً، ﴿فَوَعَدَ اللَّهُ مَغَانِمَ﴾.

١٧ - الإنسان مفطور على حب المادة والماديات؛ ولذلك، لا بدّ من تأمينها على نحوٍ ما، وأيّ نحوٍ أفضل من التعريف بالقيم، وسوق تلك الغرائز الفطرية نحوها، وبذلك نكون قد أنقذناه بدلاً من السقوط في مستنقع المتاع القليل والحرام، ﴿فَوَعَدَ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾.

١٨ - الله وراء الدنيا عادة جاهلية، ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾.

١٩ - ضع نفسك مكان الآخرين، ثم احكم. أنت نفسك كنت في السابق على هذه الحال، ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾.

٢٠ - لا تكن مغروراً، فإيمانك هو بفضل الله، ﴿فَمَرْجَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾.

٢١ - الهداية الإلهية هي مئة حصّنا الله تعالى بها، ﴿فَمَرْجَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾.

٢٢ - النعم تترتب عليها مسؤوليات وتكاليف، ﴿فَمَرْجَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا﴾.

٢٣ - الأخطار والأضرار الكامنة في قتل الخطأ أكبر من احتمال النفاق من قبل الأعداء أو خسارة الغنائم؛ لذا على أولئك الذين يحرسون الأموال والأنفس والأعراض أن لا ينسوا مبدأ الاحتياط والتحقق، ﴿فَتَبَيَّنُوا... فَتَبَيَّنُوا﴾.

٢٤ - لا تكن ساذجاً ولا سريع التصديق. وفي المقابل، لا تكن سيئ الظن ولا حاقدًا، ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾.

٢٥ - في المعارك والحروب التي تنهياً فيها الفرص والأعذار المناسبة لقتل

الأبرياء، يجب تغليب العقل والحكمة على المشاعر والعواطف، ولا ننسى أن الله من فوقنا عليم وبصير، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاتِلُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاتِلِينَ دَرَجَةً وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْخَسَنَاءَ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاتِلِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٩٥)

إشارات:

□ الذين يتخلفون عن الذهاب إلى جبهات الجهاد يتوزعون على فئات عدة: المنافقون الذين لا إيمان لهم، المسلمون الجبناء، المرفهون، الشكاكون، الذين يفتقدون إلى الإرادة والهمة ويقولون: إننا ندعو للمجاهدين وندعمهم بالمال والقول والقلم والدعاء، وأن الجهاد بالنسبة إليهم ليس واجباً عينياً. تحمل هذه الآية الكريمة على هذه الفئة الأخيرة المتقاعسة عن الجهاد وتوبيخها، فيما تعرضت الفئات الأخرى للتوبيخ والتقريع الشديدين في مواضع أخرى من القرآن الكريم، وليس لهم أي منزلة أو مقام، ما دام المجاهدون أفضل منهم بدرجة.

□ ذكرت الروايات أن المرضى الذين أقعدهم مرضهم عن المشاركة في الجهاد، ولكن قلوبهم كانت مع المجاهدين في جبهات القتال، فلهم ما للمجاهدين من ثواب وأجر^(١).

□ الآية الكريمة تتعلّق بالواجب الكفائي، ولو كان الجهاد واجباً عينياً، لعدّ القاعدون عن القتال متخلفين.

التعاليم:

١ - يجب أن يكون أسلوب الدعاية والتشجيع مرحلياً. (في البداية قالت الآية

(١) تفسير الصافي.

الشريفة: ﴿لَا يَسْتَوِي﴾ ثم استتبعها بـ ﴿دَرَجَةً﴾ لتختتم بـ ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

٢ - لكل أسلوب خاص في الخطاب والتعامل: فالقرآن الكريم له تعامل خاص مع كل فئة، مثلاً خطابه إلى المؤمنين المتخلفين عن الجبهات يختلف عن خطابه إلى المنافقين، أو الجبناء، أو المرفهين. فقد وصف المؤمنين بالمتخلفين عن جبهات القتال بكلمة «القاعدين».

٣ - أولئك الذين يعانون من مشاكل في الجسم مستثنون من الجهاد، ﴿عَيَّرَ أُزْلَى الْفَرِّ﴾.

٤ - يطرح القرآن الكريم الجهاد بالمال إلى جانب الجهاد بالنفس، لأن غياب الدعم المالي يضعف الجبهات، ﴿يَأْمُرُهُمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾.

٥ - التبرعات والمعونات الشعبية هي من مصادر تأمين الميزانية الدفاعية، ﴿يَأْمُرُهُمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾.

٦ - حينما احتُمل عدم تصديق الناس، لزم الإعادة والتكرار. (في هذه الآية والآية اللاحقة تكررت عبارة ﴿فَضَّلَ اللَّهُ﴾ و﴿دَرَجَةً﴾).

٧ - خدمات وجهود كل الأفراد محترمة، فإذا كنا ننشئ على دور المشاركين في الجبهات، فلا يجوز أن نقلل من دور الآخرين ونغبطهم حقوقهم. نعم، للمجاهدين فضل ودرجة؛ ولكن ليس على حساب نبذ الآخرين أبداً، ﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْمُحْسِنَ﴾.

٨ - على كل فرد في أي مسؤولية وموقع كان أن يعلم أنه أدنى من المجاهدين فضلاً ومرتبة، ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ﴾.

٩ - إذا كان الله تعالى قد فضل المجاهدين على الآخرين، إذن، ينبغي على الجميع أيضاً أن يُكرم المجاهدين والشهداء في المجتمع، ومعاملتهم معاملة خاصة. (وفي الوقت نفسه يجب ألا يتحوّل ذلك إلى طمع أو مطالب غير مشروعة عند المجاهد فيفضي ذلك به إلى سوء العاقبة)، ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ﴾.

﴿دَرَجَتِي مِنْهُ وَمَغْفِرَةٌ وَرَحْمَةٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٩٦)

التعاليم:

- ١ - الفرق بين المجاهدين والقاعدين ليس بالقليل، بل تفصل بينهما مسافة شاسعة، ﴿دَرَجَتِي﴾.
 - ٢ - الانتهال من فيض الرحمة الإلهية رهن بالتطهر سابقاً وحاضراً. ذكرت الآية الكريمة «المغفرة» أولاً ثم أتبعها بـ «الرحمة».
 - ٣ - الله تعالى غفور رحيم، ولكن هذه المغفرة والرحمة مشروطتان بالمشاركة في جبهات القتال للجهاد، ﴿وَمَغْفِرَةٌ وَرَحْمَةٌ... غُفُورًا رَحِيمًا﴾.
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْكَافِرِينَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (٩٧)

إشارات:

- قبل بدء غزوة بدر، أنذر زعماء قريش جميع الأفراد من أهالي مكة الذين يستطيعون حمل السلاح، أَنَّ عليهم أن يتأهبوا لقتال المسلمين، محذرين بأن من يخالف هذا الأمر ستهدم داره وتصادر أمواله، وقد أدى هذا التهديد بنفر من الذين كانوا قد أسلموا في الظاهر، ولكنهم كانوا قد رفضوا الهجرة لشدة حبهم لموطنهم ولأموالهم، أدى بهؤلاء إلى أن يرغبوا على مشاركة المشركين في التحرك إلى ساحة الحرب، وراودهم الشك في انتصار المسلمين لقلة عددهم، فقتلوا تحت راية المشركين. فنزلت الآية الكريمة وحدثت عن المصير الأسود الذي لاقاه هؤلاء بسبب إصرارهم على البقاء في موطن الشرك.
- وقد ورد في الحديث عن النبي الأكرم ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ فَرَّ بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبراً من الأرض استوجب الجنة وكان رفيق إبراهيم عليه السلام ومحمد ﷺ» (١).

التعاليم:

- ١ - يحيط الملائكة علماً بأفعال الإنسان، ﴿الْمَلَكَةُ... قَالُوا فِيهِ كُنْتُمْ قَالُوا﴾.
- ٢ - ترك الهجرة وتضييع الهدف والعقيدة ظلمٌ للنفس. (شعار «حشر مع الناس عيد» مرفوض من قبل القرآن الكريم)، ﴿عَلَّيْهِمْ أَنْفُسِهِمْ﴾.
- ٣ - أول ذنب يؤاخذ عليه الميت بعد موته هو «تركه الهجرة». فالملائكة المأمورون بقبض الروح يؤاخذون الإنسان لحظة قبضهم لروحه، ﴿فِيهِ كُنْتُمْ﴾.
- ٤ - الهجرة من دار الكفر واجبة، والانضمام إلى صفوف الكفار حرام، ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ... أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً﴾.
- ٥ - إن استطعت التأثير على محيطك فافعل، وإلا فهاجر حتى لا تؤثم، ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا﴾.
- ٦ - تقديم الأعذار والحجج أمرٌ غير مقبول، ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ...﴾.
- ٧ - للبيئة والأجواء السائدة تأثير كبير على الإنسان، لذلك، ينبغي على الإنسان الهجرة ليتخلص من ضغط البيئة المحيطة، ﴿فَهَاجِرُوا﴾.
- ٨ - الإيمان بالله هو المهم وليس حب الوطن، ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجِرُوا﴾.
- ٩ - الهجرة هي إحدى الأساليب في معالجة الاستضعاف الفكري والعقدي، ﴿مُسْتَضْعَفِينَ... أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا﴾.

﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾^(١)
 فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا^(٢)

إشارات:

□ عن الباقر عليه السلام قوله في المستضعف: «هو الذي لا يستطيع حيلة يدفع بها عنه الكفر ولا يهتدي سبيلاً إلى الإيمان لا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر... مرفوع عنهم القلم»^(١).

□ وقال ﷺ أيضاً في المستضعف: «الصبيان ومن كان من الرجال والنساء على مثل عقول الصبيان»^(١).

التعاليم:

- ١ - التكليف شرطه القدرة، ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ...﴾.
- ٢ - الهجرة واجبة حتى على النساء والصبيان الذين يرزحون تحت سلطة الكفر ولهم القدرة على الهجرة، ﴿وَالنِّسَاءَ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.
- ٣ - المستضعف الحقيقي هو من لا قدرة له على الهجرة والفرار من سلطة الكفار والمشركين، ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.
- ٤ - الجهل بالمعارف الدينية مع إمكان التعلم معصية وظلم للنفس، ﴿ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ...﴾. ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ...﴾. ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾.
- ٥ - الأعذار الحقيقية مقبولة، لا اختلاق الأعذار الواهية والتبريرات، ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ...﴾. ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.
- ٦ - الهجرة هامة لدرجة أن الآية الكريمة ذكرت الصفح عن ذنب هؤلاء العاجزين والبؤساء الذين تركوا الهجرة بكلمة «عسى» أي ربما غفر الله لهم ذنبهم، وليس الجزم على المغفرة، ﴿عَسَى اللَّهُ﴾.

﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافَعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١٠٠)

إشارات:

□ خرج أحد المسلمين من بيته مهاجراً فقال لأهله: احملوني فأخرجوني من أرض المشركين إلى رسول الله ﷺ، فمات في الطريق قبل أن يصل إلى النبي ﷺ، فنزل الوحي ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ...﴾^(٢).

(١) نور الثقلين، ج ١، ص ٥٣٧؛ معاني الأخبار، ص ٢٠١.

(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ٣، ص ١٥٢.

□ الهجرات المقدسة مثل الهجرة إلى الجهاد، كسب العلم، الدعوة وما شابه ذلك، كلها أمثلة لهذه الآية.

□ عن عبد الأعلى قال: سألت أبا عبد الله الإمام الصادق عليه السلام عن قول العامة إن رسول الله ﷺ قال: «من مات وليس له إمام مات ميتة جاهلية»، فقال: الحق والله، قلت: فإن إماماً هلك ورجل بخراسان لا يعلم من وصيه لم يسعه ذلك، قال: لا يسعه، إن الإمام إذا هلك وقعت حجة وصيه على من هو معه في البلد وحق النفر على من ليس بحضرته، إذا بلغهم أن الله ﷻ يقول: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾، قلت: فنفر قوم فهلك بعضهم قبل أن يصل فيعلم قال: إن الله ﷻ يقول: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾^(١).

التعاليم:

- ١ - في الهجرة مندوحة وسعة، ﴿وَمَن يُهَاجِرْ... يَحِجْ فِي الْأَرْضِ مُرَافِعًا﴾ من جد وجد، ومن زرع حصد.
 - ٢ - إنا مكلفون بأداء الواجب، لا بضمان النتيجة فالمهم هو الخروج من المنزل، لا أن نضمن بلوغ الغاية، ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ﴾.
 - ٣ - هاجروا إلى الله ورسوله، ولا تخشوا الموت والحياة، ﴿ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ﴾.
 - ٤ - أجر المهاجر على الله، وهو أبعد من الجنة، ﴿وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾.
- ﴿وَإِذَا صَرَرْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلْيَسْ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنَّ خِفَتُمْ أَن يُفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾
 ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾

إشارات:

□ بعد الحديث عن الجهاد والهجرة، تبين هذه الآية حكم صلاة المسافرين.

□ «الضرب في الأرض» تعبير عن السفر، لأنَّ المسافر يضرب الأرض برجليه عند السفر^(١).

□ يستخدم القرآن الكريم أحياناً عبارة «ليس عليكم جناح» للتعبير عن الوجوب، وهذه الآية هي مثال على ذلك. ويتراءى للمرء أنَّ المسلمين في صدر الإسلام كانوا متعلّقين بالصلاة تعلقاً شديداً لدرجة أنَّهم ظنّوا أنَّ قصرها فيه إثم وذنب.

□ إنَّ الخوف من الأعداء ليس شرطاً وحيداً لقصر الصلاة، ولكن ينطوي السفر، في العادة، على مخاطر وخشية من المجهول، أو أنَّ حكم قصر الصلاة شرّع في بادئ الأمر في حالات الخوف، ثمّ توسّع ليشمل جميع الأسفار، فجاء التحديد بعبارة ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾.

□ من شروط قصر الصلاة، كما ورد في الروايات، هو أن تتجاوز المسافة مسيرة يوم واحد (أو ثمانية فراسخ)^(٢).

□ عند السفر تصبح صلاة الفريضة الرباعية ركعتين، عدا صلاة المغرب^(٣).

التعاليم:

١ - تمتاز التشريعات الإلهية بمبدأين هامين هما: الواقعية والمرونة، ﴿تَقْصِرُوا مِنْ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ...﴾.

٢ - يجب أن نحذر العدو حتى عند الصلاة. فلا انفكاك بين السياسة والدين، وبين العبادة والفطنة، ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَقْتُلَكُمْ﴾.

٣ - أحياناً، لا ضرورة لليقين، فمجرّد بروز احتمال بوقوع فتنة أو مؤامرة يكفي لإعادة النظر في الخطط، ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَقْتُلَكُمْ﴾.

٤ - إقامة الصلاة واجبة حتى مع احتمال وقوع الخطر، ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَقْتُلَكُمْ...﴾.

٥ - الكفر والإيمان ضدّان لا يجتمعان، ﴿إِنَّ الْكُفْرَيْنَ كَانُوا لَكُرّاً عَدُوّاً﴾.

(٣) من لا يحضره الفقيه، ج ١، ص ٢٧٩.

(١) مفردات الراغب، مادة «ضرب».

(٢) تهذيب الأحكام، ج ٣، ص ٢٠٧.

- ٦ - الكفار متحدون على عداوتكم. وردت كلمة «عدو» بدلاً من «أعداء».
- ٧ - عداوة الكفار لكم لها جذور قديمة، وهي مستمرة، ﴿كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا﴾.

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ رَأْيِكُمْ وَلَئِنَّ طَائِفَةً أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾

إشارات:

□ في السنة السادسة للهجرة نزل النبي الكريم ﷺ أرض الحديبية - وهو في طريقه إلى مكة - فسمعت قرش بذلك فبعث خالد بن الوليد على رأس زمرة من متي شخص لاعتراض طريق النبي الكريم ﷺ والمسلمين الذين معه ومنعهم من الوصول إلى مكة، فاستقر خالد والذين معه في الجبال القريبة من مكة. ولما كان موعد صلاة الظهر، أذن بلال، فصلّى النبي الكريم ﷺ بالمسلمين جماعة، فشهد خالد بن الوليد صلاة المسلمين ففكر في خطة للهجوم على المسلمين، وأخبر جماعته أن يغتنموا فرصة أداء المسلمين صلاة العصر التي يعتبرونها أعزّ عليهم من أعينهم، فيباغتهم بهجوم خاطف أثناء الصلاة ويقضون عليهم. وفي هذه الأثناء نزلت الآية الكريمة بحكم صلاة الخوف التي تصون المسلمين من كلّ هجوم خاطف. والحقيقة، أنّ هذه الآية هي إحدى وجوه إعجاز القرآن الكريم إذ أخبرت عن وقوع هجوم قبل قيام العدو بتنفيذه وبذلك أفشلت خطة العدو، ويقال إنّ خالداً أعلن إسلامه حال مشاهدته لذلك المشهد بعينه^(١).

□ تبين هذه الآية طريقة صلاة الخوف التي تؤدي في ساحة الحرب فتخاطب النبي قائله: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنْفَعُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾، فإذا سجدت جماعة وانقضت الركعة الأولى، من الصلاة، على الإمام أن يقف في مكانه فتؤدي الجماعة - سريعاً - الركعة الثانية وتعود إلى ساحة القتال لمواجهة العدو. ثم تأتي بعد ذلك الجماعة الثانية التي لم تصل بعد، وتأخذ مكان الجماعة الأولى فتصلي مع الإمام، وعلى الجماعة الثانية أن لا تضع أرضاً لامة حربها، بل تحتفظ بها معها.

التعاليم:

- ١ - لا تعطل الصلاة حتى في سوح الوغى، فالمقاتل لا يسقط عنه تكليف الصلاة، ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ... وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾.
- ٢ - يكفي في بيان أهمية صلاة الجماعة أنها تؤدي في جبهات القتال ضد العدو ولو بركعة واحدة، ﴿وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَوْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا﴾.
- ٣ - عند تزامن تكليفين (الجهاد والصلاة)، لا يجوز إنجاز أحدهما وترك الآخر، ﴿فَلَنْفَعُمْ... وَلْيَأْخُذُوا﴾.
- ٤ - الحذر واجب على المسلمين في جميع الأحوال، حتى أثناء أدائهم الصلاة، لئلا يغفلوا عن خطر الأعداء، ﴿وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾.
- ٥ - القائد هو قطب الوحدة والعبادة، ﴿كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾.
- ٦ - توزيع العمل، التعاون وإشراك الآخرين في أعمال الخير حتى في أخرج المواقف، هي من عوامل تآلف المجتمع وتضامنه. تقسم هذه الآية ركعتي صلاة الجماعة بين فئتين للحيلولة دون أي تمييز، ولينال كل واحد حصّة من الثواب في أعمال الخير، ﴿وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى...﴾.
- ٧ - تنفاوت الأحكام الإلهية بتفاوت الظروف والشروط. (تتعلق هذه الآية بصلاة الخوف من خطر الأعداء)، ﴿فَلَنْفَعُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾.
- ٨ - صلاة الجماعة في الجبهات دليل تعلق بالله، والقائد والهدف، علاوة على الالتزام بالمبادئ والقيم، ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾.

- ٩ - يجب العمل على توفير الإمكانية لتبديل القوات العسكرية في الجبهات خلال فترة ركعة واحدة، ﴿وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا﴾.
- ١٠ - إطالة مدة الصلاة في الجبهات تزيد من فرص العدو في الانقضاض. لذا يجب توفير حماية أكبر. حمل الأسلحة في الركعة الأولى كافٍ، ولكن في الركعة الثانية يجب حيازة وسائل الدفاع مضافاً إلى حمل الأسلحة، ﴿وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ... وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾.
- ١١ - يطلع الله تعالى رسوله الكريم ﷺ على المؤامرات والخطط السرية المبيتة للعدو. (نظراً إلى سبب نزول الآية الكريمة فإنَّ خالد بن الوليد عزم على مهاجمة المسلمين أثناء إقامتهم صلاة الجماعة، ولكنَّ هذه الآية جعلت خطته هباءً منثوراً).
- ١٢ - حركتكم المخلصة هي التي جعلت مدد السماء ينزل في الوقت المناسب. (نزول الآية الكريمة وحكم إقامة صلاة الخوف هي من المدد الإلهي لإفشال مؤامرة الأعداء).
- ١٣ - يجب عدم إطالة طقوس العبادة في الجبهات، وكلّ ما يؤدي إلى الغفلة محظور، ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ﴾.
- ١٤ - يجب أن تحيطوا علماً بأمانى العدو ونواياه، ﴿وَدَّ الَّذِينَ﴾.
- ١٥ - احذروا لئلا تشغلوا بالعبادة وتنسوا عدوكم، ﴿تَغْفُلُونَ﴾.
- ١٦ - لا يغفل المسلم الحقيقي إلّا ما ندر. (فكلمة «لو» في العبارة ﴿لَوْ تَغْفُلُونَ﴾ تشير إلى هذا المعنى).
- ١٧ - بالفطنة واليقظة يجب صيانة الإمكانات العسكرية والاقتصادية، ﴿وَأَسْلَحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾.
- ١٨ - غفلة الأمة الإسلامية عاقبتها غارة الكفار في ليلة ظلماء، ﴿مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾.
- ١٩ - كلّ كلمة أو خطّة أو حركة تؤدي بالمسلمين إلى الغفلة هي بمثابة خطوة باتجاه تحقيق أهداف العدو وغاياته، ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ﴾.

- ٢٠ - المرض والضرر هما المعيار ورخصة الإعفاء من الجبهة والجنديّة، ﴿يَكُمُّ أَدَى... أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى﴾.
- ٢١ - المطر المقرون بالأذى والضرر هو الذي يرخّص بإلقاء السلاح، فالمقاتل لا يلقي سلاحه في المطر الذي لا ضرر فيه، ﴿يَكُمُّ أَدَى مِّن مَّطَرٍ﴾.
- ٢٢ - في كلّ الظروف، لا ينبغي للمقاتل أن يغفل عن الوسائل الخاصّة بالحماية. فإن لم يكن لديه سلاح فليتدرّع، ﴿وَحَذُّوا حِذْرَكُمْ﴾.
- ٢٣ - أحد أساليب القرآن الكريم، توعد الكفار وطمأنة المؤمنين وبعث الأمل في نفوسهم، ﴿أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.
- ٢٤ - عاقبة الكفار الذلّ والهوان، ﴿وَالْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ فِيمَا وُقُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ ﴿١٠٣﴾

إشارات:

﴿فِيمَا﴾ جمع «قائم» وهي تعني الوقوف، وكلمة «قعودا» جمع «قاعد» وهو الجالس، أمّا «الجنوب» فجمع «الجَنب» وهي كناية عن الاستلقاء والاسترخاء. و﴿كِتَابًا﴾ تعني الشيء المدوّن والواجب، و«موقوت» هو ما كان محدداً بوقت معيّن.

□ وعن الإمام علي عليه السلام أنّه قال في الآية الكريمة: ﴿فَادْكُرُوا اللَّهَ فِيمَا وُقُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾: «معنى الآية أنّ الصحيح يصلي قائماً والمريض يصلي قاعداً ومن لم يقدر أن يصلي قاعداً صلى مضطجعا ويومئ (يليماء) فهذه رخصة جاءت بعد العزيمة»^(١).

وعن أبي جعفر الإمام الباقر عليه السلام في تفسيره معنى ﴿كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾: «يعني المفروض والواجب»^(٢).

التعاليم:

- ١ - التخفيف في أركان صلاة الخوف، يعوّض عنه بذكر الله، ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ﴾.
- ٢ - الصلاة وذكر الله واجب في كلّ حال، سواء كان المرء في جبهات القتال أو على فراش المرض، ﴿فِيكُمْ وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾.
- ٣ - صلاة الخوف استثناء، وحالما ينتهي الظرف الاستثنائي، تؤدى الصلاة بصورتها العادية الأولى، ﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾.
- ٤ - الصلاة من الفروض الإلهية القطعية في جميع العصور، ولكلّ الأجيال، ﴿كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا﴾.
- ٥ - تجب كل صلاة في وقتها المحدّد لها، ﴿مَوْقُوتًا﴾.

﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقُوَىٰ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

إشارات:

روي أنّ النبي ﷺ، وبعد الأحداث الأليمة لواقعة أحد، صعد إلى الجبل وكان أبو سفيان عليه، فخطب النبيّ بلغة المنتصر بقوله: يا محمّد يوم بيوم بدر. وعن أبي سفيان بذلك أنّ انتصارهم في أحد هو بدل هزيمتهم في بدر، فطلب النبي ﷺ من المسلمين أن يردّوا عليه فوراً، ولعلّ النبي أراد أن يثبت لأبي سفيان أنّ من تربّوا في ظلّ الرسالة الإسلامية يتمتّعون بكامل الوعي، فردّ المسلمون على أبي سفيان قائلين: هيهات أن يستوي الوضع بين المؤمنين والمشرّكين فشهداء المؤمنين في الجنة وقتلى المشرّكين في النار. فأجاب أبو سفيان صارخاً ومفتخراً بالعبارة التالية: لنا العزّي ولا عزّي لكم، فردّ عليه المسلمون: الله مولانا ولا مولى لكم، ولما عجز أبو سفيان عن الردّ على هذا الجواب والشعار الإسلامي الحيّ تخلّى عن صنمه العزّي وعرج على صنم آخر هو هبل متوسّلاً إليه بقوله: أعلّ هبل، أعلّ هبل، فردّ عليه المسلمون بجواب قويّ علّمهم إياه نبي

الإسلام ﷺ وهو: الله أعلى وأجلّ. فلَمَّا أُعيت أبا سفيان الحيلة، ولم تجد شعاراته الوثنية نفعاً قال صارخاً: موعدنا في أرض بدر الصغرى. بعد ذلك عاد المسلمون من ساحة القتال مثخين بالجراح، وحين كان يعتصرهم الألم من أحداث أحد، نزلت الآية المذكورة أعلاه محذّرة المسلمين من الغفلة عن المشركين مطالبة إياهم بملاحقة قوى الشرك، فأمر النبي ﷺ المسلمين بالقتال حتى الجرحى منهم ليصرفوا الكفار عن أي فكرة بالرجوع إلى ساحة المعركة^(١).

التعاليم:

- ١ - لا بدّ للمسلمين من التمتع بمعنويات عالية، وآلا توهن عزيمتهم وتضعف إرادتهم الهزائم العابرة (كما في أحد)، ﴿وَلَا تَهْوَ﴾.
- ٢ - يجب تعقب العدو والانقضاض عليه بدلاً من التراجع واتخاذ موقف دفاعي، ﴿وَلَا تَهْوَ فِي آتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾.
- ٣ - من العوامل التي ترفع من معنويات المؤمنين، المقارنة بين آلامهم وآلام الآخرين، والأمل بالمدد الإلهي وأنهم بعين الله، ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾.
- ٤ - إنكم منتصرون على الرغم من كلّ خسائر الحرب وجراحاتها؛ لأنكم وضعتم أملككم بالطف الله تعالى، ﴿وَرَجُونَ مِنَ اللَّهِ﴾.
- ٥ - المسلم يعلّق آمالاً كبيرة على الله تعالى، من جملتها: الأمل بالمدد الغيبي، النصر، إرهاب العدو، الثواب المعنوي وغيرها. (لم تحدّد الآية الكريمة موضوع الأمل، ولذا فهي تعبّر عن كلّ الآمال)، ﴿وَرَجُونَ مِنَ اللَّهِ﴾.
- ٦ - الأمل هو العنصر المحرّك للمقاتل وثروته الروحية. الشهادة والفوز بالسعادة، أو النصر، ﴿وَرَجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾.
- ٧ - معاناة المؤمنين في الحروب، كلّها تحصل بعلم الله وبمقتضى حكمته، ولذلك لا يحول دون وقوعها، ﴿عَلَيْمًا حَكِيمًا﴾.

﴿إِنَّا أَرْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيماً﴾ (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٦﴾

إشارات:

□ نقلوا في سبب نزول الآية الكريمة: أن في قبيلة بني الأبيرق المعروفة نسبياً كان يوجد ثلاثة أشقاء هم «بشر»، و«بشير»، و«مبشّر»، سطا أحدهم وهو «بشير» على دار أحد المسلمين ويدعى «رفاعة» فسرق سيفه، ودرعه، وكمية من الطعام، وكان ابن أخيه ويدعى «قتادة» من مجاهدي بدر فأخبر النبي ﷺ بالواقعة. ولكن الأشقاء الثلاثة اتهموا شخصاً من المسلمين اسمه «ليبد» وكان يسكن مع أحدهم في داره، فتألم ليبد ألماً شديداً من هذه التهمة الباطلة واستل سيفه وتوجه إلى الأشقاء الثلاثة صارخاً في وجوههم قائلاً: «أتتهموني أنا بالسرقة وأنتم أجدر بهذا العمل؟ فأنتم هم أولئك المنافقون الذين كنتم تهجون النبي وتنسبون أبيات الهجو إلى قريش، فلما أن تثبتوا ما تنسبونه لي من تهمة، أو أن أهوي بسيفي على رؤوسكم. فلما رأى أخوة السارق ذلك حاولوا استرضاء «ليبد»، ولكنهم لما علموا أن القضية قد وصلت إلى أسماع النبي الكريم ﷺ بواسطة «قتادة» لجأوا إلى أحد متكلمي قبيلتهم فطلبوا منه أن يذهب مع جمع من الناس إلى النبي ويتظاهر أن الحق إلى جانبهم ليبرئ السارق ويتهم «قتادة» بتلفيق التهمة على شقيقهم، وقد قبل النبي الكريم ﷺ استناداً إلى واجب العمل بظاهر الأمور شهادة تلك المجموعة وأتب «قتادة» على عمله. وقد تألم الأخير، الذي كان متأكداً من براءته من هذه الواقعة، وعاد إلى عمه وأخبره بالحادث مظهراً أسفه الكبير لما حصل، فخفف عليه عمه وقال: لا تحزن يا قتادة إن الله في عوننا. فنزلت الآية الكريمة لتعلن براءة الرجل، وتؤنب مرتكبي الخيانة الحقيقيين^(١).

□ وقد نقلوا واقعة أخرى في سبب نزول الآية وهي أن درعاً لأحد الأنصار كانت قد سرقت في إحدى الحروب، وأن الشك دار حول شخص من قبيلة «الأبيرق»

في سرقة ذلك الدرع، ولما علم السارق أنَّ الشكوك بدأت تدور حوله رمى بالدرع في دار أحد اليهود، وطلب من قبيلته أن يشهدوا ببراءته أمام النبي الكريم ﷺ، ويستدلّوا بذلك على وجود الدرع في دار اليهودي، ولما رأى النبي الأمر بتلك الصورة برأ هذا السارق بحسب ظاهر الشهادة التي جاءت لصالحه وأدان الرجل اليهودي بسرقة الدرع، فنزلت الآية الكريمة لتوضّح الحقيقة.

□ «الخصيم» هو الذي يتحيّز لأحد الادّعاءات، أمّا الخائن فهو الذي يدّعي أمراً باطلاً في المحكمة^(١).

□ وفي حديث عن الرسول الكريم ﷺ أنّه قال: «إنّما أنا بشر، وإنكم تختصمون إليّ ولعلّ بعضكم يكون ألحن بحجّته من بعض، فأقضي بنحو ما أسمع، فمن قضيت له من حقّ أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنّما أقطع له قطعة من نار».

□ قال الإمام الصادق عليه السلام: «لا والله ما فوّض الله إلى أحد من خلقه إلا إلى رسول الله ﷺ وإلى الأئمة، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا أَرْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ وهي جارية في الأوصياء عليه السلام»^(٢).

التعاليم:

- ١ - القرآن هو الحُكم العدل بين الناس، ﴿إِنَّا أَرْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾.
- ٢ - لا بدّ للقاضي أن يحيط بأحكام القرآن إحاطة تامّة، ﴿إِنَّا أَرْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ﴾.
- ٣ - شرط القضاء أن يتعلّم الإنسان أحكام القرآن الكريم والسنّة النبوية المطهرة، ﴿إِنَّا أَرْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ... لِتَحْكُمَ... بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾.
- ٤ - نزول القرآن كان على أساس الحقّ، لذا لا بدّ للقضاء من أن يقوم على الحقّ، لا الانتماءات الحزبية، أو الفئوية، أو المناطقية، أو العرقية، ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾.

- ٥ - السلوك العادل ضروري حتى مع غير المسلمين. (في ضوء السبب الثاني لنزول الآية الكريمة)، ﴿لِتَحْكُمَ... بِمَا أَرْكَأَ اللَّهُ﴾.
- ٦ - القضاء من مهام الأنبياء، لا يكفي إبلاغ الأحكام بل الواجب يستدعي تطبيقها أيضاً، ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾.
- ٧ - الكفر ليس سبباً لاتهام الأشخاص، (في ضوء سبب النزول).
- ٨ - مضافاً إلى الشريعة والكتاب، ينهل النبي من المدد الغيبي، ﴿أَرْكَأَ اللَّهُ﴾.
- ٩ - يفيض الله تعالى على نبيه، علاوة على القرآن الكريم، بمواهب أخرى، ﴿أَرْكَأَ اللَّهُ﴾؛ لاحظ أنه ﷺ لم يقل: «لتحكم بين الناس به».
- ١٠ - الله تعالى يحفظ نبيه الكريم، ويفضح الدسائس والافتراءات، ﴿أَرْكَأَ اللَّهُ﴾.
- ١١ - القانون محترم، ولكن يجب اتخاذ التدابير اللازمة لمنع استغلاله وتوظيفه، فكان المدد الإلهي هو التدبير الحاسم، ﴿أَرْكَأَ اللَّهُ﴾.
- ١٢ - لا يجوز الدفاع عن الخائن وحمايته، ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً﴾.
- ١٣ - لا ينبغي للخائنين أن يجدوا ملاذاً آمناً عند الزعماء الدينيين، ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً﴾.
- ١٤ - منصب القضاء، يحتم على من يتصدى له أن يستغفر الله حتى وإن كان معصوماً، ﴿وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾.
- ١٥ - من مفاخر الإسلام أنه حتى لو كان المظلوم يهودياً، فيجب على الحاكم المسلم أن يستغفر للمسلمين الذين ظلموه، ﴿وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾.
- ١٦ - لو كان القرآن الكريم من عند النبي، لما أمرته الآيات بالاستغفار، ﴿وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾.
- ١٧ - على القاضي أن يواظب على الاستغفار لمحاربة أهواء نفسه، ﴿وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾.
- ١٨ - الاستغفار نعيم المغفرة والرحمة الإلهية، ﴿عَفُورًا رَحِيمًا﴾.
- ١٩ - الله غافر الذنب، ورحيم أيضاً، ﴿عَفُورًا رَحِيمًا﴾.

﴿وَلَا تُجَدِّدْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾

إشارات:

□ من نافلة القول، إِنَّ الإنسان بظلمه الناس وخيانتهم، إِنَّمَا يخون نفسه. وما ذلك إِلَّا بسبب ما يترتب على ذلك من آثار سيئة منها:

- أ - بالظلم والخيانة يفقد الإنسان روح النقاء وحب العدل.
- ب - يؤدي إلى الحرمان، الأمر الذي سيدفع بالمظلومين إلى الثورة في المستقبل.
- ج - مدعاة لاستئصال الغضب الإلهي وعذاب النار.
- د - تصيب الخيانة المجتمع بالفساد، بما في ذلك الخائن نفسه.

التعاليم:

- ١ - الدفاع عن الخائن حرام، والقبول بالخيانة، يعني الاشتراك في هذه الجريمة، ﴿وَلَا تُجَدِّدْ...﴾.
- ٢ - يجب على الحاكم المسلم أن ينصر المظلوم، لا أن يعين الظالم، ﴿وَلَا تُجَدِّدْ...﴾.
- ٣ - الألقاب والسلطات والتهديدات والرأي العام، كلها لا تبيح للمرء أن يضع يده بيد الخائن، ﴿وَلَا تُجَدِّدْ...﴾.
- ٤ - على قائد المجتمع والقضاة أن يكتشفوا الخونة، ويتعرفوا مؤامراتهم وخططهم، ليستطيعوا اتخاذ الموقف المناسب، ﴿وَلَا تُجَدِّدْ...﴾.
- ٥ - يجب الاستغفار عما مضى (الآية السابقة) وتوخي اليقظة والحذر مما يأتي، ﴿وَلَا تُجَدِّدْ...﴾.
- ٦ - يعتبر القرآن الكريم أفراد المجتمع أعضاء جسد واحد، لذا فخيانة الإنسان لمجتمعه، هي خيانة لنفسه، ﴿يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾.
- ٧ - لا تستوي الخيانة الصغيرة التي تنم عن جهل وعدم وعي، مع خيانة المتآمرين المفسدين، ﴿يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ... خَوَّانًا أَثِيمًا﴾.

٨ - لا يقطع المرء بخيانيته محبة الناس عنه بل محبة الله أيضاً، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ﴾.

٩ - حب الآخرين غريزة في أعماق الإنسان، فليسع إلى استغلال هذه الغريزة في تربية النفس وتهذيبها، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ﴾.

١٠ - معيار الرسول الكريم ﷺ والمؤمنين في الاختيار والحركة هو حب الله وبغضه، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ...﴾.

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ
وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ (١٠٨)

التعاليم:

١ - عقد الاجتماعات الليلية السرية لحياكة المؤامرات، من أساليب المنافقين والخونة، ﴿يَسْتَخْفُونَ... يَبَيِّتُونَ﴾.

٢ - من أهم أسباب التقوى إيمان الإنسان بحضور الله وإحاطته بجميع الأقوال والأفعال، ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ... مُحِيطًا﴾.

٣ - إن الله تعالى يراقب أعمال الإنسان عن كثب، ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾.

٤ - القول أيضاً يُحسب عملاً. لاحظ أن الآية الكريمة تتحدث عن القول الذي لا يرضي الله، فاعتبرته عملاً، ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿هَتَأْتُمْ هَؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَدِّلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ
مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ (١٠٩)

إشارات:

□ توجه الآيات الثلاث من ١٠٧ إلى ١٠٩، ثلاثة تحذيرات إلى ثلاث فئات هي:

تقول للقاضي: احذر أن تتعدى حدود الحق، ﴿بِمَا أَرْثَكَ اللَّهُ﴾.

وتخاطب الخائن بالقول: الله ناظر ويرى عملك، ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾.

ثم تقول لمن يحامي عن الخائن: لن ينفعك سعيك هذا في يوم القيامة، ﴿فَمَنْ يُجَدِّدِ اللَّهُ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾.

التعاليم:

١ - لا يفرح الخونة بما يقدم لهم من دعم اليوم، فإنَّ غداً لناظره لقريب. فكلَّ دعم يقدم للخونة هو مؤقت وزائل، ﴿فَمَنْ يُجَدِّدِ اللَّهُ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾.

٢ - حكم المحكمة يسري على هذه الدنيا، لكن على المجرم أن يحسب حساب يوم القيامة، عندما يكون وحيداً فريداً، ﴿فَمَنْ يُجَدِّدِ اللَّهُ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾.

٣ - ليحذر الإنسان من الدفاع عن الخائن، ولا ينخدع بمنصب الوكيل في هذا الدفاع، ﴿فَمَنْ يُجَدِّدِ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾.

٤ - فليطمئن المظلوم إذا عجز عن أخذ حقه في هذه الدنيا، لأنَّ له مدافعاً في يوم القيامة يأخذ له حقه ويعاقب من ظلمه، ﴿فَمَنْ يُجَدِّدِ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾.

﴿وَمَنْ يَمْعَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾

إشارات:

□ بعدما هدّدت الآية السابقة الخائنين، تفتح هذه الآية لهم باب التوبة ليرجعوا عن خيانتهم.

□ «السوء» هو الإضرار بالغير، لذا، تطرح الآية كلا الظلمين، ظلم الآخرين وظلم النفس. وقد فسر بعض أن المراد بـ «السوء» في هذه الآية هو صفات الذنوب، أمّا «ظلم النفس» فهو الكبائر^(١).

التعاليم:

- ١ - ليس للإنسان حق حتى في ظلم نفسه، والحقيقة أن ارتكاب المعاصي هو ظلم للنفس، ﴿يَظْلِمُ نَفْسَهُ﴾.
 - ٢ - طريق التوبة للمذنبين مفتوح، ﴿يَسْتَغْفِرِ اللَّهُ﴾.
 - ٣ - ليس ثمة مسافة تفصل بين العبد وبين المغفرة الإلهية، ﴿يَسْتَغْفِرِ اللَّهُ يَجِدِ اللَّهُ غَفُورًا﴾.
 - ٤ - التوبة الحقيقية لها أثر طيب في نفس الإنسان لدرجة أنه يشعر من أعماقه بالرحمة الإلهية، ﴿يَجِدِ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.
 - ٥ - يمحو الله تعالى السيئات لعباده، ويرحمهم أيضاً، ﴿غَفُورًا رَحِيمًا﴾.
- ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

إشارات:

□ المعصية، وهي تعدي الحدود والأحكام الإلهية، تذهب بنقاء القلب وتقوى الروح والعدالة، وهي، لعمري، الضرر الأكبر. فضلاً عن أن نظام الكون والسنن الإلهية يقومان على أن عاقبة ظلم الناس ترتد على الظالم، عاجلاً أم آجلاً، ﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾.

التعاليم:

- ١ - لكل معصية أثر مباشر على روح الإنسان ووجدانه، ﴿يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾.
- ٢ - الإنسان ليس مكرهاً على ارتكاب المعاصي، فهو يقدم عليها بملء إرادته، ﴿يَكْسِبُ﴾.
- ٣ - لا تخطئ العواقب السيئة للمعاصي صاحبها، وهذا هو مقتضى الحكمة.
- ٤ - العمل الحكيم يستلزم الوعي والعلم، ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾

إشارات:

□ «الخطأ» هو الزلل، أو الذنب الذي يصدر عن صاحبه دونما قصد، لكن معناه توسع لاحقاً فأصبح يشمل المتعمد وغير المتعمد، أما كلمة «الإثم» فهي تطلق على الذنب الصادر عن قصد وعمد.

□ «البهت» هو من كبائر الذنوب التي تذهب بالإيمان وتصهره، وتمحو العدل وتزلزل أركان الثقة في المجتمع، وهو، بعد، يفضي في الآخرة إلى عذاب شديد. يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إن البهتان على البريء أثقل من جبال راسيات»^(١).

□ و«البهتان» مأخوذ من البهت: وهو الكذب على البريء بما ينهت له ويتحير منه.

□ سئل الإمام أبو جعفر الصادق عليه السلام في الغيبة فقال: «هو أن تقول لأخيك في دينه ما لم يفعل وتبث عليه أمراً قد ستره الله عليه لم يقم عليه فيه حداً»^(٢).

التعاليم:

١ - البهتان هو رمي السهام صوب سمعة الآخرين، ﴿يَرْمِي بِهِ﴾.

٢ - البهتان على البريء من أي عرق أو لون أو دين وفي أي عمر أو ظرف كان حرام، ﴿يَرْمِي بِهِ بَرِيئًا﴾.

٣ - من ينسب التهم زوراً إلى الآخرين، فقد أخذ على عاتقه ثقل المعصية، ﴿فَقَدِ احْتَمَلَ﴾؛ (التنوين الوارد في ﴿بُهْتَانًا﴾ و ﴿إِثْمًا﴾ للدلالة على عظم الذنب وثقله).

(١) سفينة البحار، مادة «بهت»؛ الكافي ج ٢، باب التهمة.

(٢) وسائل الشيعة، ج ١٣، ص ٢٨٦.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَصُرُونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾

إشارات:

□ ربّما تستكمل هذه الآية الكريمة ما بدأته الآية ١٠٥ من حديث حول موضوع اتّهام السرقة الذي رمي به بريء وجيء به إلى النبي الكريم ﷺ فشهدت جماعة على سرقته، وقضى لهم النبي الأكرم بموجب تلك الشهادة. أو لعلّ الآية تتحدّث، كما روى بعض المفسّرين، عن جماعة من قبيلة «بني ثقيف» جاؤوا إلى النبي الكريم ﷺ فأعربوا عن استعدادهم لمبايعته ولكن بشرطين: الأوّل هو أن لا يرغم أبناء هذه القبيلة على كسر أصنامهم بأيديهم، والشرط الثاني، أن يسمح لهم بأن يواصلوا عبادة صنمهم (العزّى) لسنة واحدة أخرى! فنزلت هذه الآية لتأمر النبي الأكرم ﷺ بأن لا يبدي أيّ مرونة تجاه هؤلاء.

التعاليم:

- ١ - لا ينتهي الأعداء عن خططهم حتى مع النبي الكريم لتوريطه والوقعة به، لذا، فعلى قادة المجتمع أن يتوخّوا اليقظة والحذر، ﴿يُضِلُّوكَ﴾.
- ٢ - إصرار المرء على حرف الآخرين، إنّما هو، في الحقيقة، إصرار على حرف نفسه، ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾.
- ٣ - كما وعد الله تعالى بحفظ قرآنه الكريم ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَٰحِفُظُونَ﴾^(١)، فقد تعهّد بحفظ نبيّه الكريم وعصمته، ﴿وَمَا يَصُرُونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾.
- ٤ - تعليم الله تعالى نبيه الكريم ﷺ الكتاب والحكمة لهو مثال ساطع على فضل الله ولطفه، فضلاً عن كونه دليل عصمة النبي الكريم، ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ﴾.

٥ - يوحى الله تعالى إلى نبيه ﷺ من علم الغيب والأسرار، ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾.

٦ - من العلائم الدالة على حقية النبي الأكرم وصدق دعوته قوله: لولا ما أوحى إليك الله تعالى من علم، ما كان بمقدورك أن تحيط علماً بهذه الأمور. فلو كان القرآن من عنده لما نسب إلى نفسه الجهل أبداً، ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾.

٧ - الله تعالى هو معلّم نبيه الكريم ﷺ، لذا فلا مجال لوقوع أدنى خطأ أو زلل في تعليمه، ﴿وَعَلَّمَكَ﴾.

٨ - دائرة العلم محدودة بالنسبة للبشر، بمن فيهم رسول الله، ﴿مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾.

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١١٤)

إشارات:

□ عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ قال: «يعني بالمعروف القرض»^(١).

□ وعنه أيضاً عليه السلام قوله: «الكلام ثلاثة: كذب، وصدق، وإصلاح بين الناس، وقيل: ما الإصلاح؟ قال: نسمع من الرجل كلاماً يبلغه فتخبط نفسه فتلقاه فتقول: سمعت من فلان قال فيك من الخير كذا وكذا خلاف ما سمعته»^(٢).

التعاليم:

١ - النجوى مذمومة إلا في حالات معينة، لأنه يتسبب في إثارة سوء الظن بين المؤمنين، ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾.

٢ - عند إبداء الرأي يجب مراعاة العدل والإنصاف، فليست النجوى مذمومة دائماً، ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾.

٣ - إصلاح ذات البين، يتطلب أحياناً أن نهمس في أذن كل طرف على حدة، ﴿إِصْلَاحٌ بَيْنَ النَّاسِ﴾.

٤ - أحياناً تؤدي الصدقة في العلن أو الدعوة إلى الأمر بالمعروف إلى إحراج الإنسان وعناده، لذا من الأفضل اللجوء في هذه الحالة إلى النجوى أو السرية في العمل، ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾.

٥ - سمعة الناس مهمة لدرجة أن صيانتها تصير النجوى المذمومة ممدوحة، والصدقة والأمر بالمعروف سرّاً يغطيان على قبح النجوى، ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ...﴾.

٦ - قيمة الأعمال تتوقف على مدى الإخلاص، ﴿أَتَتَغَاةَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾.

٧ - ليس كل كتمان للعمل الصالح دليل إخلاص، فلربما كان ذلك الكتمان للتظاهر، ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ أَتَتَغَاةَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾.

٨ - خدمة المجتمع والدعوة إلى الإحسان، والتعاش، والتآلف، مدعاة لكسب الثواب العظيم، ﴿تُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولِهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (١١٥)

إشارات:

□ قلنا في ما سبق إن هذه الآية تتحدث عن الذين دخلوا في الإسلام وقبلوا دعوة النبي الكريم ﷺ، لكنهم أبدوا معارضة علنية لأوامره وأخذوا يشاققونه، فانفصلوا عن سبيل المسلمين.

□ «مشاققة الرسول» هي أن تأخذ شقاً وتأخذ الرسول الكريم ﷺ الشق الآخر. والمعنى هو المخالفة الصريحة المقرونة بالحق والضعيفة.

□ مشاققة رسول الله ﷺ لها أوجه وألوان عدة، على سبيل المثال: إنكار الدين برمته، الإيمان ببعضه والكفر ببعضه الآخر، التحريف، التبرير، الحيل الشرعية.

التعاليم:

- ١ - تترتب على العلم والمعرفة مسؤولية، فمنكر دعوة النبي ﷺ يستحق العذاب حينما يعلم بصدق دعوته وحقيتها، ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولَٰهُ مَا تَوَلَّىٰ وَتُصْلَىٰ جَهَنَّمَ﴾.
- ٢ - السيرة العملية للمسلمين حجة ما دامت لا تتعارض مع سنة رسول الله ﷺ ونهجه، ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ... وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ... وَتُصْلَىٰ جَهَنَّمَ﴾.
- ٣ - النبي الكريم ﷺ والمؤمنون يقفون في خندق واحد، ومخالفة المجتمع الإسلامي هي مخالفة للنبي الكريم، ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ... وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.
- ٤ - التسليم لرسول الله ﷺ واجب، ومخالفته حرام، ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ﴾.
- ٥ - بث الفرقة في صفوف المسلمين عاقبته نار جهنم، ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ... وَتُصْلَىٰ جَهَنَّمَ﴾.
- ٦ - لا يعذب الله تعالى أحداً إلا بعد أن يتم الحجة عليه، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ﴾.
- ٧ - لا يستوي القاصرون والمستضعفون الذين لم يسمعوا نداء الحق، أو عجزوا عن تشخيصه، وأولئك الذين سلكوا طريق اللجاج عن وعي وإدراك، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ﴾.
- ٨ - الإنسان هو الذي يوجد أسباب سقوطه، ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ... وَتُصْلَىٰ جَهَنَّمَ﴾.
- ٩ - كل طريق، عدا طريق المؤمنين الحقيقيين، ماله جهنم، ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ... وَتُصْلَىٰ جَهَنَّمَ﴾.
- ١٠ - عاقبة مخالفة رسول الله ﷺ والأمة الإسلامية الخضوع لغير ولاية الله والسقوط في هاوية الجحيم، ﴿تُولَٰهُ مَا تَوَلَّىٰ﴾.

١١ - لا يقطع الله تعالى نعمه عن المنحرفين، ويعين العبد على المصير الذي اختاره لنفسه، ﴿تَوَلَّوْهُ مَا تَوَلَّ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾

إشارات:

- لقد مرّ ما يشبه محتوى هذه الآية في الآية ٤٨ من السورة نفسها. لا شك في أنّ الإعادة والتكرار ضرورية في عملية الهداية والتربية.
- لا فائدة من الأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة ما لم تقتلع جذور الشرك؛ لأنّه مرض نفسي عضال. التوبة بلسم الشرك، وعلى المشرك أن ينجو بنفسه من دائرة الشرك حتى يظله الله بظلّ عفوه ورحمته.
- هذه الآية من أكثر آيات القرآن الكريم شحناً للنفس بالأمل والرجاء، وقد وصفت بأنها أرجى آية^(١).

التعاليم:

- ١ - مخالفة رسول الله وشقّ عصا المسلمين (كما ورد في الآية السابقة) نوع من الشرك، ﴿وَمَنْ يُشَاقِقْ... يُشْرِكْ بِهِ﴾.
- ٢ - الشرك ذنب عظيم لا يغفر، ﴿لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾.
- ٣ - يجب أن يعيش الإنسان بين الخوف والرجاء حيال المغفرة الإلهية، ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾.
- ٤ - الشرك عامل الضلال والابتعاد عن أيّ كمال، ﴿ضَلَالًا بَعِيدًا﴾.

﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾

إشارات:

- اعتبرت الآية السابقة أنّ المشركين في تيه وضلال، وتوضّح هذه الآية أسباب

ذلك وهي عبادتهم الأوثان وانقيادهم للشيطان.

□ ربّما كان مقصود الآية الكريمة من «الإناث» الأصنام التي كانت معروفة عند المشركين في الجاهلية بأسماء الإناث مثل اللات ومناة والعزى، أو الملائكة التي اعتقد المشركون أنها بنات الله. أو قد يكون المقصود بالإناث هو أنها مخلوقات ضعيفة لا تأثير لها، ولذلك، لا تصلح للعبادة.

التعاليم:

- ١ - غير الله من الآلهة المدعاة، إمّا أن يكونوا ضعفاء أو طغاة، ﴿إِلَّا إِنَّمَا إِنْتَا...
إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾.
- ٢ - الإعراض عن المعبود الحق، يؤدي بالإنسان إلى السقوط في أحضان المعبود الباطل أو الشيطان، ﴿إِلَّا إِنَّمَا...
إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾.
- ٣ - كلّ الطرق المنحرفة تنتهي إلى طريق واحد هو الانقياد للشيطان، ﴿وَإِنْ
يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾.
- ٤ - عبادة ما سوى الله، هي في الحقيقة، عبادة للشيطان، ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا
شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾.

﴿لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَا ضِلَّتْهُمْ وَلَا أُضِلَّتْهُمْ
وَلَا مَرْتَبَتُهُمْ فَلْيَبْتَكَنَّ إِذْ ذَاكَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْتَبَتُهُمْ فَلْيُعَذِّبْكَ خَلَقَ اللَّهُ وَمَنْ يَتَّخِذِ
الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿١١٩﴾﴾

إشارات:

- قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُ بِهِمْ﴾ أي أشغلهم بالأمنيات العريضة وطول الأمل.
- تشير الآية إلى واحد من أقبح الأعمال عند العرب في الجاهلية، إذ كانوا يقطعون أو يخرقون آذان بعض المواشي، ومن ثمّ يحرمون على أنفسهم ركوبها، بل يحرمون أي نوع من أنواع الانتفاع بهذه الحيوانات.

□ إصرار الشيطان وتأكيده على إضلال الناس، تحذير لأهل الإيمان.

□ يمكن تفسير عبارة ﴿مَنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ على وجهين هما:

أ - يضلّ بعض العباد.

ب - أن يقلب بعض لحظات كلّ عبد، إلى لحظات شيطانية.

□ جاء في إحدى الروايات عن أبي جعفر الإمام الباقر عليه السلام أن عبارة ﴿فَلْيَغْيِرْكَ خَلْقَ اللَّهِ﴾ تشمل تغيير دين الله^(١).

□ لا يجوز الإسلام أن تبقى البهيمة دونما فائدة أو نفع، فما بالك بالإنسان، ﴿فَلْيَبْتَكُنْ ءَآذَانَ الْآفَكَةِ﴾.

التعاليم:

١ - الشرك يعني السقوط في أحضان الشيطان، ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِىَ إِلَّا إِنْتَا... لَأَخَذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ﴾.

٢ - الشيطان، هو العدو القديم للإنسان، فحذار من الوقوع في حباله، ﴿لَأَخَذَنَّ﴾.

٣ - الشيطان يرمي كلّ سهامه لكي يضلّ الإنسان، ﴿وَلَا ضَلَّتْهُمْ وَلَا مَنِينَ لَهُمْ وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَبْتَكُنْ ءَآذَانَ الْآفَكَةِ وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَغْيِرْكَ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾.

٤ - لا يستطيع الشيطان أن يضلّ الجميع، ﴿لَأَخَذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ﴾.

٥ - الشيطان يقرّ بأنّ الله تعالى هو الخالق، ﴿عِبَادُكَ﴾.

٦ - خطر وساوس الشيطان جدّي ومائل دائماً، فلنعرف أعداءنا جيّداً. (اللام في أول الفعل دلالة على التوكيد وأنّ الخطر مائل أماناً)، ﴿لَأَخَذَنَّ﴾.

٧ - كلّ يضلّه الشيطان بنحوٍ معيّن، فهذا يبتدع في الدين، وذاك يغيّر في خلق الله، ﴿وَلَا مَنِينَ لَهُمْ... فَلْيَبْتَكُنْ... فَلْيَغْيِرْكَ﴾.

- ٨ - الآمال العريضة هي من تسويلات الشيطان، ﴿وَلَا مَنِيْنَهُمْ﴾.
- ٩ - في البداية، يترك الشيطان تأثيره على فكر الإنسان وروحه، فيجعله يسلم قياده له. (تطرح الآية الكريمة بادئ الأمر مسألة الإضلال، والأمانى، والآمال العريضة، ثم إصدار الأمر)، ﴿وَلَا ضَلَّٰلَتَهُمْ وَلَا مَنِيْنَهُمْ وَلَا مَرْنَهُمْ﴾.
- ١٠ - فطرة الإنسان تقوده إلى طريق الحق. فكلمة «إضلال» تعني أنه كان على جادة الحق ثم انحرف عنها، ﴿وَلَا ضَلَّٰلَتَهُمْ﴾.
- ١١ - يدعو الشيطان الناس إلى تحريم ما أحل الله، ﴿فَلْيَبْتَكَنْ ءَاذَانَ الْاَنۡعَامِ﴾.
- ١٢ - الأمانى تفتح الباب أمام طاعة الشيطان، ﴿وَلَا مَنِيْنَهُمْ وَلَا مَرْنَهُمْ﴾.
- ١٣ - الخرافات هي نتاج وسوس الشيطان، ﴿فَلْيَبْتَكَنْ ءَاذَانَ الْاَنۡعَامِ﴾.
- ١٤ - تغيير الخلقة (كأن يتم تحويل المرأة إلى رجل أو بالعكس) عمل محرّم ومن وسوس الشيطان، ﴿فَلْيَغَيِّرْ خَلْقَ اللّٰهِ﴾؛ يقول الإمام الصادق عليه السلام في هذه الآية: «أحكام الله ودينه».
- ١٥ - طاعة الشيطان هي، في الحقيقة، القبول بولايته، ﴿يَتَّخِذِ الشَّيْطَانُ وَلِيًّا﴾.
- ١٦ - الله وحده له الولاية على الإنسان، ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانُ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللّٰهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾.

﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢٠﴾
 ﴿أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ۝١٢١﴾

إشارات:

- ﴿مَحِيصٍ﴾ مشتق من المصدر «حِصص» ويعني العدول والانصراف عن الشيء.
- لما نزلت الآية ١٣٥ من سورة آل عمران وتناولت مسألة غفران الله تعالى للذنوب، صعد إبليس جبلاً بمكة يقال له: ثور، فصرخ بأعلى صوته بعفاريته فاجتمعوا إليه فقالوا: يا سيدنا لم دعوتنا؟ قال: نزلت هذه فمن لها؟ فقام

عفريت من الشياطين فقال: أنا لها بكذا وكذا، قال: لست لها، فقام آخر فقال مثل ذلك فقال: لست لها، فقال الوسواس الخناس. أنا لها قال: بماذا؟ قال أعدهم وأمتيهم حتى يواقعوا الخطيئة فإذا واقعوا الخطيئة أنسيتهم الاستغفار، فقال: أنت لها، فوكله بها إلى يوم القيامة^(١).

□ لقد وعد الله الإنسان، وكذلك وعده الشيطان، إلاً أَنْ وَعَدَ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ^(٢)، ووعد الشيطان الغرور، والكذب، والخداع، ولا شيء غير ذلك، ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

□ علائم وعود الشيطان هي الدعوة إلى الفساد والنظرة الضيقة. نقرأ في آية أخرى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾^(٣).

التعاليم:

- ١ - التعلق بالآمال العريضة، هو في الواقع، انزلاق إلى مصائد الشيطان ووساوسه، ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾.
- ٢ - إطلاق الوعود الكاذبة للآخرين - حتى وإن كانوا أطفالاً - هو من عمل الشيطان، ﴿وَمَا يَعِدُهُمْ﴾.
- ٣ - جهنم هي مأوى خالد وأبدي لبعض الناس، ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾.
- ٤ - التهديد بإنزال العقاب، أحد وسائل التصدي للفساد، ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾.
- ٥ - يمكن الفرار من جميع عذابات الدنيا وآلامها، ولكن أين المفر من عذاب الآخرة، ﴿وَلَا يَحْدُونُ عَنْهَا حَبِصًا﴾.
- ٦ - لا رجعة في الآخرة، إذن، فلنغتنم فرصة الدنيا للتوبة والإقلاع عن السيئات، ﴿وَلَا يَحْدُونُ﴾.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٦٨.

(١) تفسير الصافي.

(٢) سورة الحج: الآية ٤٧.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ۖ﴾

التعاليم:

- ١ - الإيمان مقرون بالعمل ولا فكاك بينهما، ﴿ءَامَنُوا وَعَمِلُوا﴾.
 - ٢ - إذا كانت كل الأعمال صالحة، فستكون نافعة. كلمة ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ معرفة بالآلف واللام، وهي إشارة إلى جميع الأعمال الصالحة.
 - ٣ - الترغيب والترهيب جنباً إلى جنب، من الأساليب التربوية في القرآن الكريم. (الآية السابقة تضمنت تهديداً، وهذه الآية تنطوي على ترغيب وبشارة)، ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ... سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ﴾.
 - ٤ - نعم الدنيا تستبطن الحسرة والفوت، أما نعم الجنة فهي خالدة لا تنفد، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾.
 - ٥ - وقفة تأمل نقارن خلالها وعود الشيطان الباطلة وعود الله الحقّة، سوف تجعلنا نتمسك بالوعد الإلهية، ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾.
- ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ، وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۖ﴾

إشارات:

□ ذكرت التفاسير في سبب نزول هذه الآية أنّ المسلمين كانوا يتفاخرون بأنّ نبيهم الكريم ﷺ هو خاتم الأنبياء وأنهم خير أمة^(١). وفي المقابل، كان أهل الكتاب يتباهون ويفخرون بتاريخهم، وأنّ لهم السبق على المسلمين ودينهم، ويقولون: إنّ نار جهنّم لن تمسّهم إلّا لأيام معدودة^(٢). ولذلك، نزلت هذه الآية الكريمة

(١) سورة آل عمران: الآية ١١٠.

(٢) سورة البقرة: الآية ٨٠.

لتدحض دعاوى الفريقين وتصحح أفكارهما وتضع العمل الصالح معياراً للفضل والشرف^(١).

□ تنسب الآيتان السابقتان الأمانى والآمال العريضة إلى الشيطان، أما هذه الآية فهي تدحض الأمانى الكاذبة.

□ عبارة ﴿يُجْزَى بِهِ﴾ تشمل جزاء الدنيا، أو جزاء الآخرة، وربما كليهما. تفيد الروايات المنقولة في هذا المجال، أنّ جزاء المؤمن الذي يرتكب السيئات هو مواجهة المشاق والصعاب في هذه الدنيا وفي حياة ما بعد الموت (البرزخ)^(٢).

□ توقع بعض المسلمين أن ينحاز النبي الكريم ﷺ إلى جانبهم في جدالهم مع أهل الكتاب، وتناسوا أنّ العدل هو معيار التفاضل لا الانحياز^(٣).

□ وروي أنه لما نزلت هذه الآية ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَمَلْ سَوْءًا يُجْزَى بِهِ﴾ فقال رجل لرسول الله ﷺ: يا رسول الله قد جاءت قاصمة الظهر، فقال ﷺ: «كَلَّا، أما تحزن، أما تمرض، أما يصيبك اللأواء (ضيق المعيشة) والهموم؟» قال بلى، قال: «فذلك مما يجزى به»^(٤).

التعاليم:

١ - اطرحوا عن أنفسكم الأوهام والأمانى الكاذبة، فلا طائل من ورائها، ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ﴾.

٢ - في كلّ طبقة أو شريحة ثمة أشخاص انتهازيون ممن لا تنتهي مطالبهم، ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ... أَهْلُ الْكِتَابِ﴾.

٣ - يجب مراعاة العدل والإنصاف في أقوالنا وأحكامنا، وإذا وجّهنا نقداً فلا نستثني أحداً، ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلُ الْكِتَابِ﴾.

٤ - إذا أردنا توجيه النقد أو إصلاح العيوب، فلنبداً بأنفسنا أولاً. لاحظ أنّ الآية

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ٣، ص ١٧٥. (٢) تفسير الميزان.

(٣) مستدرک الوسائل، ج ٢، ص ٦٠. (٤)

(٢) تفسير أطيب البيان.

الكريمة انتقدت المسلمين أولاً ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيَكُمْ﴾ ثم عَقَبَتْ بنقد أهل الكتاب ﴿أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾.

٥ - الحزم القاطع في الوقت المناسب والوقوف بوجه الانحصارية الفارغة من أفضل أساليب التربية، ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيَكُمْ﴾.

٦ - يقوم الإسلام على الحقائق لا على الأوهام أو أمانى الأشخاص، ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيَكُمْ﴾.

٧ - الله تبارك وتعالى عادل، وثوابه وعقابه يتبع عمل الإنسان، ﴿مَنْ يَعْمَلْ﴾.

٨ - في الدين الإلهي، الجميع سواسية أمام القانون، ﴿مَنْ يَعْمَلْ﴾، (سوء استغلال الاسم والسمعة ممنوع).

٩ - العمل هو المعيار، لا الشعارات، والضوابط لا الوسائط، ﴿مَنْ يَعْمَلْ﴾!

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَّمُونَ نَقِيرًا﴾ (١٢٤)

إشارات:

□ كلمة «نقير» مشتقة من النقر وهو: قرع الشيء المفضي إلى النقب، والنقرة: وقبة يبقى فيها ماء السيل، والنقير: وقبة في ظهر النواة، ويضرب به المثل في الشيء الطفيف^(١).

□ تقول الآية السابقة: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا﴾ وهنا تقول: ﴿يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾، إذن، يتضح لنا أَنَّ الثواب والعقاب يكون تبعاً لطبيعة «العمل».

□ الثواب في هذه الآية هو الجنة، وفي الآية ٩٧ من سورة النحل هو «الحياة الطيبة» علاوة على الجنة: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاتٍ طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

التعاليم:

- ١ - بطاقة الدخول إلى الجنة هي الإيمان والعمل الصالح، لا العرق البشري، أو المزاغم، أو الأماني. لاحظ الآيتين السابقتين والحالية، ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ... وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ...﴾.
 - ٢ - البشر من كلّ عرق، ولون، وطبقة، متساوون في الانتهاال من الطاف الله. ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ﴾.
 - ٣ - لا يكلف الله نفساً إلّا وسعها، يكفي القيام ببعض الأعمال الصالحة لنأمل دخول الجنة، فالكمال لله وحده، وقدرة الإنسان على الانتهاال محدودة، ﴿مِنْ الصَّالِحَاتِ﴾.
 - ٤ - يتساوى الرجل والمرأة في الوصول إلى الكمال الروحي، ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ على العكس ممّا يؤمن به فريق من اليهود والنصارى^(١).
 - ٥ - قبول الأعمال رهن باقترانها بالإيمان، وغير المؤمن يجزى على خدماته في هذه الدنيا ولا خلاق له في الآخرة^(٢)، ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ... وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾.
 - ٦ - الجنة ثواب المؤمن المحسن، ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾.
 - ٧ - الأعمال الصالحة ذات قيمة وإن كانت ضئيلة، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نِقِيْرًا﴾.
- ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا
وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ (١٢٥)

إشارات:

□ الآيتان السابقتان ركزتا على العمل بوصفه معياراً للتفاضل، لا اعتناق الإسلام أو المسيحية. وهذه الآية تشرح هذه النقطة لثلا يبرز خلط بأنّ الأديان والعقائد سواسية في قيمتها.

□ لا يخفى أن التسليم لله تبارك وتعالى أرفع شأنًا من الرضا بقضائه، ذلك أنه في مقام الرضا، يرى لنفسه شأنًا واعتباراً، بينما في التسليم ينفي عن نفسه كل شأن أو قيمة في مقابل الله تعالى^(١).

□ «حنيف» من «الحَنَف» وهو الميل عن الضلال إلى الحق والاستقامة، والحنيف هو المائل إلى ذلك، وبعبارة «الحنيف»، المائل عن الحق إلى الباطل.

□ «خليل» مشتقة من كلمة «خُلَّة» وتعني الصداقة، وقد يكون اشتقاقها من المصدر «خُلَّة» بفتح الخاء لتعني الحاجة، بيد أن المعنى الأول أنسب.

□ ورد في بعض الروايات أن الله جلّ وعلا إنما اتخذ النبي إبراهيم ﷺ خليلاً لكثرة سجوده على الأرض، وإطعامه الطعام، وصلاته بالليل والناس نيام، وإقرانه الضيف، وعدم ردة السائل^(٢).

□ النبي الكريم ﷺ يتبع دين جدّه إبراهيم ﷺ، ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٣).

□ إبراهيم ﷺ خليل الله، ومحمد ﷺ حبيب الله^(٤).

□ فاز من اهتدى بهدي الله؛ لأنّ ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾^(٥).

التعاليم:

١ - الدين الأرقى هو اتباع ملة إبراهيم ﷺ، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا﴾.

٢ - التسليم لله (جلّ وعلا) والإحسان إلى الناس من الأسس التي تقوم عليها الأديان السماوية، ﴿أَسَلُّ... وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.

٣ - الدين يقوم على الإيمان والعمل معاً، ولا يكتمل أحدهما إلا بالآخر، ﴿أَسْلِمَ... وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.

(٤) تفسير الدرّ المشثور، ج ٢، ص ٢٣٠.

(٥) سورة القصص: الآية ٨٨.

(١) تفسير أطيب البيان.

(٢) تفسير نور الثقلين.

(٣) سورة النحل: الآية ١٢٣.

- ٤ - خير القدوات للناس أولئك الذين اصطفاهم الله تعالى لنفسه، ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾.
- ٥ - من يعرض عن الباطل، يهتئ نفسه لمنزلة خليل الله، ﴿حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾ ﴿١٢٦﴾

إشارات:

□ الله سبحانه وتعالى محيط إحاطة تامة بجميع خلائقه. إحاطة قهر وتسخير، وإحاطة علم وتدبير، وإحاطة خلق وتغيير.

التعاليم:

- ١ - إلى الله يرجع أمر كل شيء؛ لذا يجب أن لا نسلم وجهنا إلا لإرادته الحكيمة. (في ضوء مفهوم الآية السابقة) ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ... وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾.
- ٢ - اصطفاء النبي إبراهيم عليه السلام كخليل (الآية السابقة) لم يكن لحاجة الله إليه، فحتى المصطفون هم عباد الله تعالى، «...﴿إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا... وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾».
- ٣ - الملكية المطلقة المقترنة بالعلم والإحاطة التامة بالعبد هي لله تعالى وحده، ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾.

﴿وَسَتَفْتُرُوكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُتَبِّعُكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَنَصَّىٰ النِّسَاءَ الَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغِبْنَ أَنْ تَكْفُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَيْنَ مِنْ أَوْلَادِنِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ ﴿١٢٧﴾

التعاليم:

- ١ - حقوق المرأة كانت موضع دراسة ونقاش بين المسلمين في صدر الإسلام، ﴿وَسَتَفْتُرُوكَ فِي النِّسَاءِ﴾.

- ٢ - في الدفاع عن حقوق النساء والأطفال واليتامى إشارة إلى أنهم كانوا يتعرضون للظلم على طول التاريخ، ﴿النِّسَاءَ... يَتَمَى... أَوْلَدَانِ﴾.
- ٣ - الدفاع عن حقوق المرأة، هو حكم الله الذي لا لبس فيه، ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾.
- ٤ - تشريع الحكم من الله، وتفسيره بعهدة النبي الكريم ﷺ، ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾.
- ٥ - يجب كسر العادات الجاهلية بفتاوى صريحة، ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾.
- ٦ - لا تحرموا النساء إرثهن بسبب العادات الجاهلية، ﴿لَا تُوْثَرْنَ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾.
- ٧ - لقد جعل الله المرأة مالكة حيث خصص لها سهماً من الإرث، ﴿كُتِبَ لَهُنَّ﴾.
- ٨ - حفظ حقوق اليتامى، مسؤولية الجميع، ﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى﴾.
- ٩ - يجب أن ينبري المجتمع المسلم إلى إرساء أسس العدل بين اليتامى، ﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾.
- ١٠ - التعامل بالعدل مع اليتيم أحد الأمثلة على أعمال الخير، ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾.
- ١١ - لا تنس خدمة المحرومين وتقديم الدعم والحماية لهم، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً﴾.
- ١٢ - الإيمان بالعلم الإلهي، أفضل حافز على فعل الخير، ﴿كَانَ بِهِ عَلِيماً﴾.
- ١٣ - الله تبارك وتعالى يحيط بالحوادث قبل وقوعها، ﴿تَفْعَلُوا... كَانَ بِهِ عَلِيماً﴾.

﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعلِهَا شَوْراً أَوْ غَرَضاً فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾

إشارات:

□ «النشوز» مشتقة من «النشز»: المرتفع من الأرض، ونشز فلان: إذا قصد نشزاً،

ومنه: نشز فلان عن مقره: نبا، وكل نابٍ ناشز، والنشوز هنا بمعنى الطغيان والتمرد^(١). في الآية ٣٤ كان الحديث عن نشوز المرأة ﴿تَخَافُونَ سُوءَ بَعْضِهِمْ﴾، وهنا تتحدث الآية عن نشوز الرجل.

□ «الشُّعْ» في المرأة، هو عدم ارتدائها للباس الفاخر، وترك التزين، أما في الرجل فهو الامتناع عن دفع المهر، والنفقة، والإعراض، والصد.

□ جاء في التفسير أنّ سبب نزول الآية هو أنّ رافع بن خديج كانت له زوجتان، إحداهما كبيرة السنّ عجوز، والأخرى شابة، فطلق رافع زوجته العجوز (إثر خلافات نشبت بينهما) لكنّه قبل أن تنتهي عدّتها عرض عليها الصلح مشروطاً عليها أن لا تضجر إذا قدم عليها زوجها الشابة، أو أن تصبر حتى تنتهي عدّتها فيتمّ الفصل والفراق، فقبلت زوجته العجوز الشرط واصطلحا، فنزلت هذه الآية الكريمة ميّنة حكم هذا العمل.

□ سئل الإمام الصادق عليه السلام عن قوله ﷺ: ﴿إِنْ أَمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا شُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ فقال: «هي المرأة تكون عند الرجل فيكرهها فيقول لها: إنّي أريد أن أطلقك، فتقول له: لا تفعل إنّي أكره أن تُسميت بي ولكن انظر في ليلتي فاصنع بها ما شئت وما كان سوى ذلك من شيء فهو لك ودعني على حالتي»^(٢).

التعاليم:

- ١ - يجب أن نتدبّر الأمر قبل وقوعه. في الخلافات العائلية يجب أن نتدارك تفاقم الوضع ووصله إلى الطلاق، ﴿خَافَتْ﴾.
- ٢ - لا بأس من تنازل الإنسان عن حقّه من أجل تحقيق مصلحة عليا والمحافظة على كيان الأسرة، فذلك أفضل من الإصرار لانتزاع ذلك الحق، ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾.
- ٣ - بالنسبة إلى القضايا العائلية، فإنّ أوّل خطوة ينبغي أن تكون الإصلاح بين

(١) مفردات الراغب، مادّة «نشز».

(٢) الكافي، ج ٦، ص ١٤٥؛ وسائل الشيعة، ج ٢١، ص ٣٥١.

الزوجين دون تدخل أحد، وإذا تعذر ذلك، فليبادر الآخرون لأن يصلحا بينهما، ﴿أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا﴾.

٤ - منافع الزوجين من بعضهما هي حقوق قابلة للتنازل؛ وليس حكماً حكم يتعذر تغييره، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا﴾.

٥ - حقوق الأسرة أكثر أهمية من الحقوق الخاصة بالزوجة أو الزوج. ينبغي التنازل عن الحقوق الشخصية من أجل المحافظة على حق الأسرة، ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾.

٦ - لا يتحقق الصلح بالمال دائماً. أحياناً يفتح التنازل عن الحق باباً على الصلح والوئام، بينما يقوم البخل بغلقه، ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾.

٧ - السبب وراء انهيار كثير من الأسر، هو سيطرة النظرة الضيقة والبخل والطمع على الإنسان، ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾.

٨ - تنازل الزوج عن الرغبات الجنسية والعدل بين الزوجات، من أمثلة التقوى والإحسان، ﴿وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا﴾.

٩ - يمتزج النظام التشريعي في الإسلام مع النظام الأخلاقي، ﴿يُصْلِحَا... تُحْسِنُوا﴾.

١٠ - التنازل عن الحق أو الإحسان إلى الزوجة كلاهما بعين الله، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

١١ - ليعلم الزوج الشبق المغتلم أنه إذا أراد أن يضيّق على زوجته الأولى من أجل تحقيق لذاته، فيكرهها على أمر، فإن الله من فوقه ناظر إلى ما يفعل، ﴿تَعْمَلُونَ خَيْرًا﴾.

﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا كَالْمَعْلَقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا﴾

إشارات:

١ - لا تتعارض قوانين السماء مع الفطرة الإنسانية، فالإنسان بطبيعته يميل إلى

الزوجة التي تفيض شباباً وحيوية أكثر من ميله إلى الزوجة التي دخلت مرحلة الكهولة. لذلك، فإنَّ حكم العدالة القرآني يقتصر على أسلوب المعاملة مع الزوجات ولا يشمل الميل القلبي والعاطفي. ولَمَّا كان تحقيق العدالة في المودة القلبية أمراً متعذراً، فلا أقل أن يعدل الرجل في المعاملة والنفقة^(١). الإسلام لا يكلف نفساً فوق طاقتها، فإذا كان الإنسان ليس في مقدوره أن يعدل في حبه ومشاعره العاطفية نحو زوجاته، فلا يعدم أن يعدل في المساواة بينهما في المعاملة.

□ جاء في الروايات أنَّ النبي الكريم ﷺ كان يقسم بين نسائه في مرضه، فيطاف به بينهما. كما روي أنَّ الإمام علي عليه السلام كان له امرأتان، وكان إذا كان يوم واحدة، لا يتوضأ في بيت الأخرى^(٢).

التعاليم:

- ١ - يحرم على الزوج أن يذر زوجته كالمعلقة، ﴿فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾.
- ٢ - بالصلح والتقوى يمكن إصلاح أخطاء الماضي، وتدارك غفلة الحاضر، ﴿وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

﴿وَإِنْ يَنْفَرَا يُعْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾

التعاليم:

- ١ - لم تعدم الأسرة المخارج والحلول في الإسلام، فإذا لم ينفع العفو، والصلح، وتطبيق الحدود، والإنذارات، فأخر الدواء الكي وهو الطلاق، ﴿وَإِنْ يَنْفَرَا﴾.
- ٢ - لا ينبغي اليأس مع أول ظهور للعقبات والعقد في الحياة، بل يجب إصلاح المسيرة وتغيير الاتجاه، ﴿وَإِنْ يَنْفَرَا يُعْنِ اللَّهُ﴾.

(١) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٥٥٨؛ الكافي، ج ٥، ص ٣٦٢.

(٢) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل؛ تفسير البيان.

٣ - الخطوة الأولى هي الإصلاح والتقوى. (تأمل الآية السابقة)، والخطوة التالية الانفصال والطلاق، ﴿وَأِنْ يَفْرَقَا﴾.

٤ - الطلاق أو الانفصال ليس سيئاً في كلِّ الأوقات، فهو صمام الأمان وحلّال المشاكل في بعض الأحيان؛ إذ لطالما أدت الخلافات العائلية إلى الانتحار والعلاقات غير المشروعة. وهنا يأتي دور الطلاق ليعطي بارقة أمل في تشكيل نواة لحياة أخرى جديدة، ﴿يُعْنِ اللَّهُ كَلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾.

٥ - الله تبارك وتعالى هو حلّال المشاكل، ﴿يُعْنِ اللَّهُ كَلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾.

٦ - لكلِّ شخص طريق خاص إلى التطوُّر والتقدُّم، أحياناً يتم ذلك بالزواج ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْنِهِمُ اللَّهُ﴾^(١)، وأخرى بالطلاق ﴿وَأِنْ يَفْرَقَا يُعْنِ اللَّهُ﴾، وذلك بحسب ما تملّيه الظروف. فلا تخش الزواج وكذلك لا تخش الطلاق؛ لأنَّ الله وعد عبده بالغنى واليسار في كلا الحالين، ﴿يُعْنِ اللَّهُ﴾.

٧ - الرزق كلّهُ بيد الله تعالى، ﴿وَأَسِعَا حَكِيمًا﴾.

٨ - تشريع الطلاق هو من فضل الله وحكمته، ﴿وَأَسِعَا حَكِيمًا﴾.

٩ - إذا اقترن استخدام اليسار والقدرة بالحكمة فهو ذو قيمة وإلا فهو خطر حقيقي، ﴿وَأَسِعَا حَكِيمًا﴾.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾﴾

إشارات:

□ في الآية السابقة وعد الله سبحانه وتعالى أن يُغني الزوجين بفضله ورحمته إذا ما قرّرا الانفصال عن بعضهما.

□ جاء تكرر عبارة ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ في الآيتين دفعا لوهم من يتصور أن الله تعالى لن يكفي المطلّقين والمطلّقات، أو أنه سبحانه ينتفع بتقواهم أو مضطرّ لحفظهم. لذا، فإنّ كلّ ما في السموات والأرض هو ملك يمينه وفي قبضته، وإذا شاء ذهب بكم وجاء بآخرين غيركم.

□ يقول الإمام علي عليه السلام بشأن طبيعة العلاقة بين الإنسان وربّه: «... غنياً عن طاعتهم لأنّه لا تضرّه معصية من عصاه، ولا تنفعه طاعة من أطاعه»^(١).

التعاليم:

١ - قدرة الله سبحانه وتعالى ومالكيته هي الضمانة لتنفيذ وعوده، ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾.

٢ - الدعوة إلى التقوى هي ما أوصى به جميع الأنبياء، وتكرار هذه الوصية هو في الحقيقة من الأصول التربوية التي جاءت في كلّ الأديان، ﴿وَصَيَّنَا... مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾.

٣ - اشتراك الأديان في الأحكام الإلهية يسهّل مهمّة العمل بها وتطبيقها، ﴿وَصَيَّنَا... مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾.

٤ - يجب الخشية من يملك السموات والأرض، لا من أحد غيره، ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ... اتَّقُوا اللَّهَ﴾.

٥ - عدم التقوى مدعاة للكفر، ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا﴾.

٦ - الله تبارك وتعالى غنيّ وبيده ملك السموات والأرض، ولا حاجة به إلى عبادتنا وإيماننا، ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾.

٧ - الكفر لا يُخرج الناس من سلطة الله تعالى ودائرة قدرته، ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾.

٨ - الغنى المطلق لله تعالى يفرض علينا عبادته، ﴿غَنِيًّا حَمِيدًا﴾.

- ٩ - غناه جلّ وعلا دائم، ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا﴾.
- ١٠ - لا حاجة لله سبحانه إلى إيمان الناس وتقواهم، ﴿إِنْ أَنْفَقُوا اللَّهُ وَإِنْ تَكْفَرُوا... وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا﴾.
- ١١ - توكل على الذي بيده ملك السموات والأرض، ﴿وَكُنْ بِاللهِ وَكِيلًا﴾.
- ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾

إشارات:

□ تنقل التفاسير أنه حينما نزلت هذه الآية رُبّت النبي الأكرم ﷺ على كتف سلمان الفارسي وقال: إِنَّ المعنِي بالآخرين في الآية هم قوم من العجم من بلاد فارس^(١). وهذا الكلام يعني - في الحقيقة - نبوءة مبكرة بإسلام الإيرانيين فضلاً عن الخدمات الكبيرة التي قدّمتها هذه الأمة إلى الإسلام.

التعاليم:

- ١ - إمهال الكافرين ليس بسبب عجز الله تعالى، بل هو من مقتضيات حكمته، ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾.
- ٢ - لا تغترّ بنفسك، فليس للإمكانات والمناصب التي تحتلّها بقاء، فهي معلقة بحبل الإرادة الإلهية، ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾

وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾

إشارات:

□ أمام الإنسان خياران، الأول هو أن يدعو الله ﷻ أن يحفظ له دنياه وآخرته في آنٍ معاً، وأن يوظّف نعم الدارين لخيره وصلاحه، أمّا الخيار الثاني فهو أن

يكتفي بالدنيا، وأن يسعى من وراء أعمال الخير التي يقوم بها إلى تحقيق الأهداف المادية، وهو، بلا شك، خطأ قاتل.

□ من أسباب نزوع المرء إلى الكفر وعدم التقوى، الظنّ بالحصول على الدنيا فقط، وهو ما تفنّده هذه الآية الكريمة.

التعاليم:

١ - غريزة طلب المنفعة والريح موجودة في كلّ إنسان، ويقوم القرآن الكريم بتهديبها وتوظيفها في خدمة تربية النفس الإنسانية، ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾.

٢ - الإسلام دين جامع وشامل، ويطلب سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة معاً والعمل على تحقيقها، ﴿فَوَعَدَ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

٣ - الدنيا والآخرة بيده وحده سبحانه وتعالى، إذن، علينا توسيع نظرتنا، والخروج عن الأمور المادية والنظرة الضيقة، ﴿فَوَعَدَ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

٤ - حتى الدنيا إذا طلبناها، فلنطلبها من الله تعالى، لأنّ أمر كلّ شيء بيده، ﴿فَوَعَدَ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

٥ - أفلح المؤمنون الذين يطلبون الدنيا والآخرة من الله سبحانه وتعالى^(١)، ﴿فَوَعَدَ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

٦ - الثواب الإلهي يكون على أساس علم الله تعالى وإحاطته بأعمالنا، ﴿فَوَعَدَ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

٧ - يجب أن نؤمن بالحقيقة حقاً وإخلاصاً، لا ظاهرياً، ذلك أنّ الله يسمع ويرى، ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

(١) في ضوء الآية ﴿وَرَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ﴾ سورة البقرة: الآية ٢٠٥.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتُوبًا فَوَّيْمِينَ بِالْقَسِطِ شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ
وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللّٰهُ أَوَّلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ
تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾

إشارات:

□ ربما كان معنى الآية ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ هو: لا تنقادوا وراء الأهواء
فيؤدي بكم ذلك إلى الانحراف عن الحق.

□ كلمة «تلوا» مشتقة من المصدر «لِيَ» بمعنى الطي والبرم، أما المراد بها في
الآية الكريمة فهو ليّ اللسان نحو تحريف الحق والشهادة، أو ليّّه باتجاه إعاقه
مسير العدالة وتأخير تطبيقها.

□ تؤكد جميع كلمات وعبارات هذه الآية على العدل وتطبيقه. إنّ معيار القيام
بالعدالة والشهادة بالعدل هو اجتناب أيّ مظاهر فردانية أو ضعف، لا الفقر،
أو الغنى، أو القرابة، أو النسب.

□ شهادة الإنسان على أوجه عدّة هي:

أحياناً تكون الشهادة ضدّ الأغنياء نابعة من روح التصدي للاستكبار.
أو أحياناً يشهد المرء لصالح الأغنياء وذلك بدافع من طمع أو سعيّاً إلى
منصب وجاه.

وربّما يشهد على الفقير لعدم اهتمامه به.

أو يدافع عن الفقير حرصاً عليه وتعاطفاً معه.

□ تفنّد الآية الكريمة كلّ هذه الدوافع والأسباب وتجعل القيام بالعدل هو محور
الحق.

□ نقل عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: للمؤمن سبعة حقوق على المؤمن، فأوجبها
أن يقول الرجل حقاً ولو كان على نفسه أو على والديه...^(١).

التعاليم:

- ١ - إقامة العدل أمر واجب فضلاً عن كونه من ضرورات الإيمان، ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾.
- ٢ - تطبيق أسس العدل يجب أن يصبح من صفات المؤمن وأخلاقه. فكلمة ﴿قَوَّامِينَ﴾ تحمل مفهوم القائم بالقسط والعدل بصورة دائمة.
- ٣ - يجب تطبيق العدالة حتى مع غير المسلمين وذلك بمقتضى صيغة الإطلاق لعبارة ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾.
- ٤ - تطبيق العدالة يجب أن يشمل جميع مناحي الحياة، فالآية الكريمة لم تذكر حالة بعينها، ﴿قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾.
- ٥ - شهادة الحق أمر واجب، ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ... شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾.
- ٦ - ينبغي أن لا يكون الهدف من الإدلاء بالشهادة هو تحقيق مكاسب دنيوية، ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾.
- ٧ - إقرار الإنسان على نفسه معتبر، ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾.
- ٨ - القوانين والقواعد قبل العلاقات والارتباطات، ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾.
- ٩ - مراعاة المصالح الشخصية للإنسان والأقارب والفقراء يجب أن تكون في ظلّ الحق تعالى ومرضاته، ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾.
- ١٠ - الشهادة الباطلة لن تحقق المصالح الحقيقية للفقراء والأغنياء، ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَلَهُ أَوَّلُ بَيْتًا﴾.
- ١١ - الجميع سواسية أمام القانون، ﴿غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾.
- ١٢ - اتباع هوى النفس حاجز يحول دون تطبيق العدالة، ومن علائمه الأخذ بالاعتبار قضايا القرابة والفقير والغنى، ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾.
- ١٣ - الإدلاء بالشهادة أمر واجب، ولا يجوز كتمانها أو تزيفها، ﴿وَلِنْ تَلَوَّا أَوْ تَعْرِضُوهَا﴾.

- ١٤ - أي إعاقة، أو تأخير، أو إبطاء، في تطبيق العدالة حرام، ﴿وَلَا تَلَوْا﴾.
 ١٥ - الإيمان بعلم الله هو الضمانة لتطبيق العدالة، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ
 الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
 فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾

إشارات:

- ثمة احتمالان في المراد بهذه الآية، الأول هو: تقدّموا خطوة أبعد لتبأوا
 مرتبة أعلى، أو أن يكون: أقيموا على تصديقكم وأثبتوا عليه، ولا تحيدوا عنه
 قيد أنملة.
 □ للإيمان درجات، كما ورد في آيات قرآنية أخرى مثل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ
 هُدًى﴾^(١) ﴿لِيَزَادُوا إِمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾^(٢).

التعاليم:

- ١ - على المؤمن أن يسعى ليرتقي بنفسه إلى أعلى درجات الإيمان^(٣)، ﴿يَا أَيُّهَا
 الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾.
 ٢ - الأديان السماوية لها هدف مشترك وحقيقة واحدة، كما هو الحال مع صفوف
 المدرسة الواحدة التي تخضع لإدارة مدير واحد، ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى
 رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾.
 ٣ - لا بدّ من الإيمان بجميع الأنبياء والكتب السماوية، ﴿ءَامِنُوا... وَمَنْ
 يَكْفُرْ... فَقَدْ ضَلَّ﴾.

(٣) تفسير القمي، ج ١، ص ٣١.

(١) سورة محمد: الآية ١٧.

(٢) سورة الفتح: الآية ٤.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا لَّكَ يَكُنِ
اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَكُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾

إشارات:

□ في بداية الدعوة الإسلامية كانت مجموعة من أهل الكتاب تظهر الإيمان في حضور المسلمين ثم تردّد لإلقاء الشبهات والريبة في روع المسلمين، ثم يعلنون أنّ سبب ارتدادهم هو عدم صحة دعوى الإسلام؛ كما أنّ اليهود آمنوا بدعوة موسى ثم عبدوا العجل، ثم تابوا عن ذلك ورجعوا إلى دين موسى ﷺ، ومن ثم كفروا بـعيسى ﷺ، وزادوا ذلك الكفر، كفرهم برسالة النبي الأكرم ﷺ.

□ وقد ورد في موضع سابق ما يشبه مضمون هذه الآية الذي يقول: إنّ أمثال هؤلاء لا تقبل توبتهم، وهم الضالّون الحقيقيّون، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزَادُوا كُفْرًا لَّنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾^(١).

□ إنّ مرّة السلوك الحربيّ لهؤلاء هو إمّا عدم البحث والتقصّي عند اعتناق الدين، أو بدوافع التآمر وتدبير الخطط لإلقاء الريبة والشبهة في نفوس المؤمنين. وبدورها، تميط الآية ٧٢ من سورة آل عمران كذلك اللثام عن هذا النوع من المؤامرات، إذ تقول: إنّهم يؤمنون في الصباح ويكفرون عند المساء، ليخلقوا حالة من عدم اليقين عند المسلمين.

□ من الأمثلة الحيّة على هذه الآية، قصّة «شيث بن ربيعي» إذ يذكر التاريخ: أنّه أسلم في عهد النبي الكريم ﷺ، ثم ارتدّ بعد وفاته، وبعد ذلك تاب وعاد إلى حظيرة الإسلام ليصبح بعد ذلك من أصحاب الإمام علي ﷺ، وما لبث بعد ذلك أن انقلب عليه ليحاربه في النهروان كقائد للخوارج، ثمّ قدّم التوبة وأصبح من أصحاب الإمامين الحسن والحسين ﷺ، ومن جملة الذين بعثوا برسائل إلى الإمام الحسين ﷺ يحثّونه على القدوم إلى الكوفة، ولكن هيهات، فالطبع

يغلب التطبع، إذ سرعان ما عاد إلى أصله، فغدر بمسلم بن عقيل. وفي وقعة الطف، التحق بجند يزيد، إذ يذكر التاريخ أنه شيد مسجداً في الكوفة شكراً لله على استشهاد الإمام الحسين عليه السلام^(١).

التعاليم:

- ١ - خطر الارتداد وترك الدين يتهدد كل مؤمن، ﴿ءَامِنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾.
- ٢ - عدم الثبات على العقيدة يؤدي إلى الضلال التام والحرمان من الرحمة الإلهية، ﴿ءَامِنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾... ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ﴾.
- ﴿يَشِيرُ الْمُتَّقِينَ يَا نَفْسُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ
أَيَبْنُوتُ عَنْهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾

إشارات:

- هذا التوبيخ الشديد الذي يحمل على الذين يتولون الكفار و يقيمون علاقات ودية معهم، ورد بالمضمون نفسه في الآية ٢٨ من سورة آل عمران.
- كان المنافقون في بداية الدعوة يقيمون علاقات ودّ و صداقة مع يهود المدينة و مشركي مكة و يتولونهم، وكان هدفهم من وراء ذلك هو الحفاظ على مصالحهم و موافعهم من أيّ ضرر أو خسائر في حال انهزم المسلمون أمام الكفار.
- العزة لله تعالى وحده، فهو مصدر العزة، والعلم، والقدرة، وكلّ ما سواه لا علم له ولا قدرة. فنحن نقرأ في المناجاة الشعبانية: «وَبِيْدِكَ لَا يَبْدُ غَيْرُكَ زِيَادَتِي وَنَقْصِي وَنَقْصِي وَضُرِّي»^(٢).

(١) آية الله كمرني، مسلم بن عقيل، ص ١٧٨؛ التستري قاموس الرجال؛ آية الله الخوئي، معجم رجال الحديث.

(٢) بحار الأنوار، ج ٩١، ص ٩٧.

التعاليم:

- ١ - تولي الكفار طلباً للعزة والرفعة، من خصال المنافقين، ﴿الَّذِينَ يَتَخَذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ...﴾.
- ٢ - لا يجوز إقامة أيّ علاقات مع الكفار، ﴿الَّذِينَ يَتَخَذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ...﴾.
- ٣ - الأفضل أن نهتمّ بتطوير العلاقات مع البلدان الإسلامية في مجال السياسة الخارجية، بدلاً من تطوير العلاقات مع بلاد الكفر، ﴿الَّذِينَ يَتَخَذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَةَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْ أَنْذَرْتُمُوهُمْ أَنْ لَا يَكُونُوا مِثْلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾

إشارات:

□ ورد ما يشبه هذا المضمون في الآية ٦٨ من سورة الأنعام إذ توجه خطاباً صريحاً إلى الرسول الكريم ﷺ فتقول: إذا رأيت المنافقين يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا وَيَسْتَهْزِؤْنَ بِهَا، فأعرض عنهم حتى يَغْتَرِبُوا الْمَوْضِعَ وَيَتَحَدَّثُوا فِي غَيْرِهِ، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾.

التعاليم:

- ١ - يجب أن لا يسكت الإنسان إزاء افتراءات وتخرصات الآخرين، ﴿إِذَا سَمِعْتُمْ... فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾.
- ٢ - المجاملة والسكوت في مجالس المعصية، هو ارتكاب للمعصية، ﴿يُكْفَرُ بِهَا... فَلَا تَقْعُدُوا﴾.
- ٣ - إما أن تغيروا الأجواء الفاسدة، وإما أن تغادروها، ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾.
- ٤ - لا يكفي أن يجتنب الإنسان المعاصي أو يكون مستقيماً، بل لا بدّ له من قلب طاولة المعصية والكفر، والتصدي لانحرافات الآخرين، ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾.

- ٥ - يجب عدم السكوت على الإساءة إلى الدين بحجة احترام حرية الرأي، أو من باب التحلي برحابة الصدر والتسامح، أو حسن الخلق، أو المداراة والحياء وضرورة المحافظة على العلاقات مع الناس، وغير ذلك من الأعذار والحجج الواهية، ﴿سَمِعْتُمْ... وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾.
- ٦ - الغيرة على الدين، والتصدي، واتخاذ المواقف الحاسمة شرط الإيمان الحقيقي، ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾.
- ٧ - يحرم بناتاً التشجيع على الكفر وتقويته والاستهزاء بالدين بأي نحو كان، حتى وإن كان من باب «الحشر مع الناس عيد»، ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾.
- ٨ - شرط معاشرة الآخرين هي أن لا تترتب على ذلك أضرار تمس الفكر والعقيدة، ﴿سَمِعْتُمْ... يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾.
- ٩ - إقامة العلاقات أو قطعها ضروري شرط أن تتم في وقتها وظرفها (إقبال ونفور)، ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾.
- ١٠ - من ارتضى معاصي الآخرين، شاركهم آثامها، ﴿إِنَّكُمْ إِذَا مِثَلْتُمْ...﴾.
- ١١ - السكوت إزاء تخرصات المنافقين، هو ذاته نوع من النفاق، ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ﴾.
- ١٢ - مجالسات الآخرة هي نتيجة لمجالسات الدنيا، ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ﴾.

﴿الَّذِينَ يَرَبُّونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْنٌ مِنْ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾

إشارات:

□ جدير بالإشارة أن القرآن الكريم يستخدم كلمة «فتن» للتعبير عن انتصار

المسلمين، فيما يستخدم كلمة «نصيب» ليشير إلى انتصار الكفار، وقد يكون ذلك لتبيين أنّ لذة الكفر زائلة وعابرة، بينما تظلّ النهاية السعيدة والنصر الحقيقي معقودان بناصية الحق.

□ ﴿نَسْتَحِذُ﴾ مشتقة من المصدر «حوذ» وهو أن يتبع السائق حاذبي البعير، أي: أدبار فخذه فيعنّف في سوقه، يقال: حاذ الإبل يحوذها، أي: ساقها سوقاً عنيفاً^(١)، والمعنى هنا: تشجيع الكفار على حرب المسلمين.

□ يستدلّ الفقهاء في مختلف المسائل الفقهية بالآية ﴿... وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ...﴾ لإثبات عدم إمكان تسلّط الكفار على المؤمنين. بطبيعة الحال، إنّ التواصل مع الكفار، واكتساب العلوم والمعارف منهم، والتعلّم والتبادل الثقافي والاقتصادي، وغير ذلك، إلخ كلّ ذلك مسموح به شرط ألاّ يؤدي إلى تسلّطهم وغلبتهم. ذلك أنّنا نقرأ في الأحاديث أنّ النبي الكريم ﷺ قال: «اطْلُبُوا الْعِلْمَ وَلَوْ بِالصَّيْنِ»^(٢)، ومثال آخر على ذلك، عندما أمر ﷺ بإطلاق سراح كلّ كافر أسير يعلم عشرة من المسلمين. كما إنّ المعاملات كانت قائمة بين المسلمين والكفار في عصر المعصومين.

التعاليم:

- ١ - المنافق انتهازي يتحيّن الفرص والظروف لتوظيفها لصالحه، ﴿يَرْبُّصُونَ بِكُمْ...﴾.
- ٢ - المنافقون عيون الكفار وجواسيسهم، يحركونهم لقتال المسلمين، ﴿نَسْتَحِذُ﴾.
- ٣ - في محكمة العدل الإلهية في يوم القيامة سوف تسقط جميع أساليب الخداع والنفاق، ﴿فَاللَّهُ يَخْتَكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾.
- ٤ - لا يحقّ للمؤمنين أن يولّوا الكفار عليهم، وتوليهم هو علامة على زيف إيمانهم، ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾.

٥ - لا بدّ من اتّخاذ إجراءات تجعل الكفّار يقطعون الأمل في التسلّط على رقاب المسلمين، ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ...﴾.

٦ - يَحْرُمُ أي مشروع أو معاهدة أو تواصل أو اتفاقية تفتح الباب أمام تسلّط الكفّار على المسلمين. وعلى المسلمين أن يحصلوا على الاستقلال التام في جميع المجالات السياسيّة، والعسكريّة، والاقتصاديّة، والثقافيّة، ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ...﴾.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٤٢)

إشارات:

□ المنافق هو الذي يظهر التزاماً بالأحكام الدينية، دون أن تكون دوافعه الامتثال لأوامر الله ونيل مرضاته، فهو يصليّ وراء، وكسلاً، وتشافلاً. وهو يعتقد أنّه يخادع الله تعالى بهذا الأسلوب، بينما هو يخدع نفسه ولكن لا يشعر، لأنّ الله سبحانه وتعالى يعلم ما في نفسه، وسوف يجازيه على خداعه.

□ سُئِلَ الإمام الرضا عليه السلام عن قوله ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَكُرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾، وعن قوله ﴿يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ فقال: «إِنَّ اللَّهَ ﴿سَخِرَ﴾ لا يسخر، ولا يستهزئ، ولا يمكر، ولا يخادع، ولكنه ﴿سَخِرَ﴾ يجازيهم جزاء السخريّة، وجزاء الاستهزاء، وجزاء المكر والخديعة، تعالى عمّا يقول الظالمون علواً كبيراً»^(١).

□ الصلاة المنشودة هي التي تكون بدافع العشق، والإخلاص، والديمومة. وقد قال رسول الله ﴿صلى الله عليه وسلم﴾: «تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني شيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً»^(٢).

□ يستخدم القرآن الكريم عبارة «أقاموا الصلاة» بالنسبة إلى المؤمنين، لكنّه يعبر

عن صلاة المنافقين بـ ﴿قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ﴾، والفرق بين التعبيرين هو في «القيام» و«الإقامة».

التعاليم:

- ١ - الخداع، التثاقل في الصلاة، والمراء والغفلة عن ذكر الله تعالى، كلها من علامات النفاق، ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ... يُخَادِعُونَ بُرْءَاءُونَ... وَلَا يَذْكُرُونَ﴾.
- ٢ - فليعلم المنافقون بأنّ خصيمهم هو الله سبحانه وتعالى، ﴿وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾.
- ٣ - عذاب الله يتناسب مع المعصية، ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾.
- ٤ - صلاة المنافق لا تتوافر على الروح العالية والنشاط، ولا على الدوافع أو الكمّ والمقدار، ﴿كَسَالَى بُرْءَاءُونَ... فَلَيْلًا﴾.

﴿مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ
فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ (١٤٣)

إشارات:

□ «تذبذب» حكاية صوت الحركة للشيء المعلق الذي لا يثبت ولا يتمهل على الأرض، ثم استعير لكل اضطراب وحركة.

التعاليم:

- ١ - ليس للمنافق استقلال فكري أو عقدي، فهو يميل مع كلّ حركة، زمامه بيد الآخرين، حيران لا هدف له، ﴿مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ﴾.
- ٢ - لا يشعر المنافق بالأمان ولا بالاستقرار، لأنّه يغيّر لونه وموقفه باستمرار، يتخذ قراراته بسرعة وتعجل، ﴿مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ﴾.
- ٣ - الحزم ضروري في المواقف العقدية والرؤية الفكرية، ﴿مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ﴾.
- ٤ - المنافق موضع سخط الله تعالى، ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ﴾.
- ٥ - النفاق ألم لا خلاص منه، ﴿فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ يُبَعِّثُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾

إشارات:

□ لا يحق للمؤمنين إقامة علاقات مع الكفار، في حين يرتبط المنافقون بعلاقات حميمة ووثيقة مع الكفار. في وصفه الكفار يعبر القرآن الكريم بأنهم شياطين المنافقين ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾^(١)، وإخوان المنافقين ﴿الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(٢)، وتشرح الآيتان القرآنيتان ١٣٩ و ١٤١ طبيعة علاقة هذه الشريحة بالكفار.

التعاليم:

- ١ - لا يستقيم القبول بولاية الكفار مع الإيمان. لا مكان لحبين في القلب، ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا...﴾.
- ٢ - التولي والتبري، تولي المؤمنين والتبري من الكافرين من لوازم الإيمان، ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.
- ٣ - يجب اجتناب أي تواصل أو صداقة أو اتفاقية تكون عاقبتها الضرر للمسلمين، ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾.
- ٤ - في مجال السياسة الخارجية، والعلاقات السياسية والاقتصادية فإن أيّ صلاحيات، أو عزل، أو تنصيب، أو أي إجراء يؤدي إلى تسلط الكفار على رقاب المسلمين، حرام وهو مدان، ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾.
- ٥ - المسلم الدليل ليس له عذر أمام الله، ﴿أُرِيدُونَ أَنْ يُبَعِّثُوا لِلَّهِ...﴾.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ (١٤٥)

إشارات:

□ كلمة «درك» تعني أحظ نقطة في أعماق البحر، ويسمى آخر جبل متصل بالبحال التي توصل الإنسان إلى قعر البحر بـ «الدرك» أيضاً، ويظهر أنّ هذه المعاني مأخوذة من معنى «درك الشيء» أي الوصول إليه - كما تسمى السلالم التي توصل الإنسان إلى مواضع سفلى كالسرداب والبئر بـ «الدرك»، وهذه العبارة تقابل السلالم التي يتسلق بها الإنسان إلى أعلى حيث تسمى الدرجات. وكما أنّ للجنة درجات، فإنّ لجهنم دركات.

التعاليم:

- ١ - إنّ موضع المنافقين في جهنم أسوأ من موضع الكفار، ﴿فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ﴾.
- ٢ - جهنم ذات مراتب ودركات، ﴿فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ﴾.
- ٣ - لا منجاة للمنافقين في يوم القيامة، ﴿وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾.
- ٤ - لن ينال المنافقون الشفاعة في يوم القيامة، ﴿وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١٤٦)

التعاليم:

- ١ - باب التوبة مفتوح، حتى للمنافقين، لتنتشلهم من «الدرك الأسفل» إلى علياء الفردوس، ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾.
- ٢ - الإنسان مخير، وبمقدوره تغيير مسيره بملء وعيه وإرادته، ﴿تَابُوا﴾.
- ٣ - لا تنسوا أن تمنحوا الناس الأمل حتى مع إطلاق أشد التهديد والوعيد لهم، ﴿فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ... إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾.

- ٤ - ليست التوبة مجرد إظهار الندم، بل هي إعادة إصلاح شامل، ﴿وَأَصْلَحُوا... وَاعْتَصِمُوا... وَأَخْلَصُوا﴾.
- ٥ - لكل معصية أسلوب للتوبة خاص بها. فتوبة النفاق الإصلاح بعد التخریب، والاعتصام بالله سبحانه وتعالى بدلاً من تولي زيد أو بكر، والإخلاص بدل الغش، «وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصِمُوا وَأَخْلَصُوا».
- ٦ - الانتقائية في العقائد والأفكار غير جائزة، ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾.
- ٧ - لا يستوحش المنافقون التائبون لابتعادهم عن رفاق الأوس، فسيحظون برفاق أخلص، ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.
- ٨ - على المؤمنين أن يحتضنوا التائبين الحقيقيين، وأن ينظروا إليهم كأنفسهم، ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾

التعاليم:

- ١ - العذاب الإلهي يركز على العدل الإلهي، لا على الانتقام أو السطوة. سبب العذاب هو الإنسان نفسه، ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾.
- ٢ - معرفة نعم الله تعالى ومن ثم حمده وشكره، تمهيد لقبول الدعوة والإيمان، ﴿إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾.
- ٣ - الإيمان بالله أجلى مظاهر الشكر، ﴿إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾.
- ٤ - الشكر منجاة من سخط الله وعذابه، ومدة للحظوة بالظافة إلهية أكبر، ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ... وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا﴾.
- ٥ - إذا كنت شاكرًا، فسوف يشكر لك الله تعالى ذلك، ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا﴾.
- ٦ - الله جلّ وعلا غني، ومع ذلك يتفضل على عبده الحقير بالشكر. فما لنا لا نشكره ونحمده؟! ﴿إِنْ شَكَرْتُمْ... وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا﴾.

الجزء السادس

﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾

إشارات:

□ تعطي هذه الآية للمظلوم حقّ التظلم وإطلاق صرخة الاستغاثة، وقد ورد المضمون نفسه في الآية ٤١ من سورة الشورى ﴿وَلَكِنْ اتَّصَرَ بِقَدِّ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾.

□ لقد نهى القرآن الكريم مراراً عن نشر عيوب الآخرين والمتاجرة بفضائحهم، واعتبر هذا العمل من الكبائر، وتوعد فاعلها بالعذاب. وقد ورد هذا النهي، على سبيل المثال، في الآية ١٩ من سورة النور التي تصرّح بأن الرغبة في نشر عيوب المؤمنين معصية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

□ وردت احتمالات عدّة في تفسير ﴿مَنْ ظَلَمَ﴾ هي:

- ١ - أن تعني «ممن ظلم»، أي يجوز للمظلوم أن يصرخ ويستصرخ.
- ٢ - أن تعني «المن ظلم»، أي إطلاق الصرخة لنصرة المظلوم حتى وإن لم يكن مطلقاً مظلوماً.
- ٣ - أن تعني «على من ظلم»، أي إطلاق صرخة بوجه المظلوم الساكت على الظلم، ويتحمّل الذلّة والهوان، والاحتمال الأوّل، بطبيعة الحال، هو أقرب الاحتمالات إلى الواقع.

□ يحرم نشر عيوب الناس بين الآخرين، لا مصارحتهم بعيوبهم. وذلك لقول النبي الأكرم ﷺ: «المؤمن مرآة المؤمن»^(١).

□ وروي عن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام في قول الله ﷻ: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ

الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ: من أضاف قوماً فأساء ضيافتهم فهو مَن ظلم فلا جناح عليهم فيما قالوا فيه^(١).

التعاليم:

- ١ - القانون الأعم والأساس هو حرمة نشر عيوب الناس وإذاعة فضائحهم، إلا في مواضع خاصة، ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ﴾.
- ٢ - نشر عيوب الناس، على أي نحو كان، حرام. (سواء أكان بواسطة الشعر، أم التهكم، أم التصريح، أم التلميح، أم الحكاية، أم الشكوى، أو غير ذلك)، ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾.
- ٣ - مزية المجتمع الإسلامي هي أن يتمكن المظلوم من إطلاق صرخة التظلم من الظالم بحرية تامة، ﴿الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾.
- ٤ - يجوز للمظلوم اغتيال الظالم، ﴿الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾.
- ٥ - الإسلام يدافع عن المظلومين، ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾.
- ٦ - لا يجوز إساءة استغلال القوانين. فليعلم الظالمون أن حرمة الغيبة لا تفتح أمامهم طريق الظلم، ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾.
- ٧ - للمظلوم فقط حق اغتيال الظالم، وفي موضوع الظلم تحديداً، لا في سائر عيوب الظالم،^(٢) ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾.
- ٨ - لا حرمة للظالم في المجتمع الإسلامي، يجب إدانته وفضحه على الملأ، ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ... إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾.
- ٩ - لا بد من مراعاة الأولويات عند تزاخم القيم الإنسانية. فقيمة الدفاع عن المظلوم أسمى من قيمة الحياء أو السكوت، ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ... إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾.
- ١٠ - في حالات الترخيص لفضح العيوب، يجب ألا نتجاوز دائرة الحق، فالله سبحانه وتعالى سميع عليم، ﴿سَمِيعًا عَلِيمًا﴾.

﴿إِنْ بُدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ ﴿١٤٩﴾

إشارات:

□ العفو عند المقدرة، فإذا دارت الأيام وأصبح المظلوم في موضع قدرة، وكان لعفوه عن الظالم أثر تربوي، فعليه العفو، وإذا كان في السكوت ذلة للمظلوم وقوة للظالم، فيجب أن يطلق صرخة.

□ الانتقام والقصاص «حق»، فيما العفو والصفح «فضل»، روي عن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للمقدرة عليه»^(١).

التعاليم:

١ - ينبغي التشجيع والتحفيز على فعل الإحسان، والصفح والعفو عن المساوي، ﴿إِنْ بُدُّوا خَيْرًا...﴾ ﴿أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾.

٢ - أحياناً تكون محاربة الظلم وإطلاق الصرخة قيمة، فيما يكون العفو والصفح في أحيان أخرى قيمة، ﴿أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾.

٣ - العفو عند المقدرة فضل وقيمة، ﴿عَفُوًّا قَدِيرًا﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ ﴿١٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ ﴿١٥١﴾

إشارات:

□ الآيتان ١٥٠ و ١٥١ بمثابة المبتدأ والخبر على الترتيب.

□ لقد جحد اليهود والنصارى ببعض الأنبياء وكفروا ببعض الآخر، إذ أعمتهم الأهواء، والتعصبات الحمقاء، والنظرة الضيقة.

التعاليم:

١ - النبوة تيار دائم وسنة إلهية أبدية كسلسلة متصلة ببعضها، لذا، يجب الإيمان بجميع سلسلة هذا التيار لا ببعض حلقاته، ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ (كذلك هو الحال مع الإمامة من حيث ضرورة الإيمان بجميع الأئمة. فالإيمان ببعضهم وإنكار بعضهم الآخر أو التوقف عنده، هو بمثابة الكفر بجميعهم).

٢ - الله ورسوله جبهة واحدة، ولا فكاك بينهما، ﴿يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾.

٣ - لا يجوز الكفر بالله ورسوله، أو الإيمان بالله والتنكر للأنبياء، أو الإيمان بالله والتنكر لبعض الأنبياء. فطريق الحق هو الإيمان بالله وجميع أنبيائه ورسله، ﴿يَكْفُرُونَ﴾، ﴿يُفَرِّقُوا﴾، ﴿وَيَقُولُونَ﴾، ﴿هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾.

٤ - يجب الإيمان بجميع الأديان والاعتراف بها، (طبعاً كل في عصره)، ﴿وَيَقُولُونَ نُوْنٍ بَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾.

٥ - القبول بالتشريعات المناهضة للإسلام نوع من التمييز في الدين وحرام، ﴿نُوْنٍ بَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾.

٦ - الانتقائية واتخاذ طريق جديد مغاير لطريق الأنبياء، هو، في الحقيقة، كفر، ﴿يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا... أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾.

٧ - جهنم مخلوقة الآن، ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ

وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾

التعاليم:

١ - يجب أن نؤمن بالله وجميع أنبيائه ورسله. صحيح أن مراتب الأنبياء ودائرة رسالاتهم متباينة، إلا أنه لا بد من الإيمان بجميعهم، ﴿آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾.

٢ - إِنَّ وجودنا وكلّ ما نملك من مواهب، وإمكانات، وأدوات، هي من الله سبحانه وتعالى، ومع ذلك، فهو يتفضل علينا بالأجر والثواب، ﴿أَجُورُهُمْ﴾.

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ أَخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾

إشارات:

□ سألت اليهود محمداً ﷺ أن يصعد إلى السماء وهم يرونه فينزل عليهم كتاباً مكتوباً في ما يدعيه على صدقه دفعة واحدة، كما أتى موسى بالتوراة؛ تعنتاً له ﷺ؛ فأعلم الله ﷻ رسوله الكريم ﷺ أنه ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرَاطِينَ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (١١) (٢).

□ تتشابه احتجاجات الكفار في عدم الإيمان، فالمشركون كذلك طلبوا الشيء نفسه من النبي الكريم ﷺ إذ قالوا: ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ﴾ (٣).

التعاليم:

١ - ما يصدر عن الأجداد من شرور الأعمال، والأفكار، والأخلاق، يضحى تاريخاً أسود بالنسبة إلى الأجيال اللاحقة، ﴿فَقَدْ سَأَلُوا...﴾.

٢ - لم يكن بنو إسرائيل في إثر الحق، وإلا كيف نزعوا إلى عبادة العجل بعد كلّ الذي رأوه من المعجزات، ﴿أَخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ؟﴾

٣ - لا تبتئسوا بعدم إيمان الكفار، فهذا ديدنهم في اللجاج والعناد في مقابل جميع الأنبياء، ﴿سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾.

٤ - الله تعالى أعظم من أن يرى بالعين المجردة، وطلب رؤيته بهذه الكيفية هو ظلم للنفس، ﴿أَرَأَيْتَ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٩٣.

(١) سورة الأنعام: الآية ٧.

(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ٣، ص ٢٠٥.

٥ - التَّنَكُّرَ لِلْحَقِّ وَالانْحِرَافَ الْفِكْرِي يُؤَدِّي إِلَى سَخَطِ اللَّهِ تَعَالَى فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، ﴿فَأَخَذْنَهُمُ الصَّاعِقَةُ يُظْلِمُهُمْ﴾.

٦ - الرَّحْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ تَسَعُ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الَّذِينَ عَبْدُوا الْعَجَلَ، ﴿فَعَفَوْنَا﴾.

٧ - اللَّهُ تَعَالَى يَدَافِعُ عَنْ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ، ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾.

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (١٥٤)

إشارات:

□ ورد ما يشبه مضمون هذه الآية في سورة البقرة، الآيتان ٦٣ و ٩٣، وكذلك في سورة الأعراف، الآية ١٧١.

□ المراد بميثاق الله مع بني إسرائيل، هو الذي ورد في الآيتين ٤٠ و ٨٤ من سورة البقرة، والآية ١٢ من سورة المائدة.

□ للأماكن المقدسة آداب خاصة: ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾.

وقد ورد في القرآن الكريم حول جبل الطور: ﴿فَأَخْلَعَ نَعْلَيْكَ﴾^(١).

بيوت النبي الكريم ﷺ: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾^(٢).

المساجد: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾^(٣).

المسجد الحرام: ﴿فَلَا يَقْرَأُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾^(٤).

الكعبة المشرفة: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾^(٥).

فضلاً عن آداب أخرى تتعلق بالمساجد وردت في المصادر الفقهية والمجاميع الحديثية.

(٤) سورة التوبة: الآية ٢٨.

(٥) سورة البقرة: الآية ١٢٥.

(١) سورة طه: الآية ١٢.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٥٣.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٣١.

التعاليم:

١ - أحياناً، تستلزم التربية استخدام أسلوب الترهيب والوعيد، ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ﴾.

٢ - العمل أثناء العطلة والعبادة، نوع من التعدي، ﴿لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾.

﴿يَمَّا نَقُضُهُمْ مِيثَقَهُمْ وَكَفَرِهِمْ بَاتَتْ أَلَّهُ وَقَلِيلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٥٥)

إشارات:

□ لم يكن اليهود في عصر النبي الكريم ﷺ هم من قتل الأنبياء، بل أجدادهم الذين ارتكبوا تلك الجرائم، ولكن لما كان أولئك الأبناء راضين عن فعال آبائهم، فإن القرآن الكريم نسب تلك الجرائم إليهم^(١).

التعاليم:

١ - نقض الموائيق والعهود ذنب يرقى إلى مرتبة الكفر، بل إنه تمهيد للكفر، ﴿نَقُضُهُمْ مِيثَقَهُمْ وَكَفَرِهِمْ﴾.

٢ - كفران النعم بلغ حدّاً أنّ الطلقاء على يد الأنبياء يقتلون الأنبياء، ﴿وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

٣ - يمهد الإنسان بكفره ولجأته طريق السقوط لنفسه، ﴿طَبَعَ... بِكُفْرِهِمْ﴾.

٤ - إيمان قلّة من الأفراد في مقابل كفر الأكثرية الساحقة للناس دليل على أنّ الإنسان يمتلك حرية الاختيار. إذن، ينبغي ألاّ يحيد المحيط والنظام الفاسدين بإرادة الإنسان عن طريق الحقّ، ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

﴿وَيَكْفُرْهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾

إشارات:

- بهت اليهود السيدة مريم وافتروا عليها كما ورد في الآية ٢٧ من سورة مريم.
- اتهموها عليها السلام بالزنا، وهو ما يعني، في الحقيقة، أن عيسى عليه السلام هو (والعياذ بالله) طفل غير شرعي، وبالتالي عدم أهليته للهداية والنبوّة، وهذه التهمة هي سبب كفرهم بعيسى عليه السلام بحسب ادعائهم.
- قال النبي صلى الله عليه وآله: «إِنَّ لَكَ مِنْ عِيسَى مَثَلًا، أَبْغَضْتَهُ الْيَهُودُ حَتَّى بُهَتُوا أُمَّهُ، وَأَحْبَبْتَهُ النَّصَارَى حَتَّى أَنْزَلُوهُ الْمَنْزِلَ الَّذِي لَيْسَ لَهُ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ»^(١).
- سَمِيَ الْبُهْتَانُ كَذَلِكَ رُبَّمَا لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ الطَّاهِرَ يَبْهَتُ مِنْ سَمَاعِ هَذِهِ الْاِفْتِرَاءَاتِ لَفْظَاعَتِهَا.

- الْبُهْتَانُ الْعَظِيمُ عَاقِبَتُهُ الْعَذَابُ الْعَظِيمُ. وَرَدَ فِي الْآيَةِ ٢٣ مِنْ سُورَةِ النُّورِ الْمُبَارَكَةِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَافِكِ اللَّائِيَّاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

التعاليم:

- ١ - يقف البهتان في مصاف الكفر، ﴿وَيَكْفُرْهُمْ وَقَوْلِهِمْ... بُهْتَانًا﴾.
- ٢ - في المجتمع الفاسد، يرمى، أحياناً، الأشخاص الأطهار، بأقذع التهم وأقسى الافتراءات، ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا﴾.

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾^(١٥٧)

بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾^(١٥٨)

إشارات:

- روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «وَأَمَّا غَيْبَةُ عِيسَى عليه السلام فَلِإِنَّ الْيَهُودَ

والنصارى اتفقت على أنه قتل فكذبهم الله ﷻ بقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾، كذلك غيبة القائم، فإن الأمة ستنكرها لطولها فمن قائل يقول: إنه لم يولد وقائل يفترى بقوله: إنه ولد ومات وقائل يكفر بقوله: إن حادي عشرنا كان عقيماً و...»^(١).

□ إن القرائن والدلائل التي تشير إلى اشتباه الأمر وصلب شخص آخر بدلاً من السيد المسيح ﷺ هي على النحو التالي:

١ - إن المجموعة التي كلفت بالقبض على السيد المسيح ﷺ كانت من جنود الجيش الروماني، وبالتالي كانوا غرباء لا يعرفون لغة اليهود وتقاليدهم. (ويبدو أن الشخص الذي وشى بالسيد المسيح وكان يروم الخيانة منذ البداية وتسليم عيسى إلى السلطات مقابل مبلغ من المال، هو نفسه الذي وقع في الفخ)^(٢).

٢ - حادثة اعتقال النبي عيسى ﷺ تمت تحت ستار الليل.

٣ - إن الشخص الذي اعتُقل كان قد شكّا من ربه لا أنه اشتكى إليه، وبديهي أن هكذا شكوى لا تنسجم مع مقام النبوة ولا تليق بنبي.

٤ - جميع الأناجيل المسيحية التي تذكر حادثة صلب المسيح وافتدائه بشيء من التفصيل قد دوّنت بعده بفترة طويلة، ما يجعل إمكان وقوع الخطأ والتحريف أمراً وارداً جداً.

٥ - بعض الفرق المسيحية تنفي مسألة صلب المسيح، وما يزيد الأمر غموضاً وجود الاختلاف بين الأناجيل المتداولة.

التعاليم:

١ - أحياناً يصل الانحطاط الأخلاقي بالإنسان إلى التباهي وإظهار الفخر بقتل الأنبياء، ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ﴾.

- ٢ - لا بدّ من الصراحة في مقابل المزاعم الباطلة، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾.
- ٣ - ولادة النبي عيسى عليه السلام ورفعته من هذه الدنيا حدثنا بصورة خارقة وغير طبيعية. لقد عرج إلى السماء ليكون ذخراً للمستقبل، ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾.
- ٤ - لم يقتصر المعراج على النبي الكريم ﷺ، بل حدث لأنبياء آخرين، ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾.
- ٥ - النبي عيسى عليه السلام ضيف الله سبحانه وتعالى، ﴿رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾.
- ٦ - توجد إمكانية لحياة الإنسان في السموات، ﴿رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾.
- ٧ - الإرادة الإلهية كفيلة بإفشال جميع المؤامرات، ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَكِيمًا﴾.

﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾

وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾

إشارات:

□ ربّما كان المقصود بالآية الكريمة هو أنّ جميع أهل الكتاب يؤمنون بعيسى المسيح عليه السلام قبل موته. فبحسب ما ورد في روايات الفريقين، أنّ النبي عيسى عليه السلام سوف ينزل من السماء في آخر الزمان، ليصلّي خلف الإمام المهدي عليه السلام، ثمّ يحيا لفترة قصيرة، ويموت بعدها. وفي ذلك اليوم، سوف يتخلّى المسيحيون عن الاعتقاد بأنّه ابن الله، ويؤمنون به إيماناً صحيحاً^(١).

التعاليم:

- ١ - عند احتضار الكافرين والمنحرفين، تنزاح الحجب عن أعينهم، ويستردّون وعيهم، فيؤمنون، ولكن لا حين مناص، ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾.
- ٢ - الموت سنّة حتميّة تسري على الجميع، حتى على النبي عيسى عليه السلام الذي

يعيش لقرون مديدة في أحسن الظروف في كنف ضيافة الله تعالى وملائكته^(١)
﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾.

٣ - الأنبياء هم الشهود على البشر، ﴿يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾.

﴿فَيُظْلَرُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ أُحْلَتْ لَهُمْ وَيَصَدَّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾

إشارات:

□ قد يكون المراد بالطيبات التي حُرِّمت على اليهود تلك الواردة في الآية ١٤٦ من سورة الأنعام ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كَلَّ ذِي طُفْرٍ وَرَبِّ الْبَقَرِ وَالْفَخْرِ﴾، وقد جاءت التوراة الحالية أيضاً على ذكر هذا التحريم^(٢).

□ لا شك أن ردود أفعال الفرد والمجتمع إزاء الاستفادة من النعم الإلهية أو زوالها تلعب دوراً رئيساً في هذا المجال. فنحن نقرأ في الآية ١٧ من سورة الفجر المباركة أن سبب الحرمان يكون أحياناً عدم إكرام اليتيم ﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾، وتقول الآية ٩٦ من سورة الأعراف ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، وفي السياق نفسه نقل عن أبي عبد الله الإمام جعفر الصادق عليه السلام قوله: «من زرع حنطة في أرض لم يزك زرعهُ أو خرج زرعهُ كثير الشعير فبظلم عمله في ملك رقبة الأرض أو بظلم لمزارعه وأكرته لأن الله يقول: ﴿فَيُظْلَرُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ أُحْلَتْ لَهُمْ﴾ يعني لحوم الإبل والبقر والغنم»^(٣).

التعاليم:

١ - الظلم هو عامل الحرمان من النعم، ﴿فَيُظْلَرُ... حَرَمًا﴾.

٢ - في بعض الأحيان، يكون الحرمان الاقتصادي والمصاعب المادية دليل على سخط الله وعذابه، ﴿فَيُظْلَرُ... حَرَمًا﴾.

(١) إذا كان المقصود بـ «قبل موته» موت النبي عيسى عليه السلام.

(٢) التوراة، سفر اللاويين، الباب ١١.

(٣) مستدرک الوسائل، ج ١٣، ص ٤٧٣.

- ٣ - ليست كلّ المحرّمات من أجل النظافة والصحة، ﴿فَظَلِمَ... حَرَمْنَا﴾.
- ٤ - صحيح أنّ موعد نزول العذاب الأصلي هو يوم القيامة، إلّا أنّه توجد عذابات دنيوية تدقّ جرس الإنذار، وتكون للعاصيين عذاباً، وللصالحين امتحاناً، ﴿فَظَلِمَ... حَرَمْنَا﴾.
- ٥ - الصّدّ عن سبيل الله بأيّ نحو كان (سواء أكان عن طريق التحريف أم الكتمان، أم الابتداع، أم الفساد، أم الانحراف، أم غير ذلك)، هو عامل حرمان من النعم، ﴿وَيَصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

﴿وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا
لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

إشارات:

□ التوراة^(١) أيضاً تتضمّن حكم تحريم الربا^(٢).

التعاليم:

- ١ - ربّما بدا الربا مصدراً للدخل وعامل سعادة وتوفيق، إلّا أنّه في حقيقته، مدعاة للحرمان والعذاب، ﴿حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ... وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا... عَذَابًا أَلِيمًا﴾.
- ٢ - تبدي جميع الأديان السماوية اهتماماً وحساسية بالعلاقات المالية بين بني البشر وطبيعة المصارف والمداخيل، ﴿وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ... بِالْبَاطِلِ﴾.
- ٣ - طريق العودة متاح ما لم يضع الإنسان نفسه في دائرة الكفر بسبب الظلم، والربا، وأكل المال الحرام. وفي غير هذه الحالة، فإنّ هذا النمط من

(١) التوراة، سفر الشّيه، الباب ٢٣، الإصحاح ١٩ و ٢٠.

(٢) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

المعاصي يمهّد الطريق إلى الكفر والعذاب، ﴿وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا... وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ﴾.

﴿لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١٦٢)

إشارات:

□ نستدلّ على خاتمة الدين الإسلامي من خلال تكرّر ذكر عبارة ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ في القرآن الكريم، في حين لم ترد ولو لمرة واحدة عبارة «من بعدك».

□ ورد في الحديث أن لا صلاة لمن يمتنع عن أداء الزكاة، فالرسول الكريم كان يطرد المصلّين الذين لم يؤدّوا الزكاة من المسجد. والقرآن الكريم يصرّح بأن المصلّي الحقيقي ليس بخيلاً، ﴿وَإِذَا سَأَهُ الْخَبِيرُ مَنُوعًا إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾^(١).

التعاليم:

١ - يجب أن يتحلّى المرء بالموضوعيّة والإنصاف عند النقد. لاحظ أنّ الآية الكريمة تفرّق بين مؤمني اليهود، وبين الظالمين، وآكلي المال الحرام، ﴿لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ... مِنْهُمْ﴾.

٢ - قيمة العلم في أن تكون له جذور وامتدادات في الروح، ﴿لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾.

٣ - المهمّ هو الهدف والمعتقدات المشتركة لا العرق، أو القبيلة، أو اللغة، ﴿لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾.

٤ - لا بدّ من الإيمان بجميع الأصول في جميع الأديان السماوية، ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾.

و«مزامير داود» واحد من كتب العهد القديم (التوراة)، ويحتوي على ١٥٠ فصلاً، يدعى كل منها مزموماً.

□ نعلم بأن الوحي الإلهي قد نزل على مر التاريخ مرّات كثيرة، فلماذا لم يؤمن أهل الكتاب بالنبى الكريم ﷺ، وكانوا يفرّقون بينه وبين باقي الأنبياء، وكانوا يطالبونه بمطالبات إضافية ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ...﴾؟

التعاليم:

١ - الوحي والنبوة عبارة عن تيار وسنة في تاريخ البشر، ولا يشوبهما أيّ خلل، ﴿أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ...﴾.

٢ - طرح الأمثلة التاريخية لموضوع ما (مثلاً نزول الوحي على الأنبياء السابقين) هو من أساليب إثبات الدعوى، ومعرفتها تمهّد الأرضية للإيمان، ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ...﴾.

٣ - الهدف، والأسلوب، والجوهر العام، للأديان السماوية واحد، وذلك لأنها تنهل من معين واحد وهو الله سبحانه وتعالى، ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ...﴾.

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ
وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾

إشارات:

□ من بين سور القرآن الكريم، تضمّ سورتا هود والشعراء مجالاً قصصياً أوسع.

□ الخطاب الإلهي موجه إلى جميع الأنبياء، لكنّ النبي موسى ﷺ هو وحده كليم الله، ربّما يعود السبب إلى أنّه ﷺ أثناء صراعه مع فرعون وتحملّه أنواع الشدائد واللجاج من بني إسرائيل، كان لا بدّ من أن يكون في اتصال مباشر ومتواصل مع الله تعالى، وأن يتلقّى الأوامر، ولذلك أصبح كليم الله.

التعاليم:

- ١ - الاطلاع على تاريخ الأنبياء يستأثر بأهمية خاصة، يدلّ على ذلك اهتمام الله سبحانه وتعالى به، ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾.
- ٢ - عدد الأنبياء أكبر ممّا ورد ذكرهم في القرآن الكريم، ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ﴾.
- ٣ - لا عمر الإنسان يكفي لسماع كلّ قصص التاريخ ولا ثمة حاجة أصلاً لسماعها كلّها. يجب الاطلاع بالمقدار الذي يكفي للاتعاظ والاعتبار، ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ﴾.
- ٤ - أحياناً تجد في القرآن الكريم تكرر حادثة معيّنة مرات عدّة، فيما لا يأتي ذكر بعض الحوادث أبداً، ويشير هذا إلى أنّ القرآن الكريم كتاب ينطوي على بعد هداثي وتربوي، لا قصصي، ﴿لَّمْ نَقْصُصْهُمْ﴾.

﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ
وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَكِيمًا﴾

إشارات:

- توضح هذه الآية مبادئ عامة في دعوة الأنبياء ونهجهم والهدف من بعثهم.
- العقل كالوحي حجة إلهية، لكن إدراكاته محدودة، لذلك فهو لا يكفي الإنسان ولا تتم به الحجة عليه. فيأتي هنا دور الأنبياء ليخبروا بأخبار الغيب والملكوت التي يعجز العقل الإنساني عن إدراكها.
- ويقول القرآن الكريم في موضع آخر: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾^(١).

التعاليم:

- ١ - النهج الدعوي للأنبياء يتمحور حول الخوف والرجاء، ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾.

- ٢ - الهدف من بعثة الأنبياء هو إتمام الحجّة على الناس، لثلا يقولوا لم يكن لدينا قائد ودليل، ولم نكن نعلم، ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ﴾.
- ٣ - يجب أن يكون الأنبياء في مستوى يعجز معه أي شخص من أن يُشكل عليهم في أي بُعد كان، سواء في المواصفات الشخصية والجسمانية، أو السيرة والمكانة الاجتماعية، أو البعد السياسي وشرف المحتد، أو على صعيد صنع المعجزات، أو الفصاحة والبيان الصريح، أو التمتع بالمدد الغيبي، ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾.
- ٤ - لأنّ الله عزيز وحكيم، فليس لأحد حجّة عليه، ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

﴿لَئِنْ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ
يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾

إشارات:

□ كم من لطف تفضّل به الله سبحانه وتعالى على نبيّه الأكرم ﷺ ودعوته، وشواهد هذا اللطف الإلهي كثيرة مثلاً: إنّه سبحانه ألهم رجلاً أمياً معارف القرآن الراقية، وبعثه إلى بلاد غارقة في الجهل، والشرك، والعداوة، فهدى الناس وأبدلهم بعد تفرّقهم وحدة، وبعد بخلهم إثارة وسخاء، وبعد شركهم توحيداً، وبعد جهلهم علماً، وبعد انحطاطهم عروجاً معنوياً، وأخيراً أنعم عليهم بنعمة الأمة الإسلامية الواحدة.

التعاليم:

- ١ - يجب العمل على تقوية المعنويات والارتقاء بها كما ينبغي، في مقابل الشيطان والإحباط المجحف، ﴿لَئِنْ اللَّهُ يَشْهَدُ﴾.
- ٢ - الأنبياء أيضاً محتاجون إلى عناية الله ولطفه في مسار الدعوة، ﴿لَئِنْ اللَّهُ يَشْهَدُ﴾.
- ٣ - ينبغي لكل داعية أن يكون الله سنده وأمله، ﴿لَئِنْ اللَّهُ يَشْهَدُ﴾.

- ٤ - منبع الوحي هو علم الله اللامتناهي، ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾، من هنا فإنه مع تطوّر العلوم يتم في كل يوم رفع الستار عن جانب من معارف القرآن الكريم.
- ٥ - إذا كان بعض العصاة المعاندين يوغلون في اللجاج والإنكار، ففي المقابل، توجد ملائكة يشهدون لك، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾
 إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾
 إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾

إشارات:

- المقصود بـ «الضلال البعيد» هو الضلال المضاعف للكافرين، فالكفر هو ضلال، أما الحيلولة دون إيمان الآخرين فهو ضلال آخر. الكفر انحراف، أما أن يعتبر الكافر نفسه على حق، فهذا انحراف أكبر. الكفر ظلم للنفس، وصدّ الآخرين عن طريق الإيمان هو ظلم للتاريخ والبشرية.
- ربّما كان المراد بـ «الظلم» في الآية ١٦٨ هو صدّ الآخرين عن الهداية، فأبى ظلم أكبر من الظلم الفكري، والثقافي، والعقدي؟
- أقسى العذاب وأسوأ العبارات قيلت في حقّ الكافرين الذين يتوسّلون بأنواع الدعايات، والتهم، والتهديدات، لمنع وصول رسالة الحقّ إلى أسماع طلابه. (عدم المغفرة، الإضلال، إدخالهم جهنّم وتأييد العذاب لهم).

التعاليم:

- ١ - الذين يصدّون الناس عن الهداية، هم أشدّ ضلالاً، ﴿ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾.
- ٢ - الكفر والظلم قرينان لا ينفصلان، وعاقبتهما الحرمان من المغفرة والهداية الإلهية، ﴿كَفَرُوا وَظَلَمُوا... وَلَا يَهْدِيَهُمْ﴾.
- ٣ - جزاء الكافرين الظالمين الذين يحولون دون اعتداء الناس هو الخلود في جهنّم، ﴿جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ فَدَّ جَاءَكُمْ الرُّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾

إشارات:

□ كان أهل الكتاب، لا بل حتى المشركون، في انتظار ظهور نبي جديد يطل عليهم؛ لذلك فقد كانوا مهيتين لهذا الأمر ذهنيًا، وهو ما نلاحظه في هذه الآية؛ إذ جاءت كلمة «الرسول» في صيغة المعرفة وليست النكرة «رسول»، ما يعني أن المقصود هو جاءكم ذلك الرسول الذي تنتظرونه، فآمنوا به وصدقوه.

التعاليم:

- ١ - الإسلام دعوة عالمية، ولا يختص بالعرب وحدهم، ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ﴾.
- ٢ - حقانية الأنبياء من أسباب انتشار دعوتهم، ﴿بِالْحَقِّ﴾.
- ٣ - إيمان الناس يعود عليهم وحدهم بالفائدة والنفع، ولا ينبغي أن يمتنوا على الله بإيمانهم، بل الله يمتن عليهم أن هداهم إلى الرشاد، ﴿فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾.
- ٤ - لا يضر الله تعالى كفر الناس ولا ينفعه إيمانهم، ﴿فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ...﴾.
- ٥ - بعثة الأنبياء وجوهر دعوتهم يقوم على العلم والحكمة الإلهية، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿يَتَأَمَّلَ الْكِتَابَ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾

إشارات:

□ «كلمة الله» وصف يطلق على الأنبياء والأولياء، فكما إن الكلمة تستبطن في

ذهن المتكلم معاني ومفاهيم معينة، كذلك هم الأنبياء والأولياء يمثلون تجليات لكمالات الخالق. وقد ورد في إحدى الروايات: «نحن كلمات الله التامات»^(١).

ربما يقصد بـ «الكلمة» عبارة «كن فيكون» التي هي قول الله الفصل، وكأي كلام آخر، فإن نتيجته الكلمة^(٢). كما إن الله سبحانه وتعالى وفي آية أخرى شبه خلق عيسى عليه السلام بخلق آدم عليه السلام إذ يقول ﷺ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٣).

□ سئل الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن عبارة ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ فقال: «هي روح الله مخلوقة خلقها الله في آدم وعيسى»^(٤).

□ يؤمن المسيحيون بعقيدة التثليث، وأن الله هو الآب، والمسيح هو ابن الله، وجبرائيل هو الواسطة بين هذين الإلهين، وهو، لا شك، نوع من الكفر. ويقول القرآن الكريم في الرد على هذه المزاعم: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾^(٥). وثمة فريق آخر منهم يعتبر السيدة مريم أحد الأقانيم الثلاثة بدلاً من جبرائيل، فردة القرآن الكريم على هؤلاء بقوله: ﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَآتَتْ قُلُوبَ النَّاسِ آمَنُودِي وَأُنَىٰ لِلْهَيْبَةِ مِنَ دُونِ اللَّهِ﴾^(٦).

□ لقد لُعن الغلاة في الروايات، واعتُبروا من أسوأ فرق الكفار والمشركين^(٧).

□ إذا كان عدم امتلاك (أب) دليلاً على الألوهية، فمن باب أولى أن يكون آدم عليه السلام إلهاً، فهو ليس له أب ولا أم.

□ وردت نسبة عيسى إلى مريم في القرآن الكريم ١٧ مرة، وذلك للتأكيد على نفي بنوته لله تعالى. الأناجيل أيضاً ذكرت عيسى بوصفه رسول الله وليس الله. فقد وصف عيسى في الأناجيل باسم عبد الله ورسوله ٨٠ مرة^(٨).

(٥) سورة المائدة: الآية ٧٣.

(٦) سورة المائدة: الآية ١١٦.

(٧) ميزان الحكمة.

(٨) تفسير الفرقان.

(١) تفسير أطيب البيان.

(٢) تفسير الميزان؛ في ظلال القرآن.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٥٩.

(٤) الكافي، ج ١، ص ١٣٣.

التعاليم:

- ١ - الغلو علامة التعصب المذموم، وهو محرّم في جميع الأديان. اعتبر اليهود «عزيراً» ابن الله، والمسيحيون عدواً «عيسى» ابن الله، ﴿لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ﴾.
- ٢ - آفة الأديان السماوية الغلو في تعظيم أئمة الدين، ﴿لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ﴾.
- ٣ - الوسطية والاعتدال مطلوبان في كل وقت ومكان، ولا ينبغي أن تقوم محبة أولياء الله على الغلو، ﴿لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ﴾.
- ٤ - الغلو في البشر، حتى وإن كانوا أنبياء، إساءة إلى الله تعالى ونسبة ما لا يصح إليه، ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾.
- ٥ - وصف القرآن الكريم والإنجيل الحقيقي النبي عيسى بأنه نبي الله لا ابن الله ولا هو الله، ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾.
- ٦ - الخلق الإعجازي لعيسى ﷺ إنما هو من آيات الله تعالى، كما إن الكلمة تكون عنوان المعنى ودالته، ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْفَهَا﴾.
- ٧ - النبي عيسى ﷺ ليس جزءاً من الله، وإنما هو قيس للقدرة الإلهية في منح الحياة، ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾.
- ٨ - القرآن الكريم تجسيد للعقائد السليمة ونقض للعقائد المنحرفة الباطلة، ﴿لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ... وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً﴾.
- ٩ - ليس الله جلّ وعلا بجسم ليكون له ولد، ﴿سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ (إنّ ورود عبارات من قبيل ثار الله، يد الله، كلمة الله، في النصوص إنما هي عبارات مجازية).
- ١٠ - الله الذي يملك السموات، ما حاجته إلى الولد أو الشريك؟ ﴿سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾.
- ١١ - كلّ شيء من الله، إذن، يجب أن نخلص العبودية له ونتوكل عليه وحده، ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرْهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ (١٧٢)

إشارات:

□ نقل بعض المفسرين أن الإمام الرضا عليه السلام لكي يفند عقيدة التثليث المنحرفة قال لكبير المسيحيين في ذلك الحين - وكان يلقب بالجائليق - إن المسيح عليه السلام كان حسناً في كل شيء لولا وجود عيب واحد فيه، وهو قلة عبادته لله، فغضب الجائليق وقال للإمام الرضا عليه السلام: ما أعظم هذا الخطأ الذي وقعت فيه، إن عيسى المسيح كان من أكثر أهل زمانه عبادة، فسأله الإمام عليه السلام على الفور: ومن كان يعبد المسيح؟! فما أنت قد أقررت بنفسك أن المسيح كان عبداً ومخلوقاً لله، وأنه كان يعبد الله تعالى، ولم يكن معبوداً ولا رباً؟ فسكت الجائليق ولم يحرج جواباً.

□ الناس في عبادة الله سبحانه وتعالى ثلاث فئات: فئة مستكبرة، وفئة مسلمة، وفئة طالبة، يقول الإمام علي عليه السلام: «كفى بي عزاً ان أكون لك عبداً وكفى بي فخراً ان تكون لي رباً»^(١).

التعاليم:

١ - في المسائل الدينية، لا تكن ملكياً أكثر من الملك. النبي عيسى يصف نفسه بأنه عبد الله، وأنتم تدعون أنه ابن الله، ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ؟!﴾

٢ - ليس فقط يعبد الله، بل إن المسيح ذائب في عبوديته لله، ﴿عَبْدًا لِلَّهِ﴾.

٣ - الملائكة المقربون (بما فيها الروح القدس) كلهم يعبدون الله، فلم تعتبر الروح القدس فقط أحد الأقانيم الثلاثة، ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ؟﴾

٤ - التكبر والغرور منشأ ترك العبادة، فإذا استكبرت الروح، فتحت الباب أمام جميع الأخطار، ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِي وَيَسْتَكْبِرْ...﴾.

٥ - إليه مرجعنا جميعاً، فلنخش يوم القيامة ولا نتكبر، ﴿فَسَبِّحْهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً﴾.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾

وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابٌ أَلِيمًا

وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾

إشارات:

□ ديدن أهل الكتاب كان إما الغلو في نبيهم، أو اعتبارهم أنفسهم المصطفين، وقولهم: ﴿عَمَّنْ أَبْنَوْا اللَّهَ﴾^(١)، أو استحقاقهم الآخرين بقولهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ﴾^(٢)، والحال أنَّ أيًّا من هذه الادعاءات لن تنفعهم في يوم القيامة، إلا من آمن وعمل صالحاً.

التعاليم:

١ - الإيمان والعمل الصالح سبيل النجاة، ﴿ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾.

٢ - الإيمان يسبق العمل، وعمل بلا إيمان كالصك بلا رصيد، ﴿ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾.

٣ - إذا كنت تسعى إلى التخلق بالأخلاق الإلهية، عليك أن تدفع أجرة العامل كاملة غير منقوصة وزد عليها إن استطعت، ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

٤ - بلا عمل ولا إيمان، لا تتوقعوا أي شفاعة من المسيح أو غيره، ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ (١٧٤)

إشارات:

□ المقصود بـ «البرهان» بحسب الروايات هو النبي الأكرم ﷺ، أما «النور المبين» فهو القرآن الكريم. والحق أن النبي هو برهان الدين؛ لأنه الأمي الذي جاء بكتاب زاخر بالمعارف، وكلما مر الزمان، وتطوّرت مسيرة العلوم، شهدت على حقّية هذا الدين وغور تعاليمه النيرة.

التعاليم:

- ١ - الإسلام يخاطب كلّ الأمم والأجيال في جميع الأعصار والأمصار، وهو يحمل رسالة عالمية، ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ﴾.
- ٢ - إرسال النور والبرهان من شؤون ربوبية الله سبحانه وتعالى، ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾.
- ٣ - القرآن الكريم كتاب برهان وهداية ونور، ﴿نُورًا مُبِينًا﴾.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا﴾ (١٧٥)

إشارات:

- نقرأ عن الاعتصام بالأولياء والقادة الإلهيين في الزيارة الجامعة: «مَنِ اعْتَصَمَ بِكُمْ فَقَدْ اغْتَصَمَ بِاللّٰهِ»^(١).
- ذكرت الآيتان السابقتان أن الإيمان والعمل والصالح هما الوسيلتان لاستدراار الألطاف الإلهية، أما هذه الآية فتبيّن أن العمل الصالح هو سبيل الإيمان والاعتصام بالله تعالى والارتباط به.

التعاليم:

- ١ - الثواب الإلهي هو فضل من الله ورحمة، لا أننا نستحقّه، ﴿فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ

(١) من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ٦١٣.

وَقَضَى؛ (أن يذكر سبحانه وتعالى في آيات أخرى أن هذه الرحمة وذلك الفضل هما ثواب أعمالنا، إنما هو لطف آخر يسبغه علينا جلّ وعلا، وإلا هل يعقل أن يكون ثواب بضع دقائق أو أكثر من العمل الصالح الناقص هو الجنة وقصورها والرحمة منه تعالى).

٢ - إنه وإن كانت الهداية بيد الله ينعم بها على من يشاء، ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾^(١) إلا أنه ينبغي علينا نحن أن نتحرى وسيلة الهداية وتهيئة ظروفها، من خلال الإيمان والاعتصام، ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى﴾.

٣ - الحاجة إلى الهداية الإلهية تبقى قائمة حتى بعد الإيمان والاعتصام، ولا يمكن أن نستغني عن هدايته سبحانه وتعالى لحظة واحدة، ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى﴾.

٤ - الصراط المستقيم هو الطريق الذي يوصل الإنسان إلى ربه، ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَمَرْتُكُمْ لَبَسَ لَهْؤُكُمْ وَلَهُ أَخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١٧٦)

إشارات:

□ جاء في الآية ١٢ من هذه السورة أن الأخت والأخ يرثان بعضهما بمقدار السدس، وتقول هذه الآية إنهما يرثان النصف، والسبب في ذلك هو أن مقصود تلك الآية هم الأخوة غير الأشقاء - أي الذين هم من أم واحدة وآباء متعددين - أما هذه الآية فتقصد الأخوة من أب واحد وأمّهات متعدّدات أو من أب وأم واحدة^(٢).

□ ترث الأخت أو الأخ من الميِّت عندما لا يكون له ولد أو أب أو أم، وإلا فإنَّ الإرث سيُحجب عنهما. نلاحظ أنَّ سورة النساء المباركة قد شرعت بالحديث عن شؤون الأسرة وهي الآن تختتم بها.

التعاليم:

- ١ - مسؤولية الناس في تعلُّم المسائل والأحكام الدينيَّة هي في الرجوع إلى قادة الدين، ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾.
- ٢ - يحمل الدين للناس برنامجاً للحياة. فالإرث هو، من جهة، موضوع اقتصادي، ومن جهة أخرى، موضوع عائلي. ولذلك فإنَّ الدين يلحظ الجهتين في تشريعه أحكامَ الإرث، ﴿قُلْ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾.
- ٣ - مراعاة الأولويات في تقسيم الإرث، يشير إلى أنَّ الأقربين أولى بالمعروف. الوالدان والأبناء في طبقة واحدة، ويأتي في الطبقة التالية الأخوة والأخوات، ﴿لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ﴾.
- ٤ - تشريع سهم الرجل ضعف سهم المرأة يقوم على الحكمة والعلم الإلهي، لا الظروف الاجتماعية السائدة في عصر النبي الأكرم ﷺ والتي كانت تنظر إلى المرأة نظرة استضعاف، ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

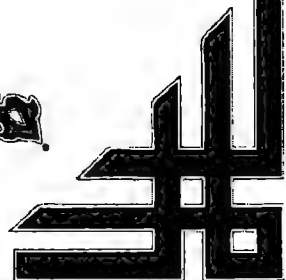
«والحمد لله رب العالمين»



سُورَةُ الْمَائِدَةِ

السورة: ٥ الجزء: ٦ - ٧

عدد آياتها: ١٢٠



ملاحح سورة المائدة

تحتوي هذه السورة على مئة وعشرين آية، وقيل إنها نزلت قبل وفاة النبي الأكرم ﷺ بشهور، وليس فيها منسوخ من الآيات. سبب تسميتها بالمائدة هو دعاء النبي عيسى عليه السلام في الآية ١١ بأن ينزل الله تعالى مائدة من السماء. كما لها أسماء أخرى مثل «العهود» و«المواثيق»، وهي بشكل عام، تتناول موضوع الوفاء بالعهود، كما تزخر السورة بخطاب «يا أيها الذين آمنوا»، فعلى سبيل المثال، ورد هذا الخطاب إحدى عشرة مرة في سورة البقرة، بينما ورد ست عشرة مرة في هذه السورة.

ومن الموضوعات والمفاهيم التي تتطرق إليها السورة، مضافاً إلى الوفاء بالعهود والمواثيق، موضوع الشهادة بالعدل، تحريم القتل، أحكام الأطعمة، أحكام الوضوء، الغسل والتيمم، الحث على العدالة الاجتماعية، استعراض أحكام الوصية والقصاص، والسرقه والزنا.

ربما يكون استهلال السورة بعبارة ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ لأنها من خواتيم الوحي الإلهي الذي نزل على الرسول الأكرم ﷺ، فجاءت بمثابة وداع المسافر أهله ووصيته لهم.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ (١)

إشارات:

□ «البهيمة» اسم لكل ذي أربع بما في ذلك «الأنعام» التي تعني الإبل والبقر والأغنام، وقد ذكرت عبارة «بهيمة الأنعام» في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم، والمراد بها حلية لحوم الأنعام^(١).

□ سئل الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن قوله ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾، فقال: «الجنين في بطن أمه إذا أشعر وأوبر فذكاته ذكاة أمه، فذلك الذي عنى الله ﴿﴾^(٢)». وقال المرحوم الفيض الكاشاني في تفسيره (الصافي): «قد تكون هذه الرواية بياناً لمصداقها الخفي، أو أنها تسمى «بهيمة» منذ أن تولد من رحم أمها، لذلك لا تعارض في تميمها»^(٣).

□ عن النبي الكريم ﷺ أنه قال: «لا دين لمن لا عهد له»^(٤). نعم، إنّ الوفاء بالعهود هو عماد المجتمع وأساس ثباته، وفي نقضها ذهاب لنظامه، وابتلاؤه بالفوضى.

هذا، وقد أوجب القرآن الكريم الوفاء بالعهد لجميع البشر بمن فيهم المشركين. ﴿فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَهْدُهُمْ إِلَىٰ مَدِينِهِمْ﴾^(٥).

□ وروي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «ثلاث لم يجعل الله ﴿﴾، فيهنّ رخصة، أداء الأمانة إلى البرّ والفاجر، والوفاء بالعهد للبرّ والفاجر، وبرّ الوالدين برّين كانا أو فاجرين»^(٦).

(١) بحار الأنوار، ج ١٦، ص ١٤٤.

(٢) سورة التوبة: الآية ٤.

(٣) الكافي، ج ٢، ص ١٦٢.

(١) تفسير مجمع البيان.

(٢) الكافي، ج ٦، ص ٢٣٤.

(٣) نقلاً عن: قاموس القرآن.

وَعَنْ عَلِيٍّ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ «إِذَا أَوْمَى أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَوْ أَشَارَ بِالْأَمَانِ إِلَى أَحَدٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَتَزَلَّ عَلَى ذَلِكَ فَهُوَ فِي أَمَانٍ»^(١).

□ الكتب السماوية العهد القديم (التوراة)، والعهد الجديد (الإنجيل)، والعهد الأخير (القرآن الكريم) هي عهود الله ومواثيقه ويجب الوفاء بها. نقرأ في الحديث الشريف: «القرآن عهد الله»^(٢).

التعاليم:

١ - لا بدّ للمسلم من أن يلتزم بجميع المواثيق والعهود التي يبرمها مع أي فرد أو جهة، مهما كان نوع الميثاق، سواء أكان ميثاقاً لفظياً أم مكتوباً، أم مواثيق سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو عائلية، أم كان ميثاقاً مع القوي أو الضعيف، أو مع الصديق أو العدو، أو مع الله كما هو الحال مع النذر مثلاً، أم العهود التي تقدّم إلى الناس أو الفرد أو المجتمع، صغيراً كان أو كبيراً، أم المواثيق مع دول المنطقة أو أي معاهدة دولية، باختصار أقول، إنّ «العقود» هنا معرفة بالألف واللام وهي تشمل جميع أنواع العقود والمواثيق، ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾.

٢ - ثمة إشعار بأنّ الإيمان هو الضمانة للوفاء بالعهد والميثاق، ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾.

٣ - أما وأنّ الله سبحانه وتعالى قد وهبنا كلّ هذه النعم، فلا بدّ لنا من الوفاء بعهوده، ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ﴾.

٤ - أحد العهود مع الله تعالى هو الالتزام بأحكام الأطعمة حلالها وحرامها، ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ﴾.

٥ - يهتمّ الدين الإسلامي بالقضايا الاجتماعية والاقتصادية على حدّ سواء، والوفاء بالعهد يمثل قضية اجتماعية واقتصادية، والاستفادة من الحيوانات هي من القضايا الاقتصادية، ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَتُ الْأَنْعَامِ﴾.

٦ - يحرم أكل الميتة والمنخنقة من البقر والإبل والأغنام، ﴿إِلَّا مَا يُتَلَّنَ عَلَيْكُمْ﴾.

٧ - ليست لحوم كل البهائم حلال، ﴿إِلَّا مَا يُتَلَّنَ عَلَيْكُمْ﴾ (الآية الكريمة تتعلق بأنواع معينة من البهائم).

٨ - من أجل المحافظة على حرمة الإحرام، يجب أن نوطن النفس قليلاً على الحرمان والامتناع عن الصيد، ﴿غَيْرَ يُحِلِّي الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾.

٩ - الالتزام بمحرمات الإحرام، هو من أمثلة الوفاء بعهد الله وميثاقه، ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ... غَيْرَ يُحِلِّي الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾.

١٠ - الإحرام هو ميثاق المحرم مع الله، ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ... وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾.

١١ - الإحرام هو حالة استثنائية وله حرمة، ﴿وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا أَيْمَانَ أَلَيْتَ الْحَرَامَ يَتَنَفَّسُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ مَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْرِ وَالنَّفْيِ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْرِ وَالْعُدُوِّ وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾

إشارات:

□ «الهدْي» هو القربان الذي لا علامة له ويُهدى في الحج؛ و«القلائد» هي القرايين التي تُعلَّم بأن تُعلّق في رقبتها علامة أو تكوى حتى تصل إلى محلّ القربان في مناسك الحج وتذبح فيه.

□ في بداية الآية، فرض الله سبحانه وتعالى احترام الشعائر، وحرّم انتهاكها أو تجاوزها؛ ومن بين الشعائر، ذكر بالخصوص جملة معينة منها هي: شهور رجب، وذو القعدة، ومحرم، التي يُحرّم فيها القتال، وشهر ذي الحجة الذي تقام فيه مناسك الحج، والهدى هي القرايين الخالية من العلامات، والقلائد هي القرايين المعلّمة.

□ في السنة السادسة للهجرة، خرج المسلمون من المدينة إلى مكة قاطعين ٨٠ فرسخاً وذلك لأداء فريضة الحج، فصدهم المشركون عن هدفهم، ثم انتهى الأمر إلى عقد صلح الحديبية، وبعد فتح مكة مُنع المسلمون من الاعتداء أو مضايقة أولئك الذين صدّوهم عن مكة قبل الفتح، ﴿مَدَّوْكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

□ إذا كان كسب العلم «براً» فلا ريب في أنّ الطرق المؤدية إليه مثل: تهيئة المدارس، والكتب، والمكتبات، والمختبرات، ووسائل النقل، والأساتذة، وغيرها كلّها أمثلة على «التعاون على البرّ».

التعاون على الإحسان والعفاف

□ تناولت الآية ١٧٧ من سورة البقرة أوجهاً عدّة من «البرّ»: ﴿وَلَكِنَّ الْإِلَهَ مَنْ ءَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالَّذِينَ وَلَدَتْهُ وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ... وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾، والبرّ هو الإيمان بالله ويوم القيامة والملائكة والكتب السماوية والأنبياء، والتواصل مع المحرومين في المجتمع، والوفاء بالعهود والمواثيق، والصبر في الأعمال.

□ وردت تأكيدات كثيرة في الروايات على التعاون والتعاضد على فعل الخيرات والإحسان ومساعدة المظلومين والمحرومين، وفي المقابل، ورد نهي شديد عن نصرة الظالم، ونورد في ما يأتي بعض الروايات لتزين هذه السطور بطيب كلماتها:

• عن الإمام الصادق عليه السلام: «ومن مشى في عون أخيه ومنفعته، فله ثواب المجاهدين في سبيل الله...»^(١).

• «إنّ الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه»^(٢).

• «إنّ معونة المسلم خير وأعظم أجراً من صيام شهر واعتكافه في المسجد الحرام»^(٣).

(٣) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣٤٥.

(١) وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٦٠٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٨٦.

- «العامل بالظلم، والمعين له، والراضي به، شركاء ثلاثتهم»^(١).
- وقد وصل النهي عن إعانة الظالم إلى حدود: «لا تعنهم على بناء مسجد»^(٢).

التعاليم:

- ١ - يتوقع الله سبحانه وتعالى من المؤمن نمطاً محدداً من الأفعال، ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّوْا...﴾.
- ٢ - احترام شعائر الله تعالى مسؤولية المؤمنين، ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّوْا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾.
- ٣ - لا يجوز انتهاك حرمة الشعائر الإلهية وقديسيّتها، ﴿لَا يَحِلُّوْا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾.
- ٤ - ليست كلّ الأوقات متساوية في الحرمة والفضل، فتوجد مثلاً أيام الله، وتوجد الأشهر الحُرُم التي لها حرمتها وقديسيّتها الخاصة، ﴿وَلَا الشَّهَرِ الْحَرَامِ﴾.
- ٥ - حتى الحيوان الذي يسخر في سبيل الله يكتسب حرمة، ﴿وَلَا الْمَذْيَ وَلَا أَلْفَلَكِيْدَ﴾.
- ٦ - يجب حفظ حرمة حجاج بيت الله، ﴿وَلَا ءَاتِيْنَ أَلْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾. كلّ ما يمسّ حرمة أو أمن القاصدين إلى الكعبة المشرفة حرام، سواء أكان ذلك أثناء رحلة الحج أم العمرة.
- ٧ - الهدف الرئيس للحج هو زيارة الكعبة المشرفة، ﴿ءَاتِيْنَ أَلْبَيْتَ﴾.
- ٨ - الحج والعمرة سبيل لنيل الدنيا والآخرة معاً، ﴿يَتَنَفَّوْنَ فَضْلاً مِّن رَّحْمَتِهِمْ وَرِضْوَانًا﴾.
- ٩ - الكسب الحلال يمثل قيمة، لاحظ أنّ القرآن الكريم يضع موضوع فضل الله تعالى - وهو الكسب والعمل - إلى جانب رضوان الله وقربه، ﴿يَتَنَفَّوْنَ فَضْلاً مِّن رَّحْمَتِهِمْ وَرِضْوَانًا﴾.

(١) المصدر نفسه، ص ٣٤٥.

(٢) المصدر نفسه، ج ١٢، ص ١٣٠.

- ١٠ - النشاطات الاقتصادية والتجارية للبلدان الإسلامية في مكة، من أي نوع كانت، مجازة، ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَيَرْضَوْنَآ﴾.
- ١١ - المنافع المادية من فضل من الله تعالى على الإنسان، وهي من شؤون ربوبيته جلّ وعلا، ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ﴾.
- ١٢ - إساءات الآخرين في حقبة ماضية، لا تعطينا الحق في الظلم والعدوان في حقبة زمنية لاحقة، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ... أَن تَعْتَدُوا﴾.
- ١٣ - الظلم وتجاوز الحدود حرام مع الأعداء أيضاً ﴿شَنَاٰنُ قَوْمٍ... أَن تَعْتَدُوا﴾، فالانتقام مشروط بالعدل وعدم الإسراف.
- ١٤ - لا تتخذوا من المشاعر الدينية حجة لممارسة الظلم، ﴿صَدُّوكُم عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾.
- ١٥ - الوفاء بالعهود وحفظ حرمة الشعائر الإلهية وقدسيتها، يتطلب التعاون والتكاتف، ﴿لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ... وَتَعَاوَنُوا﴾.
- ١٦ - غض الطرف عن أخطاء الآخرين أحد سبل التعاون على البر والإحسان، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ... وَتَعَاوَنُوا﴾.
- ١٧ - على الحكومة والمجتمع الإسلاميين أن يدافعا عن المظلوم في المحافل الدولية، ومساندة أعمال الخير والبر، وإدانة الظالم والردائل والشرور، ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالْقَوَىٰٓ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.
- ١٨ - من أجل النهوض بجميع الفضائل، ينبغي تهيئة الأجواء والظروف لذلك، والتعاون من أجل تحقيق هذا الهدف، ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ﴾.
- ١٩ - يجب أن يكون المعيار هو مساندة الحق لا القبيلة، أو المنطقة، أو الطائفة، أو العرق، أو اللغة، وأن نتعاون على البر، ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ﴾.
- ٢٠ - على الذين ينتهكون حرمة الشعائر الإلهية وقدسيتها، ويعينون على ارتكاب الشرور والآثام، أن ينتظروا عذاباً شديداً من الله، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ
وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا
بِالْأَزْلَمِ ذَلِكَمْ فَمَنْ يَسُقِ الْيَوْمَ يِسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تُخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ
لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ
مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾﴾

إشارات:

□ أشارت الآية الأولى من هذه السورة إلى ما يحلّ من لحوم البهائم، إلا ما سيأتي تحريمه. وجاءت هذه الآية لتذكر عشرة استثناءات يحرم فيها تناول تلك اللحوم.

□ «المنخنقة»، هي التي تموت خنقاً، والخنق حبس النفس سواء فعل بها ذلك آدمي أو اتفق لها ذلك. «الموقوذة»، من «الوقذ» وهو شدة الضرب، أي التي تتعرض للضرب والتعذيب. وكانت عادة عرب الجاهلية ضرب بعض الحيوانات حتى الموت إكراماً لأصنامهم وتعظيماً لها، وهذه العادة كانت نوعاً من العبادة والتقدّيس للآلهة^(١). «المتردّية»، الحيوان الذي يسقط من مكان مرتفع. و«النطيحة»، الحيوان الذي يموت على أثر نطحه من قبل حيوان آخر.

□ ما ورد من تحريم في هذه الآية، ورد كذلك في سور الأنعام، والنحل، والبقرة، بيد أن هذه الآية تتضمّن أمثلة للميتة (المنخنقة، والموقوذة، والنطيحة... إلخ).

□ روي عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قوله: «وكانت الفريضة تنزل بعد الفريضة الأخرى، وكانت الولاية آخر الفرائض فأنزل الله ﷻ ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾»^(٢).

□ ذكرت الآية الكريمة النصب والأصنام، والفرق بينهما هو أن الأولى ليست لها أشكال وصور محدّدة، بخلاف الأصنام التي هي ذات شكل وصورة واضحة، وكانت النصب توضع في أطراف الكعبة، وتذبح القرابين عليها، ويُمسح بدمها على تلك النصب.

□ ذكرت الآية ١٠٩ من سورة البقرة مسألة رغبة الكفار في حرف المسلمين عن دينهم، فأمر الله تعالى المسلمين أن يعفوا ويصفحوا حتى يُظهر أمره. من هنا، يتبيّن أن المسلمين كانوا بانتظار حكم قاطع يؤدي إلى يأس الكفار، فنزلت الآية الكريمة ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾.

الغدير في القرآن الكريم

□ أمران مستقلّان تبحثهما هذه الآية الكريمة، الأول يتعلّق بالنهاي عن أكل اللحوم المحرّمة، إلا من اضطرّ إليها، أمّا الأمر الثاني فهو متّصل بمسألة إكمال الدين ويأس الكفار، وهذا الأمر جاء مستقلاً بصورة تامّة عن الأول، لأسباب عدّة هي:

أ - لا توجد أيّ علاقة تربط بين يأس الكفار من الدين، وبين أكل الميتة أو عدمه.

ب - ما ورد من روايات بطرق الشيعة والسنة في سبب نزول هذه الآية، وفي توضيح عبارتي ﴿الْيَوْمَ يَبَسُّ الدِّينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ و﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، فتلک الروایات لا تتعلّق بما قبلها ولا بما بعدها؛ لأنّ تلك العبارات تستعرض أحكام الميتة.

ج - وبحسب ما ورد في روايات الفريقين، فإنّ هذا الجزء من الآية ونعني به ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ قد نزل بعد تنصيب علي بن أبي طالب عليه السلام للإمامة في يوم غدیر خم.

د - لو سلکنا طريق التحليل العقلي، بغضّ النظر عن الأدلة النقلية، فستوصل إلى النتيجة نفسها؛ لأنّ الآية الكريمة تصف ذلك اليوم بأربع خصائص هي:

- ١ - اليوم الذي يش فيه الكافرون،
- ٢ - يوم إكمال الدين،
- ٣ - يوم إتمام النعمة الإلهية على الناس،
- ٤ - واليوم الذي ارتضى فيه الله تعالى أن يجعل الدين الإسلامي ديناً خاتماً للإنسانية جمعاء.

إننا إذا ما تأملنا وقائع التاريخ الإسلامي، ووقفنا عند تفاصيله، سنجد أنّ الأيام المباركة التي يحتويها مثل يوم البعثة، والهجرة، وفتح مكة، والانتصارات في معارك المسلمين، على الرغم من فضلها وبركتها، إلّا أنّ أيّاً منها لا يوازي فضل وعظمة هذا اليوم، وذلك لافتقارها هذه الخصائص الأربع المهمة مجتمعة، والمذكورة في الآية الكريمة لهذا اليوم، حتى حجة الوداع، لا يرقى فضلها إلى فضل هذا اليوم لجهة أنّ الحجّ هو بعض الدين وليس كلّه.

- إذا تحدّثنا عن البعثة النبوية، فلا يمكن القول، بأيّ حال، إنّ الدين قد اكتمل في اليوم الأوّل من شروع دعوة الرسول الأكرم ﷺ.
- أمّا يوم هجرة الرسول الأعظم ﷺ فقد كان بأمر من الله سبحانه وتعالى، وهو اليوم الذي هجم فيه الكفار على بيت النبي الكريم، وليس لأحد أن يدّعي أنّه يومٌ يش في الكفار.
- وإذا قلنا: انتصارات المسلمين في بدر والخندق وغيرها، فإنّ الكفار الذين حاربوا المسلمين في جبهات القتال هم وحدهم الذين أصابهم اليأس، وليس كلّ الكفار، فيما الآية الكريمة تصرّح بوضوح أنّ جميع الكفار يشوا من دين المسلمين: ﴿الْيَوْمَ يَنْسَى الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾.
- وأمّا حجة الوداع حيث أخذ الناس مناسك الحجّ عن النبي الأكرم ﷺ، فهي الأخرى لا يمكن القول إنّها تجسّد تمام الدين؛ لأنّ حجّ الناس فقط هو الذي اكتمل بما علّمهم الرسول الكريم ﷺ من مناسك وشعائر، وليس كلّ الدين، بينما نجد الآية الكريمة تقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾.
- إذن، لا يتبقى لدينا سوى يوم غدیر خم، إذ أمر الله تعالى نبيّه الكريم ﷺ أن

يعلن الإمام علياً في ذلك اليوم خليفة على المسلمين من بعده، وهو اليوم الوحيد الذي تنطبق عليه المواصفات التي مرّ ذكرها: ﴿أَكَلْتُ﴾، ﴿أَتَمَمْتُ﴾، ﴿رَضِيتُ﴾، ﴿يَسَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

• وبالنسبة ليأس الكفار، فذلك عندما فشلت جميع المؤامرات التي حيكت ضدّ النبي الأكرم ﷺ بدءاً من توجيه التّهم والافتراءات مروراً بشنّ الحروب ووصولاً إلى محاولات قتله، وأصبح أمل الكفار الوحيد هو موت النبي الكريم ﷺ. إنّ تنصيب علي بن أبي طالب ﷺ للإمامة برهن للجميع أنّه لو كان للنبي الكريم ولد، ما كان ليصبح أفضل من الإمام علي، وما كان دينه ليمحى بموته، فقد اختار ﷺ للأمة الإسلامية خليفة مثل الإمام علي بن أبي طالب ﷺ، وهذا هو مكن السرّ بالنسبة إلى يأس الكفار.

• وعن كمال الدين، لا بدّ من القول إنّّه إذا شرّعت الأحكام والقوانين الكاملة، ولكن لم يكن للأمة والمجتمع قائد معصوم وكامل يرفع تلك القوانين والأحكام، فستبقى منقوصة وغير مكتملة.

• ويأتي الحديث هنا عن إتمام النعمة لجهة أنّ القرآن الكريم يصرّح أنّ النعمة الأكبر تتمثّل في نعمة القيادة والهداية، فلو فرضنا أنّ النبي الأكرم ﷺ كان قد رحل عن الدنيا دون أن يستخلف أحداً في أمّته، لكان قد فعل ما لم يفعله الراعي في قطيعه. فأتى للنعمة أن تتمّ وللدين أن يكتمل دون تنصيب خليفة إلهي؟

• وتفسير الرضا والقبول الإلهي هنا هو أنّه إذا قيّض للشرعية الكاملة حاكم عادل يسهر على تطبيقها فإنّ ذلك ممّا يستتزل الرضا الإلهي.

□ والحقيقة، أنّه يكفي حصول واحد من العناصر الأربعة المشار إليها (إكمال الدين، إتمام النعمة، رضا الله تعالى، ويأس الكفار) ليكون ذلك اليوم هو «يوم الله»، فكيف بيوم الغدير الذي جمع فيه العناصر المذكورة كلّها. وهو ما دعا أهل البيت ﷺ، كما ورد في الروايات، إلى أن يعتبروا يوم الغدير من أعظم الأعياد على الإطلاق.

□ تتوقف آثار الأشياء وثوابها على تمامها واكتمال أجزائها تارة، فمثلاً، إذا أفطر الصائم قبل الأذان ولو بلحظة واحدة، ، فصيامه هذا باطل بلا شك، الأمر الذي يفسر ذكر كلمة «تمام» في الآية الكريمة ﴿أَتَيْنُوا الْبَيْتَ إِلَى الْبَيْتِ﴾، وتارة أخرى تكون لكلّ جزء قيمته وأثره المستقلّ، كتلاوة آيات من القرآن الكريم، فالكمال يتم، بلا شك، بتلاوة جميع الآيات، ولكن لا يعدم القارئ الثواب في أيّ مقدار من التلاوة.

أحياناً تكون بعض الأجزاء من الأهمية بحيث تظلّ المجموعة ناقصة من دونها على الرغم من وجود باقي الأجزاء؛ كالطيار وسائق السيارة، إذ لا فائدة للطائرة والسيارة من دونهما. كذلك هي القيادة وولاية الحقّ، فهي تربط مصير الإنسان بربه، وبدونها تتحوّل المواهب والنعم إلى نقم، ولا تسوق الإنسان إلى ربه.

الطعام في الإسلام: نظرة سريعة

□ الإسلام هو دين العدل والاعتدال، فلا إفراط في استهلاك اللحوم، كما هو الحال في الغرب، ولا تفريط يصل حدّ تحريم تناول اللحوم، كما يفعل البوذيون، ولا على طريقة الصينيين في أكل لحوم كلّ أنواع الحيوانات بصورة مطلقة وكيفما اتفق. لقد وضع الإسلام لموضوع استهلاك الإنسان للحوم شروطاً أوجب مراعاتها، وخطّ لها حدوداً حرّم تجاوزها، من جملة هذه الشروط نذكر:

- أ - حرمة أكل الحيوانات اللواحم (أكلات اللحوم) ولعلّه لأنّ الأمراض المايكروبية، والطفيلية، وغيرها من الأمراض، تنتقل منها إلى الإنسان.
- ب- حرمة أكل الحيوانات الضارية المفترسة، ولعلّها لأنّها تورث صفاتها في الإنسان من قساوة ووحشية.
- ت- حرمة أكل الحيوانات الكريهة التي ينفر منها الطبع الإنساني وتولد في النفس التقزز والاشمئزاز.

ث- حرمة أكل الحيوانات التي لا يذكر اسم الله تعالى عليها عند الذبح.

ج - حرمة أكل الميتة.

□ يقول الإمام الصادق عليه السلام في أكل الميتة: «وَأَمَّا الْمَيْتَةُ فَإِنَّهُ لَمْ يَنْلُ أَحَدٌ مِنْهَا إِلَّا ضَعُفَ بَدَنُهُ وَ هَمَّتْ قُوَّتُهُ وَانْقَطَعَ نَسْلُهُ وَلَا يَمُوتُ أَكِلُ الْمَيْتَةِ إِلَّا فَجَاءَ»^(١).

□ سؤال: ألا تتعارض حليّة ذبح الحيوان ليأكله الإنسان مع مفهوم الرحمة الإلهية؟

الجواب: إنّ عالم الخلق يقوم على مبدأ الصيرورة والتحول، فالتربة تتحول إلى نبات، والنبات إلى حيوان، والحيوان إلى إنسان، وبالنسبة فإنّ عملية التحول تفرز رشداً وكمالاً في الخلق، وبعبارة مختصرة كمال الحيوان المأكول هو في ذبحه ليأكل الإنسان.

التعاليم:

١ - الإسلام دين جامع وشامل، ويدلّ على ذلك اهتمامه بجميع الغرائز والحاجات الطبيعية، والفطرية، والروحية، للإنسان، وله في كل هذه المجالات رؤية واضحة وصريحة، ﴿حُرِّمَتْ﴾.

٢ - في المنظومة التوحيدية، حتى ذبح الحيوانات يجب أن يتخذ صبغة إلهية، وألا تحرم الذبيحة، ﴿وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾.

٣ - إذا كان لا يزال في الموقوذة، أو المتردية، أو النطيحة، رمق من الحياة، وذبحت يحل أكلها، ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾.

٤ - يجب محاربة جميع مظاهر الشرك، وفي أي صورة كانت، ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾.

٥ - موت النبي الكريم صلى الله عليه وآله كان يشكل أهمّ بارقة أمل للكفار، ولكن بتعيين الإمام علي عليه السلام قائداً للأمة الإسلامية، تحول أملهم هذا إلى سراب، ﴿الْيَوْمَ يَبْئَسُ...﴾.

٦ - حتى وإن قضيتهم على أعداء الخارج، فلا زال هناك أعداء الداخل يتربصون بكم؛ لذا عليكم أن تتصدّوا لهم وتخشوا الله تعالى وحده، ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْهُ﴾.

- ٧ - أقصى ما يخشاه الكفار هو الدين الكامل؛ إذ لا خشية من دين يكون القائد فيه خانع، والجهاد معطل، والموارد مسلوبة، والأمة متفرقة، ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ... الْيَوْمَ أَكَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾.
- ٨ - إذا لم يئأس الكفار من دينكم، فلا بدّ من وجود خلل في دينكم على صعيد القيادة، ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ... الْيَوْمَ أَكَلْتُ﴾.
- ٩ - لا يكتمل الدين دون قائد معصوم، ﴿أَكَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾.
- ١٠ - القيادة المعصومة هي عمود الدين، وهي وحدها منشأ يأس الكفار، وليس أي شيء آخر، ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا... الْيَوْمَ أَكَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾.
- ١١ - لا تكتمل النعم إلا بوجود نعمة القيادة الإلهية، ﴿الْيَوْمَ... وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾.
- ١٢ - تنصيب علي بن أبي طالب عليه السلام إماماً للمسلمين هو إتمام للنعمة، ﴿وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾، وترك الولاية جحود بالنعمة وكفران بها، وعواقب ذلك وخيمة^(١) ﴿فَكَفَرْتُ بِأَنعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.
- ١٣ - لا يرضى الله تعالى إلا عن إسلام يكون قائده معصوماً، ﴿الْيَوْمَ... وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ﴾.
- ١٤ - عند الاضطرار يُرَخَّص للإنسان باستعمال الحرام، ولكن لا يجوز له أن يوقع نفسه في الاضطرار مختاراً. تأمل الفعل ﴿أَضْطَرَّ﴾ جاء في صيغة المبني للمجهول.
- ١٥ - الشريعة الكاملة هي التي تراعي جميع جوانب الإنسان وظروفه، لا سيما حالات الاضطرار والمآزق. إذن، أحكام الإسلام لا تعرف طريقاً مسدوداً، ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ﴾.
- ١٦ - لا ينبغي لظروف الاضطرار الاستثنائية، أن تكون باباً لارتكاب المعاصي

والحرية المطلقة، بل يجب أن يقتصر ذلك على حدود رفع الاضطراب فقط،
﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾.

١٧ - لا يجوز للمضطرب أن يسيء استغلال الرخصة الممنوحة له، ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾. يقول الإمام الباقر عليه السلام في توضيح هذه الآية: «غير متعمد لإثم»^(١).

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَانْفُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾

إشارات:

□ «الجوارح»، جمع «جارحة»، وهي مشتقة من «جرح»، وتعني «الكسب» وكذلك الجرح الذي يصيب البدن. كما يطلق على الحيوان المدرب على الصيد لأنه يجرح صيده، أو الحيوان الذي يكسب لصاحبه. وأما إطلاق «الجوارح» على أعضاء الجسم؛ فذلك لأن الإنسان يستطيع بواسطتها العمل والكسب.

□ إذا تأملنا كلمة «مُكَلِّبِينَ» المشتقة من مادة «كَلَّبَ»، فهي تعني تدريب الكلاب للقيام بأعمال الصيد، وتحصر الآية الكريمة حلية الصيد في الكلاب المدربة فقط، لذا، فهي لا تشمل عملية الصيد بحيوانات غير هذه الكلاب، كما لا يحل الصيد إذا أكل الكلب المرسل شيئاً منه.

التعاليم:

١ - الأنبياء ملزمون بالإجابة عن الأسئلة والمتطلبات الطبيعية للمجتمع، ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾.

٢ - يجب أن نطرح استفساراتنا وأسئلتنا على الأنبياء وورثتهم، ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾. كان المسلمون في بداية البعثة يشعرون بالمسؤولية إزاء تعلم الأحكام والواجبات الدينية.

- ٣ - السؤال المناسب يعتبر قيمة، ودليل على الشعور بالمسؤولية، ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾.
- ٤ - كانت الأسئلة المطروحة مقدمة لنزول آيات القرآن الكريم تدريجياً، ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾.
- ٥ - علاقة الأمة بالنبي الكريم ﷺ هي علاقة مباشرة، ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾.
- ٦ - الخبائث ما بطن منها وما ظهر هي المعيار في تحريم كل شيء، ﴿أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾.
- ٧ - المبدأ العام هو حلية كل الطيبات، ﴿أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾.
- ٨ - الإسلام دين الفطرة، وكل ما تستسيغه النفس ولا يكون فاسداً، فهو حلال، ﴿أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾، لاحظ التناغم والانسجام الموجود بين التشريع والتكوين.
- ٩ - لا يقتصر التعليم والتدريب على الإنسان فحسب، فالحيوانات أيضاً تمتلك القابلية على التعلم والتدريب، ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾.
- ١٠ - حتى الكلاب ترتقي منزلتها بالعلم، وتزداد مهارتها وفعاليتها، ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾، لذا قليل من التدريب والتعليم بإمكان الإنسان أن يجعل الكلب يخدمه حتى آخر العمر، ﴿أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ في حين أن كل علوم الإنسان أصلها من عند الله تعالى ﴿يَمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾، ولكن ماذا قدموا إزاء ذلك؟
- ١١ - إذا أرسلت كلب الصيد إلى الفريسة اذكر اسم الله، ﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾.
- ١٢ - الالتزام بأحكام الله في أكل اللحوم مظهر من مظاهر التقوى، ﴿فَكُلُوا... وَاتَّقُوا﴾.
- ١٣ - بعض الحيوانات البرية يحلّ أكل لحومها. (الصيد، دليل على أنّ الحيوان بري) ﴿فَكُلُوا يَمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾.
- ١٤ - الاهتمام بالمعاد والحساب الإلهي السريع، أحد مناشئ التقوى، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفَحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٥﴾﴾

إشارات:

□ تشير الآية الكريمة إلى أن طعام أهل الكتاب حلال للمسلمين، ولكن في ضوء ما طرحته الآية السابقة من شرط حلية اللحوم وهو أن يذكر اسم الله عليها، نتبين بأن ما تقصده هذه الآية هو إباحة جميع أنواع أطعمة اليهود والنصارى عدا الذبائح، ويعضد هذا الرأي ما ورد في الروايات عن أهل البيت عليهم السلام من أن المقصود بالطعام هو القمح، والشعير، والحبوب، والغلات. وفي هذا السياق، أدلى بعض النحاة بدلوهم من أمثال ابن الأثير والخليل الفراهيدي قائلين: إن القمح في عُرف أهل الحجاز يعتبر طعاماً^(١).

□ لقد مهّدت هذه الآية الطريق أمام المسلمين لإقامة العلاقات مع أهل الكتاب والزواج منهم، وبالتالي كان من الطبيعي أن يفتح ذلك باب التزاور أمام المسلمين وصولاً إلى نساء اليهود أو النصارى، الأمر الذي قد يجعلهم يتأثرون بعباداتهم وأساليبهم في التفكير، وربما أدى ذلك إلى ابتعادهم عن روح الإسلام؛ لذلك اختتمت الآية بتحذير موجه إلى المسلمين لئلا يغفلوا عن إيمانهم، لأن في ذلك حبطاً لأعمالهم، ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾.

□ «أخذان»، جمع «خذن»، وتعني الصديق، ولكن عادة ما تطلق الكلمة على الصداقة السرية غير المشروعة مع الجنس الآخر.

□ عرفنا في موضوع الطعام أن الآية الكريمة تبيح للطرفين المسلمين وأهل الكتاب أن يأكلا من طعام بعضهما، ﴿أُحِلَّ لَكُمْ... حِلٌّ لَهُمْ﴾، بيد أنها في موضوع الزواج تبيح للمسلمين أن يتزوجوا من أهل الكتاب دون أن يزوجه نساءهم، ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ (ولعل السبب هنا واضح وهو، أنه عادة ما

تكون المرأة، بسبب رقة عواطفها، متأثرة بالرجل، من هنا فإن دخول الكتابة في الإسلام فيه رشد وصلاح، أما دخول المسلمة في دين أهل الكتاب، فليس سوى سقوط وحضيض؛ ولهذا جاء تحريم زواج المسلمة من أهل الكتاب).

□ «المُحْصِن» و«المُحْصَنَة»، تقال للعفيفة ولذات الحرمة، والحرّة، ولهذا قيل، المحصنات: المزوجات، تصوراً أن زوجها هو الذي أحصنها.

والمراد بـ «الْمُحْصَنَتَيْنِ» هنا، النساء العفيفات، وإلا فمن المعلوم أن الزواج بالمرأة المتزوجة حرام قطعاً.

□ قيل: إن المقصود بالزواج من الكتابة هنا هو الزواج المؤقت^(١)، ويستدل على ذلك بالروايات، وكذا، ذكر كلمة «أَجُورُهُنَّ» التي تتعلق بشكل خاص بالمهر في الزواج المؤقت.

□ سُئِلَ الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن قوله ﷻ: «وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِلَهِينِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ»، فقال: «ترك العمل الذي أقرّ به»^(٢).

□ وفي رواية أخرى أنه سُئِلَ عليه السلام عن أدنى ما يخرج به الرجل من الإسلام فقال: «أن يرى الرأي بخلاف الحق، فيقيم عليه». ثم تلا هذه الآية: «وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِلَهِينِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ»^(٣).

التعاليم:

- ١ - لا تنسوا أهمية عنصر الزمان عند بيان الأحكام والقوانين، «أَلْيَوْمَ».
- ٢ - القوانين التشريعية تتناغم مع القوانين التكوينية، فما يقبله الطبع السليم، تحله الشريعة أيضاً، «أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ».
- ٣ - عفاف المرأة قيمة وفضيلة، أيّاً كان دينها، «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ».
- ٤ - العفاف مطلوب للرجال والنساء على السواء، «وَالْمُحْصَنَاتُ... مُحْصِنِينَ».
- ٥ - عند البحث عن الزوجة المناسبة فلننظر إلى إيمانها وعفافها، «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ».

في هذه المسألة ينبغي لكل شخص الرجوع إلى المرجع الديني الذي يقلده.

(٣) وسائل الشيعة، ج ٢٧، ص ٦٠.

تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٥٩٥.

٦ - لا يجوز اتباع أساليب الاستغفال والاحتياال حتى مع غير المسلمين، ﴿أَتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾؛ فاحترام الحقوق المالية للزوجة واجب حتى وإن كانت غير مسلمة.

٧ - للمرأة حق الملكية، مسلمة كانت أم غير مسلمة، ﴿أَجُورَهُنَّ﴾.

٨ - يجب تسليم المهر للزوجة باليد، ﴿أَتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾، لاحظ أن الآية الكريمة لم تقل «آتيتهم أجورهن».

٩ - المال المدفوع للمرأة يجب أن يكون للزواج لا للزنا أو العلاقات غير المشروعة، ﴿أَتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾.

١٠ - إقامة العلاقات السرية وغير المشروعة محرمة حتى مع غير المسلمات، ﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾.

١١ - يحلّ للمسلم تناول طعام أهل الكتاب والزواج المؤقت بالعففيات من نسائهم، ﴿أَهْلَ... وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾.

١٢ - الاختلاط بأهل الكتاب، والعيش معهم، والسفر إلى بلدانهم، هي من جملة المزالق المحتملة التي قد تهدد معتقدات الإنسان. من هنا، نجد أن الآية تجيز العلاقة معهم، ولكنها في الوقت نفسه توصي بتوخي الحذر لثلاث تعمل العلاقات الاقتصادية والأسرية على حرف المسلم عن معتقده، وتدفعه إلى التضحية بإيمانه من أجل زوجه ينكحها، ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ﴾.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٦﴾﴾

إشارات:

□ تتحدث الآية ٤٣ من سورة النساء عن موضوع الغسل والتيمم، وهنا، تتطرق

الآية، مضافاً إلى الموضوعين المذكورين، إلى مسألة الوضوء.

□ متى ما أُلْحِقَ الفعل «قام» بحرف الجر «إلى» أخذَ معنى الإرادة والرغبة، ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ بمعنى متى ما أردتم الصلاة.

□ تطلق كلمة «جُنُب» على المرأة والرجل والمفرد والجمع سواءً بسواء. المراد بالحكم ﴿فَأَطْهَرُوا﴾ هو الغسل، بدليل أنه جاءت في الآية ٤٣ من سورة النساء كلمة «تغتسلوا» بدلاً من ﴿فَأَطْهَرُوا﴾.

□ التحديد بعبارة ﴿إِلَى الْمَرْفِقِ﴾ هو من أجل بيان حدود الغسل، لا جهته. ولما كانت كلمة «اليد» في اللغة العربية تشمل في معانيها من الأصابع إلى الرسغ، ومن الأصابع إلى المرفق، وكذلك من الأصابع إلى الكتف، لذلك ذكرت الآية الكريمة حدود ما يجب غسله من اليدين في الوضوء وهو حتى المرفقين، لا أقل ولا أكثر.

□ تتجلى في التيمم روح العبادة لله؛ لأنَّ الإنسان يمسح جبهته التي هي أشرف الأعضاء في بدنه بيديه المتربتين مع قصد القربة لله ليظهر خضوعه له سبحانه وتواضعه في حضرته.

□ «صعيد» من «صعود» وهو الذهاب إلى المكان العالي، وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «الصعيد: الموضع المرتفع، والطيب: الموضع الذي ينحدر عنه الماء...»^(١) إذن، فالأرض المنخفضة التي تتجمع فيها المياه الآسنة لا تصلح للتيمم، لافتقادها شرط التيمم وهو التراب الطاهر.

□ ونقرأ في الحديث الشريف أنه: «لا صلاة إلا بطهور»^(٢) (الوضوء، أو الغسل، أو التيمم).

□ وكذلك ورد في الحديث الشريف: «تابع بين الوضوء كما قال الله ﷻ، ابدأ بالوجه ثم باليدين ثم امسح الرأس والرجلين، ولا تقدم شيئاً بين يدي شيء تخالف ما أمرت به، فإن غسلت الذراع قبل الوجه فابدأ بالوجه وأعد على

الذراع، فإن مسحت الرجل قبل الرأس فامسح على الرأس قبل الرجل، ثم أعد على الرجل، ابدأ بما بدأ الله^(١).

□ سئل الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: من أين علمت وقلت: إن المسح ببعض الرأس وبعض الرجلين فقال: «... ثم فصل بين الكلام فقال: ﴿وَأَمْسَحُوا رُءُوسَكُمْ﴾، فعرفنا حين قال: ﴿رُءُوسَكُمْ﴾ أن المسح ببعض الرأس لمكان الباء، ثم وصل الرجلين بالرأس، كما وصل اليدين بالوجه. وذلك لأن معنى ذلك هو بعض الرأس، ولو قالت الآية: «وامسحوا رؤوسكم» لوجب المسح على جميع الرأس^(٢).

□ وسئل الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ فقال: «هو الجماع ولكن الله ستر يحب الستر فلم يسم كما تسمون»^(٣).

□ وعن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال في حكمة الوضوء:

- «يكون العبد طاهراً إذا قام بين يدي الجبار».
- «مطيعاً له في ما أمره».
- «نقيّاً من الأدناس والتجاسة».
- «ذهاب الكسل وطرد النعاس».
- «وتزكية الفؤاد للقيام»^(٤).

التعاليم:

- ١ - النظافة والطهارة شرطاً للإيمان، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... فَأَغْسِلُوا... فَأَطْهَرُوا﴾.
- ٢ - الطهارة شرط الصلاة، ﴿فَأَغْسِلُوا﴾.
- ٣ - كما إن مس القرآن يقتصر على المتطهرين، ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾^(٥)، فإن الارتباط بالله تعالى أيضاً يحتاج إلى الطهارة، ﴿فَأَغْسِلُوا﴾.

(٤) وسائل الشيعة، ج ١، ص ٣٦٧.

(٥) سورة الواقعة: الآية ٧٩.

(١) تفسير نور الثقلين.

(٢) الكافي، ج ٣، ص ٣٠.

(٣) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٥٥٥.

- ٤ - نجاسة الجسم تحول دون التقرب إلى الله، ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا﴾.
- ٥ - من المهم جداً أن يراعي الخطاب أصول الحياء والعفاف والأدب، لا سيما في المسائل الزوجية، ﴿لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾، طبعاً، في القضايا القانونية لا بد من التحدث بصراحة ووضوح لكي لا يغمط حق، كما هو الحال مع الآية الكريمة ﴿دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾^(١) التي تتحدث عن مهر الزوجة.
- ٦ - من الممكن التخفيف في ظروف الصلاة ومقدماتها، ولكن دون تعطيل الصلاة نفسها، ﴿فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾.
- ٧ - يجب السعي للعثور على الماء لأغراض الوضوء والغسل، وإذا لم يوجد، حينذاك يمكن اللجوء إلى التيمم. عبارة ﴿فَلَمْ يَجِدُوا﴾ إشارة إلى أن البحث لم يسفر عن شيء.
- ٨ - لا يمكن لنا الوقوف بين يدي الله بالماء والتراب النجس، ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾.
- ٩ - يجب أن يكون الطعام طيباً كما أشارت إلى ذلك الآيتان السابقتان، وكذا الحال مع التيمم إذ يجب التيمم بتراب طاهر طيب، ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾.
- ١٠ - لا حرج أو مشقة في أحكام الدين، ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ... مِنْ حَرْجٍ﴾.
- ١١ - الهدف من الوضوء، والغسل، والتيمم، هو تحقيق الطهارة الروحية والاستعداد للوقوف بين يدي الله تعالى، ﴿لِيُطَهِّرَكُمْ﴾.
- ١٢ - التكاليف الإلهية نعمة للإنسان، ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾.
- ١٣ - القيام بالتكاليف من أمثلة شكر الله تعالى، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.
- ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ وَرَمِثْنَهُ الَّذِي وَافَّقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

إشارات:

□ تذكير الآية الكريمة بموضوع ذكر النعم واحترام العهود والمواثيق جاء في إطار تحذير عام وشامل، بيد أنه من الممكن أن يكون الهدف، ولأسباب معينة، هو

موضوع قيادة المجتمع الإسلامي وطاعة ولي الأمر. ومن هذه الأسباب نذكر:

١ - القيادة الإلهية هي عهد وميثاق إلهي، تدلّ على ذلك قصة إبراهيم وطلبه الإمامة لذريته، ومن ثمّ ردّ الله تعالى من أنّه لا يمنح عهده للظالمين، ﴿لَا يَتَأَلَّ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(١).

٢ - بعد تنصيب علي بن أبي طالب عليه السلام للإمامة في يوم غدیر خم، نزلت الآية الثالثة من هذه السورة على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، التي تذكر بتمام النعمة.

٣ - لقد بايع الناس علياً عليه السلام في غدیر خم بقولهم «بخ بخ»، وقالوا له: سمعاً وطاعة. وتجدد هذه الآية دعوة الناس إلى الوفاء ببيعتهم للقائد وثباتهم على عهدهم معه.

□ يشمل عهد السمع والطاعة، ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ جميع العهود والمواثيق التي تعهّدت البشرية بالوفاء بها للأنبياء سواء أكانت طبيعية، أم فطرية، أم لفظية، أم عملية، من قبيل بيعتهم أو شهادتهم بالتوحيد والنبوة.

التعاليم:

١ - تأكيد الآية الكريمة على بعض المفاهيم مثل النعمة، والميثاق، والطاعة، والعلم بذات الصدور لا سيّما بعد نزول الآية الخاصة بغدير خم، يمكن أن يكون إشارة إلى التنكر لمضمون الآية الثالثة والانقلاب على نهج الغدير، (كما قال الإمام الباقر عليه السلام^(٢) في تفسير قوله صلى الله عليه وآله ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾).

٢ - التذكير بالنعمة، والعهود، والمواثيق، والأقوال، وعلم الله تعالى، كلّها مناشئ للتقوى، ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾.

٣ - حذار أن تسوّل لنا أنفسنا نقض العهود، فالله عليم محيط، ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كُؤُوتُوا قَوْمِيْنَ لِلّٰهِ شُهَدَآءُ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَا تَعْدِلُوْا اَعْدِلُوْا هُوَ اَقْرَبُ لِلتَّقْوٰى وَاتَّقُوا اللّٰهَ اِنَّ اللّٰهَ خَبِيْرٌۢ بِمَا تَعْمَلُوْنَ﴾

إشارات:

□ هذه الآية شبيهة بالدعوة التي أطلقتها الآية ١٣٥ من سورة النساء مع اختلاف طفيف، ﴿قَوْمِيْنَ بِالْقِسْطِ شُهَدَآءُ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِيْنَ وَالْأَقْرَبِيْنَ﴾ ويتمثل الاختلاف في أنّ هذه الآية توصي المسلمين أن لا يصغوا إلى أضغانهم وأحقادهم فيحيدوا عن الحق، فيما تحذّر الآية المشار إليها في سورة النساء من إمكان أن يصبح الغلو في الحب سبباً في دفع الإنسان إلى خارج جادة العدل والصواب. إذن، فعوامل الانحراف عن طريق العدل إما أن تكون الأحقاد والكراهية، أو المحبة المفرطة والمحابة، إذ تشير الآيتان إلى واحد منهما.

□ لا جرم أنّ كبح الأحقاد الداخلية التي تعتمل في النفس تجاه الآخرين أمر صعب، لذلك، نجد الآية الكريمة، إلى جانب الحكم بضرورة العدل، تطرح محفّزات لتشجيع الإنسان على ترك تلك الأحقاد وراء ظهره، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ... اَعْدِلُوْا هُوَ اَقْرَبُ... وَاتَّقُوا اللّٰهَ﴾.

التعاليم:

١ - إذا أصبحت أحقاد الإنسان هي الدوافع التي تحرّكه، سيغيب الإخلاص من حياته، أمّا إذا كان القيام قرينة إلى الله تعالى، فسيختفي أثر الأحقاد في تطبيق العدالة، ﴿قَوْمِيْنَ لِلّٰهِ... وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾.

٢ - لا شك في أنّ العدالة المتواصلة المتأصلة في أعماق النفس ذات قيمة متكاملة، وإن كانت العدالة الوقتية أيضاً مطلوبة، ﴿كُؤُوتُوا... شُهَدَآءُ بِالْقِسْطِ﴾.

٣ - المؤمن تربطه علاقة بالله تعالى ﴿قَوْمِيْنَ لِلّٰهِ﴾ وفي الوقت نفسه، يشهد على الناس بالعدل، ﴿شُهَدَآءُ بِالْقِسْطِ﴾.

- ٤ - إذا أيقنا أن الله تعالى عليم بأعمالنا، فلا ريب أننا سنسلك طريق العدل، ﴿شَهِدَاءَ بِالْقِسْطِ... إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.
- ٥ - لا يمكن للإنسان المعقّد والحاقد أن يعدل، فطريق العدالة يحتم عليه أن يكبح أحقاده وضغائنه، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾.
- ٦ - يجب أن تبقى العواطف في دائرة العدل، ﴿وَلَا يَجْرِيَنَّكُمْ... أَعْدِلُوا﴾.
- ٧ - إضمار الحقد أسباب الانحراف عن خط العدل، ﴿شَتَّانُ قَوْمٍ عَلَىٰ آلَا تَقْدِلُوا﴾.
- ٨ - في مجال رسم السياسات ووضع الخطط والعلاقات الداخلية والخارجية، لا بد لنا من أن نسلک طريق العدل، حتى مع الأعداء، ﴿شَتَّانُ قَوْمٍ﴾.
- ٩ - الإنسان العادل يكون أقرب للتقوى، ﴿أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(١)
 وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾

إشارات:

- الأجر في القرآن الكريم يشمل أنواعاً عدة منها: ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، ﴿أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾^(١)، ﴿أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾^(٢)، ﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَثْنٍ﴾^(٣)، لذلك، فإن الثواب الإلهي ذو مراتب ودرجات.
- إن وعد الله حق، ﴿وَعَدَ اللَّهُ...﴾، وهو لا يخلف وعده، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ ٱلْعَهْدَ﴾^(٤).
- «الجحيم» هي شدة تأجج النار، وهي مشتقة من الجحمة، ورد في قصة إبراهيم أنه ألقى في جحيم (نار متأججة). «أصحاب الجحيم» هم أهل النار، والخالدون في نار جهنم.

(٣) سورة فصلت: الآية ٨.
 (٤) سورة آل عمران: الآية ٩.

(١) سورة هود: الآية ١١.
 (٢) سورة يس: الآية ١١.

التعاليم:

- ١ - الإيمان والعمل متلازمان، ﴿ءَامِنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.
 - ٢ - الإيمان والعمل الصالح يحثان الذنوب حتاً، ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾، ويستنزلان الثواب والأجر، ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.
 - ٣ - التبصر في عاقبة الأمور له أثر كبير في قرارات الإنسان، ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ... أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾.
 - ٤ - عذاب الكافرين والمكذابين هو الخلود في جهنم، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا... أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾.
 - ٥ - الحث والتشجيع باعث على العمل، ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾؛ كما إن التهديد والرعي هو أسلوب للردع في القرآن الكريم، ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾.
- ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

إشارات:

□ لا يُعرف بالضبط طبيعة الحادثة التاريخية التي تتحدث عنها الآية الكريمة؛ ولكن يمكن أن نعتبر أنها تشمل جميع الحالات التي انتصر فيها المسلمون على المؤامرات وهجمات الأعداء، بعد التوكل على الله سبحانه وتعالى.

التعاليم:

- ١ - لا بدّ للمؤمنين أن يذكروا نعم الله عليهم، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾. فهذا يعدّ حمداً لله وشكراً على آلائه، كما أنه يزيح عن طريق الإنسان الغرور والغفلة، وفوق هذا وذاك، يزيد من حبّ الإنسان لخالقه.
- ٢ - دفع أذى الأعداء هو من نعم الله علينا، ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾.
- ٣ - بالتقوى والتوكل على الله سبحانه والإيمان به، نستجلب ألطاف الله علينا

وندفع عنا خطر الأعداء، ﴿تَكْفَأُ أَيْدِيهِمْ عَنْكُمْ﴾ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾، كما إنه بسبب معاصينا يسلط الله أعداءنا علينا، في حين أن التوجه إليه سبحانه يكف عنا أذاهم.

٤ - التوكل على الله من شروط الإيمان والتقوى، ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

٥ - التقوى والتوكل من نتائج ذكر الله والإيمان، ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ... وَأَتَّقُوا اللَّهَ... فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾

إشارات:

□ «التعزير» في الآية من «عَزَّرَ» وهو النصرة مع التعظيم.

□ «سَوَاءَ السَّبِيلِ»، السواء في الأصل هو الوسط، أي الطريق الواضح، ومن يحيد عنه يسقط في الهاوية.

□ نقباء بني إسرائيل هم وزراء النبي موسى ﷺ وزعماء اثنتي عشرة طائفة من الطوائف الإسرائيلية. وقد نُقل عن الرسول الأكرم ﷺ قوله: «لَنْ عَدَّةَ الْخُلَفَاءِ بَعْدِي عَدَّةَ نِقَبَاءِ مُوسَى»^(١). لقد عمل أعداء أهل البيت ﷺ ما في وسعهم لكي يفسروا هذا الحديث على الخلفاء الراشدين، وخلفاء بني أمية، وخلفاء بني العباس، على الرغم من أن هذا العدد لا ينطبق على أي منهم. وتأتي تلك المحاولات العقيمة في وقت تعج المصادر الحديثية للفريقين بعشرات

الأحاديث الشريفة التي يصرّح الرسول الأكرم ﷺ بأسماء هؤلاء الخلفاء الاثني عشر، بدءاً بالإمام علي عليه السلام وانتهاءً بالإمام المهدي عليه السلام.

التعاليم:

- ١ - الأديان السماوية قبل الإسلام أيضاً كانت تحتوي على الصلاة، والزكاة، ونصرة الأنبياء، والإنفاق، ﴿مِثْقَ بَيْنِ إِسْرَةٍ﴾.
- ٢ - النصره الإلهية رهن شروط عدة هي: إقامة الصلاة، إيتاء الزكاة، الإيمان، نصره الأنبياء، الإنفاق، ﴿إِنِّي مَعَكُمْ لَإِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ﴾.
- ٣ - الإيمان بالأنبياء غير كافٍ ما لم يستكمل بنصرتهم، ﴿وَعَزَّزْنَاهُمْ﴾.
- ٤ - إنجاز جميع الواجبات جيد، ولكن في إنجاز كل منها فائدة أيضاً، ﴿لَإِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ... وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ﴾.
- ٥ - مساعدة خلق الله مساعدة لله. لاحظ أن الآية لم تقل «أقرضتم الناس» بل ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ﴾.
- ٦ - يجب أن يكون الإنفاق على نحوٍ صالح، ومن مالٍ طيب، ونية طيبة، وبسرعة وبلا منة، ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾.
- ٧ - لا بدّ للقائد من أن يعين بأمر من الله تعالى، وكذلك من يختارهم الأنبياء، ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾.
- ٨ - تكتسب الصلاة، والزكاة، والإنفاق، قيمتها إذا تكللت بالتسليم ونصرة القادة الإلهيين، ﴿أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّزْتُمُوهُمْ﴾.
- ٩ - النجاح يكون أعظم إذا ولد القائد من رحم الشعب، ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ﴾.
- ١٠ - للجنة ثمن، فهي لا تمنح بالأعذار والحجج. ففي مقابل الصلاة والزكاة، والإيمان، والمساعدة، والإنفاق، توهب الجنة، ﴿لَإِنْ أَقَمْتُمُ... وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ﴾.
- ١١ - الجنة ليست مكاناً للفاستدين، عليهم أولاً أن يتطهروا ومن ثم دخول الجنة، ﴿لَأَكْفِرَنَّ... وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ﴾.

١٢ - الإيمان والعمل الصالح هما السبيل المؤدي إلى المغفرة الإلهية، ﴿ءَامَنْتُمْ... وَأَقْرَضْتُمْ... لَا تُكْفِرَنَّ﴾.

١٣ - لا عذر لأحد بعد أخذ الميثاق، وإلقاء الحجة، وتحديد شروط الخطوة بالالطاف الإلهية، ﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

١٤ - من يتمرّد على أحكام الله تعالى، يخرج عن طريق الاعتدال والتوازن، ﴿مَنْ كَفَرَ... فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾. نعم، إن إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإيمان بالأنبياء، والوفاء بالعهد، هي الطريق الوسطى الذي ضلّ عنه العاصون.

﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ. وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٣)

إشارات:

□ بدأت هذه السورة ببناء الوفاء بالمواثيق والعهد، ثم ذكرت في الآية السابقة بميثاق الله مع بني إسرائيل، حتى انتهت هنا إلى استعراض آثار نقض العهد والمواثيق.

□ أحياناً، يتعرض الإنسان إلى نسيان غير مقصود، وهذا النوع لا شيء عليه، ولكن في أحيان أخرى، يحمل نفسه على التناسي من منطلق الاستخفاف وعدم الاهتمام، ويكون هذا النوع معيباً وموضع انتقاد، مثال ذلك ما ورد في هذه الآية الكريمة، ﴿وَنَسُوا حَظًّا﴾.

التعاليم:

١ - لناخذ الدروس والعبر من نقض بني إسرائيل المواثيق والعهد، ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ... لَعَنَّاهُمْ﴾.

٢ - نقض العهد مع الله تعالى، مدعاة للحرمان من الالطاف الإلهية، وتمهيد

لفسوة القلب، ﴿لَعَنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾، تذكر الآية ٧٧ من سورة التوبة أن نقض المواثيق يفتح الباب كذلك أمام نشوء النفاق، ﴿فَاعْقِبْهُمْ يَفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

٣ - طائفة من بني إسرائيل كانت مجبولة على الخيانة، ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾.

٤ - كان النبي الأكرم ﷺ يراقب دوماً أعمال اليهود وتصرفاتهم، ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ﴾.

٥ - لا ننس العدل والإنصاف حتى في تصدينا للأعداء. لاحظ عبارة ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ فهي تعني أن ليس كل بني إسرائيل متآمرين.

٦ - العفو والصفح من أمثلة الإحسان، ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ... الْمُحْسِنِينَ﴾.

٧ - العفو والصفح عن الكافر أيضاً يعدّ من أمثلة الإحسان، ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

٨ - المحسن حبيب الله، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرَتُكَ أَخَذْنَا مِنْهُمُ اقْتِصَاصًا فَمَا يَتَّبِعُهُمْ فَسَوْا حَقًّا
مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ
وَسَوْفَ يُنْفِثُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾

إشارات:

□ «النصارى»، جمع «نصراني» ربما كانت التسمية ناشئة عن الشعار الذي كان يردده أتباع النبي عيسى ﷺ وهو ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾^(١)، فسمي المسيحيون النصارى.

□ «الْبَغْضَاءُ»، نفور النفس عن الشيء وهو أمر وجداني بينما «العداوة»، تحمل طابعاً عملياً ظاهرياً.

□ المقصود بنسيان بعض ما ذكروا به هو أن طائفة من المسيحيين خرجت عن حدود التوحيد ودخلت دائرة التثليث، وبدلاً من الإيمان بدعوة النبي الكريم ﷺ، كانت تكتم صفاته وعلائمه.

□ «أغرينا» مأخوذ من الغراء وهو ما يلصق الشيء بالشيء كالصمغ وشبهه، والمعنى هو أننا ألصقنا بهم العداوة من جهة التسليط عليهم.

التعاليم:

١ - ما أكثر الضجيج وأقل الحجيج، ﴿قَالُوا إِنَّا نَعْبُدُ... فَتَسُوا حَقًّا وَمَا دُكِّرُوا﴾.

٢ - من زعم شيئاً عليه تحمّل مسؤوليته، ﴿قَالُوا إِنَّا نَعْبُدُ أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ﴾.

٣ - عاقبة نسيان النذر الإلهية وبشارات العهدين هي الفرقة والعداوة، ﴿فَتَسُوا... فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ﴾.

٤ - لناخذ العبرة من المصير السيئ للآخرين وكفرهم جراء نقضهم العهد، (لقد أخذنا من النصارى ميثاقهم، فلما نسوا سلطنا عليهم العذاب)، ﴿أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَتَسُوا... فَأَغْرَيْنَا﴾.

٥ - الفرقة والعداوة عذاب إلهي، ﴿فَتَسُوا... فَأَغْرَيْنَا﴾.

٦ - الله تعالى رقيب على كل الأعمال، وسيجزى الإنسان على كل عمل، ﴿يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

﴿يَتَأَمَّلَ الْكِتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ

الْكِتَابِ وَيَعْقُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾﴾

إشارات:

□ إفشاء ما تخفي السرائر هو من علائم علم الغيب وواحد من طرق علم النبي، ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ... تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾^(١).

التعاليم:

- ١ - الإسلام دين عالمي، ويدعو جميع الأديان إلى الحق، ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾.
 - ٢ - دعوة الناس إلى الرشاد ينبغي أن تشمل أهل الكتاب أيضاً، فلا ينبغي اليأس من هدايتهم، ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ﴾.
 - ٣ - الكون بدون القرآن ظلمات، ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ﴾.
 - ٤ - لقد حُجبت بعض حقائق التوراة والإنجيل، ﴿كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ﴾.
 - ٥ - من أساليب الإرشاد والتوجيه، شرح الموضوع على قدر الحاجة، ﴿وَيَعْقُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾.
 - ٦ - عظمة القرآن فوق الوصف، فكلمة «النور» و«الكتاب» جاءتا في صيغة التنكير بما يدل على الجلال والعظمة، ﴿نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾.
- ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾

إشارات:

- للهداية مدارج ومراحل: المرحلة الأولى منها هي الهداية العامة لجميع البشر، سواء اهتموا أم لم يهتموا، والهداية الأخرى هي هداية خاصة لأولئك الذين دخلوا في الهداية العامة.
- تبيّن الآية الكريمة النوع الثاني من الهداية.
- السلام هو أحد أسماء الله الحسنى ﴿أَسْلَمْتُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمُ...﴾^(١)، «ومن أسماء الجنة ﴿دَارُ السَّلَامِ﴾»^(٢). إذن، سبل السلام تعني السبيل المؤدي إلى الله

(١) سورة الحشر: الآية ٢٣.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٢٧.

وإلى الجنة وهي نفسها الصراط المستقيم. ﴿...سُبُلَ السَّلَامِ﴾، تشمل سبل سلامة الإنسان، والمجتمع، والأسرة، والجيل، والفكر، والروح، والشرف، وغيرها من الأمور.

□ التجسيد الحي لاتباع رضوان الله تعالى في الآية الكريمة ﴿مَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾، هم السائرون على نهج غدير خم، ذلك أن الآية الكريمة ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ نزلت بعد تنصيب الإمام علي عليه السلام خليفة لرسول الله ﷺ على المسلمين^(١).

التعاليم:

١ - الهداية تليق بمن يسعى إلى كسب رضا الله تعالى، لا بمن يسعى وراء المال، والشهرة، وأهواء النفس، والانتقام، ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾.

٢ - الإنسان هو من يمهد لهداية نفسه، ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾.

٣ - الهداية إلى طريق السلامة والسعادة رهن بكسب رضا الله تعالى، ومن سعى إلى إرضاء غيره فهو منحرف، ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾.

٤ - طريق الحق واحد، وطرق الباطل، والشرك، والكفر، والنفاق، والفُرقة، كثيرة ومتعددة، تأمل كلمة ﴿التَّوَرَّ﴾ جاءت في صيغة المفرد؛ بينما تجد ﴿الظُّلُمَاتُ﴾ في صيغة الجمع، نعم، المحاسن، والخيرات، والطهارات، ومضات من نور التوحيد، وكلها وحدة واحدة ومنسجمة، بينما الظلمة كانت وما زالت باعثاً على تفرق الصفوف وتشتها.

٥ - لا شك في أن الهدف هو واحد لكن السبل المؤدية إليه متشعبة، ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾.

- ٦ - في ظلّ مدرسة الوحي تتحقّق السلامة والسعادة للفرد والمجتمع وللروح والجسم، ﴿سُبُلَ السَّكِينِ﴾.
- ٧ - سينعم البشر بالتعايش وب حياة آمنة ومستقرّة في ظلّ القرآن الكريم، ﴿سُبُلَ السَّكِينِ﴾.
- ٨ - تنتهي ﴿سُبُلَ السَّكِينِ﴾ إلى ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وكل من يؤدّي تكاليفه المختلفة وفي شتى الظروف سعياً وراء كسب رضا الله، كلّهم سيصلون إلى الصراط المستقيم، ﴿يَهْدِي... سُبُلَ السَّكِينِ... وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.
- ٩ - لا يكفي التمسك بالنبي والكتاب فقط للوصول إلى الصراط، بل يلزم أن يقرن ذلك بالطف والإرادة الإلهية، ﴿يَاذِنَهُ﴾.
- ١٠ - لا جبر ولا تفويض، بل منزلة بين المنزلتين، فالإنسان مخير؛ ﴿أَتَّبِعْ رِضْوَانَهُ﴾، ولكن السير نحو الهدف بمعزل عن إرادة الله أمر مستحيل، ﴿يَاذِنَهُ﴾.
- ١١ - القرآن هو الدواء الناجع لكلّ الظلمات. فهو يحيل ظلمات الجهل، والشرك، والفرقة، والهمجية، والشبهات، والشهوات، والخرافات، والجرائم، والاضطرابات، إلى نور العلم، والتوحيد، والوحدة، والتحضّر، واليقين، والصفاء، والأمن، والاستقرار، ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.
- ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾

إشارات:

□ لقد طرح المسيحيون عدداً من الأفكار غير الصحيحة حول الله تعالى، يشير

إليها القرآن الكريم كما يأتي:

- ١ - الإيمان بوجود ثلاثة أرباب، ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ...﴾^(١).
 - ٢ - الإيمان بأن الله تعالى هو أحد الأرباب الثلاثة (الإله الآب)، ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثٌ ثَلَاثَةٌ...﴾^(٢).
 - ٣ - حصر الألوهية في المسيح، وهو ما تفنّده هذه الآية.
- ﴿يَتْلُو مَا يَشَاءُ﴾ إشارة إلى خلق عيسى عليه السلام بدون أب، وخلق آدم بدون أب ولا أم.
- إذا كان المسيح بن مريم هو الله كما يزعمون، فكيف يستقيم زعمهم هذا مع القول إنه صُلب، فأصبح الصليب رمزاً لظلامته؟ أهمل يُعقل أن يُقتل الله!

التعاليم:

- ١ - يعارض الإسلام كل مظاهر الكفر، أو الشرك، أو الخرافات، في أيّ دين كان. والغلو ضربٌ من الكفر، ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾.
- ٢ - النبي الكريم ﷺ مأمور بالحوار المنطقي مع المعارضين، ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ...﴾.
- ٣ - إذا كان المسيح هو الله، فأَيّ إله هذا الذي يستقرّ في رحم امرأة تسعة أشهر، ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾.
- ٤ - احتمالات العدم والفناء لا تستقيم مع الألوهية، ﴿إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ﴾.
- ٥ - عيسى وأمه والناس جميعاً خرجوا من رحم امرأة وكانوا ضعفاء، وهم سواء أمام قدرة الله تعالى، ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾.
- ٦ - نسبة الألوهية لغير الله، المسيح مثلاً، دليل على افتقاد المسيحيين المعرفة

(١) سورة النساء: الآية ١٧١.

(٢) سورة المائدة: الآية ٧٣.

الحقيقية عن الله تعالى، ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ... وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

٧ - القدرة الإلهية غير محصورة في نظام خاص، فبإمكانه سبحانه وتعالى أن يخلق الإنسان بدون أب، ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّوْهُ، قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَفْعَلُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (١٨)

إشارات:

□ روي أن النبي الكريم ﷺ دعا جمعاً من اليهود بدعوة الإسلام، وحذّره عذاب الله، فقال له اليهود: كيف نخوفنا من عذاب الله ونحن أبناءه وأحباؤه؟^(١).

□ لم يكن اليهود ولا النصارى يعتبرون أنفسهم أبناء حقيقيين لله بل كان ذلك على سبيل البنية الرمزية التشريفية.

□ من جملة الجرائم التي تطلّخت بها أيدي بني إسرائيل: قتل الأنبياء، وكتمان البشارات بظهور نبي الإسلام ﷺ، ونقض العهود، وتحريف الكتب السماوية، وعبادة العجل، والتعلّل والتحجج، وعبادة شهوات البطن وغرائزها. أمّا الأمثلة على العذاب الإلهي الذي نزل بهم فهي: رفع الطور فوقهم، وأربعون سنة من التيه، والمسح والذلة، ﴿يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾.

التعاليم:

١ - لا تجوز العنصرية، والانتهازية، واحتكار الحق من قبل الإنسان أو الجماعة أو الحزب، ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾.

(١) وكذلك وردت عقيدة بنوة الله وصداقة الله في إنجيل يوحنا، الباب ٨، العبارة ٤١، (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل).

٢ - لا ينبغي لأي فرد، أو قوم، أو طائفة، أو أمة، أن تطمئن لمغفرة الله، كما لا ينبغي لها أن تياس من رحمته تعالى، ﴿يَقْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرَّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾

إشارات:

□ الفترة الزمنية التي تفصل بين النبي عيسى عليه السلام وبين دعوة النبي الكريم ﷺ هي بحدود ستمائة سنة، بيد أنه في السنوات التي انقطع فيها حبل النبوة، لم تخل الأرض من حجاج لله كانوا أوصياء للأنبياء، بحسب قول الإمام علي عليه السلام: «اللهم بلى، لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة، إما ظاهراً مشهوراً، وإما خائفاً مغموراً، لئلا تبطل حجج الله وبيئاته... يحفظ الله بهم حججه وبيئاته حتى يودعوها نظراءهم ويزرعوها في قلوب أشباههم»^(١)، إذن، الفترة لا تعني ترك الناس وإيكا لهم إلى أنفسهم.

□ الفترات، قصرت أم طالت، لا تخلو من حكمة، فهي تعدّ من البرامج المفيدة في النظام التربوي الإلهي، ومن أمثلتها في التاريخ نذكر: اعتكاف موسى عليه السلام بعيداً عن قومه، واعتكاف الأنبياء الآخرين، وانقطاع الوحي عن النبي الكريم، والغيبان الصغرى والكبرى للإمام المهدي عليه السلام.

التعاليم:

١ - يوجّه الإسلام دعوة إلى أهل الكتاب للإيمان، ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ﴾.

٢ - إمطة اللثام عن الحقائق المخفية، أو المحرّفة، أو المنسية، هي إحدى رسالات الأنبياء، ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾.

- ٣ - الأنبياء هم ترجمان الأحكام الإلهية، ﴿رَسُولُنَا يَبَيِّنُ لَكُمْ﴾.
- ٤ - البعثة تغلق الباب أمام أي أعذار أو حجج للإنسان، ﴿أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ﴾.
- ٥ - الترغيب والترهيب هما من الأساليب الدعوية للأنبياء، ﴿جَاءَكُمْ بِبَشِيرٍ وَنَذِيرٍ﴾.
- ٦ - الإنسان حر في اختياره، ومسؤولية الأنبياء لا تتعدى تقديم البشارات والنذر، فلا إجبار ولا إكراه، ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بِبَشِيرٍ وَنَذِيرٍ﴾.
- ٧ - لا تسأل كيف يمكن لنبي أمي أن يكشف عن الحقائق المكتومة والتحريفات في الدين، فالله قادر على كل شيء، ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.
- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَفْقَهُوا أَدْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾

إشارات:

- ذكر النعم يقوّي حبل المحبة مع الله، وشكر نعمه والعبودية له والتسليم لأحكامه، ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾.
- «الملك» في اللغة تعني «الحاكم والسلطان»، كما تعني «المالك رقبة شيء معين»، وقد نقل عن النبي الأكرم ﷺ قوله: «كان الرجل من بني إسرائيل، إذا كانت له الزوجة والخادم والدابة كتب ملكاً»^(١). وحتى لو سلمنا بأن معنى الملوك هنا هو السلاطين، فهل يعقل أن يكون جميع بني إسرائيل سلاطين وملوكاً؟ لهذا السبب نرى أن المقصود بالملك في الآية الكريمة بـ ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ أي تملكون أمركم لا يغلبكم عليه غالب بعد أن كنتم مملوكين لفرعون مقهورين.

- تشير الآية الكريمة إلى أنّ الله تعالى وهب بني إسرائيل في ذلك الزمان نعماً لم ينعم بها على أحد من أفراد البشر حتى ذلك الحين فتقول: ﴿وَأَتَيْنَكُمْ مَا لَمْ

يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢١﴾، وقد تعددت هذه النعم، فمنها عبورهم نهر النيل، ونزول المن والسلوى عليهم، وانجاس اثني عشرة عين ماء.

التعاليم:

- ١ - لا بأس من توظيف عامل المشاعر والعواطف لدعوة الناس، ﴿يَقْوِرُ﴾.
 - ٢ - قبل أن نقرأ على الناس الأحكام الإلهية، علينا شحنهم وتهيتهم عبر التذكير باللطاف الله تعالى، ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾... نجد في هذه الآية استعراضاً للنعم الإلهية، ومن ثم صدور الأمر الإلهي في الآية التالية.
 - ٣ - النبوة، والحكومة، والقدرة، هي من نعم الله تعالى، ﴿إِذْ جَعَلْ فِيكُمْ أَرْبَابًا وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾.
 - ٤ - من مسؤوليات الأنبياء تذكير الناس بالنعم الإلهية، ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾.
 - ٥ - وُجد أنبياء في بني إسرائيل قبل النبي موسى ﷺ، إذ يصفهم أنهم من النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل ﴿إِذْ جَعَلْ فِيكُمْ أَرْبَابًا﴾.
 - ٦ - لتتعظ من دروس التاريخ، فها هم قوم موسى بعد أن نعموا باللطاف الإلهية الخاصة، وأخذوا بزمام الحكم، سقطوا في مستنقع الذلة والمسكنة، فتغيرت نعمتهم: ﴿لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ إلى غضب: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾^(١).
- ﴿يَقْوِرُ أَدْخَلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾

إشارات:

- «الأرض المقدسة» هي بلاد الشام (وتشمل سورية، والأردن، وفلسطين، ولبنان)، أو هي بيت المقدس فقط.
- ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا﴾ إما تعني لا تدبروا ظهوركم للأحكام الإلهية وترجعوا عن أمره وتركوا طاعته، وإما عدم الرجوع عن دخول الأرض التي أمروا بدخولها.

التعاليم:

- ١ - الوشائج التي تربط بين القائد والشعب يجب أن تكون عميقة وعاطفية، ﴿يَنْفَقُوا﴾.
- ٢ - لا بدّ من تحرير الأراضي المقدّسة من برائن الأشرار، ﴿أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾.
- ٣ - بقاع الأرض ليست على درجة واحدة من الأهميّة، فبعضها ينطوي على قداسة خاصة، ﴿الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾.
- ٤ - الفرار من جبهات القتال حرام، ﴿أَدْخُلُوا... وَلَا تَرْدُّوْا﴾.
- ٥ - نزول النعم الإلهيّة تطوّق العبد بالمسؤوليات، ﴿جَعَلَ فِيكُمْ أُنْيَاءً وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا... أَدْخُلُوا﴾.
- ٦ - من الأمثلة على خسارة المرء، حرمانه دخول البقاع المقدّسة، ﴿أَدْخُلُوا... وَلَا تَرْدُّوْا... فَتَنْقَلِبُوا﴾.

﴿قَالُوا يَمْسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ (٢٢)

إشارات:

□ «جَبَّار» من «الجبر» وأصله: إصلاح الشيء بضرب من القهر، ومنها جبر العظم الكسير. لكنّ الكلمة قد تستعمل في الإصلاح المجرد، أو في الإكراه والقهر المجرد. وأمّا في وصفه تعالى فتستعمل في المعنيين، لأنه هو الذي يجبر الناس بفائض نعمه، وقيل: لأنه يجبر الناس أي: يقهرهم على ما يريد^(١).

□ «الجَبَّارون» هم قوم العمالقة من الساميين عاشوا في شمال شبه الجزيرة العربيّة

(١) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

بالقرب من صحراء سيناء، هاجموا مصر واستولوا عليها لفترات طويلة، ودام حكمهم هناك ما يقرب من خمسة قرون^(١).

التعاليم:

- ١ - وجود الأشرار في مكان، لا يعني انسحاب الصالحين منه، ﴿يَقْوِمُ آدَخُلُوا... فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾.
- ٢ - يجب أن نقوم بطرد العدو، لا أن ننتظر حتى يخرج من تلقاء نفسه، ﴿فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾.
- ٣ - طلب العافية والكسل ممنوع، لا بد من الجسارة والإقدام، وطلب المعونة من أجل طرد العدو. والقرآن الكريم يحمل على بني إسرائيل لقولهم: ﴿وَلَئِنْ نَدَخَلْهَا﴾.
- ٤ - من غير المنطقي توقع النصر بدون كفاح، ﴿فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾.
- ٥ - أقبح من التمرد على الأوامر، الوقاحة واللجاجة، ﴿لَنْ نَدَخَلْهَا﴾؛ نظراً لما في الأداة «لن» من إحياء بالوقاحة والتبجح.

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٣)

إشارات:

- تذكر التفاسير أن الرجلين كانا من نقباء بني إسرائيل وهما «يوشع بن نون» و«كالب بن يوفنا»، وقد وردت أسماؤهما في التوراة في سفر التثنية^(٢). يقول الإمام الباقر (عليه السلام): «وهما ابنا عمه [موسى]»^(٣).
- يقول العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان: «أيما جاءت كلمة «النعمة» مجردة في القرآن الكريم كان المقصود بها الولاية والنبوة».

(٣) تفسير نور الثقلين.

(١) موسوعة فريد وجدي.

(٢) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

التعاليم:

- ١ - خشية الله باب يؤدي إلى الطافه ونعمه، ﴿يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ...﴾.
- ٢ - من يخشى الله سوف يشعر بالمسؤولية، ويؤمن بوجوب طاعة رسول الله، ولن يطأطئ رأسه لأي قوة، ﴿يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ... أَدْخُلُوا﴾.
- ٣ - خشية الله هي الباب المؤدي إلى الشجاعة، والجرأة، والعمل، ﴿يَخَافُونَ... أَدْخُلُوا﴾.
- ٤ - خشية الله نعمة منه سبحانه، ﴿يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَ﴾.
- ٥ - في الحرب يجب شحن المقاتلين بالمعنويات والحماسة، ﴿فَأِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾.
- ٦ - خشية الله والتقوى تمنحان الإنسان البصيرة والقدرة على التحليل الصحيح والدقيق للقضايا، ﴿يَخَافُونَ... فَأِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾.
- ٧ - يجب أن يكون التوكل على الله وحده، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾.
- ٨ - إذا نزل المؤمنون إلى الساحة بجرأة وشجاعة، فر المنحرفون، ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَأِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾.
- ٩ - أساس النجاح لا يقتصر على العوامل المادية فحسب، بل يستلزم أيضاً التحلي بالشجاعة، والإيمان، والشهامة، والتوكل على الله، وجرأة اتخاذ القرار، ﴿أَدْخُلُوا... وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾.
- ١٠ - ليس بالتوكل وحده نحقق أهدافنا، بل يجب أن يقترن ذلك بالعمل والسعي، ﴿أَدْخُلُوا... فَتَوَكَّلُوا﴾.
- ١١ - التوكل علامة الإيمان ومفتاح الخلاص من المآزق، ﴿فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ...﴾.
- ١٢ - منا الحركة وعلى الله النصر والبركة، ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَأِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.
- ١٣ - التوكل ليس باللسان وحده، بل هو روح نابع من جوهر الإيمان، ﴿فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿قَالُوا يَمْشُونَ إِنَّا لَن نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ
فَقَنَيْلًا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ﴾

إشارات:

□ مكة وبيت المقدس بقعتان مقدّستان، فقد قال موسى ﷺ لقومه: ادخلوها وقاتلوا الأعداء، فتعلّلوا بحجج واهية وعصوا الأمر، بينما كان المسلمون على مشارف مكة في السنة السادسة للهجرة يستعدّون لأداء العمرة وكادوا يفتحونها لولا أن منعهم النبي الكريم ﷺ، فانتهت الرحلة إلى عقد صلح الحديبية مع المشركين. نعم، كلاهما وصل إلى مشارف المعركة، ولكن، أحدهما فرّ منها، والثاني انسحب بشهامة وشجاعة.

□ لقد ذاعت شهرة بني إسرائيل في الجبن والتراخي عن محاربة العدو، لدرجة أن المسلمين قبيل معركة بدر (في السنة الثانية للهجرة) وأثناء دخولهم مكة (في السنة السادسة للهجرة) استشهدوا بتلك الحادثة حين قال المقداد بن الأسود: يا رسول الله امض لأمر الله فنحن معك والله لا نقول كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَنَيْلًا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ﴾.

□ إن جهود القادة الإلهيين في تحقيق رسالاتهم تثمر عند مساندة الناس لهم.

التعاليم:

١ - بنو إسرائيل مثال صارخ على سوء الأدب، والتعلّل، والضعف، واللهث وراء حياة الرفاهية، والدعة، ﴿يَمْشُونَ إِنَّا لَن نَدْخُلَهَا أَبَدًا...﴾.

تكشف عبارة ﴿لَن نَدْخُلَهَا﴾ عن وقاحة سافرة في مقابل أوامر الله تعالى.

وكلمة ﴿أَبَدًا﴾ تحمل إصراراً على الوقاحة.

ونلاحظ في كلمة ﴿فَاذْهَبْ﴾ إساءة وإهانة للنبي موسى ﷺ.

وتبيّن كلمة ﴿رَبِّكَ﴾ جراءة ووقاحة على الذات الإلهية المقدّسة وعلامة على

ضعف الإيمان.

أما ﴿فَعِدُّوهُمْ﴾ فهي تنم عن حالة من طلب الرفاهية والتقاعس لا طلب العزة.

٢ - يجب أن يبادر الناس بأنفسهم إلى إصلاح مجتمعاتهم لا أن ينتظروا الإصلاح من الله ومن الزعماء الدينيين فقط، ﴿فَقَتِّلَا إِنَّا هُمَا فَعِدُّوهُمْ﴾.

٣ - تمنى النصر بدون بذل الجهود وتقديم التضحيات أمر غير منطقي، ﴿فَقَتِّلَا إِنَّا هُمَا فَعِدُّوهُمْ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٥)

إشارات:

□ بعد أن أصاب النبي موسى ﷺ اليأس والقنوط من إمكان تحرّك بني إسرائيل، توجه إلى الله تعالى رافعاً يديه بالشكوى من قومه.

□ طلب موسى أن يفصل بينهما (هو وأخوه هارون) وبين القوم الفاسقين من أجل أن لا تمتس نار الغضب الإلهي المخلصين من أتباعه، بل ينزل العذاب بالأعداء فقط، أو أنه طلب موت الكفار ليفصل بينهما وبينهم.

□ أمّا لماذا ذكر موسى ﷺ في دعائه هو وأخوه هارون ولم يأت على ذكر الرجلين الوريين اللذين آزره ودعوا الناس إلى دخول المدينة، فقد ذهب المفسرون مذاهب عدّة نذكر منها:

- لم يكن موسى واثقاً من ثبات قدميهما^(١).
- لقد تمّ تهديد الرجلين المذكورين بالرجم من قبل القوم، لذلك، قال موسى في دعائه: إلهي! لم تعد لي أي قوة، فالخطر أصبح يحيط بهذين الرجلين أيضاً^(٢).

التعاليم:

١ - معظم الأدعية القرآنية تطلب العون باستخدام كلمة الرب، ﴿قَالَ رَبِّ﴾.

- ٢ - عندما تنقطع بنا السبل ويقلب الناس لنا ظهر المجن، نتوسل بالمخلص الأصلي لينجيننا، ﴿فَاذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ... قَالَ رَبِّ﴾.
- ٣ - بعد أن يستنفذ الأنبياء كل السبل ويأسوا من إيمان الناس وطاعتهم يتوجهون بشكواهم إلى الله تعالى ويلجأون إلى الدعاء على الظالمين، ﴿رَبِّ إِنِّي...﴾.
- ٤ - عصيان أمر الجهاد فسق، ﴿فَأَفَرَّقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْرِ الْفَاسِقِينَ﴾.
- ٥ - من الابتلاءات الاجتماعية تفرق الناس عن الأولياء وابتعادهم عنهم، وانقطاع بركات وجودهم عن قومهم، ﴿فَأَفَرَّقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْرِ الْفَاسِقِينَ﴾.
- ٦ - عيش المؤمن مع الفاسقين وفي أوساطهم ابتلاء وشدة يمتحن بها، ﴿فَأَفَرَّقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْرِ الْفَاسِقِينَ﴾.

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْرِ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٦)

إشارات:

- ﴿يَتِيهُونَ﴾ مشتقة من مادة «تبه» وتعني الحيرة، كما تطلق على الضلال في صحراء سيناء إذ تاه بنو إسرائيل فيها مدة أربعين سنة، وحُرموا خيرات الأرض.
- ذكرت قصة تمرّد بني إسرائيل والغضب الإلهي عليهم، وتيههم في الصحراء في الفصل الرابع من سفر الأعداد في التوراة.
- يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالَ لَهُمْ: ﴿أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ فلم يدخلوها حتى حرّمها عليهم وعلى أبنائهم، وإنما دخلها أبناء الأبناء»^(١). (بمعنى أنّ دخول الأرض المقدسة لم يتمّ طيلة وجود الآباء والأبناء على قيد الحياة).
- ونقرأ في حديث شريف: «لتركبن أمتي سنة بني إسرائيل»^(٢).

□ العدد أربعون ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ عدد رمزي، وهو يستعمل في الغضب واللفظ الإلهيين على السواء. لقد ذهب النبي موسى ﷺ إلى جبل الطور ليأخذ ألواح التوراة فاعتكف هناك ٤٠ ليلة، وفترة تيه بني إسرائيل ٤٠ سنة.

□ أحياناً يستلزم إصلاح الجيل الجديد هلاك الجيل القديم واندثاره، ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَبْتَهِتُونَ فِي الْأَرْضِ﴾، لذا لا بدّ لزبانية الحكم الفرعوني الذين لم يقدّروا موسى حقّ قدره أن يرحلوا عن هذه الدنيا، ليحلّ محلّهم جيل جديد عاش في فضاء رحب وعرف مشاكل الحياة الصحراوية ليثمن الحياة في المدينة وفي ظلّ القادة الإلهيين. ورد في الحديث أنّ هؤلاء قد ذهبوا عن الدنيا في أرض «التيه» وجاء أبناؤهم ودخلوا الأرض المقدّسة.

التعاليم:

- ١ - عقوبة الفرار من المعركة هي الحرمان، ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾.
- ٢ - التيه نوع من العذاب للفاسقين، ﴿يَبْتَهِتُونَ فِي الْأَرْضِ﴾.
- ٣ - يجب حرمان القاعدين والفارين من الجبهات من بعض المزايا والإمكانات، ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾.
- ٤ - الأنبياء يحملون هموم الناس، ﴿فَلَا تَأْسَ﴾.
- ٥ - لا تأخذك بالفاسقين رحمة، ﴿فَلَا تَأْسَ﴾؛ فمعاينة المجرم كالدواء المرّ عاقبته في نهاية الأمر سلامة الفرد والمجتمع.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٢٧)

إشارات:

□ لعلّ المقصود بتلاوة النبأ بالحقّ هو أنّ هذه القصة وردت محرّفة ومشوبة بالأساطير والخرافات في التوراة، فيما يسردها القرآن الكريم بالحقّ وكما وقعت.

□ جاء في الروايات أنَّ هابيل كان صاحب ضرع، وكان قابيل صاحب زرع، وقرب هابيل كبشاً من أفاضل غنمه، وقرب قابيل من زرعه ما لم ينقُ فتُقبَل قربان هابيل ولم يُتقبَل قربان قابيل^(١). والقرآن الكريم يقول: ﴿لَنْ نَأْكُلَ آلِهَ حَتَّى تُفِئُوا مِنَّا يُحِبُّونَ﴾^(٢).

□ يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَوْحَى إِلَى آدَمَ أَنْ يَدْفَعَ الْوَصِيَّةَ وَاسْمَ اللَّهِ الْأَعْظَمَ إِلَى هَابِيلَ، وَكَانَ قَابِيلُ أَكْبَرَ مِنْهُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ قَابِيلَ. فَغَضِبَ فَقَالَ: أَنَا أَوْلَى بِالْكَرَامَةِ وَالْوَصِيَّةِ. فَأَمَرَهُمَا أَنْ يَقْرَبَا قَرَبَاناً بِوَحْيٍ مِنَ اللَّهِ إِلَيْهِ، ففعلوا فقبل الله قربان هابيل فحسده قابيل فقتله»^(٣).

التعاليم:

- ١ - ينبغي دراسة تاريخ الماضين واستقاء العبر منه، ﴿وَأَتْلُ﴾.
- ٢ - يجب فصل التاريخ عن الأساطير ﴿بِالْحَقِّ﴾ فقصة قربان هابيل وقابيل ليست أسطورة بل حقيقة واقعة.
- ٣ - أصل المسألة هو التقرب إلى الله تعالى، لا تقديم القرابين، فلتكن القرابين ما تكن، ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾؛ لاحظ أنَّ كلمة ﴿قُرْبَانًا﴾ جاءت في صيغة التنكير.
- ٤ - أن يكون الإنسان ابن نبي لا يفيد في قبول أعماله أو ردّها. والدليل على ذلك أنه تُقبَل من هابيل ولم يُتقبَل من قابيل، ﴿فَنُقِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَلْ مِنْ الْآخَرِ﴾.
- ٥ - تاريخ القتل وسفك الدماء على الأرض بدأ مع تاريخ البشرية، ﴿نَبَأَ ابْنَى آدَمَ... لَأَقْتُلَنَّكَ﴾.
- ٦ - أحياناً يبلغ الحسد بالإنسان درجة يقتل معها أخاه، ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾.
- ٧ - لا بدّ للجواب من أن يكون منطقياً حتى مع من يهدّد بالقتل، ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ﴾.

٨ - نوايا الإنسان وخصاله لها تأثير في قبول الأعمال أو ردها، ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

٩ - التقوى هي محك قبول الأعمال لا شخصية الإنسان أو طبيعة عمله ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

١٠ - الفرق بين القبول والردّ هو التقوى لا التمييز، ﴿مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ بِإِيدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ
إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾

إشارات:

□ قال هابيل لأخيه: لن أقدم على قتلك، ولكن ليس معنى ذلك أنّه لن يدافع عن نفسه، لأنّ الاستسلام للقاتل يتناقض مع مبدأ التقوى، ﴿مَا أَنَا بِبَاسٍ بِإِيدِي...﴾.

التعاليم:

١ - عند مناقشة الحسود علينا التحدّث إليه بثقة وهدوء، لنطفئ نار حسده ببرد كلامنا ﴿مَا أَنَا بِبَاسٍ...﴾.

٢ - الإحجام عن القتل تكون له قيمة إذا كان من منطلق الخشية من الله لا بدافع العجز والضعف، ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾.

٣ - تقوى الله والخشية منه سبحانه وتعالى تصدّ المرء عن المعصية والاعتداء في أدقّ الظروف، ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾.

٤ - خشية الله هي إحدى ثمار الإيمان بربوبية الله الشاملة، ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾.

٥ - العالم مجلى ربوبية الله تبارك وتعالى، ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِيمِي وَأِنَّكَ فَتَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾^(١)
 ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٢)

إشارات:

□ روي عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام في قوله عليه السلام: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ﴾ أنه قال: «... ثم إن إبليس أتاه وهو يجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق فقال له: يا قابيل قد تُقْبَلُ قربان هايل ولم يُتَقَبَلْ قربانك وإنك إن تركته يكون له عقب يفتخرون على عقبك ويقولون نحن أبناء الذي تُقْبَلُ قربانه فاقتله كيلا يكون له عقب يفتخرون على عقبك فقتله»^(١).

□ ويقول عليه السلام أيضاً: «من قتل مؤمناً متعمداً أثبت الله على قاتله جميع الذنوب وبرأ المقتول منها، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِيمِي وَأِنَّكَ...﴾»^(٢).

□ ليس معنى الآية السكوت على الظالم بغية غفران الذنوب.

□ قال النبي صلى الله عليه وآله: «بدمشق جبل يقال له قاسيون فيه قتل ابن آدم أخاه»^(٣).

□ ونقل عن الإمام زين العابدين عليه السلام قوله: «... فلم يدر كيف يقتله حتى جاء إبليس فعلمه فقال: ضع رأسه بين حجرين ثم اشدخه...»^(٤).

التعاليم:

- ١ - القاتل يحمل آثام المقتول، ﴿تَبُوءَ بِإِيمِي﴾.
- ٢ - في النزاعات، البادئ هو المسؤول عن الأضرار، ﴿بِإِيمِي وَأِنَّكَ﴾.
- ٣ - عاقبة سفك دماء الإخوة دخول النار، ﴿فَتَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾.
- ٤ - الإيمان بالمعاد يقع في صلب المعتقدات الأساس للبشر، ﴿أَصْحَابِ النَّارِ﴾.
- ٥ - القاتل يظلم نفسه، والمقتول، وأسرة المقتول، والمجتمع، في آن معاً، ﴿الظَّالِمِينَ﴾.

(٣) تفسير الدر المنثور.

(١) الكافي، ج ٨، ص ١١٣.

(٤) تفسير نور الثقلين.

(٢) تفسير نور الثقلين.

- ٦ - النفس هي التي تسؤل للإنسان من خلال إلقاء الوسواس وتزيين الفعل، حتى يقع في المعصية، ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ﴾.
- ٧ - بإمكان النفس أن تقتل في داخلها مشاعر الأخوة أيضاً، ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾.
- ٨ - الفطرة الإنسانية الخالصة تأبى القتل وتنفر منه، غير أن النفس تزين هذا الفعل لصاحبها وتدفعه إليه، ﴿فَطَوَّعَتْ﴾.
- ٩ - صراع الحق والباطل بدأ مع بزوغ فجر الإنسانية، ﴿فَقَتَلَهُ﴾.
- ١٠ - اتباع هوى النفس خسران، ﴿فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.
- ١١ - القاتل بين نارين، نار عذاب الضمير، ونار انتقادات الناس وفوق هذا وذاك، فهو يواجه العدالة والقصاص، ولذلك فهو لن يهنأ في حياته، ﴿فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.
- ١٢ - الانتصار والغلبة على الخصم لا تعني دائماً العزة والرفعة، ﴿فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوَاءَ أَخِيهِ قَالَ يَوْتِلَيَّ أُعْجِزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِي سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٦١﴾﴾

إشارات:

□ تفيد الروايات: أن قابيل حين قتل أخاه ترك جثته في العراء حائراً لا يدري ما يفعل بها، فلم يمض وقت حتى حملت الوحوش المفترسة على جثة «هابيل» فاضطر «قابيل» إلى حمل جثة أخيه مدة من الزمن لإنقاذها من فتك الوحوش، وفي تلك الأثناء بعث الله غرابين فاقتهما فقتل أحدهما صاحبه، فحفر له ثم حثا عليه التراب، فلما رآه قال: يا ويلتا، أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب، فصنع مثلما صنع الغراب وقام بدفن أخيه.

□ كان الإنسان البدائي عديم الخبرة لا يملك تجارب، لكن الله تعالى كان يغدق عليه، على الدوام، من أطافه ويطرق متعددة.

□ يقول الإمام زين العابدين عليه السلام: «بعث الله غرايين قتل أحدهما الآخر وهو ينظر إليه، ثم حفر له بمنقاره وبرجليه حتى مكن له، ثم دفعه برأسه حتى ألقاه في الحفرة، ثم بحث عليه برجليه حتى وراه»^(١).

□ وعنه عليه السلام أيضاً: «والذنوب التي تورث الندم قتل النفس»^(٢).

التعاليم:

- ١ - أحياناً تكون الحيوانات مأمورة من قبل الله تعالى، تتحرك بأمره وتسير في الاتجاه الذي يعينه لها، ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا﴾.
- ٢ - كثير من المعلومات التي يملكها البشر مستلهمة من الحيوانات، ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ... لِيُرِيَهُ﴾.
- ٣ - لا بدّ للإنسان من أن يسعى وراء العلم دوماً. المهمّ أن يتعلّم بأيّ وسيلة كانت حتى وإن كان ذلك عن طريق الحيوانات، ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا... لِيُرِيَهُ﴾.
- ٤ - أحياناً يجعل الله سبحانه وتعالى الحيوانات الصغيرة وسيلة لتعليم الإنسان، ليبين له أنّ الغراب أيضاً يمكن أن يكون وسيلة لتعليم البشر، لذا ينبغي عليه ألا يغترّ بنفسه، ﴿غُرَابًا... لِيُرِيَهُ﴾.
- ٥ - يجب دفن الجثة، ولا يجوز حفظها في صندوق، أو تحنيطها، أو حرقها، ﴿فِي الْأَرْضِ... يُؤَرَى سَوَاءً أَخِي﴾.
- ٦ - دفن الكفار غير واجب، وإكرام المؤمن واجب وذلك بدفنه لثلا يكون طعاماً للطير أو السباع، ﴿يُؤَرَى سَوَاءً أَخِي﴾.
- ٧ - الندم دليل على أنّ الفطرة الإنسانية تصبو إلى الحقّ، ﴿فَأَصْبَحَ... النَّادِمِينَ﴾.

(١) تفسير البرهان؛ تفسير راهنما.

(٢) بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٣٧٥.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ ﴿٣٢﴾

إشارات:

□ تذكر الآية الكريمة أنّ قتل إنسان واحد هو بمثابة قتل للجنس البشريّ بأكمله، ولأجل تبين هذه الحقيقة نستعرض عدداً من المفاهيم والملاحظات:

- أ - إنّ عقوبة قتل شخص واحد كعقوبة قتل جميع الناس.
 - ب - حرمة قتل شخص واحد عند الله كحرمة قتل جميع الناس.
 - ج - قتل شخص واحد، هو استخفاف بالمنزلة الإنسانية.
 - د - قتل شخص واحد فيه سلب لأمن جميع الناس واستقرارهم.
- لما كان البشر بمثابة أعضاء الجسد الواحد، نستنتج أنّ قتل أحدهم هو قتل لجميعهم أي للجسد بأكمله.

و - جهنّم مأوى من قتل شخصاً واحداً وكذلك من قتل جميع الناس^(١).

ز - قتل شخص واحد، مقدمة لقتل جميع الأشخاص.

ح - بإمكان إنسان واحد أن يكون مصدر خلق لجيل كامل، إذن فقتله هو بمثابة قتل لجيل بأكمله، (يبدو لنا أنّ هذا المفهوم هو الأنسب).

□ نقرأ في الروايات: «فناء الدنيا بأكملها أهون عند الله من قتل مؤمن واحد»^(٢).

□ ويقول الإمام الصادق (عليه السلام): «من سقى الماء في موضع يوجد فيه الماء كان كمن أعتق رقبة، ومن سقى الماء في موضع لا يوجد فيه الماء كان كمن أحيا

(١) الكافي ج ٧، ص ٢٧١.

(٢) بحار الأنوار، ج ١٠، ص ٣٨٢. أكتُب هذه السطور غداة آخر جمعة من شهر رمضان المبارك من عام ٢٠٠٠م (يوم القدس العالمي)، والتلفاز يعرض مشاهد مروّعة عن المجازر التي ترتكب على يد الصهاينة بحق الشعب الفلسطيني الأعزل.

نفساً، ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾^(١).

□ وبحسب الآيات والروايات، فإنّ هداية الناس وإرشادهم إلى سبيل الحقّ، إنّما هو نوع من الإحياء المعنوي لهم، وفي المقابل، فإنّ إضلالهم يعتبر، على نحو، قتلاً معنوياً لهم. وفي السياق نفسه تبين الآية ٢٤ من سورة الأنفال أنّ دعوة النبي إنّما هي إكسير حياة للناس: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.

□ كما نقل عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «مَنْ أَخْرَجَهَا مِنْ ضَلَالٍ إِلَى هُدًى فَكَأَنَّمَا أَحْيَاهَا وَمَنْ أَخْرَجَهَا مِنْ هُدًى إِلَى الضَّلَالِ فَقَدْ قَتَلَهَا»^(٢).

□ وعنه أيضاً عليه السلام: «نَجَاهَا مِنْ غَرَقٍ، أَوْ حَرَقٍ، أَوْ سَيْعٍ، أَوْ عَدُوٍّ»^(٣). وفي رواية أخرى: «فَإِنْ لَمْ تَطْعُمُوهُ فَقَدْ أَمْتَمُوهُ، وَإِنْ أَطْعَمْتُمُوهُ فَقَدْ أَحْيَيْتُمُوهُ»^(٤).

□ وروي عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «المُسْرِفُونَ هُمُ الَّذِينَ يَسْتَحِلُّونَ الْمُحَارِمَ وَيُسْفِكُونَ الدَّمَاءَ»^(٥).

التعاليم:

١ - أحياناً، تكون الحوادث التاريخية سبباً لنزول الأوامر الإلهية، ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ﴾.

٢ - إنّ مصائر البشر كانت، على مرّ التاريخ، معقودة بنواصيهم، ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾.

٣ - الأحكام الإلهية تنطوي على حكمة وليست عبثاً، ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ﴾.

٤ - إنزال العقوبة والعذاب أمرٌ ضروري للحيلولة دون قسوة القلب ومنعاً لتكرار الحوادث، ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا﴾.

٥ - نفس المؤمن محترمة أيّاً كان عرقه أو بلده، ﴿نَفْسًا﴾.

(٤) الكافي، ج ٢، ص ٢٠٤.

(٥) تفسير نور الثقلين.

(١) مكارم الأخلاق، ص ١٣٥.

(٢) الكافي، ج ٢، ص ٢١٠.

(٣) تفسير البرهان.

- ٦ - شريعة بني إسرائيل أيضاً كانت تتضمن إعدام المفسد، ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا يَغْتَرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾.
- ٧ - الانتحار والإجهاض من أمثلة «قتل النفس» وهما محرمان، ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا﴾.
- ٨ - من يفسد في الأرض أو لا يعير أهمية لأرواح الناس ويقوم بسفك دمائهم، لا يستحق الحياة ويجب أن يعدم، ﴿يَغْتَرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ﴾.
- ٩ - يحلّ قتل الإنسان في حالتين:
- أ - قصاص القتال ﴿يَغْتَرِ نَفْسٍ﴾.
- ب - أو الفساد في الأرض ﴿أَوْ فَسَادٍ﴾.
- ١٠ - قيمة العمل رهناً بالقصد والهدف، فالقتل بهدف الاعتداء، هو قتل للمجتمع ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾، أما القتل من أجل إنزال القصاص العادل، فهو حياة للمجتمع، ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾^(١).
- ١١ - الاعتداء على حقوق الفرد، تهديد لأمن المجتمع وسلامته، ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾، ويجب على الذين يعملون على إنقاذ أرواح الناس كالأطباء، والممرضات، ورجال الإطفاء، والمسعفين، والصيادلة، أن يعرفوا قدر أنفسهم، ﴿فَكَأَنَّمَا أَخْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾.
- ١٢ - من مظاهر المجتمع النابض بالحياة تقديم الإمدادات والمساعدات للمنكوبين وإنقاذ أرواح الناس، ﴿وَمَنْ أَخْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَخْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾.
- ١٣ - لقد شهد التاريخ على الدوام تنكر الناس لتعاليم الرسل وعزوفهم عن تطبيقها، ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُنَا رُسُلًا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾.
- ١٤ - الإنسان مختير، بدليل أن بإمكانه أن ينحرف حتى مع وجود الأنبياء، ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُنَا رُسُلًا بِالْبَيِّنَاتِ... بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

إشارات:

□ ورد في سبب نزول هذه الآية الكريمة أن جماعة من المشركين قدموا إلى النبي الكريم ﷺ وأعلنوا إسلامهم لكنهم - لعدم تعودهم مناخ المدينة - أصيبوا ببعض الأمراض، فنصحهم النبي الكريم ﷺ أن يذهبوا إلى منطقة ذات مناخ جيد من الصحراء خارج المدينة، كانت مرتعاً لإبل الزكاة، وأجاز لهم الانتفاع بلبن تلك الإبل بما يكفيهم، ففعلوا وتعافوا مما كانوا يعانون من الأمراض، لكنهم بدل أن يقدموا الشكر للنبي الكريم ﷺ عمدوا إلى قتل الرعاة المسلمين والتمثيل بهم وسمل عيونهم، ونهب إبل الزكاة وارتدوا عن الإسلام إلى الشرك، فأمر النبي ﷺ بإلقاء القبض عليهم والقصاص منهم بمثل ما ارتكبهوا بحق أولئك الرعاة الأبرياء، وجزاء لهم على جرائمهم فسملت عيونهم وقتلوا، لكي يصبحوا عبرة لغيرهم فلا تسول لأحد نفسه أن يرتكب مثل هذه الجرائم الوحشية البشعة. فنزلت هذه الآية^(١).

□ العقوبات الواردة في الآية هي، في الحقيقة، «حق الله» لذلك لا يمكن للحكومة أو الشعب أن يعفوا أو يغيروا فيها^(٢). وورد في تفسير الميزان أن اختيار أحد الحدود الأربعة المذكورة يقع على إمام المسلمين، وحتى لو عفا أولياء المقتول، فإنه يجب إقامة أحدها.

□ «الجزاء» هو ما فيه الكفاية من المقابلة إن كانت عقوبة أو ثواباً، والمعنى هو، أن العقوبات أو الحدود الأربعة عادلة وكافية لمن يرتكب هذه الجرائم^(٣).

□ إصلاح المجتمع يحتاج إلى سيف ذي حدين، حده الأول إسداء الوعظ والنصح

(٣) تفسير راهنما.

(١) تفسير نمونه، ج ٤، ص ٣٥٨.

(٢) تفسير أطيب البيان.

والإرشاد، وحده الثاني هو الحزم والتصدي الثوري القاطع. (الآية السابقة أصدرت تحذيراً للقاتل وهذه الآية تبين عقوبة الشخص المحارب والمفسد).

□ العقوبة يجب أن تكون في إطار العدل، وذلك لجهة تباين المفسد وطبائع المفسدين وخصوصياتهم، وكذا الحال مع العقوبات، فهي غير متساوية، فمثلاً، إذا بلغ الفساد حدّاً مفجعاً، تكون عقوبته الإعدام، أما إذا كان ذا طبيعة ثانوية وسطحية، فعقوبته نفي المفسد من دياره. وذلك بحسب ما يستشف من الروايات، ومن جملة تلك العقوبات: أن عقوبة القتل هي الإعدام، وعقوبة الإرهاب والترويع هي النفي، أما عقوبة قطع الطريق والسرقة فهي قطع الأيدي والأرجل، بينما القتل وقطع الطريق والسرقة المسلحة فعقوبتها قطع الأيدي والأرجل والصلب^(١).

□ من المعلوم أن تطبيق الأحكام والحدود الإلهية تكون متيسرة فقط في ظل حكومة إسلامية، ما يعني أن لا فصل بين الدين والسياسة.

□ أولئك الذين يخرجون على إمام المسلمين أو الحكومة الإسلامية يندرجون ضمن حكم المحاربة، ﴿يُحَارِبُونَ اللَّهَ﴾^(٢).

□ استناداً إلى الآية ٢٧٩ من سورة البقرة، فإن المرابي يدخل ضمن المحاربين لله ورسوله إذ تقول الآية: ﴿فَأَذْنُوبُ يَحْرِبُ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ذلك أنه بعمله هذا يعرض سلامة الاقتصاد إلى التهديد. كما ورد في بعض الروايات، أن إهانة المسلم والإساءة إليه تدخل في باب محاربة الله: «من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة»^(٣).

التعاليم:

١ - مسؤولية الدولة والحكومة هي المحافظة على أمن المدن، والقرى، والطرق، والتصدي، الحازم للخارجين عن القانون، ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ...﴾.

(٣) بحار الأنوار، ج ٤، ص ٦٥.

(١) تفسير الصافي.

(٢) تفسير في ظلال القرآن.

٢ - محاربة خلق الله محاربة لله، لأن من يعادي الناس كأنه يعادي الله تعالى، ﴿يُحَارِبُونَ اللَّهَ﴾.

٣ - التمرّد على أوامر النبي والتصدي لها، حرب على الله، ﴿يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

٤ - توجد أربع عقوبات لأولئك الذين يعرضون أمن المجتمع إلى التهديد هي: الإعدام، النفي، قطع الأيدي والأرجل من خلاف، والصلب، ﴿يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا﴾.

٥ - المناوئون لولاية رسول الله ﷺ والساعون إلى الانقلاب عليه ومحاربة الحكومة الإلهية، يستحقون أشد العقوبات، ﴿يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ... أَنْ يُقَتَّلُوا﴾.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْرَأُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَلَّا اللَّهُ عَفْوٌ رَجِيمٌ﴾

إشارات:

□ أطلقت الروايات مصطلح «المفسد في الأرض» على من يروّع المسلمين ويشهر السلاح بوجههم حتى وإن لم يُقدم على القتل، وهنا تطرح الآية الكريمة مسألة توبة هؤلاء.

والجدير بالإشارة هو أنّ توبة المحارب والمفسد إنّما ترفع عقوبة التهديد والترويع، فيما تبقى عقوبة القتل والسرقة قائمة، بمعنى أنّ التوبة تؤثر في ما يسمّى بـ «حقّ الله»، أمّا «حقّ الناس» فلا يسقط بالتوبة؛ لأنّه يتوقف على رضا أصحاب الحقّ. فالمحارب له حساب، والقاتل والسارق لهما حساب آخر^(١). بمعنى أنّ المحارب الذي ارتكب جريمة قتل، إذا تاب عن محاربته، فإنّ حكم القصاص يظلّ سارياً عليه. أمّا إذا اقتصر فعله على الترويع والتهديد، ثمّ رجع عنهما وتاب، فإنّ عقوبة المحارب، حيثنذ، تُرفع عنه.

(١) الأمل في تفسير الكتاب الله المنزل.

- العقوبات الإلهية تحمل طابعاً تربوياً وإصلاحياً للفرد والمجتمع، لا طابع الانتقام. من هنا، ينبغي على المذنب أن يتوب، وسيكون لتوبته تأثير.
- بالنسبة إلى رفع العقوبة، لا بدّ من إحراز التوبة الحقيقية للمجرم، كأن يتمّ ذلك من خلال تغيير ملموس يطرأ على أخلاقه أو سلوكه، أو بشهادة شهود عدول - أو ما شابه - يؤكدون توبته وصلاحه.

التعاليم:

- ١ - باب التوبة مفتوح أمام الجميع، ﴿يَحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ... إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾.
- ٢ - للتوبة تأثير إذا كانت قبل التمكن من المجرم والقبض عليه، ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾، الأمر نفسه بالنسبة إلى سائر المعاصي، فالتوبة تكون مفيدة ما لم يحضر صاحبها الموت^(١).
- ٣ - لا بد لنا من اليقين بقبول الله التوبة والمغفرة، ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.
- ٤ - مغفرة الله تعالى مقرونة برحمته لا بالتوبيخ والإهانة، ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿يَتَابِئُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ
لَمَّا كُنْتُمْ تُفْلِحُونَ﴾

إشارات:

- يقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «إِنَّ أَفْضَلَ مَا تَوْسَلُ بِهِ الْمُتَوَسِّلُونَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْإِيمَانُ بِهِ وَبِرَسُولِهِ، وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ فَإِنَّهُ ذُرْوَةُ الْإِسْلَامِ، وَكَلِمَةُ الْإِخْلَاصِ فَإِنَّهَا الْفِطْرَةُ، وَذُرَى الْأُمَّةِ الصَّلَاةُ فَإِنَّهَا الْمَلَّةُ، وَإِتْيَاءُ الزَّكَاةِ فَإِنَّهَا فَرِيضَةٌ وَاجِبَةٌ، وَصُومُ شَهْرِ رَمَضَانَ فَإِنَّهُ جُنَّةٌ مِنَ الْعِقَابِ، وَحِجَّ الْبَيْتِ وَاعْتِمَارُهُ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَيَرْحِضَانِ الذَّنْبَ، وَصَلَةُ الرَّحِمِ فَإِنَّهَا مَثْرَاءٌ فِي

المال ومنسأة في الأجل، وصدقة السرّ فإنّها تكفر الخطيئة، وصدقة العلانية فإنّها تدفع ميتة السوء، وصنائع المعروف فإنّها تقي مصارع الهوان...»^(١).

□ أهل البيت عليهم السلام هم حبل الله المتين ووسيلة التقرب إليه، «هم العروة الوثقى والوسيلة إلى الله»^(٢).

□ التوسّل، موضوع تطرّق له أهل السنّة مراراً ووردت روايات حوله في كثير من مصادرهم مثلاً في «الصواعق» لابن حجر، و«السنن» للبيهقي، و«الصحیح» للدارمي، و«وفاء الوفاء». وفي السياق نفسه، يمكن الإشارة إلى الآيات ٦٤ من سورة النساء، و٩٧ من سورة يوسف، و١١٤ من سورة التوبة، كأدلة على التوسّل.

التعاليم:

١ - طريق السعادة والفلاح ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ يمرّ عبر الإيمان ﴿ءَامِنُوا﴾، والتقوى ﴿اتَّقُوا﴾، والشفاعة ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾، والجهاد ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾.

٢ - لبلوغ شاطئ الفلاح، يجب ترك المعاصي ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ والقيام بالطاعات ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾.

٣ - أعمال الخير تشكل جسراً إلى السعادة، شرط أن لا نعمل على نفس هذا الجسر بخطايانا وذنوبنا، ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقِيلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ ﴿٣٧﴾

إشارات:

□ أبواب النجاة سوف تُغلق بوجه الكافرين في يوم القيامة، فلن يكون لهم نصيب

من الرحمة الإلهية؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد خصّ أهل التقوى بها دون غيرهم، ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾^(١)، كما إنهم لن يحظوا بالشفاعة، فهي للذين رضي الله عنهم، ﴿لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾^(٢)، علاوة على ذلك لن يذوقوا الموت أبداً، بمعنى أنهم سيخلدون في النار، ولن يجابوا إلى طلبهم بالموت، ﴿وَنَادُوا بِمَلِكٍ لِيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَرْكُوتُونَ﴾^(٣).

التعاليم:

- ١ - أهمية المال تقتصر على هذه الدنيا، إذ لن تكون له فائدة في الآخرة، ﴿مَا نُفِئَلُ...﴾.
- ٢ - في يوم القيامة لن تقبل الفدية في المحكمة الإلهية، ﴿لِيَقْتَدُوا... مَا نُفِئَلُ...﴾.
- ٣ - العوامل الرئيسة للسعادة هي الإيمان، والتقوى، والجهد، وكلها موجودة في أعماق الإنسان، لا في خارجه (المال والثروة)، ﴿لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا... مَا نُفِئَلُ مِنْهُمْ...﴾.
- ٤ - عذاب الكافرين لن يُرفع بفدية، ولن يسقط بمضي الوقت، ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا...﴾.
- ٥ - من لم تنفعه كل هذه البراهين والمواعظ في الدنيا للخروج من ظلمات الشرك والجهل، لن يخرج كذلك من عذاب جهنم في الآخرة، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ...﴾.

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

إشارات:

□ «النكال» هو الأمر الرادع الواقعي، وأصله: قيد الدابة وحديدة اللجام. والمعنى

(١) سورة الأعراف: الآية ١٥٦.

(٣) سورة الزخرف: الآية ٧٧.

(٢) سورة طه: الآية ١٠٩.

هو أن الحكمة من تشريع القوانين الجزائية في الإسلام هي من أجل الردع لا الانتقام. و«النكال» هي العقوبة التي تطبق لتكون عبرة للآخرين^(١).

□ في هذه الآية، بدأ سبحانه بالسارق قبل السارقة بعكس حكم الزنا في الآية الثانية من سورة النور، إذ بدأ بالزانية قبل الزاني، ولعلّ هذا يرجع إلى أنّ السرقة غالباً ما تصدر عن الرجل، بينما في الزنا يكون الدور الرئيس فيه للمرأة المستهترّة الخليعة.

□ ورد في كتب التاريخ أنّ المرحوم الشريف المرتضى سُئل قبل ألف سنة في البيت الشعري التالي:

يد بخمسٍ مئینِ عَسَجِدِ وُدَيْتَ ما بالها قُطِعت في ربع دينار؟
فأجاب رحمه الله قائلاً:

عزّ الأمانة أغلاها وأرخصها ذلّ الخيانة فافهم حكمة الباري

□ بحسب الروايات الواردة في هذا المجال، فإنّ حدّ السرقة يتحقّق بقطع أربعة أصابع من اليد اليمنى للسارق فقط، على أن يبقى الإبهام والكف. كما لا تقطع يد السارق إلّا في ربع دينار فصاعداً (ربع مثقال من الذهب). وأن تتمّ السرقة من مكان محفوظ كالدار أو محلّ الكسب، لا الأماكن العامة مثل المضاف، والحمامات، والمساجد. كما ينبغي أن يكون السارق مطلقاً على حدّ السرقة أي قطع اليد، وإلّا فلا تقطع يده. كما لا يشمل الحدّ إذا سرق موادّ غذائية بدافع الاضطرار في زمن الجفاف أو المجاعة. بطبيعة الحال، حتى في الحالات التي لا تقطع يد السارق، ثمة عقوبات أخرى أتت المصادر الفقهية على بحثها فاطلبها في مظانّها^(٢).

□ وفي الخبر عن رسول الله ﷺ «أسوأ السرقة الذي يسرق صلاته»، قالوا: وكيف يسرق صلاته؟ قال: «لا يتمّ ركوعها ولا سجودها»^(٣).

□ من المعلوم أنّ تطبيق الأحكام يحتاج إلى حكومة، وسلطة، ونظام، وأجهزة،

(٣) تفسير القرطبي.

(١) قاموس القرآن.

(٢) تفسير الصافي.

- ومؤسسات إدارية، ومن هنا نقول: إنَّ الإسلام دين حكم وسياسة.
- الإسلام يشدّد على أهميّة ووجوب العمل وإدارة حياة الفقراء من خلال بيت المال، والأقارب، وصناديق القرض الحسن، والمؤسسات التعاونية وغيرها من المؤسسات الإجتماعية؛ ولكن مع ذلك لا يجوز اعتبار الفقر مبرراً أو إذناً بالسرقة^(١).
- النظام الجزائي الديني عاجز عن التصدي لظاهرة السرقة لأنّ حلوله تقتصر على السجن والغرامة المالية.
- قطع يد السارق بمثابة إنذار دائم وراذع للحدّ من معاودته الانحراف هو والآخرين، ﴿فَأَقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾.

التعاليم:

- ١ - عقوبة السارق والسارقة متشابهة، ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾.
- ٢ - لا بدّ من المحافظة على أمن المجتمع بشكل حازم، ﴿فَأَقْطَعُوا﴾.
- ٣ - العقوبة والغرامة الثقيلة رادعان يمنعان ارتكاب السرقات، ﴿تَكْلَأُ﴾.
- ٤ - تُولي القوانين الجزائية الإسلامية أهميّة لمعاقبة المجرم إلى جانب حصول العبرة للآخرين، ﴿تَكْلَأُ﴾.
- ٥ - عندما نقيم الحدود الإلهيّة يجب أن لا نتأثر بالمشاعر والعواطف، ﴿فَأَقْطَعُوا﴾.
- ٦ - نعلم أنّ حكم قطع يد السارق يصدره القاضي أو الحاكم، لكننا نلاحظ أنّ الله سبحانه وتعالى يخاطب المؤمنين في هذه الآية بقوله: ﴿فَأَقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ إشارة إلى ضرورة أن يمهد هؤلاء الأجواء المناسبة لإقامة الحدود الإلهيّة.
- ٧ - الملكية الخاصّة والأمن الاجتماعي مهمّان لدرجة تستحقّ معها التضحية بيد السارق من أجل صيانتهم، ﴿فَأَقْطَعُوا﴾.

- ٨ - تطبيق السلطة يجب أن يكون بشكل مدروس، ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.
- ٩ - حكم قطع يد السارق يشكل مظهراً لعزة الله وحكمته، ﴿فَأَقْطَعُوهَا... عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.
- ﴿فَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

إشارات:

- تقوم أركان الإسلام على العقوبة إلى جانب الإرشاد، والتربية، والرحمة. عرفنا في الآية السابقة حدّ السارق، وهنا تتناول الآية الركن الثاني وهو دعوته إلى التوبة والرجوع إلى الله الغفور، وإصلاح ما بدر منه بالعودة عن غيّه، ليعيد الله تعالى ألطافه على عبده.
- إذا تاب مرتكب السرقة قبل اعتقاله وأعاد الأموال المسروقة إلى أصحابها، فسوف تسقط عنه العقوبة في الدنيا وفي الآخرة^(١)، ولكن بعد القبض عليه، يتوجب تنفيذ العقوبة، فيما تكون التوبة ليوم القيامة.
- جاء في الحديث الشريف: أن امرأة سرقت على عهد رسول الله ﷺ فقطعت يدها اليمنى. فقالت: هل لي من توبة يا رسول الله؟ قال: «نعم، أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك!»^(٢).

التعاليم:

- ١ - طريق العودة عن الذنب وإصلاح ما فات مفتوح دائماً أمام العاصي، ﴿فَن تَابَ﴾.
- ٢ - لا تقتصر التوبة على الندم الباطني، بل يجب أن تقترن بإصلاح المفاسد السابقة، ﴿وَأَصْلَحَ﴾.
- ٣ - إذا تاب الإنسان، فإن الله تعالى يتوب عليه، ﴿يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾.
- ٤ - السرقة ظلم للنفس والمجتمع، واعتداء على أمن المجتمع، ﴿بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾.

٥ - يجب أن نؤمل المجرم وندعوه إلى طريق الله تعالى، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ... عَفْوَ رَحِيمٌ﴾.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

التعاليم:

- ١ - حاكم الكون هو من يملك الحق في وضع القوانين للكون، ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ... لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.
- ٢ - فليعلم المجرمون أنه لا مفر لهم سوى العودة إلى الله، ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.
- ٣ - لا يحتاج الله تعالى إلى توبة العبد، فهو يملك الوجود برمته، ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.
- ٤ - يجب أن يبقى الإنسان في حالة بين الخوف والرجاء، ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.
- ٥ - العفو أم العذاب، كلاهما مظهران لقدرة الله تعالى، ﴿يُعَذِّبُ... وَيَغْفِرُ... عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿يَأْتِيهَا الرِّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكَفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ بِحَرْفٍ مِنَ الْكِتَابِ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِهِمْ فَلَوْبَهُمْ هُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

إشارات:

□ قيل في سبب نزول الآية: إن علماء اليهود كانوا يتجنبون اللقاء المباشر مع النبي

الكريم ﷺ ﴿لَمْ يَأْتُوكَ﴾، فأرسلوا وفداً من اليهود والمنافقين إليه علّهم يجدون في أحكام الإسلام ما يطابق أحكام توراتهم المحرّفة وما كانوا يبغيون إليه، فإذا كانت أقوال النبي الكريم مطابقة لأقوالهم أخذوا بها، وإن لم تكن كذلك تركوها. فجاء وفد المنافقين واليهود إلى النبي الكريم ﷺ، وأصغوا إلى كلامه بدقّة ليقوموا بعد ذلك بتلفيقه وإطلاق الشائعات بشأنه، ﴿سَتَمُوتُ لِكَذِبٍ﴾.

التعاليم:

- ١ - يتألّم الأنبياء لأحوال الضالين، ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزُنُكَ﴾.
- ٢ - الكفر مضمار يتسابق فيه فريق، وفي كل لحظة يوغلون في كفرهم أكثر فأكثر، ﴿يُكْسِرُونَ فِي الْكُفْرِ﴾.
- ٣ - إذا كان الأعداء يسارعون في كفرهم ونفاقهم، فلماذا يتوانى المسلمون عن حقّهم؟ ﴿يُكْسِرُونَ فِي الْكُفْرِ﴾.
- ٤ - النفاق مدعاة لزيادة الكفر، ﴿يُكْسِرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ... بِأَفْوَاهِهِمْ﴾.
- ٥ - الإيمان تسليم في القلب، لا تصريح باللسان، ﴿ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾.
- ٦ - يسمو الإيمان حينما يستقرّ في سويداء القلب، ﴿وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾.
- ٧ - القلب مستقرّ الإيمان، ﴿وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾.
- ٨ - المنافقون واليهود معاً كانوا يسعون إلى هدف واحد، ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ... وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾.
- ٩ - ليس الإصغاء مهماً بل الباعث، ﴿سَتَمُوتُ لِكَذِبٍ﴾.
- ١٠ - الكفار عملاء وجواسيس في أوساط المسلمين، فلا ينبغي للدعاة أن يعتقدوا حسن النية في جميع المستمعين، ﴿سَتَمُوتُونَ لِقَوْمٍ ءَاخِرِينَ﴾.
- ١١ - التحريف هو الخيانة الثقافية لليهود، ﴿يَحَرِّفُونَ الْكَلِمَ﴾.
- ١٢ - الوشاية عمل بعيد عن التقوى، ومن المسائل الخطيرة، ﴿سَتَمُوتُونَ لِكَذِبٍ... يَحَرِّفُونَ﴾.

- ١٣ - لكل كلمة سماوية منزلة خاصة، ﴿مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾.
- ١٤ - يجب علينا التسليم لأوامر الله تعالى، لا أن تكون الأحكام الإلهية مسيرة لأهوائنا، ﴿فَخُذُوهُ... فَأَحْذَرُوا﴾^(١).
- ١٥ - المعصية تسقط استحقاق الإنسان في الهداية، ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾.
- ١٦ - المنافقون محرومون من شفاعة النبي الكريم ﷺ، ﴿فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً﴾.
- ١٧ - حتى رسول الله ﷺ لا يملك شيئاً للمتعصبين المعاندين الذين يتبعون أهواءهم، ﴿فَلَنْ تَمْلِكَ﴾.
- ١٨ - نزول الغضب الإلهي هو بسبب سوء تصرفات الإنسان وارتكابه الأعمال القبيحة، ﴿سَتَعُولُ لِلْكَذِبِ... لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَظْهَرَ قُلُوبُهُمْ﴾.
- ١٩ - القلب المغلق واللجوج، محروم من أن يمنح من الطاف الله تعالى، ﴿لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَظْهَرَ قُلُوبُهُمْ﴾.
- ٢٠ - عذاب الدنيا لا يقارن بهول عذاب الآخرة، ﴿فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.
- ٢١ - للمنافقين خزي في هذه الدنيا، وفي يوم القيامة ينتظرهم عذاب عظيم، ﴿فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.
- ﴿سَتَعُولُ لِلْكَذِبِ أَكْثَلُونَ لِلْحُحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(٢)

إشارات:

□ ورد في التفاسير: أن رجلاً وامرأة من اليهود ارتكبا الزنا وكلاهما محصن، فجاؤا إلى النبي الكريم ﷺ، عليهم يجدون حكماً مخففاً عما هو موجود في

(١) أحياناً يرجع الناس إلى مرجع التقليد، أو العالم الديني، أو المحكمة، أو القانون الذي يوافق أهواءهم وميولهم، والآية الكريمة تنهى عن هذا الأمر.

التوراة (وهو الرجم)^(١)، ولم يكونوا يعلمون أن حكم الزنا هو نفسه في الإسلام، ولما وجدوا تطابق حكم القرآن والتوراة في الزنا، أبوا القبول بما حَكَم به النبي الكريم ﷺ، فنزلت الآية الكريمة لتبين هذا الموضوع^(٢).

□ «السُّحْتُ»، بحسب الروايات، هو أخذ الهدية أو الرشوة في إزاء القيام بعمل ما^(٣)، والسحت في اللغة يقال للمحظور الذي يلزم صاحبه العار^(٤).

□ «سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ» إمّا أن تعني أنهم كانوا يستمعون كلام النبي ﷺ لا لأجل طاعته بل بقصد أن يجعلوه وسيلة لتكذيب النبي والافتراء عليه، أو المقصود أن عامة اليهود كانوا يستمعون إلى أكاذيب أخبارهم وزعمائهم مع علمهم بزيفها وتحريفها.

□ تخاطب الآية الكريمة النبي الكريم ﷺ بالقول: إنّ أخبار اليهود يسعون إلى إلحاق الأذى بك، في حين أنك تحمل همّ الدين وتفكر في مسؤولية المجتمع الإسلامي، فإن رأيت مصلحة في الإعراض عنهم فافعل ولا تهتمّ لما يفعلون، ﴿وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرُّكَ شَيْئًا﴾.

التعاليم:

١ - أخبار اليهود كانوا مرتشين، ﴿أَكْثَلُونَ لِلْسُّحْتِ﴾، وعامتهم كانوا يتوقون إلى سماع الأكاذيب والأباطيل، ﴿سَمْعُونَ لِلْكَذِبِ﴾. لعلّ تكرّر عبارة ﴿سَمْعُونَ لِلْكَذِبِ﴾، في آيتين متتاليتين فيه إشارة إلى أنّ هذه المسألة أصبحت، شيئاً فشيئاً، عادة لهم ونهجاً ثابتاً.

٢ - التعايش بين المسلمين وأهل الكتاب كان كبيراً لدرجة أنّ أفراد هذه الطائفة كانوا يأتون إلى النبي الكريم ﷺ ليقضي فيما بينهم، ﴿جَاءُوكَ﴾.

٣ - علاوة على مسؤولية النبوة، كان النبي الكريم ﷺ يحمل على عاتقه عبء الحكومة أيضاً، ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾.

(١) تمّ توضيح حكم الزنا في التوراة، سفر الشريعة، الباب ٢٣.

(٢) تفسير نمونه، ج ٤، ص ٣٨١. (٣) وسائل الشيعة، ج ١٧، ص ٩٥.

(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني.

- ٤ - يمتلك الأنبياء صلاحيات إلهية في مجال الحكم والقضاء يوظفونها حسبما يرون، ﴿فَأَحْكُم... أَوْ أَعْرِضْ﴾.
- ٥ - حدود الحكومة الإسلامية تشمل أهل الكتاب أيضاً، ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾.
- ٦ - إذا ما تمّ اختيار الحاكم الإسلامي للفصل بين البلدان غير الإسلامية فعليه أن يراعي العدل، والشجاعة، والصراحة، في أحكامه بشكل كامل، ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾.
- ٧ - يجب أن لا يتأثر القضاء بمسائل العرق، والبلد، والانحياز، للحزب، والأهواء الشخصية، والتهديدات، ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾.
- ٨ - تعتبر العدالة دائماً قيمة إلهية ومع كل جماعة أو طائفة، ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٣)

إشارات:

□ كما بيّنا في الآية السابقة، فإنّ اليهود، وعلى الرغم من وجود التوراة عندهم وما تحتويه من أحكام تجيب عن تساؤلاتهم، كانوا يأتون إلى النبي الكريم ﷺ، علّهم يجدون عنده عقوبة مخففة.

التعاليم:

- ١ - ليست كلّ التوراة محرّفة، ﴿وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾.
- ٢ - ليت أهل الكتاب كانوا ملتزمين أحكام كتابهم المقدّس، ﴿وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾.
- ٣ - ما يهمّ أيّ جماعة هو تخفيف القانون لا الإيمان بالقانون وأداء الواجب، لذلك، فإنّ اليهود على الرغم من وجود التوراة بين أظهرهم، إلا أنهم كانوا

يأتون إلى النبي الكريم ﷺ للبحث عن عقوبات مخففة، ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾.

٤ - علامة الإيمان هي التسليم للقانون، ﴿وَمَا أَوْلَيْكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّسُولُونَ وَالْأَخْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَأَخْشَوْنَ وَلَا تَسْتُرُوا بِأَيْدِي ثِمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١١﴾﴾

إشارات:

□ «رباني» من «ربان»، وهو المرابي. وبحسب بعض، فإنها تقال لمن أحكم ارتباطه بالله وأصبح ذا صبغة إلهية وانشغل بإصلاح الآخرين وتربيتهم.

□ روي عن الإمام علي عليه السلام قوله: «أنا رباني هذه الأمة»^(١). وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «الربانيون، هم أهل بيت النبي ﷺ»^(٢).

□ «الحبر» على وزن (فكر) تعني الأثر المستحسن، وجمعه «أخبار»: لما يبقى من أثر علومهم في قلوب الناس، ومن آثار أفعالهم الحسنة المقتدى بها. وقد لقّب ابن عباس بـ «خبر الأمة».

□ يقول رسول الله ﷺ: «من حكم في درهمين بحكم جورٍ ثم جبر عليه كان من أهل هذه الآية، ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾»^(٣).

التعاليم:

١ - على الرغم من إيماننا بأن التوراة محرّفة، إلا أنه يجب علينا احترام الكتب السماوية الأصيلة، ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾.

٢ - لقد نزلت التوراة على النبي موسى عليه السلام ولكن جميع الأنبياء والعلماء من بعده

(٣) تفسير الصافي؛ الكافي، ج ٧، ص ٤٠٨.

(١) تفسير المراغي.

(٢) تفسير الصافي.

أَمُرُوا أَنْ يُحْكَمُوا بِمَا جَاءَ فِيهَا، ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ﴾.

٣ - يجب الإيمان بالشرائع المستندة إلى الوحي، (من شروط قدرة الأنبياء على الحكم والقضاء هو إيمان الناس)، ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ﴾.

٤ - الأنبياء لا يأتون بالأحكام من عند أنفسهم، بل هم يخضعون لحكم الله تعالى، ﴿أَسْلَمُوا﴾.

٥ - الإسلام أن يسلم العبد وجهه لله تعالى، وهو دين جميع الموحدين، وقد وُصف أنبياء بني إسرائيل أيضاً بـ ﴿أَسْلَمُوا﴾ كما ورد في هذه الآية الكريمة ﴿النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾.

٦ - العلماء في كل أمة هم المسؤولون عن تطبيق الأحكام الإلهية في الناس، ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ... وَالرَّبَّنِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾.

٧ - يجب مراعاة التسلسل التراتبي، الأنبياء في المقدمة، ثم يليهم الأئمة، فالعلماء، ﴿النَّبِيُّونَ... وَالرَّبَّنِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾.

٨ - أرسل إلى اليهود أنبياء عديدون، ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ...﴾.

٩ - تحتوي التوراة على تشريعات في القضاء والحكم، وكانت تشكل محور القضاء، ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ﴾.

١٠ - تشع الهداية والنور في المجتمع حين يُحكم بكتاب الله ويُقضى بموجبه، ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ﴾.

١١ - سبيل المحافظة على الكتب السماوية هو أن يتم الاستناد إليها في العمل، والقضاء، والحكم، ﴿يَحْكُمُ بِهَا... بِمَا أَسْتَحْفِظُوا﴾؛ والمقصود بالاستحفاظ، هو المحافظة من جميع النواحي.

١٢ - يجب على العلماء أن يكونوا حافظين للدين، ﴿بِمَا أَسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾.

١٣ - القضاء مسؤولية العلماء، ﴿يَحْكُمُ بِهَا... وَالرَّبَّنِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا أَسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾.

١٤ - يحمل العلماء والقضاة رسالتين عظيمتين هما:

- أ - أن لا يغيروا أحكام الله خوفاً من الناس، ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ﴾.
 ب - ألا تزل أقدامهم أو يكتموا الحق طمعاً في مال الدنيا، ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِمَا بَيْنَ يَدَيْكُمْ قَلِيلًا﴾.

١٥ - الانحراف عن رسالة القضاء كفر، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

١٦ - يتطلب القضاء الصراحة، والجرأة، والحزم، وألا يتأثر القاضي بالتهديد أو التهويل والتضليل، ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ﴾.

١٧ - الخشية من الله هي الضمانة لعدالة القضاء، ﴿يَحْكُمُ... فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَأَخْشَوْنَ﴾.

١٨ - التحريف، السكوت، الكتمان، الحكم بغير ما أنزل الله، خسران حتى وإن كان الثمن الحصول على الدنيا كلها، ﴿وَلَا تَشْتَرُوا... ثَمَنًا قَلِيلًا... فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾، وذلك لأن متاع الدنيا قليل^(١).

١٩ - اقتباس قوانين الشرق والغرب في ظل وجود شريعة سماوية كفر، فضلاً عن أن تلك القوانين ليس لها أي اعتبار، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

٢٠ - من توفرت فيه صفات القاضي الحقيقي، ثم أعرض عن تحمل مسؤولية القضاء فقد كفر، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

٢١ - من الأخطار التي يخشى على العلماء التأثر بها، السكوت والكتمان في مقابل الطواغيت، وبيعهم دينهم للأغنياء، وممارستهم التضليل، ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ... وَلَا تَشْتَرُوا﴾.

٢٢ - الجبن والطمع يجعلان العالم متهاوناً في حفظ دينه وصيانة كتاب الله، ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ... وَلَا تَشْتَرُوا بِمَا بَيْنَ يَدَيْكُمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

(١) ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا نَعْمُ أَنْتُمْ كَذِبٌ مِّنْكَ حَتَّىٰ نَحْكُمَ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ عَلَىٰ آلِهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ مَتَّعَ قَلِيلًا وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ آيَةٌ ﴿١١٧﴾، سورة النحل: الآيتان ١١٦ - ١١٧.

٢٣ - الكسب الحاصل من القضاء الباطل هو كسب غير مشروع، ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِئَانِي﴾.

٢٤ - الخوف والطمع هما سبب الانحراف في القضاء، وانحراف القضاء هو مدعاة للكفر، ﴿فَلَا تَخْشَوْا... وَلَا تَشْتَرُوا... فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

﴿وَكَبَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾

إشارات:

□ ذكرت الآية السابقة أن التوراة هدى ونور، وهنا تشرع الآية للقصاص، ربما أمكن الجمع بينهما بالقول، إن القصاص في المجتمع يفضي إلى النور والهداية، ويعضد هذا الرأي آية كريمة أخرى تقول: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَى الْأَنْبِيَاءِ﴾^(١).

□ تسمية العين والأذن في تشريع القصاص جاء من باب ذكر الأمثلة، ذلك أن لكل عضو قصاصاً^(٢).

□ سئل الإمام الصادق عليه السلام في هذه الآية فقال: «يُكَفَّرُ عَنْهُ مَنْ ذَنُوبِهِ بِقَدْرِ مَا عَفَا»^(٣).

□ لم يوجد في التوراة قانون «الدية»؛ فالمجرم أمام خيارين إما القصاص أو العفو، حتى جاء الإسلام فشرع الدية كحل ثالث^(٤).

التعاليم:

١ - كل البشر من أي طائفة، أو عرق، أو قبيلة، فقيرهم وغنيهم، سواسية أمام

(١) سورة البقرة: الآية ١٧٩.

(٢) الكافي، ج ٧، ص ٣٥٨.

(٢) تفسير أطيب البيان.

(٤) تفسير القرطبي.

القانون^(١)، ﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾.

٢ - حكم القصاص كان مشرعاً في الأديان السابقة أيضاً^(٢)، ﴿وَكَبَّنا عَلَيْهِمَ فِيهَا﴾، فالإسلام والأديان الأخرى تجمعهم تشريعات متشابهة.

٣ - الصدقة ليست إنفاقاً مالياً فحسب، بل تشمل أيضاً، على نحو ما، العفو والصفح عن المجرم، ﴿فَمَنْ تَصَدَّقْ بِهِ﴾.

٤ - العفو عن المجرم، يستجلب العفو الإلهي ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾، وربما كان المقصود هو أن عفونا سيكون كفارة لذنوب المجرم، ولن يُعَذَّب في يوم القيامة بسبب عفونا هذا^(٣).

٥ - تقترن القضايا الجزائية في الإسلام دائماً بالقضايا الأخلاقية، ﴿وَكَبَّنا عَلَيْهِمَ فِيهَا... قِصاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقْ بِهِ﴾.

٦ - الغرامة المالية والحبس وحدهما لا يمكن أن يشكلا عاملاً رادعاً للمجرم عن معاودة الجريمة، ﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾.

٧ - إذا لم تطبق أحكام الله تعالى، فسرعان ما يشيع الظلم في المجتمع، ﴿وَمَنْ لَّا يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

﴿وَقَفَّينَا عَلَى آثَرِهِمْ يُعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآيَنَّهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٤٦)

إشارات:

□ القرآن الكريم يهدي المتقين، ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(٤) وكذلك الإنجيل هو كتاب هداية وموعظة لمن يخشى الله، ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

□ وردت كلمة «هُدًى» مرتين في هذه الآية الكريمة، في الأولى تطرح دلائل

(١) طبعاً، هناك فوارق حكيمة في حكم القصاص لكل من الرجل والمرأة، ورد تفصيلها في كتب الفقه.

(٢) التوراة، سفر الخروج، الأبواب ٢١، ٢٣، ٢٦.

(٣) تفسير الميزان. (٤) سورة البقرة: الآية ٢.

الهداية لعموم الناس - أي هداية عامة -، وفي الثانية تشير إلى الهداية التي تكون باعثاً لهداية المتقين بصورة خاصة وتكاملهم.

□ ﴿فَقَيْنَا﴾ مشتقة من «تقفية»، وهو اتباع الأثر.

□ قد يكون المراد بـ ﴿مُصَدِّقًا﴾ أن المواصفات والعلامات الخاصة للنبي عيسى عليه السلام مطابقة للعلامات التي ذكرها التوراة بشأنه، فيكون المعنى: أن النبي عيسى عليه السلام وعلاماته يصدق بعضهما بعضاً.

□ جاء في إنجيل متى (الفصل ٥، الإصحاح ١٧): لا تظنوا أنني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل.

□ الكتب المقدسة التوراة والإنجيل والقرآن الكريم «نور».

□ يصف الله العزيز الحكيم في الآية ١٥ من هذه السورة القرآن بأنه نور، ﴿جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ﴾.

ويقول عز من قائل في الآية ٤٤ بأن التوراة نور، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾.

وفي هذه الآية يقول تعالى: إن الإنجيل نور، ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾.

التعاليم:

١ - مصدر الأنبياء وكتبهم المقدسة واحد، ومسيرهم أيضاً إنما نحو هدف واحد، فهم يصدقون بعضهم بعضاً، ﴿مُصَدِّقًا﴾.

٢ - صحيح أن الأنبياء والكتب السماوية جاءت لهداية جميع الناس، ولكن وحدهم المتقون الذين يهتدون بهذا النور، ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَّا يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ

فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾

إشارات:

□ استخدم القرآن الكريم الكلمات «ظالمون»، و«فاسقون»، و«كافرون»، للتعبير

عن الذين يمتنعون عن الحكم بما أنزل الله من شرائع. فهؤلاء كفار لجهة امتناعهم عن تطبيق شرائع الله، وفاسقون لخروجهم عن دائرة مسؤولياتهم، وظالمون بسبب ظلمهم المتهمين.

□ توجه الآيتان ٤٤ و ٤٥ خطابهما إلى اليهود بسبب تحريفهم لشريعة الله، وتصفانهم بأنهم كفار وظالمون لبيعهم الدين بثمان بخس، وتوبخانهم لأنهم استبدلوا خشية الله تعالى بخشية الناس: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾؛ وظلموا وما زالوا الأفراد والمجتمع في حقوقهم: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، فيما تصف الآية النصاري بالفاسقين لأنهم أخطأوا بعدم الحكم بالإنجيل، (لأنهم سكتوا عن القصاص أو باعوا دينهم كما فعل اليهود)، ولذلك فهم لم يخرجوا عن دائرة الحق.

التعاليم:

- ١ - معيار تمييز الحق من الباطل في الأديان الإلهية هو ما أنزل الله تعالى، ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾.
- ٢ - يحتوي الإنجيل على شرائع وقوانين حكومية، ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾.
- ٣ - من لم يحكم بما أنزل الله، لأي سبب كان، أو عدل عن حكم الحق، فهو فاسق، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ... فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّئًا عَلَيْهِ قَاعَكُمْ لِيَتَّبِعُ الْإِنسَانُ أَوَامِرَ اللَّهِ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ هُمَ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخَلِّفُونَ﴾ (٤٨)

إشارات:

□ «الشرعة» في اللغة: الطريق الموصل إلى النهر. و«المنهاج»، الطريق الواضح

البين. يقول ابن عباس: «شرعة» هي ما ورد في القرآن الكريم من أحكام، و«المنهاج» هي سنة النبي الكريم ﷺ^(١). و«مهيمن» تعني عالياً عليه وحافظاً، وصائناً.

□ التصديق السماوي للتوراة والإنجيل لا يعني بقاءهما إلى الأبد، بل يعني انسجام جميع الكتب السماوية وتساوق مضامين بعضها مع بعض الآخر، ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

□ تتحد الأديان في الأصول والمبادئ وتتفرع في «الشرائع»، كالبحر الذي تصب فيه أنهار وجداول متعدّدة. فالدين والشرعة هما الطريق الذي يأخذ بأيدينا نحو الحياة الإنسانية الحقيقية، بيد أنه في كل عصر تكون السيادة لشرعة واحدة فقط.

التعاليم:

- ١ - القرآن الكريم كله حق ومنزه من أي باطل، ﴿الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾.
- ٢ - القرآن الكريم كان مدوناً منذ عصر النبي الكريم ﷺ، ﴿الْكِتَابَ﴾.
- ٣ - القرآن صائن أصول ومبادئ الكتب السماوية الأخرى، ﴿وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾.
- ٤ - يمكن الحكم بين أهل الكتاب بموجب القرآن الكريم، ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾.
- ٥ - الخطر الذي يتهدد القادة هو اتباع أهواء الناس، ورمي الحق وراء ظهورهم، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾.
- ٦ - أحد أساليب الامتحان الإلهي ظهور شرعية جديدة ليتبين من يتبعها ومن يكفر بها وييدي تعصّباً تجاهها، ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً... لِيَبْلُوكُمْ﴾.
- ٧ - احتاج الناس على مدار التاريخ إلى إرشاد الأنبياء وهدايتهم، ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾.

٨ - فلنتسابق في فعل الخيرات بدلاً من التضيق السلبي وقبل فوات الأوان، ﴿فَاسْتَيْقُوا الْخَيْرَاتِ﴾.

٩ - يجب أن يكون محور المسابقات وغايتها هو القيام بأعمال الخير والمسائل الروحية والمعنوية، ﴿فَاسْتَيْقُوا الْخَيْرَاتِ﴾.

﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّهُ يَرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ (٤٩)

إشارات:

□ المقصود بالفتنة في ﴿يَفْتِنُوكَ﴾، هو التآمر لحرف النبي الكريم ﷺ. أما في سبب نزول الآية الكريمة فقد قيل: إن رهطاً من وجهاء اليهود قالوا: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه، فأتوه فقالوا: يا محمد، إنك عرفت أنا أحبار اليهود وأشرافهم وساداتهم، وإننا إن اتبعناك اتبعنا اليهود ولم يخالفونا، وإن بيننا وبين قومنا خصومة، فنحاكمهم إليك، فتقضي لنا عليهم ونؤمن لك ونصدقك، فأبى ذلك، وأنزل الله عز وجل فيهم هذه الآية.

التعاليم:

- ١ - القضاء من شؤون النبوة ولوازمها، ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُمْ﴾.
- ٢ - شريعة الله تعالى هي أساس القضاء والحكم، ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾.
- ٣ - تتسع ولاية النبي الكريم ﷺ لتشمل، مضافاً إلى المسلمين، اليهود والنصارى أيضاً، ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُمْ﴾.
- ٤ - القضايا المهمة والخطيرة تقتضي ضرورة التكرار والتذكير باستمرار، كما هو الحال مع هذه الآية الكريمة إذ تكررت فيها عبارة ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُمْ﴾...
- ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ في الآيتين السابقة والحالية.
- ٥ - اتباع رغبات الناس وأهوائهم أحد أكبر الأخطار التي تتهدد القاضي والحاكم، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾.
- ٦ - في النذر الإلهية تحصين وعصمة للأنبياء، ﴿وَاحْذَرْهُمْ﴾.

- ٧ - احذروا التسلل الثقافي للأعداء، ﴿وَاحْذَرُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكَ﴾.
- ٨ - إذا كان رسول الله ﷺ يخشى على نفسه خطر المؤامرات، فما بالك بالآخرين؟ ﴿وَاحْذَرُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكَ﴾.
- ٩ - ترك بعض الأحكام الإلهية يمكن أن يُنظر له كعلامة على اتباع أهواء الناس، ﴿أَنْ يَقْتُلُوكَ عَنْ بَعْضٍ...﴾.
- ١٠ - المناوئون أيضاً يرتاحون لبعض الأحكام الإلهية، لذا، فخطر الإعراض والتحريف قائم بالنسبة للبعض الآخر من الأحكام، ﴿عَنْ بَعْضٍ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾.
- ١١ - يجب أن نقضي طبقاً لما جاء به الوحي، حتى وإن توقعنا إعراض بعض الناس، ﴿وَأَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ... فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾.
- ١٢ - الغاية لا تبرر الوسيلة، فلا ينبغي أن نقضي بالباطل من أجل أن يدخل فريق من الناس في الإسلام، (تأمل شأن النزول).
- ١٣ - النذر الصاعقة مثل ﴿وَلَا تَنْجِ... وَاحْذَرُهُمْ... يَقْتُلُوكَ﴾ دليل صدق النبي الكريم ﷺ في إبلاغ الوحي، وإلا، فهل يُعقل أن يخاطب أحد نفسه بهذه الحذية والجدية.
- ١٤ - الإعراض عن النبي الكريم سبب للسقوط ومدعاة لنزول العذاب الإلهي، ﴿أَنْ يُصِيبَهُمْ بَعْضُ ذُنُوبِهِمْ﴾.
- ١٥ - إعراض الكافرين سببه فسقهم، إذ لا نقص في الشريعة الإلهية، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا... لَفَنَسِفُونَ﴾.

﴿أَفَحُكْمَ الْجَهْلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾

إشارات:

- الشريعة الأفضل هي التي يتوافر مشرّعها على الشروط الآتية:
- أن يكون مطلقاً على جميع أسرار الكون والإنسان، راهناً ومستقبلاً.
 - أن لا يكون له أي هدف نفعي.
 - أن يكون منزهاً عن كل خطأ، سهواً أو عمداً.

• أن لا يهاب أي قوة.

• أن يصبو إلى تحقيق الخير للجميع.

ومعلوم أن هذه الشروط لا يتوافر عليها إلا الله سبحانه وتعالى. فالقرآن الكريم يقول: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا﴾، وكل حكم وضعي مخالف لحكم الله هو حكم جاهلي، ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾. (ذلك أن معظم هذه القوانين وضعت على أساس الأهواء، والمخاوف، والأطماع، والجهل، والأخطاء، والأوهام، والعلم المحدود).

التعاليم:

- ١ - بعض المشركين وطائفة من أهل الكتاب طلبوا من النبي الكريم ﷺ أن يحكم طبقاً لقوانين الجاهلية، ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْتَغُونَ﴾.
- ٢ - الفسوق والمعاصي تسوق الإنسان نحو الطبائع والثقافة الجاهلية، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٥١﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾.
- ٣ - الذين يصرفون نظرهم عما لديهم من أحكام إلهية ويتجهون نحو القوانين الوضعية، إنما يسرون في مسير الجاهلية، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا... أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْتَغُونَ﴾.
- ٤ - لا تقتصر الجاهلية على عصر بعينه، بل متى ما قطع الناس ارتباطهم بالله تعالى فذاك هو عصر الجاهلية، ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْتَغُونَ﴾.
- ٥ - العقل والضمير أفضل حكم وأعدل محكمة ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا﴾.
- ٦ - الأولى بالذين يرمقون ببصرهم القوانين الوضعية ويعتبرونها سبيل الكمال، أن يعيدوا النظر في إيمانهم وبقينهم، ﴿لَقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فإِنَّهُ مِنَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾

إشارات:

□ تسمية الآية الكريمة اليهود والنصارى جاء على سبيل المثال لا الحصر، إذ، من البديهي، أنه لا يجوز القبول بولاية أي كافر.

□ يُسْتَشَفُّ من سائر آيات القرآن الكريم أَنَّ الاغتذاء من طعام أهل الكتاب (عدا اللحوم)، أو الزواج المؤقت من نسائهم، أو التعامل معهم والتعايش على قاعدة السلم الأهلي، كل ذلك جائز، ما يعني أَنَّ آيًّا من هذه الأمور لا يدخل ضمن مفهوم التولي أو القبول بسلطتهم.

التعاليم:

- ١ - الله سبحانه وتعالى يريد من عباده المؤمنين أن يكونوا عند حسن ظنه، ﴿يَأْتِيَا آلَ لَيْثٍ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا...﴾.
- ٢ - التبرؤ من الأعداء من شروط الإيمان، ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا...﴾.
- ٣ - الإسلام دين سياسة، ولا يقف عند الأحكام الشخصية فحسب، ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَةَ أَوْلِيَاءَ﴾.
- ٤ - حين ينهى القرآن الكريم عن الاستعانة بالكفار، فإنه، من باب أولى، يحرم القبول بولاية أهل الكتاب والكفار وسلطتهم في مجال العلاقات والسياسة الخارجية، ﴿لَا تَتَّخِذُوا...﴾.
- ٥ - لا نقبل بولاية الكفار والأعداء لأنهم لا يفكرون إلّا في أبناء عقيدتهم، ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾.
- ٦ - الخلافات بين اليهود والنصارى شديدة، بيد أنهم متحدون لسحق الإسلام، ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾.
- ٧ - الكفار أوفياء لمواثيقهم، لكنهم ليسوا كذلك حين يتعلق الأمر بالمسلمين، ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَةَ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ...﴾.
- ٨ - البلاد الإسلامية التي تتولى الكفار وتقبل بهيمنتهم تحسب عليهم، ﴿فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾؛ إذا أحب الإنسان أي شخص أو طائفة فإنه منهم.
- ٩ - لا نتولى الكفار، ولا نتولى من يتولاهم، ﴿فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾.
- ١٠ - القبول بولاية الكفار يعني قطع حبل ولاية الله تعالى، ﴿فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.
- ١١ - الاستفواء بالكفار ظلم، ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْمِيَةً ۖ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْيُنُهُمْ فَاَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ۝٥٢﴾

إشارات:

□ الذين في قلوبهم مرض هم ضعاف الإيمان المشككون في حقية رسالة النبي الكريم ﷺ، أو بعض العقائد الدينية^(١).

□ ثمة أوجه ثلاثة حول تفسير الآية الكريمة هي:

أ - عندما انتصر المسلمون وافتضح المنافقون، قال المؤمنون بدهشة: أليس

هؤلاء هم الذين أقسموا أيماناً غليظة أن ينصروكم؟

ب - بعد انتصارهم، يقول المؤمنون الحقيقيون لبعضهم: ألم يُقسم هؤلاء مرضى القلوب أنهم ناصرونا؟ لقد لمسنا كذب مدعاهم.

ج - لقد أقسم هؤلاء الذين في قلوبهم مرض بأنهم سوف ينصرون اليهود والنصارى، فهل استطاعوا حقاً نصرتكم يا أهل الكتاب؟

التعاليم:

١ - كان النبي الكريم ﷺ يشهد المحاولات المفضوحة لبعض المسلمين من ضعاف الإيمان وتسابقهم للالتحاق باليهود والنصارى والتحالف معهم، ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ﴾.

٢ - مرضى القلوب هم التجسيد الحي لأولئك الذين حرموا الهداية الإلهية إذ تراهم يسارعون للانضمام إلى الكفار وعقد التحالفات معهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ... الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾. حرف الفاء في «فَتَرَى» استثنائية تشير إلى أن الظالمين في الآية السابقة هم مرضى القلوب المقصودون في هذه الآية.

(١) تفسير راهنما (التفسير المرشد).

- ٣ - مرضى القلوب ضعاف الإيمان، يسارعون في عقد التحالفات مع الأعداء الكفرة، ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ﴾.
- ٤ - يريد ضعاف الإيمان والمنافقون أن يتماهوا الكفار، ﴿يُسْرِعُونَ فِيهِمْ﴾، لا أن ينضموا إليهم، «يسارعون إليهم».
- ٥ - لا اجتهاد ولا تحرّي للمصلحة في مقابل النص والحكم الصريح لله تعالى، ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ... أَوْلِيَاءَ... يَقُولُونَ نَخْشَى﴾.
- ٦ - الباعث على عقد التحالفات الذليلة مع القوى الكبرى هو ضعف الإيمان والخشية من غير الله تعالى، ﴿يَقُولُونَ نَخْشَى﴾.
- ٧ - فليأمل المسلمون بالنصر، وانتشار الإسلام، وفضح المنافقين، وتعريتهم، ﴿فَمَعَى اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ...﴾.
- ٨ - العزة السياسيّة، والقدرة الاقتصاديّة، والنصر العسكري، كلّ ذلك بيد الله تبارك وتعالى وفيض من عنده، ﴿أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾.
- ٩ - لا تتولّوا الكفار لكي يفيض الله تعالى عليكم من مدده، ﴿لَا تَتَّخِذُوا... أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾.
- ١٠ - عاقبة النفاق والتبعية للكفار الحبط، والفضيحة، والعار، ﴿نَذِيرِينَ﴾.
- ١١ - ليس كلّ قَسَمٍ دليل محبة وصداقة، لذا، لا تتخذوا بالأقسام، ﴿أَهْلُؤَلَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنْهُمْ لَكُمْ﴾.
- ١٢ - التبعية للأجانب تستتبع مذمة المؤمنين وملامتهم، ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهْلُؤَلَاءَ... إِنْهُمْ لَكُمْ﴾.
- ١٣ - تتجلى خسارة الإنسان في تضييعه الأعمال الصالحة، ﴿حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ رَيْدَتِكَ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوِيٍّ مُجِيبِهِمْ وَيُجِيبُونَهُ أَذْلًا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾

إشارات:

□ روي أَنَّ النبي ﷺ سئل عن هذه الآية فضرب بيده على عاتق سلمان فقال: «هذا وذووه»، ثم قال: «لو كان الدين معلقاً بالشرى لئاله رجال من أبناء فارس»^(١).

□ نَبَّهت الآيات السابقة إلى مسألة خطر تسلط الكفار والمنافقين على المؤمنين، وهنا تتحدث الآية عن موضوع الارتداد. ربّما تريد الآية أن تشير إلى أَنَّ النفاق وتولي الكفار والقبول بسلطنتهم سوف يؤدي في النهاية إلى الارتداد عن الدين.

□ وعن الإمام الباقر عليه السلام في قوله ﷻ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوِيٍّ مُجِيبِهِمْ وَيُجِيبُونَهُ﴾ أَنَّهُ قال: «علي وشيعته»^(٢).

□ ورد في روايات الفريقين أَنَّ رسول الله ﷺ قال يوم خيبر بعد أن عجز القوّاد من فتح قلعة خيبر: «لأعطينَ هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله»، فبات الناس يدركون أيّهم يُعطّاها، فقال: «أين علي بن أبي طالب؟» ف قيل: هو يا رسول الله يشتكي عينيه، قال: «فأرسلوا إليه»، فعالجه رسول الله ﷺ بوضع ريقه في عينيه، ودعا له، فبرأ كأن لم يكن له وجع، فأعطاه الراية»^(٣).

التعاليم:

١ - على المؤمن أن يفكر في عاقبته، فكم من مؤمن ارتدّ عن الإسلام، ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ رَيْدَتِكَ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوِيٍّ مُجِيبِهِمْ وَيُجِيبُونَهُ أَذْلًا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

(٣) إحقاق الحق، ج ٣، ص ٢٠٠.

(١) تفسير نور الثقلين.

(٢) تفسير فرائد الكوفي، ص ١٢٣.

- ٢ - على الزعيم ذي الضمير الحي أن يضع في حسابه احتمال ارتداد أتباعه، ﴿مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ...﴾.
- ٣ - كفر أو ارتداد فريق من المؤمنين لن يضرّ سبيل الله أو دعوته، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ...﴾.
- ٤ - عامل الارتداد هو الجهل وافتقار المحبة للدين والله، ﴿يَأْتِي اللَّهُ يَفْجَرُ يُجِبُّهُمْ وَيُجِبُّهُمْ...﴾.
- ٥ - لا يحتاج الله إلى إيماننا، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ...﴾.
- ٦ - ينبغي علينا ونحن نمضي في طريق الإيمان وكسر السنن والعادات الجاهلية ألا نخشى اللوم، والتهويل، والدعاية المسمومة للأعداء، وأن لا نستسلم للضغوط، ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ...﴾.
- ٧ - سلوك المسلم الرقة والسماحة مع أخوته في الدين، والشدة والغلظة على الأعداء، فلا إطلاق في أيّ منهما (الرقة والشدة) ﴿أَذَلُّوا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزُّوا عَلَى الْكَافِرِينَ...﴾.
- ٨ - فضل الله تعالى لا ينحصر في الثروة والجاه، بل إنّ محبة الله، والجهاد في سبيله، والحزم في الدين، أيضاً من مظاهر اللطف والفضل الإلهي، ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ...﴾.
- ٩ - المحبة المتبادلة بين الله وعبدته هي من كمال الإنسان، ﴿يُجِبُّهُمْ وَيُجِبُّهُمْ...﴾.
- ١٠ - تصدّوا لليأس والخوف من خلال التبشير باستبدال القوم بقوم آخرين، ﴿مَنْ يَرْتَدَّ... فَسَوْفَ يَأْتِي... وَلَا يَخَافُونَ...﴾.
- ١١ - المؤمن الحقيقي هو الذي يحبّ الله والله يحبه، ﴿يُجِبُّهُمْ وَيُجِبُّهُمْ...﴾.
- ١٢ - المؤمن الحقيقي لا يشعر بالضلالة أبداً في مقابل الكفار، ﴿أَعِزُّوا عَلَى الْكَافِرِينَ...﴾.
- ١٣ - القلب الذي يخلو من حبّ الله، قلب مريض أسير الكفار، أما القلب الذي يطفح بحبّ الله فلا يمكن أسره أبداً، ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ... يُجِبُّهُمْ وَيُجِبُّهُمْ... أَعِزُّوا عَلَى الْكَافِرِينَ...﴾.

١٤ - الإسلام ينتشر، فلا تشغلنا السلبات عن النظر إلى الإيجابيات، ﴿مَنْ يَرْتَدَّ... يَأْتِكُ اللَّهُ﴾.

١٥ - راية الإسلام سوف يحملها قوم مجاهدون أشداء يحبون الله، ﴿يَأْتِي اللَّهُ يَفْزَحُ يَحْبِبُهُمْ وَيُجَاهِدُهُمْ... أَعَزَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

١٦ - المؤمن الحقيقي لا تؤثر فيه الحرب النفسية، ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾.

١٧ - لا انتهاء لفضل الله تعالى، بيد أن الله يعطي كلاً بحسب ما تقتضيه حكمته، ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

١٨ - لطف الله تعالى بعبده يكون عن علم وإحاطة، ﴿وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿إِنَّا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ ذَاكِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾

إشارات:

□ قيل في سبب نزول الآية: سأل سائل في المسجد فلم يعطه أحد فرفع السائل يده إلى السماء وقال: اللهم اشهد بأنني سألت في مسجد رسول الله ﷺ فلم يعطني أحد شيئاً، وكان علي عليه السلام راکعاً فأومى إليه بخنصره اليمنى وكان يختم فيها فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم من خنصره، وذلك بعين النبي الكريم ﷺ فلما فرغ من صلاته رفع رأسه إلى السماء وقال: «اللهم موسى سألك فقال: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَبَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَلْ لِي وَزيراً مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَؤُلَاءِ أَخِي ﴿٣٠﴾ أَشَدُّ بِهِ أَرْزَى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾﴾ فانزلت عليه قرآناً ناطقاً: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَجَجْعَلُ لَكَ سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا...﴾ اللهم وأنا محمد نبيك وصفيك اللهم فاشرح لي صدري ويسر لي أمري واجعل لي وزيراً علياً أشدد به ظهري». ومما ينبغي الإشارة إليه هو أن عشرة من صحابة النبي الأكرم ﷺ نقلوا هذه الرواية، وهم: ابن عباس، عمار بن ياسر، جابر بن عبد الله، أبو ذر الغفاري، أنس بن مالك، بلال الحبشي... إلخ، وقد اتفق الفريقان على سبب نزول هذه

الآية^(١). ويقول عمار بن ياسر: بعد أن تصدّق الإمام علي عليه السلام بخاتمه أثناء الصلاة، نزلت هذه الآية الكريمة حيث قال بعدها رسول الله ﷺ: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلَيْهِ مَوْلَاهُ»^(٢).

□ وفي غدير خم، تلا النبي الكريم ﷺ هذه الآية من أجل بيان مكانة الإمام علي عليه السلام ومنزلته الرفيعة^(٣). والإمام نفسه عليه السلام تلا في مناسبات عدّة هذه الآية للدلالة على حقّه^(٤). وأبو ذر الغفاري، أحد الذين شهدوا هذه الواقعة، قام برواية القصة أعلاه في المسجد الحرام على الناس^(٥).

□ لا شك أنّ كلمة «الولي» في هذه الآية لا تعني الناصر أو المحبّ، ذلك أنّ المحبة والنصرة تشمل كلّ المسلمين ولا تقتصر على الذين ينفقون وهم راكعون.

□ يقول الإمام الصادق عليه السلام في قوله ﷺ: «وَالَّذِينَ آمَنُوا...»: «إنّما يعني أولى بكم أي أحقّ بكم وبأموركم وأنفسكم وأموالكم الله ورسوله والذين آمنوا يعني علياً وأولاده الأئمة عليهم السلام إلى يوم القيامة. وصيّر نعمة أولاده بنعمته فكلّ من بلغ من أولاده مبلغ الإمامة يكون بهذه الصفة مثله فيتصدّقون وهم راكعون»^(٦).

□ ينقل المرحوم الفيض الكاشاني حديثاً يفيد أنّ جميع الأئمة المعصومين عليهم السلام تصدّقوا على الفقراء وهم قائمون للصلاة وفي حالة الركوع، ويستدلّ لذلك بورود الكلمات «يقيمون، يؤتون، راكعون» بصيغة الجمع.

□ يقول الإمام الباقر عليه السلام: «أمر الله ﷻ رسوله بولاية علي وأنزل عليه ﴿إِنَّا وَجَدْنَا مُؤْتَقِنًا أَنَّ اللَّهَ رَسُولُهُ﴾، وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ»^(٧).

□ أفضل تعريف هو أن تذكر أوصاف الشخص وخصاله، ليقوم المخاطب نفسه بالبحث عن الشخص الذي تنطبق عليه تلك الأوصاف. (الآية الكريمة استعرضت الأوصاف والأفعال دونما تصريح باسم الإمام علي عليه السلام).

(١) تفسير الميزان.

(٤) تفسير مجمع البيان.

(٢) تفسير الصافي.

(٥) الكافي، ج ١، ص ٢٨٨.

(٣) تفسير الميزان.

(٦) تفسير نور الثقلين؛ الكافي، ج ١، ص ٢٨١.

□ يقول الإمام الصادق عليه السلام: «لقد حضر الغدير اثنا عشر ألف رجل يشهدون لعلي بن أبي طالب عليه السلام فما قدر على أخذ حقه، وإن أحدكم يكون له المال وله شاهدان فيأخذ حقه فإن حزب الله هم الغالبون في علي عليه السلام»^(١).

□ ولاية الفقيه هي امتداد لولاية الإمام المعصوم، فقد جاء في مقبولة عمر بن حنظلة عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجلين من أصحابنا بينهما منازعة في دين أو ميراث فتحاكما إلى السلطان وإلى القضاة أيحل ذلك قال: «من تحاكم إليهم في حق أو باطل فإنما تحاكم إلى الطاغوت وما يحكم له فإنما يأخذ سحتاً وإن كان حقاً ثابتاً لأنه أخذه بحكم الطاغوت، وقد أمر الله أن يكفر به قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِمْ﴾ قلت: فكيف يصنعان؟ قال: «ينظران إلى من كان منكم ممن قد روى حديثنا، ونظر في حلالنا وحرامنا، وعرف أحكامنا، فليرضوا به حكماً فإنني قد جعلته عليكم حاكماً، فإذا حكم بحكمنا فلم يقبله منه فإنما استخف بحكم الله وعلينا ردة، والراة علينا الراة على الله وهو على حد الشرك بالله»^(٢).

التعاليم:

- ١ - الإسلام دين ولاية ودين براءة، جذب وطرد، فالآيات السابقة تنهى عن تولي اليهود والنصارى، وهذه الآية تقول بتولي الله ورسوله والذين يؤتون الزكاة وهم راکعون، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا... إِنَّا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ...﴾.
- ٢ - لم تقل الآية الكريمة «أولياءكم» بل ﴿وَلِيِّكُمْ﴾ وقد يسوقنا ذلك إلى أن جوهر ولاية النبي الكريم ﷺ والإمام علي عليه السلام هو شعاع الولاية الإلهية، ﴿وَلِيِّكُمْ﴾.
- ٣ - عادة ما يذكر القرآن الكريم الصلاة والزكاة معاً، ولكن نلاحظ في هذه الآية أنهما امتزجا في فعل واحد، إيتاء الزكاة أثناء أداء الصلاة، ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾.

٤ - أولئك الذين لا يقيمون الصلاة ولا يؤدون الزكاة، ليس لهم حقّ الولاية على الناس، ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ...﴾، ﴿إِنَّمَا﴾ تفيد الحصر، بمعنى حصر الولاية في أفراد خواص.

٥ - الصلاة لا تشكل مانعاً إذا أردنا مساعدة المحرومين، ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾. إذاً، لا يجوز أن يعود الفقير من عند المسلمين بخفي حنين.

٦ - الولاية لمن يحرص على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ﴿يُؤْتُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ... يُقِيمُونَ﴾ و﴿وَيُؤْتُونَ﴾ تدل على الاستمرار.

٧ - أي ولاية، أو حكومة، أو قimore، عن غير طريق الله أو الرسول أو الإمام، باطلة، ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾ ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر.

٨ - إنّ الاهتمام بخلق الله وفي سبيل الله أثناء الصلاة لا ينقض التماهي مع الصلاة، ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾.

٩ - من لم يهتم بشؤون الفقراء، لا ينبغي له أن يكون قائدكم أو وليكم، ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ... وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾.

١٠ - الأفعال الصغيرة مثل التصدق بالخاتم أثناء الصلاة لا تعتبر مخلّة بالصلاة وبالتالي لا تبطلها، ﴿يُؤْتُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾.

١١ - في الثقافة القرآنية يطلق مصطلح صدقة التطوع على «الزكاة» أيضاً، ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾.

١٢ - تراتب الولايات طولي وليس عرضياً، والولاية على المسلمين تبدأ من الله تعالى فالنبي الكريم ﷺ فالإمام عليه السلام. ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا...﴾.

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾

إشارات:

□ ذكرت الآية السابقة أنّ المقصود بـ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هو الإمام علي والأئمة المعصومون عليهم السلام.

□ ملامح حزب الله كما ترسمها الآية ٢٢ من سورة المجادلة هي:

١ - يؤمنون بالمبدأ والمعاد.

٢ - لا يتولّون أعداء الله.

□ تبين هذه الآية وجوب القبول بولاية الله تعالى ورسوله ﷺ، ثمّ تشرح أنّ المراد من ﴿وَلِيَّكُمْ﴾ في الآية السابقة، هو الحاكم والقائد لا الصديق والناصر، ذلك أنّ في استخدام تعبير «حزب الله» وغلبته، إشارة إلى النظام المقتدر والدولة.

□ «الحزب»، في اللغة الجماعة التي فيها قوّة وصلابة، وكلّ قوم تشاكلت أهواؤهم وأعمالهم^(١).

□ ولما كان النصر متعذراً دون توفّر تشكيلات، وقيادة، وقوّة، ووحدّة، وشجاعة، وغيرها، على هذا الأساس، فإنّ «حزب الله» يجب أن يتوافر على هذه الصفات إن كان يسعى إلى الحاكمية والغلبة.

□ حزب الله هم الغالبون والمتصرون، مضافاً إلى أنّهم المفلحون، ﴿حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾، ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٢).

□ قرأنا في الآية ٥٢ من هذه السورة أنّ طائفة من المسلمين تولّت الكفّار خشية أن يُدالوا، وهنا تشير الآية إلى أنّ حزب الله هم الغالبون، بمعنى أنّ أولياء الكفّار هم المغلوبون، فلا تلحقوا بهم، ﴿فَتَرَى الَّذِينَ... يَسْعَوْنَ فِيهِمْ﴾، ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ... هُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

التعاليم:

١ - حزب الله هم الوحيدون الذين تولّوا الله، ورسوله ﷺ، وأهل بيته ﷺ، ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ... فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ﴾.

٢ - النصر النهائي للذين ارتضوا ولاية الله، والنبى الكريم ﷺ، وأهل بيته ﷺ، ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ... هُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

- ٣ - الله تبارك وتعالى غالب، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾^(١)، ومن يتوَلَّ الله يكن، بالطبع، غالباً أيضاً، ﴿حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.
- ٤ - حزب الله مطمئنون لمستقبلهم بفضل البشارات والوعود الإلهية، ﴿هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ
وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

التعاليم:

- ١ - العذاب الدنيوي لمن يوجهون الإساءة إلى دين الله والمقدسات الدينية هو أن تقطع كل صلة بهم، ﴿لَا تَتَّخِذُوا...﴾، فاحترام المقدسات شرط ضروري.
- ٢ - شرط الإيمان توافر الغيرة على الدين والبراءة من الأشرار، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا...﴾.
- ٣ - السخرية من الدين، والحرب الباردة، والحرب النفسية، من جملة أساليب الأعداء في التصدي للآخرين، ﴿اتَّخِذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا﴾.
- ٤ - التقوى الإلهية تقتضي أن لا نهاب الأعداء ولا نتولاهم، ﴿لَا تَتَّخِذُوا... أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾

إشارات:

□ روي في سبب نزول الآية الكريمة أنَّ جماعة من اليهود وبعضاً من النصارى حين كانوا يسمعون صوت الأذان، أو حينما يرون المسلمين وهم يقيمون الصلاة يبادرون إلى الاستهزاء بهم، لذلك نزلت هذه الآية^(٢).

التعاليم:

- ١ - حذار من التودّد وعقد الصداقات مع الذين يهزأون بالأذان والطقوس الدينية، ﴿لَا تَتَّخِذُوا... وَإِذَا نَادَيْتُمْ﴾.
- ٢ - عدّت الآية السابقة الصلاة الوجه المشرق للدين ومظهره المميّز، وتحدّثت عن الاستهزاء بالدين واتّخاذه هزواً ولعباً، وهنا تطرح الآية الكريمة مسألة الاستهزاء بالصلاة، لكونها وجه الدين ومظهره، ﴿اتَّخِذُوا دِينَكُمْ هُزْواً... وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخِذُوا هُزْواً﴾.
- ٣ - يجب أن يُنادى للصلاة ليجتمع الناس، ﴿نَادَيْتُمْ﴾، فينبغي إقامة الصلاة جهاراً.
- ٤ - يجب أن يُعلن عن الصلاة في المجتمع الإسلامي، ويُنادى إليها ولا يحق لأحد الاعتراض على ذلك، ﴿نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾.
- ٥ - التعاطي المنطقي هو أسلوب العقلاء، أمّا الحمقى فأسلوبهم الاستهزاء والسخرية، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

﴿قُلْ يَتَاهَلْ أَلِكُتِّيبِ هَلْ تَنْقُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ أَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٥٩)

إشارات:

- «تنقمون» مشتقة من مادة «نقمة»، بمعنى تسخطون، وقيل: تكرهون، وقيل: تنكرون شيئاً معيناً باللسان أو بالفعل، كما تأتي بمعنى العقوبة والجزاء^(١).

التعاليم:

- ١ - ينبغي مجادلة المناوئين والتي هي أحسن واستخدام أسلوب الاستدلال الممزوج بالأسئلة التي تثير المشاعر والعواطف، ﴿هَلْ تَنْقُمُونَ مِنَّا﴾.

٢ - إيمان المؤمنين هو سبب عداء الأعداء لهم، ﴿هَلْ تَقِفُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ أَمَنَّا بِاللَّهِ﴾.

٣ - إيمان المسلمين بجميع الكتب السماوية هو ما يشير أحقاد أهل الكتاب ضدهم ويؤلبهم عليهم، ﴿هَلْ تَقِفُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ أَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلُ﴾.

٤ - عداء أهل الكتاب للمسلمين تاريخي ومتجذر، ﴿هَلْ تَقِفُونَ مِنَّا﴾.

٥ - في إزاء مضايقات الأعداء، يجب أن نحافظ على اعتدالنا وعدالتنا وألا نيسم الجميع بالفسق، ﴿أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ﴾.

٦ - التنكر للحق وإيذاء أهله فسق، ﴿فَنَسِفُونَ﴾.

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (٦٠)

إشارات:

□ إن كلمة «مَثُوبَةٌ» وكذلك كلمة «ثواب» تعنيان - في الأصل - الرجوع أو العودة إلى الحالة الأولى، كما تطلقان - أيضاً - لتعنيا المصير والجزاء (الأجر والعقاب)، لكنهما في الغالب تستخدمان في مجال الجزاء الحسن وأحياناً؛ تستخدم كلمة (الثواب) بمعنى العقاب. وفي الآية جاءت بمعنى المصير أو العقاب^(١).

□ أخرى بأولئك الذين يسخرون من الدين والإسلام وصلاة المسلمين، ويؤذون المسلم بسبب إيمانه، أخرى بهم أن يعودوا إلى تاريخهم الأسود والمشين حينما باؤوا بغضب من الله ومُسَخُوا وافتضحوا. صحيح أن اليهود في عصر النبي الكريم ﷺ لم يكونوا في صورة قردة أو خنازير، لكنهم كانوا يعتبرون بني إسرائيل شعباً واحداً، له هوية جمعية واحدة، وكانوا يتباهون بمفاخر أسلافهم

(١) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

وينسبونها إليهم، لذا، فإنَّ الكشف عن هذه الفضائح السابقة كسر لكبريائهم وغرورهم.

□ يعتقد عدد من المفسرين أنَّ اليهود مُسخوا قردة بسبب انتهاكهم حرمة يوم السبت من خلال تحايلهم على الدين وابتداعهم الحيل الشرعية، وأنَّ النصارى مسخوا خنازير بسبب إنكارهم مائدة السماء التي دعا النبي عيسى ﷺ ربّه لينزلها عليهم^(١).

التعاليم:

- ١ - العقوبة الإلهية تقوم على العدل والقسط، وإذا كان فريق من الناس قد مسخوا قردة وخنازير فذلك جزاء بما كانوا يعملون، ﴿مُثَبِّتٌ﴾.
- ٢ - العابدون الطاغوت هم في مصاف الممسوخين، ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقُرْدَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الْطُغُوتَ﴾.
- ٣ - استذكار سوء عاقبة الأشرار عبر التاريخ إحدى وسائل القرآن الكريم في التربية، والإرشاد، والدعوة، ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ﴾.
- ٤ - لا حرمة لمن ينتهك الحرمات، ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ﴾.
- ٥ - العذاب الشديد للانحراف الشديد، ﴿يَشْرَ مِنْ ذَلِكَ مُثَبِّتٌ... وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾.

﴿وَإِذَا جَاءَكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ءَالَهُ أَغْلَرُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ١١﴾

التعاليم:

- ١ - لا يخدعنكم تظاهر الشخص بالإيمان، ﴿قَالُوا ءَامَنَّا... ءَالَهُ أَغْلَرُ﴾ التظاهر بالإيمان لفظاً، لا يعني رسوخه في القلب.
- ٢ - الله سبحانه وتعالى أعلم من الناس بضمائرهم، ﴿وَءَالَهُ أَغْلَرُ﴾.

٣ - فليعلم الذين يتظاهرون بالإيمان نفاقاً أنّ الله عليم بما في صدورهم، ﴿قَالُوا هَآمَنًا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ... وَاللَّهُ أَعْلَمُ﴾.

﴿وَرَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾

إشارات:

□ استكمالاً للآية السابقة التي تحدّثت عن روح الكفر والنفاق التي تسكن أهل الكتاب، تستعرض هذه الآية المفاصد الأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية لهؤلاء.

□ كلمة «سَحَت» تعني - في الأصل - نزع القشرة أو شدة الجوع، ثم أطلقت على كلّ مالٍ غير مشروع، أي محرّم، لا سيّما الرشوة، لأنّ مثل هذه الأموال تنزع الصفاء والمودة عن المجتمع وتزيل عنه البركة والرخاء مثلما يؤدي نزع قشر الشجرة إلى ذبولها وجفافها، وعلى هذا الأساس، فإنّ لكلمة «سحت» معنى واسعاً، وإذا ورد في بعض الروايات مصداق خاص لها فلا يدلّ ذلك على اختصاص الكلمة بذلك^(١).

التعاليم:

١ - ونحن ننتقد سلوك المنحرفين، يجب أن نتحلّى بالعدل والإنصاف، فالآية الكريمة تقول: ﴿كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ لا كلّهم.

٢ - من خصائص المجتمع الإسلامي، التسابق في الخيرات، ﴿يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾^(٢)، فيما ملامح مجتمع الكفر والنفاق التسابق في الفساد ﴿يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.

٣ - أقبح من الفساد الأخلاقي («الإثم»)، والفساد الاجتماعي («العدوان») والفساد الإداري والاقتصادي («السُّحْت»); أقبح من ذلك كله الاعتقاد على ممارسة الفساد والتسابق فيه، ﴿يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ﴾.

كلمة ﴿يُسْرِعُونَ﴾ تدلّ على حالة الاستمرار.

٤ - كم من مدّع للإيمان يحرز قصب السبق في ارتكاب المعاصي، والاعتداء، وأكل المال الحرام، ﴿وَتَرَى... يُسْرِعُونَ﴾.

٥ - أقيح من ارتكاب المعصية، الاستغراق فيها حتى النخاع، ﴿فِي الْإِثْمِ﴾.

٦ - على الرغم من أنّ العدوان وأكل المال الحرام هما من أمثلة الإثم والمعصية، إلا أنّ الآية الكريمة ذكرت هاتين المعصيتين بصورة مستقلة لما فيهما من خطر كبير أو ربّما لشيوعهما في أوساط أهل الكتاب، ﴿يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتِ﴾.

﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتِ﴾

لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٦﴾﴾

إشارات:

□ يقول الإمام علي عليه السلام في آخر خطبة «القاصعة»^(١): «... فَإِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ لَمْ يَلْعَنَ الْقُرْنَ الْمَاضِي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ إِلَّا لَتَرْكِهِمُ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ».

□ «الرّبّانيون» علماء النصارى، و«الأحبار» علماء اليهود.

□ يقول الإمام الحسين عليه السلام في تفسير هذه الآية وسبب سكوت العلماء وتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: «رغبة في ما كانوا ينالون منهم أو رهبة مما يحذرون»^(٢).

□ والملفت للانتباه أنّ الآية السابقة أوردت عبارة ﴿مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ في حديثها عن العصاة، وهذه الآية تستخدم عبارة ﴿مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ لتصف سكوت العلماء. يقول المرحوم الفيض الكاشاني: الفرق بين «يعملون»

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢.

(٢) تفسير راهنما (التفسير المرشد)؛ بحار الأنوار، ج ١٠٠، ص ٧٩.

و«يصنعون» هو أن الصانع هو من يعمل بدقّة ومهارة بحيث يصبح العمل بالنسبة له عادة ومَلَكة.

التعاليم:

- ١ - فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي مسؤولية العلماء بالدرجة الأولى، ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّيُّونَ...﴾.
 - ٢ - صمت العلماء ولا مبالاتهم مقدمة لانتشار الفساد، ﴿وَتَرَى... يُسْرِعُونَ فِي الْآثَرِ... لَوْلَا يَنْهَاهُمُ﴾.
 - ٣ - يجب أن تكون للعلماء سلطة ليتمكنوا، إلى جانب النصيحة والإرشاد، من التصدي للفساد، ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ﴾.
 - ٤ - إذا لم يكن النهي عن المنكر مؤثراً في التصدي للمعاصي، فإنه سيعمل، على الأقل، على كبح جماحه، ﴿يُسْرِعُونَ فِي الْآثَرِ... لَوْلَا يَنْهَاهُمُ﴾.
 - ٥ - علماء أهل الكتاب لم يعملوا حتى بالحد الأدنى من المسؤولية الملقاة على عاتقهم. الآية السابقة ذكرت من جملة ما اقترفوه من معاصي: الإثم والعدوان وأكل السحت، ولكن لم تأت هذه الآية على ذكر العدوان، وربما كان ذلك إشارة إلى أنه إذا لم يكن علماء أهل الكتاب قادرين على التصدي للعدوان، فلماذا لم يقفوا، على الأقل، بوجه الإثم والسحت؟
 - ٦ - جمال العلم يتمثل في إبرازه، وقبحه هو في الصمت والكتمان، ﴿لَيْتَسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.
 - ٧ - صمت العالم أجب من ذنب العاصي، ﴿لَيْتَسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.
 - ٨ - لا يشكل أي من: الجهر بالمعصية، وكثرة العاصين، وسرعة ارتكاب المعاصي، وتعدّد المعاصي عذراً لصمت العلماء، ﴿وَتَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْآثَرِ... لَوْلَا يَنْهَاهُمُ﴾.
- (كلمة «تري» تشير إلى الجهر بالمعصية، وكلمة «كثير» إلى وفرة العدد، وكلمة «يسارعون» إلى السرعة في ارتكاب المعصية، والكلمات «إثم»، «عدوان» و«سحت»، تشير إلى تنوع المعاصي).

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُمْنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْقِتْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْرِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَوْفَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَسَعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾

إشارات:

□ أشارت الآية السابقة إلى تخرصات اليهود ﴿قَوْلُهُمُ الْإِنَّمَا﴾ وعدم تصدي علمائهم لهذه الأعمال، ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمْ﴾، وهذه الآية الكريمة تذكر مثلاً آخر على تلك التخرصات إذ كان اليهود يقولون: يد الله (والعياذ بالله) مغلولة ومقيدة بالسلاسل وأنه لم يعد يستطيع أن يمنحنا القوة والمهابة التي كانت لنا في الماضي.

□ ورد في الروايات أن هذه الآية تشير إلى معتقدات اليهود في القضاء، والقدر، والمصير؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن يد الله في بداية الخليقة كانت مطلقة، لكنه وبعد أن خلق كل شيء غلّت يده وقيدت.

□ يقول الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية: «اعتقد اليهود أن الله قد فرغ من الأمر فلا يزيد ولا ينقص»^(١).

□ ولا بدّ هنا من أن نلفت الانتباه إلى أن كلمة «اليد» في اللغة العربية بالإضافة إلى معناها المعروف وهو عضو جسم الإنسان، فهي ترمز أيضاً إلى السلطة والسطوة، كأن نقول مثلاً: فلان له يد نافذة في هذه المنطقة أو المؤسسة، أو قطعت يده عن بلادنا، أو العين بصيرة واليد قصيرة. كما ورد في بعض الروايات أن الأولياء هم يد الله، أي بمعنى واسطة اللطف الإلهي إلى الناس.

□ يفسر الإمام الباقر عليه السلام قوله ﷺ: ﴿كُلَّمَا أَوْفَدُوا نَارًا﴾... بالقول: «كلما أراد جبار من الجبابرة هلكة آل محمد ﷺ قصمه الله»^(٢).

(١) تفسير نور الثقلين؛ الشيخ الصدوق، التوحيد، ص ١٦٧.

(٢) تفسير العياشي.

□ ويقول العلامة محمد حسين الطباطبائي: حيثما ذكر الفقر والجوع والقحط في القرآن الكريم، أو ذكرت الآيات مسألة القرض الحسن لله قالوا: هذا القحط وهذه التوصية على القرض الحسن دليل على أن يد الله مغلولة.

التعاليم:

- ١ - من أظهر الرضا والقبول بمعاصي الآخرين كمن شاركهم وزرها، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾؛ فعلى الرغم من أن بعض اليهود كانوا يفترون على الله بالقول إنَّ يده مغلولة، إلا أنه نُسب هذا الافتراء إليهم جميعاً بسبب إظهار الرضا.
- ٢ - ينبغي ألا نبرّر قصورنا وعدم كفايتنا، فالشيطان برّر غروره وتكبره بإغواء الله إياه، ﴿رَبِّ يَأْ أَغْوَيْنِي...﴾^(١)، واليهود علّلوا حرمانهم ببخل الله (والعياذ بالله) ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾.
- ٣ - الردّ على الشبهات يجب أن يكون أقوى من الشبهات نفسها ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ... يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾؛ (فهم وصفوا يداً واحدة لله تعالى بالغل، فقال بل يداه مبسوطتان، أي له كمال القدرة).
- ٤ - ينبغي أن يتناسب التوبيخ مع حجم العمل أو شدّته، ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾.
- ٥ - القرآن الكريم نور وهداية للمتقين، وفي المقابل لا يزيد المعاندين الألداء إلا طغياناً وكفراً، ﴿وَلَيَزِيدَنَّ... طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾.
- ٦ - الطغيان والكفر عاملان لزرع بذور العداوة والحقد، ﴿وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ...﴾.
- ٧ - لم يكف اليهود يوماً عن إشعال الفتن، لكنّ الهزيمة كانت لهم بالمرصاد في كلّ مرة، ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾.
- ٨ - كلّ من عند الله، إلقاء العداوة والبغضاء في قلوبهم كعقاب لهم، ومن ثمّ إطفاء نار الحرب، ﴿وَالْقَيْنَا... أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾.
- ٩ - بأعمالنا نحظى بمحبة الله أو نبوء بغضبه وسخطه، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾﴾

التعاليم:

- ١ - كثيرون من أهل الكتاب المعاصرين للنبي الكريم ﷺ كانوا قوماً لا إيمان لهم ولا تقوى، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا﴾.
- ٢ - الإيمان والتقوى يقومان أي انحراف، ويمحوان ما فات من الانحرافات والاعوجاجات، ﴿لَكَفَرْنَا﴾؛ (جاء في الحديث النبوي الشريف: «الإسلام يجب ما قبله»)^(١).
- ٣ - إذا أردنا أن ننهل من الطاف الله تعالى، فيجب أولاً أن نتطهر من ذنوبنا، ﴿لَكَفَرْنَا... وَلَدْخَلْنَاهُمْ﴾.
- ٤ - إن الله ذو عفو ولطف أيضاً، ﴿لَكَفَرْنَا... وَلَدْخَلْنَاهُمْ﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْنَصَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

إشارات:

- بينت الآية السابقة دور الإيمان وأثره في تحقيق السعادة الروحية والأخروية، وهذه الآية تبين دور الإيمان في السعادة الدنيوية وتحقيق الرفاهية الاقتصادية.
- لو أن أتباع الكتب السماوية آمنوا بالقرآن وسلموا له، ولم ينظروا إلى المسألة على أنها استسلام اليهود للعرب، وعرفوا أن الأصول والتعاليم التي جاء بها الأنبياء واحدة، واعتبروا أن الإيمان بما نزل بعد التوراة والإنجيل بمثابة ارتقاء إلى رتبة أعلى وليس نسخاً للشرائع السابقة، لو أنهم سلموا بكل هذا، لأغدق الله عليهم، مضافاً إلى الثواب الأخروي، من نعم الدنيا وأنزل عليهم بركات السماء مدراراً.

□ جرى الحديث في الآية السابقة عن عقيدة اليهود في كون يد الله مغلولة بحسب زعمهم، وهنا تقول الآية: الأخرى بكم أن ترجعوا إلى كتب السماء، ثم احكموا إن كانت يد الله مغلولة أو مبسوطة؟ إن تبدل عظمة اليهود السابقة إلى ذلّ وهوان هو، في الحقيقة، نتيجة طبيعية لكفرهم وتمردهم على الأحكام السماوية وليس ما زعموه من أنّ الضعف والعجز اعترى الذات الإلهية المقدسة (والعياذ بالله) أو أنّ يده أصبحت مغلولة.

□ شبيه هذه الآية، ما ورد في الآية ٩٦ من سورة الأعراف: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾.

□ سؤال: هل إن العمل بالكتب السماوية يؤدي إلى إغداق الرزق والنعم؟
الجواب هو: إما أن يوسع الله الرزق على سبيل الثواب والأجر، أو أن الطرق الطبيعية لكسب الرزق المذكورة في الكتب السماوية نفسها وأنهم سيحصلون عليها في حال عملوا بما جاء في تلك الكتب.

□ كان رسول الله ﷺ يقول: «تفرقت أمة موسى على إحدى وسبعين ملة، سبعون منها في النار وواحدة في الجنة، وتفرقت أمة عيسى على اثنتين وسبعين فرقة إحدى وسبعون فرقة في النار وواحدة في الجنة، وتعلو أمتي على الفرقتين جميعاً بملة، واحدة في الجنة واثنان وسبعون في النار، قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: الجماعات الجماعات». قال يعقوب بن يزيد: كان علي بن أبي طالب عليه السلام إذا حدث هذا الحديث عن رسول الله ﷺ تلا فيه قرأناً: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ وتلا أيضاً: ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ يعني أمة محمد ﷺ^(١).

التعاليم:

١ - الكتب السماوية غير المحرّفة، بمثابة الدستور، والمحور، والدليل، الذي

تهتدي بهديه جميع الحركات، وهي كالراية يجب أن تكون دائماً خفاقة، ﴿أَقَامُوا﴾.

٢ - إذا أردنا دعوة الآخرين إلى الإسلام فينبغي أن لا نمسّ معتقداتهم ومقدساتهم الحقّة بسوء ﴿أَقَامُوا التَّوْرَةَ...﴾.

٣ - تلاوة الكتب السماوية لا تكفي، بل يجب العمل بها أيضاً، ﴿أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾.

٤ - جميع الكتب السماوية لها حرمة وقديسية، ﴿أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾.

٥ - القرآن جاء لكلّ الأمم وليس المسلمين فقط، ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَّبِّهِمْ﴾.

٦ - يهتمّ الإسلام، أيضاً، بتحقيق الرفاهية للناس، ﴿لَا كَلُوا﴾.

٧ - اتّباع التعاليم الدينية، سوف ينعكس على تنظيم الحياة المادية أيضاً، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ... لَا كَلُوا﴾.

٨ - في المنظومة الكونية، يلعب إيمان الإنسان دوراً في خصوبة الأرض الزراعية ونزول المطر وتطوّر الزراعة ووفرة المحاصيل^(١)، ﴿أَقَامُوا التَّوْرَةَ... لَا كَلُوا﴾.

٩ - المجتمع الفاسد لا يكره الإنسان على الانحراف نحو الفساد، فحتى في أوساط الفاسدين يوجد بعض المعتدلين، ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾.

١٠ - العمل بالكتب السماوية يقتضي مراعاة الاعتدال، وعدم التورط في الإفراط والتفريط، ﴿مُّقْتَصِدَةٌ﴾.

١١ - حذار من أخذ جميع أفراد الطائفة، أو العرق، أو المنطقة، أو المذهب، بجريرة بعضهم، ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾.

١٢ - الكثرة ليست دليل حقّ، ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (١٧)

إشارات:

□ تتعلّق هذه الآية، للأسباب التي سيأتي ذكرها، بخلافة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وتنصيبه للولاية في غدير خم حين عودة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من حجة الوداع في السنة العاشرة للهجرة. والملفت في الأمر هو أنّ هذه الآية تتوسّط آيتين تتحدّثان عن موضوع العمل بالكتب السماوية، وربّما كانت إشارة إلى أنّ ثمة وشيجة محكمة تربط بين القائد المعصوم وبين الكتاب السماوي. نعم، وحده الإمام الذي بمقدوره أن يقيم الكتاب السماوي، وفي المقابل فإنّ كتاب الله هو الذي بإمكانه الكشف عن الإمام الحقيقي وتعريفه للناس.

□ يتفق جميع مفسري الشيعة، الذين يستندون إلى روايات أهل البيت عليهم السلام، وبعض مفسري أهل السنة، على أنّ أحد أسباب نزول هذه الآية يعود إلى تنصيب علي بن أبي طالب عليه السلام لولاية وإمامة المسلمين في واقعة غدير خم^(١). والمثير للدهشة أنّ صاحب تفسير المنار ينقل حديث «من كنت مولاه فعليّ مولاه» بسند صحيح وموثق عن مسند أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة، ثمّ يقوم، بحسب وهمه، بالتشكيك فيه عبر طرح استدلالين: الاستدلال الأول، أنّ المقصود بالولاية هو المحبة والصدقة؛ (متناسياً أنّ الصداقة أو المحبة لا تحتاج إلى البيعة وتقديم التهاني وكلّ تلك المراسم التي جرت في غدير خم)، الاستدلال الثاني الذي يطرحه هؤلاء هو: إذا كان علي بن أبي طالب عليه السلام حقّاً قد نُصّب إماماً وخليفة للمسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، فلماذا لم يصرخ بأعلى صوته ليشرح حادثة تنصيبه في غدير خم؟! (هذا في الوقت الذي يتناسى صاحب المنار أنّ كتاب نهج البلاغة يزخر بأهات الإمام علي عليه السلام

(١) التفسير الكبير، الفخر الرازي؛ تفسير المنار.

وشكواؤه من إغماط حقّه، كنت أسمع لو ناديت حياً؛ ولكن لا حياة لمن تنادي^(١).

□ هذه الآية هي الوحيدة في القرآن الكريم التي تخاطب النبي الكريم ﷺ بلغة تهديدية إن هو كتم أو لم يبلغ ما أنزل إليه، فإنّ جهوده في الدعوة إلى دين الله طيلة ٢٣ سنة ستذهب هباءً. إذن، يجب سبر فحوى الرسالة المهمة التي يريد إيصالها بهذه الطريقة الملفتة.

□ يقول النبي الكريم ﷺ للإمام علي عليه السلام: «لو لم أبلغ ما أمرتُ به من ولايتك لحبط عملي»^(٢).

□ تستبطن الآية الكريمة ملاحظات عدّة تشير إلى الوجهة التي يتّخذها مضمونها:

١ - لقد نزلت سورة المائدة المباركة قبيل رحلة النبي الأكرم ﷺ إلى الرفيق الأعلى.

٢ - تذكر الآية عبارة ﴿يَأْتِيهَا الرَّسُولُ﴾ بدلاً من «يا أيها النبي»، وفي ذلك دلالة على وجود رسالة مهمة يحملها للناس.

٣ - الآية الكريمة تستخدم كلمة «بلغ» وهي أكثر تأكيداً من «أبلغ» وتحمل إبلاغاً قطعياً ورسمياً مهماً.

٤ - لقد هذّب النبي الكريم أنّه إذا لم يبلغ هذه الرسالة المهمة فإنّ كلّ جهوده في الدعوة ستضيع.

٥ - تُظمّن الآية الكريمة الرسول الكريم ﷺ وكأنّ أمراً يقلقه وتطلب منه أن يهذئ من روعه وأن لا يخشى الناس لأنّ الله يحفظه من شرّهم.

٦ - لا يخاف النبي الكريم ﷺ على نفسه، فقد انبرى وحيداً لمحاربة عبدة الأوثان، وحمل السلاح ضدّ المشركين في حروب مريّة، فهو ﷺ لا

(١) أكتب هذه السطور في ليلة استشهاد الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام منتصف ليلة الحادي والعشرين من شهر رمضان ٢٠٠١.

(٢) تفسير نور الثقلين؛ الشيخ الصدوق، الأمالي، ص ٤٠٠.

يهاب الأخطار. (لم يخش النبي الكريم شيئاً عندما كان المشركون ينهالون عليه بالحجارة، وأصحابه يتعرّضون لأقسى أنواع التعذيب، فهل يخاف وهو في أواخر العمر ووسط هذا الجمع الغفير من أصحابه)؟!

٧ - تحمل الآية الكريمة رسالة توازي من حيث الأهمية جميع الرسائل طيلة عصر النبوة والرسالة، وإذا لم تبلغ هذه الرسالة للناس، فكأنه عمل على محو جميع الرسائل السابقة.

٨ - لا بدّ أن تكون الرسالة حاملة قضية كبرى وأساس، وإلا فالمسائل الثانوية والشخصية لا تحتاج إلى كلّ هذا التهديد والوعيد، وهذا التسكين والتطمين.

٩ - لا تتعلّق رسالة الآية بموضوع التوحيد، أو النبوة، أو المعاد، لأنّ هذه الموضوعات قد طُرحت في مكة في الأيام الأولى للبعثة، فلا حاجة لكلّ هذه الوصايا في المحطة الأخيرة للعمر.

١٠ - كما إنّ رسالة الآية لا تتناول موضوعات الصلاة، والصوم، والحج، والزكاة، والخمس، والجهاد؛ لأنها أشبعت شرحاً وبياناً طيلة ٢٣ سنة من دعوة النبي الأكرم ﷺ، والناس بدورهم عملوا بها وليس ثمة ما يقلق في هذا المجال.

إذن، ما هو مضمون تلك الرسالة المهمة التي نزلت على النبي الكريم ﷺ في أواخر عمره الشريف؟

في الحقيقة، توجد جمهرة من روايات الفريقين انتشلتنا من هذه الحيرة وأنارت لنا دربنا، تقول هذه الروايات: تحدّث الآية الكريمة عن يوم الثامن عشر من شهر ذي الحجة من السنة العاشرة للهجرة، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ غَدِيرِ حُمٍّ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِشَجَرٍ يُدْعَى الدَّوْحَ فَقَمَّ مَا تَحْتَهُنَّ، ثُمَّ قَالَ: إِنِّي لَمْ أَجِدْ لِنَبِيِّي إِلَّا نِصْفَ عُمَرِ النَّبِيِّ الَّذِي كَانَ قَبْلَهُ وَإِنِّي أَوْشَكَ أَنْ أُدْعَى فَأَجِيبَ فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟ فَقَالَ: كُلُّ رَجُلٍ مِنَّا كَمَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ وَنَصَحْتَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَلَيْسَ تَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ

مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ؟ وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَأَنَّ النَّارَ حَقٌّ، وَأَنَّ الْبَغْتَ حَقٌّ؟ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ بَلَى، فَأَوْمَأَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَى صَدْرِهِ، وَقَالَ: وَأَنَا مَعَكُمْ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: أَنَا لَكُمْ فَرَطٌ، وَأَنْتُمْ وَارِدُونَ عَلَيَّ الْحَوْضِ، وَسَعَتُهُ مَا بَيْنَ صَنْعَاءَ إِلَى بُضْرَى، فِيهِ عَدَدُ الْكَوَاكِبِ قَدْحَانِ مَائَةٍ أَشَدُّ بَيَاضاً مِنَ الْفِضَّةِ، فَاَنْظُرُوا كَيْفَ تَخْلُقُونِي فِي الثَّقَلَيْنِ؟ فَقَامَ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الثَّقَلَانِ؟ قَالَ: الْأَكْبَرُ، كِتَابُ اللَّهِ طَرَفُهُ يَبِيدُ اللَّهُ وَالْثَانِي [الثاني] سَبَبُ طَرَفِهِ بِأَيْدِيكُمْ، فَاسْتَمْسِكُوا بِهِ، وَلَا تَزِلُّوا وَلَا تَضِلُّوا، وَالْأَصْغَرُ: عِثْرَتِي أَهْلُ بَيْتِي، أَذْكَرُكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي فَإِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضِ، سَأَلْتُ رَبِّي ذَلِكَ لَهُمَا، فَلَا تَقْدُمُوهُنَّ فَتَهْلِكُوا، وَلَا تَتَخَلَّفُوهُنَّ عَنْهُنَّ فَتَضِلُّوا، وَلَا تَعْلَمُوهُنَّ فَإِنَّهُنَّ أَعْلَمُ مِنْكُمْ^(١) ثُمَّ أَخَذَ يَدَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا عَلِيٌّ مَوْلَاهُ اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ، وَانْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ وَاخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ^(٢).

ولم يتفرق القوم حتى أعلن رسول الله ﷺ صراحةً تنصيب علي بن أبي طالب عليه السلام خليفة على المسلمين من بعده.

يا للعجب، من له ظلامَةٌ يُنْصَفُ بمجرد أن يأتي بشاهدين اثنين، في حين أن الإمام علياً عليه السلام لم يُنْصَفْ ولم يستطع أن يأخذ حقه على الرغم من وجود عشرات الآلاف من الشهود. يا لحبهم هذه الدنيا وحسدهم، ويا لنيران أحقاد بدر، وخيبر، وحنين، التي تأججت في قلوبهم ضد الإمام علي عليه السلام.

(١) قال الحافظ أبي القاسم سليمان أحمد الطبراني في المعجم الكبير ج ٣ ص ٦٦ قال: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي، حدثنا جعفر بن حميد، حدثنا عبد الله بن بكير الغنوي عن حكيم بن جبير، عن أبي الطفيل، عن زيد بن أرقم عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لكم فرط، وإني لكم واردون عليَّ الحوض، عرضه ما بين صنعاء إلى بصرى، فيه عدد الكواكب قدحان مائة أشد بياضاً من الفضة، فانظروا كيف تخلقوني في الثقلين». فقام رجل فقال: يا رسول الله وما الثقلان؟ فقال رسول الله ﷺ: «الأكبر كتاب الله، سبب طرفه بيد الله، وطرفه بأيديكم فتمسكوا به، لن تزلوا ولا تضلوا، والأصغر عترتي، وإنهم لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض، وسألت لهما ذاك ربي فلا تقدموهما فتهلکا، ولا تعلموهما فإنهما أعلم منكم». أنظر: الحديث ٢٦٨٠ و ٢٦٨١.

(٢) المسترشد في إمامة علي بن أبي طالب عليه السلام، ص ٤٦٧.

□ يقول الإمام الباقر عليه السلام: «بُني الإسلام على خمس: على الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والولاية، ولم ينادَ بشيءٍ كما نودي بالولاية فأخذ الناس بأربع وتركوا هذه»^(١)!

□ أما الإمام الرضا عليه السلام فيقول: «أما بعد قول الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَفْصِلُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ فَإِنَّهُ [النبي الكريم] أزال كلَّ تَقِيَّةٍ بضمنان الله تعالى، وبين أمر الله تعالى، ولكن قريشاً فعلت ما اشتت بعدة وأما قبل نزول الآية فلعله»^(٢).

التعاليم:

١ - يجب أن تتناسب طبيعة الخطاب مع طبيعة الهدف، ذلك أن الهدف هو إبلاغ الرسالة وإيصالها إلى المستمعين، كما إنَّ الخطاب هو، ﴿يَأَيُّهَا الرَّسُولُ﴾.

٢ - اختيار القائد الإسلامي للإمام المعصوم يجب أن يكون من قبل الله تعالى وبأمره، ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾.

٣ - أحياناً يجب أن يكون إبلاغ الرسالة الإلهية بحضور الناس وضمن مراسم عامة يتم فيها أخذ البيعة، فلا يكفي إبلاغ موضوع الولاية خطابياً فقط، بل لا بدَّ أن يقترن ذلك بالفعل. الآية الكريمة تقول: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ﴾ ولم تقل: «إِنْ لَمْ تَبْلُغْ»، فتأمل ذلك جيداً.

٤ - الأحكام والرسائل الإلهية ليست في مستوى واحد، فتارة يكون كتمان حقيقة ما يعادل كتمان جميع الحقائق، ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾.

٥ - في غياب القيادة الحكيمة، يتلاشى الدين وتضل الأمة طريقها، ﴿فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾.

(١) الكافي، ج ٢، ص ١٨.

(٢) تفسير نور الثقلين؛ عيون أخبار الرضا، ج ٢، ص ١٣٠.

٦ - الركن الرئيس في الإسلام هو الإمامة والحكومة، ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغَتْ رِسَالَتَهُ﴾.

٧ - إنكار الولاية نوع من الكفر، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

٨ - الزمان والمكان عنصران مهمّان في الدعوة، إذا ما لاحظنا أنّ هذه الآية الكريمة قد نزلت في اليوم الثامن عشر من شهر ذي الحجة وفي مكان يعدّ مفترق طرق لقوافل الحجّ.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَئِذَا دُعِيتُمْ إِلَىٰ مَائِدَةٍ مِّنْكُمْ فَاكْثُرُوا وَلَكِنْ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ كَفَرُوا فَلَا فَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٤٦)

إشارات:

□ القرآن كتاب سماوي ووسيلة هداية، بيد أنّ بعضاً، وبسبب روح اللجاج والعناد التي تسكنه، عندما تُتلى عليه آيات الله يكشف عن خبثه ودنسه أكثر فأكثر.

□ سئل الإمام الباقر عليه السلام عن قوله ﷺ: ﴿وَلَئِذَا دُعِيتُمْ إِلَىٰ مَائِدَةٍ مِّنْكُمْ فَاكْثُرُوا﴾ قال: «هو ولاية أمير المؤمنين عليه السلام» (١).

التعاليم:

١ - يجب على أهل الكتاب الإيمان بجميع الكتب السماوية، ﴿تَقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم﴾.

٢ - لا يكفي الإنسان أن يدّعي الإيمان، بل يلزم أن يقوم بخطوات عملية، ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا﴾.

٣ - يجب أن تكون شرائع السماء هي المحور وأن تكون لها الحكومة، ﴿تَقِيمُوا﴾.

- ٤ - شخصية الإنسان وقيمه في مدى التزامه بالواجبات الدينية، ﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَقٍّ تُقِيمُوا﴾.
- ٥ - ينبغي علينا عند دعوة الآخرين احترام معتقداتهم الصحيحة، ومن ثم طرح برنامجنا، ﴿تَقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.
- ٦ - الطغيان هو شرارة الكفر، ﴿طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾.
- ٧ - الطغيان والكفر يشتدان تارة ويخفان أخرى، ﴿وَلَيَزِيدَنَّ﴾.
- ٨ - طائفة صغيرة فقط من أهل الكتاب على الطريق الصحيح، ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾.
- ٩ - لا يجوز إبداء الأسى والأسف على ضلال فئة كافرة ولجوجة، ﴿وَلَيَزِيدَنَّ... فَلَا تَأْسَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ وَالنَّصَارَى مِنَ آسَفَاتِ يَوْمٍ يَحْزَنُونَ﴾
صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾

إشارات:

- ذكر «الصابئة» ثلاث مرات في القرآن الكريم إلى جانب اليهود والنصارى، وهم أتباع أحد الأديان السماوية، لكنهم مع مرور الوقت انحرفوا عن مسارهم وذلك بإيمانهم بتأثير النجوم واعتزال الناس والابتعاد عن معاشرتهم، كما إنهم يمارسون بعض الطقوس والعادات الخاصة في حياتهم اليومية.
- على أتباع مختلف الأديان أن يؤمنوا بالدين الجديد، وإلا فإن بعثة الأنبياء اللاحقين ستكون عبثاً وليس لها معنى. لا خيار لليهود، والنصارى، والصابئة، إلا الإيمان بالنبي الكريم كما آمن المسلمون، وأن يعملوا صالحاً، حينذاك لن يمسهم خوف أو حزن.
- من بين جميع الأديان القديمة، تذكر الآية الكريمة اليهود، والنصارى، والصابئة، ويعود ذلك إلى أنهم أتباع الأديان الإلهية، وهم أولى بالإيمان بدعوة الحق.

التعاليم:

- ١ - الأصول المشتركة التي تجمع الأديان السماوية هي الإيمان بالله وبيوم القيامة ورسالات الأنبياء، ﴿مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ...﴾.
- ٢ - معيار السعادة في جميع الأديان السماوية هو الإيمان والعمل الصالح، لا السمعة والفخر، ﴿مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾.
- ٣ - لا ينفصل الإيمان عن العمل، ﴿ءَامَنَ... وَعَمِلَ﴾.
- ٤ - يتحقق الأمن والسكينة الحقيقية في ظلّ الإيمان والعمل الصالح، ﴿ءَامَنَ... وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قُلْنَا جَاءَ هُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ (٧٠)

إشارات:

- لعلّ المقصود بميثاق بني إسرائيل هو نفس مضمون الآية السابقة أي الإيمان بالله، والمعاد، والعمل الصالح، أو أتباع الأنبياء الوارد ذكرهم في الآية ﴿رُسُلًا﴾، أو ربّما المقصود هو الميثاق المذكور في الآية ٩٣ من سورة البقرة والآية ٨١ من سورة آل عمران، أي العمل بما أنزل الله سبحانه عليهم.
- قلنا في تفسير الآية السابقة إنّ مجرد أن يكون المرء من أتباع الديانات السابقة لا ينجيه من عذاب الله، بل يلزمه الإيمان والعمل الصالح. هذه الآية هي، في الحقيقة، مثال على الآية السابقة، إذ إنّ بني إسرائيل، على الرغم من كونهم يتبعون إحدى الأديان السماوية، إلّا أنهم لم يتورّعوا عن ارتكاب أيّ فعلٍ مشين.

□ يُستشفّ من استهلال هذه السورة المباركة بعبارة: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾، وذكرها قصّة الغدير في الآية ٦٧ والتي تتحدّث عن نقض العهود وقتل أولياء الله وتكذيبهم، يُستشفّ من هذه المؤشرات أنّ هذه الآيات وفي إطار فضحها

أساليب بني إسرائيل وألأعيبهم فهي، في الوقت ذاته، تدق ناقوس الخطر للمسلمين لئلا يتجاهلوا رسالة غدير خم.

التعاليم:

- ١ - مضافاً إلى النبي موسى ﷺ، فقد أُرسل إلى بني إسرائيل أنبياء آخرون، ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ رُسُلًا﴾.
 - ٢ - طريق الأنبياء يختلف عن طريق الأهواء النفسية، ﴿جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ﴾.
 - ٣ - الأهواء النفسية لبني إسرائيل هي العامل الرئيس وراء تكذيبهم الأنبياء وقتلهم إياهم، ﴿بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ قَرِيبًا كَذَّبُوا﴾.
 - ٤ - نقض العهود، وقتل الأنبياء وتكذيبهم، والإصرار على اللجاج، والعناد، هي الخصال التي وصمت بني إسرائيل، ﴿قَرِيبًا كَذَّبُوا وَقَرِيبًا يَقْتُلُونَ﴾.
 - ٥ - في المجتمعات الفاسدة تتعرض سيرة المؤمنين إلى الإساءة والتشويه أو يُكذَّبون أو يُقتلون، ﴿قَرِيبًا كَذَّبُوا وَقَرِيبًا يَقْتُلُونَ﴾.
 - ٦ - كان الأنبياء يضجون بأرواحهم في سبيل الله، ﴿وَقَرِيبًا يَقْتُلُونَ﴾.
- ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (٧١)

إشارات:

- يمكن تفسير كلمة ﴿فِتْنَةً﴾ هنا بالامتحان أو العذاب.
- ظنّ بنو إسرائيل أنّ الامتحانات أو نزول السخط والعذاب الإلهي مقتصر على عصر موسى ﷺ وبالتالي فلن يمسه شيء من ذلك، من هنا كانوا منصرفين إلى حياتهم المادية والرفاهية غير آبهين بآيات الله.
- وعن الإمام الصادق عليه السلام في قوله ﷻ: ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ قال:

«حيث كان النبي بين أظهرهم، فعموا وضموا حيث قبض رسول الله ﷺ، ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» حيث قام أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا» إلى الساعة^(١).

التعاليم:

- ١ - الامتحان الإلهي عام، فلا تأمنوا الفتن أبداً أن تصيبكم، «وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً».
- ٢ - يجب أن لا تبنى العقائد على الظن والحدس، «وَحَسِبُوا».
- ٣ - ليس مهماً أن يكون المرء على الطريق المستقيم رداً من الزمن، بل العبرة في حسن الخاتمة، «ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا»، تشير «ثُمَّ عَمُوا» إلى أن بني إسرائيل بعد أن تاب الله عليهم وشملهم بلطفه، ساروا لفترة على الطريق المستقيم، لكنهم عادوا سيرتهم الأولى.
- ٤ - الغرور، والاستعلاء، والظن، والوهم، كلها حُجُب تعمي عيني الإنسان وتَصِمُ أذنيه عن سماع الحقائق، «وَحَسِبُوا... فَعَمُوا وَصَمُّوا».
- ٥ - لا يظن أحد أن بإمكانه ارتقاء السلم دون امتحان، «وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً».
- ٦ - ما أعظم اللطف الإلهي فهو يغمر الإنسان حتى قبل توبته، «فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ».
- ٧ - الله تعالى رحمن، غير أن الإنسان لجوج عنيد، «تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا».
- ٨ - كثرة السالكين ليست دليلاً على حقبة الطريق، «ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ».
- ٩ - إيمان الإنسان بأن الله من فوقه رقيب له تأثير كبير على حياته، «وَاللَّهُ بَصِيرٌ».

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي
لِإِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ
وَمَا وَهُنَا النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ﴾ (٧٢)

إشارات:

- جاء في تفسير مجمع البيان: تقول الطائفة اليعقوبية في الدين المسيحي: لقد تماهت ذات المسيح في ذات الله فأصبحتا شيئاً واحداً.
- توضّح هذه الآية عقيدة بعض المسيحيين الذين يؤمنون بأن الله هو المسيح، وتشير الآية التالية إلى عقيدة التثليث التي تؤمن بها طائفة أخرى من المسيحيين. والملفت في الأمر هو أننا نقرأ في إنجيل مرقس (الباب ١٢، الإصحاح ٢٩) أن عيسى عليه السلام يدعو الناس إلى التوحيد إذ يقول:
- فأجابه يسوع: إن أول كل الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل. الرب إلهنا رب واحد. وفي إنجيل متى أيضاً (في الباب ٦ الإصحاح ٢٤) نقرأ: لا يقدر أحد أن يخدم سيدين، لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر. لا تقدرون أن تخدموا الله والمال.
- ويقول الإمام الصادق عليه السلام في الكبائر: «أكبر الكبائر الشرك بالله»، ثم تلا هذه الآية ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾^(١).

التعاليم:

- ١ - عقيدة حلول الله تعالى في المخلوقات كفر، حتى لو كان ذلك المخلوق أشرف البشر، ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا...﴾.
- ٢ - أتى لمن وُلد من رحم امرأة أن يكون إلهاً؟ ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾.
- ٣ - حذار من الغلو في أولياء الله والأطهار والصالحين، فعيسى نفسه كان يدعو إلى عبادة الله، ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ...﴾.

- ٤ - لن يدخل المشرك الجنة أبداً، ﴿حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ...﴾.
- ٥ - الذين يؤمنون بأن عيسى هو الله، كفار ومشركون وظالمون ولن يدخلوا الجنة أبداً، ﴿لَقَدْ كَفَرَ... مَنْ يُشْرِكْ... وَمَا لَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾.
- ٦ - الشرك بالله ظلم، ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾.
- ٧ - الشفاعة موجودة في يوم القيامة، لكن المشركين محرومون منها، ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾.
- ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٣)

إشارات:

- فتدت الآية السابقة عقيدة حلول الله في المسيح، وتبين هذه الآية انحراف عقيدة التثليث وبطلانها، فكلتاها شرك يجب محاربتها.
- تقول عقيدة التثليث إن الألوهية تتوزع على الأقانيم الثلاثة الله والمسيح والروح القدس (الآب والابن والروح القدس)؛ ولكن يقال: إنه ظهرت في الفترة الأخيرة جماعة من العلماء المسيحيين تنزع عن عقيدة التثليث الاعتبار العلمي^(١).

التعاليم:

- ١ - الإسلام يهتم بانحراف عقائد أتباع الأديان السماوية الأخرى، ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا...﴾.
- ٢ - الشرك وعقيدة التثليث كفر، ﴿لَقَدْ كَفَرَ...﴾.
- ٣ - لن يُعَذَّب جميع الذين آمنوا بعقيدة التثليث، ﴿كَفَرُوا مِنْهُمْ...﴾؛ بل فقط أولئك الذين استمروا عليها حتى بعد دعوة القرآن لهم بالعودة إلى التوحيد.

- ٤ - يجب توجيه الإنذار قبل العذاب، ﴿وَلَنْ لَّا يَنْتَهُوْا﴾.
 ٥ - عاقبة الكفر والشرك هي العذاب الأليم، ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾

التعاليم:

- ١ - يجب التوبة والعودة عن العقائد المنحرفة، ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ﴾.
 ٢ - يجب دعوة المنحرفين إلى الطريق المستقيم عبر الإشارة إلى العفو والرحمة الإلهية، ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.
 ٣ - الله تعالى يغفر حتى الكفر والشرك إذا ما تاب العبد وعاد إلى عقيدة التوحيد، ﴿لَقَدْ كَفَرَ... وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.
 ٤ - الله سبحانه يعفو عما سلف وينزل رحمته، ﴿عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.
 ٥ - إلى جانب ذكر العذاب في الآية السابقة، تتحدث هذه الآية عن الرحمة التي تغمر التائبين، ﴿وَلَنْ لَّا يَنْتَهُوْا... عَذَابٌ أَلِيمٌ... وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأَمَتُهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا
 بِأَعْيُنِنَا أَطْعَمَهُمْ أَتَمَّرًا كَيْفَ نَبِّئُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظَرَهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ ﴿٧٥﴾

إشارات:

□ تستعرض الآية الكريمة ثلاثة أدلة على أَنَّ عيسى عليه السلام ليس هو الله، هي:

- ١ - أنه ولد من رحم امرأة وأنه ابن مريم.
 ٢ - هناك أنبياء مثله سبقوه، وبالتالي فهو ليس فريداً من نوعه في هذا المجال.
 ٣ - إنه مثل الآخرين بحاجة إلى الطعام، إذ يستمد طاقته وقوته مما يأكل، بمعنى أنه لا يمتلك قدرة ذاتية لنقول إنه إله. إذن، ليس في مقدور من يحتاج إلى الطعام أن يكون خالقاً، هذا هو أسلوب القرآن الواضح والعام والمفهوم من قبل الجميع.

□ «الصدِّيق»: من كثر منه الصدق، وقيل: بل يقال لمن لا يكذب قط، وقيل: بل لمن لا يتأتى منه الكذب لتعوده الصدق، وقيل: بل لمن صدق بقوله واعتقاده وحقَّق صدقه بفعله. وفي آية أخرى يبيِّن أنَّ مريم هي صديقة وذلك بقوله: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنِ الْقَنِينَ﴾^(١).

التعاليم:

- ١ - امتلاك بعض الامتيازات أو الأشياء الخارقة ليس دليلاً على الألوهية، فالنبي آدم ﷺ أيضاً لم يكن له أب ولا أم، ولكن لم يرفعه أحد إلى درجة الألوهية، ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾.
- ٢ - السيدة مريم من أولياء الله والقرآن يثني عليها ويسمّيها «صديقة»، ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾.
- ٣ - الموت أمر محتوم لجميع الأنبياء، ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾، لذا، فإنَّ عيسى ﷺ سيفنى وأنه ليس الله.
- ٤ - في ظلّ العناد واللجاج لن تنفع أقوى الأدلة وأوضح البراهين، ﴿كَيْفَ نُبَيِّتُ... أَفَ يُوَفِّكُونُ﴾.
- ٥ - بمقدور المرأة أن تبلغ أعلى المراتب الروحية لدرجة يمتدحها الله تعالى، ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾.
- ٦ - التعرف على التاريخ وسبر أغواره مفيد للآتين، ﴿ثُمَّ أَنْظِرُوا...﴾.

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا
وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

إشارات:

□ توجه الآية توبيخاً إلى فريق من المسيحيين بسبب شركهم وغلوهم في عيسى ﷺ، ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾.

التعاليم:

- ١ - ارجعوا إلى عقولكم وضمائرکم لتفنيذ طريق الشرك، ﴿أَتَعْبُدُونَ﴾
- ٢ - يقوم أساس العبادة على كسب منفعة أو دفع ضرر، وما من أحد غير الله تعالى يمكنه دفع ضرر أو كسب منفعة، ﴿لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾.
- ٣ - وحده الله - وليس ما يزعمون من آلهة - سميع الدعاء وعليم بما ينفع الناس وبما يضرهم، ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (٧٧)

إشارات:

□ إذا ما تأملنا هذه الآية قليلاً سنجد أن الإيمان بالوهمية السيد المسيح ربما كان عقيدة غالية مستلهمة من معتقدات الأقوام المشركة السابقة، وما يعزز هذا الرأي ما ورد في الآية ٣٠ من سورة التوبة: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَعِفُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾.

التعاليم:

- ١ - ينبغي على جميع الأديان أن تحافظ على الحدود الفكرية والعقدية، وألا تغلو في الشخصيات الدينية، ﴿يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا﴾.
- ٢ - الغلو في شأن القادة الإلهيين، غلو في الدين. لاحظ عقيدة الأقوام السابقة في الوهمية المسيح الواردة في الآيات السابقة، ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾.
- ٣ - إذا كان دين الله يمنع الغلو في أولياء الله، فمن باب أولى أنه يمنع أيضاً الغلو والمبالغة في سائر الأفراد، ﴿لَا تَغْلُوا... غَيْرَ الْحَقِّ﴾.
- ٤ - لا يجوز التقليد الأعمى، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ﴾.

٥ - لم يكن الغلو مقتصرًا على عيسى ﷺ فحسب، فقد غالى بعض اليهود في «عزيز» أيضاً حينما جعلوه ابن الله، ﴿ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾.

٦ - لا شك في أن العلوم والفنون القديمة لها قيمة، غير أن أفكار ومعتقدات الأجداد القائمة على الأهواء التي لا تقوم على أساس، لا قيمة لها، وينبغي لفظها، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا... ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾.

٧ - الضلال يمرّ بمراحل، في البداية، يضلّ الإنسان ﴿ضَلُّوا﴾، ومن ثمّ يُضِلّ آخرين غيره ﴿وَأَضَلُّوا﴾، وأخيراً يبلغ مرحلة لا رجعة له فيها إلى الحق.

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾

إشارات:

□ لعن النبي داود ﷺ بني إسرائيل بسبب التفاهم على الحكم الإلهي في تعطيل أيام السبت. أما النبي عيسى ﷺ الذي دعا ربه أن ينزل على بني إسرائيل مائدة من السماء ليأكلوا منها وتطمئن قلوبهم، فقد لعنهم لما رأى إصرارهم على الكفر حتى بعد أن أكلوا من المائدة السماوية كما طلبوا^(١).

□ وعن الإمام الباقر ﷺ في قوله ﷻ: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أنه قال: «الخنازير على لسان داود، والقردة على لسان عيسى بن مريم ﷺ»^(٢).

التعاليم:

- ١ - طائفة من بني إسرائيل لعنوا على لسان أنبيائهم، ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.
- ٢ - العصيان والاعتداء يجرّان الإنسان إلى الكفر، ﴿كَفَرُوا... بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

٣ - الأنبياء يدعون تارة، لكنهم يلعنون تارة أخرى، ﴿لُعِنَ... عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ...﴾.

٤ - المعصية والاعتداء تستتبعان لعنة الأنبياء، ﴿لَعَنَ... بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

٥ - الاعتداء وانتهاك الشرائع نهج اعتاد عليه بنو إسرائيل، ﴿وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٧٩)

إشارات:

□ وعن الإمام الصادق عليه السلام في قوله ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾، قال: «أما إنهم لم يكونوا يدخلون مداخلتهم ولا يجلسون مجالستهم ولكن كانوا إذا لقوهم [ضحكوا في وجوههم] وأنسوا بهم»^(١).

□ وفي رواية أخرى منقولة عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «اعتبروا أيها الناس بما وعظ الله به أوليائه من سوء ثنائه على الأحرار ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِنْدَ﴾ وقال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ إلى قوله ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ...﴾ وإنما عاب الله ذلك عليهم لأنهم كانوا يرون من الظلمة المنكر والفساد فلا ينهاهم عن ذلك رغبة في ما كانوا ينالون منهم ورهبة مما يحذرون»^(٢).

التعاليم:

١ - من يقف موقف اللامبالاة إزاء الفساد فهو ملعون من قبل الأنبياء، ﴿لُعِنَ... لَا يَتَنَاهَوْنَ﴾.

٢ - لا يقتصر النهي عن المنكر على الدين الإسلامي، ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ﴾.

- ٣ - النهي عن المنكر مسؤولية عامة، ﴿لَا يَتَنَاهَوْنَ﴾.
- ٤ - كان الفساد شائعاً في أوساط اليهود وبني إسرائيل، ﴿مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾.
- ٥ - ترك الأمر بالمعروف يفضي إلى الكفر، ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا... كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ...﴾.

﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيَبْلُوَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (٨٠)

إشارات:

- توضّح الآية الكريمة سبباً آخر وراء لعن بني إسرائيل وهو أنهم كانوا يتولّون الكافرين ويعقدون معهم تحالفات وصداقات دائمة وعلنية. (تشير كلمة ﴿رَبَّيْ﴾ إلى العلن والعيان، و﴿يَتَوَلَّوْنَ﴾ إلى الديمومة والاستمرار).
- يقول الإمام الباقر عليه السلام في تفسير هذه الآية: «يتولّون الملوك الجبارين ويزيّنون لهم أهواءهم ليصيروا من دنياهم»^(١).

التعاليم:

- ١ - ولاية الكفار مدعاة لغضب الله وسخطه، ﴿يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا... سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾.
- ٢ - كان أهل الكتاب يصادقون الكفار ويتولّونهم؛ وفي المقابل، كانوا يعادون المسلمين، ﴿يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾.
- ٣ - يريد الله تعالى الاستقلال والعزة حتى لأهل الكتاب ويزم تبعيتهم للمشرّكين وذيليتهم ولايتهم لهم، ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ﴾.
- ٤ - أحد المنكرات الخطيرة التي نهى بنو إسرائيل عن ارتكابها هي ولايتهم للكفار والمشرّكين، ﴿لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ... تَرَىٰ﴾.

٥ - كل معصية هي مقدمة لمعصية أكبر، طرحت الآيات السابقة ثلاث معاصٍ ﴿عَصُوا﴾، ﴿يَعْتَدُونَ﴾، ﴿لَا يَنْتَهِوْنَ﴾، وهذه مقدمات تولي الكفار والقبول بسلطتهم، ﴿كَرَرُوا... يَتَوَلَّوْنَ﴾.

﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ (٨١)

إشارات:

□ ثمة أوجه عدة تُطرح لتفسير هذه الآية نذكر منها:

- أ - لو أسلم اليهود لما تولوا الكفار^(١).
 ب - لو كان اليهود يؤمنون حقاً بموسى ﷺ والتوراة لما اتخذوا المشركين أولياء^(٢).
 ج - لو آمن الكفار والمشركون لما اتخذهم اليهود أصدقاء وأولياء لهم^(٣).
 في ضوء الآيات السابقة، ينزع ظاهر الآية إلى الوجه الأول كتفسير للآية.

التعاليم:

- ١ - إيمان أهل الكتاب بعيد لدرجة أنه يبدو أشبه بالحلم، ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ...﴾؛ «لو» أداة تمنّي تستعمل في الأمانى البعيدة، كأن يقول المرء: لو أن الشباب يعود يوماً.
 ٢ - من آمن بالله ورسوله من أعماق قلبه، لن يقبل بغير ولاية الله تعالى، ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ... مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾، فالإيمان هو السبيل الحقيقي للتحرر من سلطة الكفار وهيمتهم.
 ٣ - الفسق وعدم الإيمان عاملاً رصوخ لسلطة الكفار، ﴿وَلَوْ كَانُوا... مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾.

(٣) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

(١) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٢) تفسير روح المعاني.

- ٤ - لا ينسجم الإيمان مع ولاية الكفار، ومن يتولاهم فهو خانع وفاسق ولا دين له، ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ... وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَسِقُونَ﴾.
- ٥ - يتناقض الإيمان مع الفسق، ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ... وَلَكِنَّ... فَسِقُونَ﴾.

الجزء (٧)

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا فُضِّلْنَا عَلَىٰ ذَلِكَ بِأَنَّا مِنهُمْ فَتَبَيَّنَتْ رُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٨٢)

إشارات:

- «قيس»، تعريب لكلمة سريانية تعني الزعيم والموجه الديني عند المسيحيين.
- «رُهْبَان» من الترهّب: التعبد، وهو استعمال الرهبة، والرهبانية: غلوّ في تحمّل التعبد، من فرط الرهبة.
- سبب نزول هذه الآيات حتى الآية ٨٥ هو المعاملة الطيبة التي لقيها المهاجرون المسلمون بقيادة جعفر بن أبي طالب على يد النجاشي ملك الحبشة، والمسيحيين في تلك البلاد، وذلك عندما هاجروا من مكة إلى الحبشة في العام الخامس للبعثة، ليظفروا في كنف النجاشي في مأمن من أذى المشركين ومبعوثيهم الذين جاؤوا إلى الحبشة لاسترداد المسلمين. وفي الوقت نفسه كان اليهود في المدينة يشهدون معجزات النبي الكريم ﷺ وخلقته العظيم ومع ذلك يعرضون عن الإيمان، لا بل كانوا يحيكون الدسائس والمؤامرات ضد المسلمين، وينقضون عهودهم، ويثيرون الفتن، بينما القساوسة المسيحيون في الحبشة ينصتون إلى آيات سورة مريم ويذرفون الدموع، ويدافعون عن المسلمين^(١).

□ عن الإمام الصادق عليه السلام بعد تلاوة هذه الآية الكريمة: «أولئك كانوا قوماً بين عيسى ومحمد ويتظنون محمداً ﷺ»^(١).

التعاليم:

- ١ - عداوة اليهود للمسلمين لها جذور تاريخية، ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً...﴾
﴿الْيَهُودُ﴾.
 - ٢ - يجب التعامل مع أعداء المسلمين وغير المسلمين بما يتناسب وسلوك كل منهم، ﴿أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً... أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً﴾.
 - ٣ - يجب أن نميز الصديق من العدو من خلال التحليل الدقيق وسبر الخصائص النفسية والاجتماعية، ﴿أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً... أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً﴾.
 - ٤ - عوامل الارتقاء والتطور في المجتمع ثلاثة: طلب العلم، تقوى الله، والتخلي عن النفسية الاستكبارية، ﴿قَتِيلِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.
 - ٥ - علماء الدين والعابدون المتقون يلعبون دوراً رئيساً في إصلاح معتقدات المجتمع وأخلاقه، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَتِيلِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.
 - ٦ - إذا تواشجت عناصر العلم، والعبادة، والأخلاق، مع بعضها، فستنتج لنا إنساناً نزعاً للحق وفراراً من التعصب، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَتِيلِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.
 - ٧ - ليس في الإسلام تعصب أعمى، فيها هو يمتدح علماء سائر الأديان الذين يتصفون بالتقوى والعدل، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَتِيلِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.
 - ٨ - تأثير دعوة الإسلام بين المسيحيين أكبر، ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.
- فعلى الرغم من أن المسيحيين يؤمنون بعقيدة التثليث الباطلة، إلا أنهم أكثر ميلاً لقبول الحق وذلك لأن لهم روحاً أنقى.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ وَمِمَّا عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ يَقُولُونَ
رَبَّنَا ءَامَنَّا فَكُتِّبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٨٣)

إشارات:

□ انهمرت دموع المسيحيين شوقاً وخشية في موضعين، الأول، عندما تلا جعفر بن أبي طالب على النجاشي ملك الحبشة آيات من سورة مريم، والموضع الثاني عندما وصل نفرٌ من المسيحيين إلى المدينة مع جعفر وأنصتوا إلى آيات من سورة يس المباركة فيكوا^(١).

التعاليم:

- ١ - سيماء أصحاب القلوب الخاشعة والمتواضعة أنهم ما أن تداعب مسامعهم ألحان السماء العذبة وصوت الحق حتى تنقلب أحوالهم وتفيض أعينهم بالدمع، بخلاف الأشخاص الفاسدين الذين لا يؤمنون حتى لو تجسد لهم الحق عياناً، ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ... وَإِذَا سَمِعُوا... تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ... يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا﴾.
- ٢ - إذا فاض الدمع من مآقي المعرفة فتلك علامة الكمال والإخلاص، ﴿تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ وَمِمَّا عَرَفُوا﴾.
- ٣ - روح الإنسان وفطرته تعشقان الحقيقة، ومتى ما اتصل بالمحسوب انهمرت دموع الشوق والفرح، ﴿تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾.
- ٤ - الإيمان والإقرار يجب أن يكونا في إطار المعرفة، ﴿وَمِمَّا عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا...﴾.
- ٥ - في أدعيتنا نستلهم المدد والعون من كلمة «ربنا» المقدسة، ﴿رَبَّنَا ءَامَنَّا...﴾.
- ٦ - المعرفة وذرف الدموع والإقرار بالذنوب والخطايا كلها من علائم الرشد والتهديب الروحي الراقى، ﴿عَرَفُوا... يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا﴾.
- ٧ - للدعاء أثر إذا كان مقترناً بالإقرار والإيمان، ﴿ءَامَنَّا فَكُتِّبْنَا﴾.

(١) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

٨ - لا خير في إيمانٍ مؤقت، بل يجب أن يكون دائماً وراسخاً مع حسن الختام والعاقبة، ﴿وَأَمَّا فَأَكْتُبَنَّكَ﴾.

٩ - المعجزة أن يقطع المرء طريق المئة عام في ليلة واحدة، ﴿سَمِعُوا﴾، ﴿عَرَفُوا﴾، ﴿وَأَمَّا﴾، ﴿مَعَ الشَّهِيدِ﴾.

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾^(٨٤)
 فَأَنْبَهُهُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ^(٨٥)
 وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ^(٨٦)

إشارات:

□ أولئك الذين عرفوا الحق وأقروا به بشجاعة وصراحة وصدق، ولم تخفهم الأجواء السائدة ولا أتباع دينهم، هم من القوم الصالحين، ذلك لأنهم أحسنوا إلى أنفسهم وأنقذوها من عذاب جهنم، وبإقرارهم فتحو الباب أمام الآخرين.

التعاليم:

- ١ - بعد معرفة الحق ﴿وَمَا عَرَفُوا﴾ لا يوجد عذر لرفضه، ﴿وَمَا لَنَا﴾.
- ٢ - مجالسة الصالحين هدف مقدس، ﴿مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾.
- ٣ - علامة الأمانة الصحيحة الإيمان والإقدام العملي، ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ... وَنَطْمَعُ﴾.
- ٤ - الإيمان بالله والإيمان بالوحي متلازمان ولا ينفصلان، ﴿نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنْ الْحَقِّ﴾.
- ٥ - ثواب الإيمان هو الجنة ﴿أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ لأن تقدير الفعل المحذوف في ﴿يُدْخِلَنَا﴾ هو كلمة «الجنة».
- ٦ - أحد طرق الكمال هو العودة إلى الضمير ومساءلته، ﴿وَمَا لَنَا... فَأَنْبَهُهُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا﴾، وفي آية كريمة أخرى نقرأ ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي...﴾^(١).

٧ - الإقرار اللساني بالتوحيد ورسالة النبي الكريم ﷺ وحقية القرآن الكريم أمرٌ ضروري، ﴿فَأَنذَرْتَهُمْ اللَّهُ بِمَا قَالُوا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْزَمُوا طَيِّبَتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا
إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٨٧)

إشارات:

□ وردت روايات عدّة في سبب نزول هذه الآية منها: أن رسول الله ﷺ أخذ في أحد الأيام يصف بعض ما يجري في يوم القيامة، وأحوال الناس، ومشاهد يوم الحشر، فاهتزّ الناس لما سمعوا وأخذ بعضهم يبكي، فأقسم بعض صحابة النبي الكريم ﷺ على ترك طيب الطعام والراحة والرفاهية، وأن ينصرفوا إلى الصوم والعبادة، وأن يهجروا زوجاتهم، وأن يناموا من الليل أقله. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فجمع الناس في المسجد وخطب فيهم قائلاً: «ما بال أقوام حرّموا النساء، والطعام، والطيب، والنوم، وشهوات الدنيا، أما إنّي لست أمركم أن تكونوا قسيسين ورهباناً، فإنّه ليس في ديني ترك اللحم ولا النساء، ولا اتّخاذ الصوامع، وإنّ سياحة أمتي الصوم ورهبانيّتهم الجهاد، اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وحجّوا، واعتمرُوا، وأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وصوموا رمضان، واستقيموا يستقيم لكم، فإنّما هلك من كان قبلكم بالتشديد فشّدّدوا على أنفسهم فشّدّد الله عليهم»^(١).

فقام الذين كانوا قد أقسموا على ترك تلك الأمور وقالوا: يا رسول الله لقد أقسمنا على ذلك، فماذا نفعل؟ فتزلت الآيات المذكورة جواباً لهم.

□ تحريم ما أحلّ الله إمّا أن يكون من منطلق الإيمان بالحرمة وهو بدعة محرّمة، أو يكون غير ذلك، فيحرّم الإنسان على نفسه فقط، وهو منهيّ عنه أيضاً.

□ لا يخضع المسلم إلا لحكم الله تعالى، فلا يحرم من عنده ما أحل الله، ولا يحلل ما حرم.

التعاليم:

- ١ - على المؤمن أن يتمتع من كل شيء بطيبه وطاهره، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بدلاً من «يا أيها الناس».
 - ٢ - لا يستقيم الإيمان مع تغيير الأحكام الإلهية، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتٍ...﴾.
 - ٣ - الإسلام دين الفطرة فلا يجوز قمعها، ﴿لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتٍ﴾. تستخدم كلمة «طيب» للدلالة على ما ينسجم مع طبع الإنسان وفطرته.
 - ٤ - الأطعمة، والأشربة، والملذات المشروعة، خلقت ليمتع بها الإنسان، ﴿لَكُمْ﴾.
 - ٥ - لا ينسجم الإيمان مع الإفراط والتفريط، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ وَلَا تَقْتَدُوا.
 - ٦ - يحرم الدين الإسلامي العزلة، والرهابية، والإفراط، والتفريط، ﴿لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتٍ... وَلَا تَقْتَدُوا﴾.
 - ٧ - حرمان النفس من الطيبات ظلم ونعْد، ﴿وَلَا تَقْتَدُوا﴾.
 - ٨ - فلتجنب الإسراف والإفراط في التمتع بما أحل الله تعالى، ﴿وَلَا تَقْتَدُوا﴾.
 - ٩ - في الإفراط والتفريط حرمان من محبة الله، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُقْتَدِينَ﴾.
- ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾

إشارات:

□ اعتاد القرآن الكريم عند إصدار الأمر «كلوا» أن يتبعه بأمر آخر، مثل:

﴿كُلُوا... وَاشْكُرُوا﴾^(١).

﴿كُلُوا... وَلَا تَقْلَبُوا﴾^(٢).

﴿كُلُوا... وَاعْمَلُوا﴾^(١).

﴿فَكُلُوا... وَأَطِيعُوا﴾^(٢).

﴿كُلُوا... وَلَا تُشْرِكُوا﴾^(٣).

﴿كُلُوا... وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾^(٤).

□ كما ورد في الحديث النبوي الشريف: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ خَلْقَهُ وَقَسَمَ لَهُمْ أَرْزَاقَهُمْ مِنْ حَلَالٍ وَعَرَضَ لَهُمْ بِالْحَرَامِ، فَمَنْ انْتَهَكَ حَرَامًا نَقَصَ لَهُ مِنَ الْحَلَالِ بِقَدَرِ مَا انْتَهَكَ وَحُوسِبَ عَلَيْهِ»^(٥).

التعاليم:

١ - التمتع بالنعم المادية المشروعة لا يتعارض مع الإيمان، ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا... وَكُلُوا﴾.

٢ - يجب توخي الحذر في مسائل التغذية، ﴿حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا﴾ لتكون حلالاً في كسبها واستهلاكها.

٣ - أرزاق الجميع بيد الله تعالى، فليَمِ العجلة، والحرص، وأكل المال الحرام؟ ﴿رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾.

٤ - التقوى شرط الإيمان، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كَسَوْتُمْهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٨٩).

إشارات:

□ القَسَم الذي يصدر عن غير قصد أو هدف معين سوى التعود أو في سورة

(٤) سورة الأنعام: الآية ١٤٢.

(٥) تفسير أطيب البيان.

(١) سورة المؤمنون: الآية ٥١.

(٢) سورة الحج: الآية ٢٨.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٣١.

الغضب والانفعال، أو على أساس الأمور الخاطئة، أو من أجل ارتكاب المحرمات، أقول هذه الأنواع من القسم هي لغو الأيمان ولا كفارة عليها. أما القسم الذي يصدر عن قصد وجدّ ومن أجل القيام بعمل مفيد، فهو قسم ملزم يجب على صاحبه البرّ به، وإن لم يفعل فعليه الكفارة.

□ عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير قوله ﷺ: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْفُحْشِ فِي آيَمِنِكُمْ﴾ قال: «اللغو قول الرجل لا والله وبلى والله ولا يعقد على شيء»^(١).

□ فسر بعض كلمة «أوسط» بأنه أفضل نوعية للطعام، نظير ما ورد في الآية الكريمة من سورة القلم، ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ بمعنى أفضلهم وأرقاهم.

□ كسوة المحرومين في كفارة القسم تشمل أي نوع من اللباس، شتوي أو صيفي، نسائي أو رجالي.

□ لا بدّ للشرعة العالمية والخالدة من أن تنطوي قوانينها وعقوباتها على عنصر المرونة والتكيف، على سبيل المثال، تحرير العبيد، أو إطعام الفقراء، أو إكساء المساكين، فهذا النوع من القوانين قابل للتطبيق على أي شخص في أي زمان ومكان.

□ سئل الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن قوله ﷺ: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾، فقال: «هو كما يكون، إنه يكون في البيت من يأكل أكثر من المدّ ومنهم من يأكل أقلّ من المدّ فبين ذلك، وإن شئت جعلت لهم أدماً والأدم أدناه الملح وأوسطه الخلّ والزيت وأرفعه اللحم»^(٢).

□ وفي تفسيره الآية أعلاه يقول الإمام الكاظم عليه السلام: «إذا لم يكن عنده فضل من قوت عياله فهو ممّن لا يجد»^(٣).

التعاليم:

١ - رفع الكفارة عن لغو الأيمان فضل من الله ولطف، ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ

(١) الكافي، ج ٧، ص ٤٤٣؛ تفسير نور الثقلين.

(٢) الكافي، ج ٧، ص ٤٥٣؛ نور الثقلين. (٣) الكافي، ج ٧، ص ٤٥٢؛ نور الثقلين.

بِالْفَوِّ... نحن أيضاً علينا ألا نأخذ على محمل الجد الإساءات التي يوجهها الآخرون إلينا في حال الغضب.

٢ - الإسلام دين سهل سمح، وليس أدل على ذلك من أنه لم يشرع كفارة على لغو الأيمان، ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ...﴾. القصد والنية هي معيار الأقوال والأفعال.

٣ - الغرامات المالية معمول بها في الشريعة الإسلامية، ﴿إِطْعَمْتُمْ... أَوْ كَسَوْتُمْهُمَّ﴾.

٤ - تشريعات الإسلام تصبّ في مجال محو الفقر، والأحكام الشخصية في الإسلام تنسجم مع مصالح المجتمع، إطعام، أو إكساء، أو تحرير رقبة، ﴿فَكَفَّرْنَاهُ بِإِطْعَامِ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ﴾.

٥ - في كل الأحوال، يمثل الاعتدال والعدل قيمة، بما في ذلك طبيعة الجرم، ﴿مِنْ أَوْسَطٍ﴾، إذن المقصود بأوسط هو الحدّ الوسط وليس الجيد الرفيع.

٦ - لا بدّ من أن تتناسب الغرامة مع الوضع المالي للفرد، ﴿مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾.

٧ - القيام بالواجبات رهن بالقدرة والاستطاعة على ذلك، ﴿فَن لَّرَ يَحْدَ﴾.

٨ - عند تشريع الغرامة والكفارة يجب الأخذ بنظر الاعتبار الحدّ الوسط من المعيشة اليومية والعادية للأفراد، لا الأيام الاستثنائية ﴿مِنْ أَوْسَطٍ﴾، إذن، مرة أخرى، فإنّ المقصود بـ «أوسط» هو الحدّ الوسط.

٩ - فلنحرص عند دفع الكفارة للفقراء على عدم إيذاء مشاعرهم وأن نتعامل معهم كما نتعامل مع أسرنّا، ﴿تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾.

١٠ - يجب أن نكبح تجرؤنا على الحنث بالقسم بمشقة الصوم أو دفع الكفارة المالية، فالكفارة عبارة عن برنامج تهذيب متكامل في الشريعة الإسلامية، ﴿فَكَفَّرْنَاهُ﴾.

١١ - يغتنم الإسلام أيّ فرصة من أجل تحرير العبيد، ﴿تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾. حيث نلاحظ أنّه يلجأ إلى هذا الحكم حتى في التعويض والتكفير عن ارتكاب بعض الأعمال.

١٢ - علينا أن نكنّ الاحترام والقدسية لأسماء الله الحسنى، فإمّا أن نمتنع عن

الْقَسَمِ أَوْ نَبَرَ بَقَسَمْنَا، أَوْ أَنْ نَعُوْضَ عَنْ حَنْثِنَا بِدَفْعِ الْكَفَّارَةِ، ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَنَكُمْ﴾.

١٣ - لَا يَظُنُّ الْمَرْءُ أَنَّ لَهُ الْحَقَّ فِي الْقَسَمِ فِي أَيِّ لَحْظَةٍ شَاءَ، وَمِنْ ثَمَّ التَّعْوِیْضُ عَنْ حَنْثِهِ بِالْقَسَمِ بِدَفْعِ الْكَفَّارَةِ ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَنَكُمْ﴾، إِذَنْ نَحْنُ مُسْؤُولُونَ أَمَامَ أَقْسَامِنَا.

١٤ - مِنْ أَعْوَزَتِهِ الْقُدْرَةُ الْمَالِيَّةُ فَلَا مُلْجَأَ سِوَى الْقُدْرَةِ الْجَسْمِيَّةِ، ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾.

١٥ - فَتَحَ طَرِيقَ التَّكْفِيرِ عَنِ الذُّنُوبِ نِعْمَةً إِلَهِيَّةً تَسْتَحِقُّ الشُّكْرَ وَالشُّنَاءَ، ﴿ذَلِكَ كَفَرْتُمْ أَيْمَنَكُمْ... يَبَيِّنُ اللَّهُ... لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

١٦ - أَفْضَلُ الشُّكْرِ هُوَ الْعَمَلُ بِالْأَحْكَامِ، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لَمْ تَقُلْ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ «يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْمَلُونَ» بَلْ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، وَیَسْتَفَادُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْعَمَلَ هُوَ أَفْضَلُ الشُّكْرِ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ

فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٩١)

إشارات:

□ كَانَتِ الْعَرَبُ مُوَلَّعَةً بِثَلَاثَةِ: الشَّعْرِ، وَالْخَمْرِ، وَالْغَزْوِ، وَهُوَ مَا يَفْسُرُ اتِّبَاعَ الْقُرْآنِ أَسْلُوبَ التَّحْرِيمِ التَّدْرِيجِيِّ. فَأَوَّلُ مَا نَزَلَ فِي شَأْنِهَا بَعْضُ الْآيَاتِ الَّتِي تُشِيرُ إِلَى إِمْكَانِ الْحَصُولِ عَلَى رِزْقٍ، وَشَرَابٍ، مُسْكِرٍ، مِنَ الْكُرُومِ وَالتَّمُورِ^(١)، وَكَانَتِ هَذِهِ الْعَادَةُ أَعَمَّقَ مِنْ أَنْ تَسْتَأْصَلَ بِهَذِهِ الْإِشَارَاتِ وَالتَّلْمِيحَاتِ، فَنَزَلَتِ آيَةٌ أُخْرَى تَبَيَّنَ مَنَافِعُ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَتَذَكَّرَ، فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ، بِإِثْمِهِمَا الَّذِي يَفُوقُ مَنَافِعَهُمَا^(٢). ثُمَّ بَعْدَ فِتْرَةٍ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى آيَةً أَغْلَظَ مِنْهَا تَنْهَى الْمُسْلِمِينَ صَرَاحَةً عَنِ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَهُمْ سَكَارَى^(٣). لَتَنْزَلْ أَخِيرًا الْآيَةُ الْمُبَارَكَةُ أَعْلَاهُ فَاعْتَبِرَتْ

(٣) سورة النساء: الآية ٤٣.

(١) سورة النحل: الآية ٦٧.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢١٩.

معاقرة الخمر رجساً من عمل الشيطان، وأمرت باجتنابها.

□ أصل «الخمر» ستر الشيء، ويقال لما يُستر به: خِمار؛ لكن الخِمار صار في التعارف اسماً لما تغطي به المرأة رأسها، وجمعه خُمُر، وسميت الخمر لكونها خامرة لمقر العقل، وهو عند بعض الناس اسم لكل مسكر^(١).

□ «الميسر» مشتقة من «اليسر»، وهي السهولة والسماحة، وسمي القمار الميسر لأن المرء يربح الأموال دونما عناء.

□ «أنصاب» جمع «نصب»، وهي الحجارة التي كانت حوالي الكعبة تُذبح عليها القرابين ويُتبرك بها^(٢)، أو هي القربان نفسه الذي كان يوضع على الحجارة. جاء في الحديث النبوي الشريف أن النبي الكريم ﷺ قال في معنى الأنصاب: «ما ذبحوه لألهتهم»^(٣).

□ «الأزلام»، قذاح الميسر (ضرب من آلات القمار) كانت شائعة في الجاهلية. يقول الإمام أبو جعفر محمد الباقر ﷺ في الخمر: «كل مسكر... إذا أخمِر فهو حرام»^(٤).

□ لما نزلت الآية الكريمة ﴿إِنَّمَا أَفْخَرُ وَالْيَيْسُ وَالْأَنْصَابُ وَالَّذِينَ يَبْسُ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ قيل: يا رسول الله ما الميسر؟ فقال ﷺ: «كل ما تُقومِر به حتى الكعاب والجوز»^(٥).

□ وعن الإمام الصادق ﷺ أنه قال: «مُدمن الخمر كعابد الوثن»^(٦).

□ ويُشار إلى أن المشاركة، مهما كان نمطها، في إنتاج الخمر أو توزيعها أو شربها حرام، إذ ورد في رواية للإمام الباقر ﷺ أنه قال: «لعن رسول الله ﷺ في الخمر عشرة: غارسها، وحارسها، وعاصرها، وشاربها، وساقبها، وحاملها، والمحمول إليه، وباعها، ومشتريها، وأكل ثمنها»^(٧).

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني، مادة (٤) تفسير نور الثقلين.

(٥) الكافي، ج ٥، ص ١٢٣.

(٦) بحار الأنوار، ج ٢٧، ص ٢٣٤.

(٧) تفسير نور الثقلين.

(٢) تفسير الميزان.

(٣) الكافي، ج ٥، ص ١٢٣.

«خمر».

التعاليم:

- ١ - لا يستقيم الإيمان مع معاقرة الخمر ولعب القمار، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ... فَاجْتَنِبُوهُ﴾.
 - ٢ - شرب الخمر والقمار كعبادة الأوثان، ﴿الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ﴾ ذلك أن المقصود بالأنصاب هو الأصنام.
 - ٣ - ينهى الإسلام عن الأرجاس والنجاسات، ﴿رِجْسٌ... فَاجْتَنِبُوهُ﴾.
 - ٤ - أكل المال الحلال واجتناب المحرمات له أثر في تحقيق السعادة والفلاح للإنسان، ﴿فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.
- ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (٩١)

إشارات:

- تكشف الإحصاءات المنشورة أن معظم جرائم القتل، والحوادث المرورية، والطلاق، والأمراض النفسية، والكلى، وغيرها، سببها تعاطي المواد الكحولية، ولكن القرآن الكريم في بيانه سبب تحريم الخمر يؤكد على بعدين اثنين هما: الأضرار الاجتماعية التي تتركها مثل نشر الأحقاد والعداوات بين أفراد المجتمع، والبعد الثاني هو بعد روحي يتمثل في الغفلة عن الصلاة وذكر الله.
- تذكر الآية أن الأثر الأكبر الذي يتركه تعاطي الخمر ولعب القمار هو صد الإنسان عن ذكر الله وإلهاؤه عن إقامة الصلاة، وهنا يبرز سؤال ملح وهو: إذا كانت الأعمال الأخرى مثل التجارة، والرياضة، والدراسة، والمطالعة، وما شابه، تلهينا عن ذكر الله وإقامة الصلاة، فهل ستكون مثل شرب الخمر ولعب القمار؟ والجواب هو نعم، إذ إن كل الأمور التي تلهينا عن ذكر الله مثل الخمر والقمار وما شابه ذلك، هي أمور مذمومة، وإذا كان الإسلام لم يحرمها فذلك لأنه دين لطف، وسماحة، ورحمة.

التعاليم:

- ١ - من يصبح عامل ضغينة وعداوة بين الناس، فهو كالشيطان، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ...﴾.
- ٢ - إثارة النزاع والعداوة هي الأسلوب الدائم للشيطان، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ...﴾.
- ٣ - المجتمع المشحون بالعداوات هو مجتمع شيطاني، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاةَ...﴾.
- ٤ - لنحافظ على الألفة والوحدة ونتصد لكل ما يهددهما بالزوال، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاةَ...﴾.
- ٥ - الألفة والمحبة بين المؤمنين تحظى بعناية خاصة من لدن الله تعالى، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاةَ...﴾.
- ٦ - الخمر والقمار من وسائل الشيطان في زرع الأحقاد وبث الفرقة والعداوات، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ... فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ...﴾.
- ٧ - الصلاة هي الشكل الأرقى لذكر الله تعالى. لقد وردت في الآية بصورة مستقلة على الرغم من أنها تعد ذكراً لله أيضاً، ﴿عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الْمَلَأَةِ...﴾.
- ٨ - توضيح الحكمة من تشريع الأحكام هو أحد عوامل تأثير الكلام على الآخرين، ﴿الْعَدَاةُ وَالْبَغْضَاءُ... فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ...﴾.
- ٩ - يجب محاربة جميع عوامل الضغينة والعداوة، ﴿يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ... فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ...﴾.
- ١٠ - يوبخ الله سبحانه وتعالى بعض المسلمين في صدر الإسلام؛ لأنهم لم يتخلوا عن معاقرة الخمر على الرغم من تحريم القرآن الكريم للخمر والقمار ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ...﴾.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾

التعاليم:

- ١ - الأوامر الحكومية للرسول الأعظم ﷺ واجبة الطاعة شأنها شأن أوامره

الإلهية، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾، يشير تكرّر الفعل «أطيعوا»، إلى نوعين من الأوامر هما: الأوامر الإلهية الثابتة، والأوامر الحكومية للرسول الكريم ﷺ.

٢ - فلنحذر خطر التمرد على أوامر الله تعالى ورسوله ﷺ، ﴿وَاحْذَرُوا﴾.

٣ - الإنسان حرّ في اختيار طريقه، ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾.

٤ - بانتهاجنا طريق التمرد والعصيان لا نؤذي إلا أنفسنا، ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ... أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾.

٥ - إبلاغ الأحكام الإلهية لا يعتمد على رضى الناس، فمهمتنا إلقاء الحجة فحسب، ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ... عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾.

٦ - مسؤولية النبي هي إبلاغ الرسالة دونما إكراه أو قسر، ﴿أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾.

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا...﴾ (٩٣)

إشارات:

□ روي أنه بعد نزول آية تحريم الخمر والميسر، قال قوم من صحابة رسول الله ﷺ: إذا كان هذان العملان على هذا القدر من الإثم، فكيف بمن مات من المسلمين وهو يشربها الذين توقّاهم الله قبل نزول هذه الآية وكانوا لا يزالون يمارسونهما؟ فنزلت هذه الآية جواباً لهم.

□ تذكر الآية الكريمة الإيمان والعمل الصالح مرتين، والتقوى والإيمان مرتين، والتقوى والإحسان مرة واحدة. بحسب بعض المفسرين، فإن تكرار كلمات الإيمان والتقوى والعمل الصالح يعود إلى تباين حالاتها، ومراحلها، ومراتبها^(١). فيما يقول بعض الآخر إنّ التكرار يعني دوام اتقائهم وإيمانهم^(٢).

واعتبر فريق ثالث أنَّ التكرار للتوكيد نظير ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٢) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١﴾.

□ للتقوى تأثير في مختلف شؤون حياة الإنسان:

- على الاستهلاك والسلوك، ﴿طَمِعُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا﴾.
- على الدين والعقيدة، ﴿ثُمَّ اتَّقُوا وَآمَنُوا﴾.
- على الخدمة والأخلاق، ﴿ثُمَّ اتَّقُوا وَأَحْسِنُوا﴾.

التعاليم:

- ١ - آثام المؤمنين السابقة مغفورة شرط عدم العودة إليها والالتزام بالتقوى في المستقبل، ﴿لَيْسَ... جُنَاحٌ... إِذَا مَا اتَّقَوْا﴾.
- ٢ - إذا عاد الإنسان إلى ارتكاب المعصية على الرغم من سماعه الحكم الإلهي بالتحريم، فإنَّ الله سوف يعذِّبه على ما مضى من ذنوبه أيضاً، ﴿لَيْسَ... جُنَاحٌ فِيمَا طَمِعُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا﴾.
- ٣ - الإحسان أرقى مراحل الكمال وعامل محبة عند الله ﷻ. لاحظ أنَّ كلمة ﴿وَأَحْسِنُوا﴾ جاءت بعد ﴿ءَامِنُوا وَعَمِلُوا... ثُمَّ اتَّقُوا﴾ وتبعيتها محبة الله للمحسن ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَبِئْسَ لَكُمْ اللَّهُ بِشَىْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ﴾
﴿بِالْفَتَنِ فَمَنْ أَعَدَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٤)

إشارات:

□ يحرم الصيد على الحاج وهو في حال الإحرام أثناء مناسك الحج. في تلك الفترة تعرض للإنسان أحياناً بعض الحيوانات بحيث تكون في متناول يده وهو قادرٌ على صيدها؛ لكنَّ النهي الإلهي يمنعه من صيدها. وقد جاء في الروايات:

«في عمرة الحديدية حشر عليهم الصيد في كل مكان حتى دنا منهم ليلوهم الله به»^(١).

□ يطرح القرآن الكريم قضية الغرائز والطعام بوصفها واحدة من أسباب الامتحان الإلهي، تأمل الأمثلة التالية:

أ - لقد فشل آدم وحواء في امتحان الطعام، ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾^(٢).

ب - كما فشل بنو إسرائيل في امتحان تحريم الصيد في أيام السبت، ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾^(٣).

ج - أثناء عبور جنود بني إسرائيل النهر نهامهم قائدتهم عن الشرب منه، لكنهم شربوا، إلا قليلاً منهم، فسقطوا في الامتحان، ﴿فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾^(٤).

د - الصوم امتحان عظيم.

هـ - اقتراب الحيوانات من الحاج المُحرم الذي يُحرم عليه الصيد، هو امتحان له، ﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ﴾.

□ سؤال: من المعلوم أنّ الإنسان يختبر الشيء ليكتسب علماً بشأنه، ولكن ما حاجة الله سبحانه للاختبار وهو العالم بكل شيء؟

الجواب: يقول الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة: «ولكن الله سبحانه يبتلي خلقه ببعض ما يجهلون أصله، تمييزاً بالاختبار لهم، ونفيّاً للاستكبار عنهم، وإبعاداً للخلاء منهم...»^(٥). نعم، إنّ الله سبحانه وتعالى يجزي الإنسان ثواباً أو عقاباً، بحسب عمله المتحقق خارجياً لا طبقاً لعلمه هو جلّ شأنه، كما إنّنا لا نشيب الآخرين بحسب علمنا بمهاراتهم وفنونهم، بل بحسب ما يصدر عنهم من أعمال على أرض الواقع ليستحقوا منا التكريم.

(١) تفسير نور الثقلين؛ الكافي، ج ٤، ص ٣٩٦.
(٢) السورة نفسها: الآية ٦٥.
(٣) السورة نفسها: الآية ٢٤٩.
(٤) سورة البقرة: الآية ٣٥.
(٥) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢.

□ سؤال: أيعقل أن ضيوف الرحمن وحجاج بيته الحرام يعذبون عذاباً أليماً بسبب صيدهم؟

الجواب: الصيد بحدّ ذاته ليس عليه شيء، لكنّ العذاب هو لأجل تجرؤ الإنسان وانتهاكه قدسيّة الحرم والإحرام، وبسبب تجاوزه حدود الشريعة، ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

التعاليم:

- ١ - امتحان المؤمن سنّة إلهيّة حتميّة، ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَبِئْسَ لَكُمُ الصِّغَةُ﴾؛ اللام وصيغة الفعل المضارع هي للتوكيد والعزم.
- ٢ - تتجلّى الخشية من الله حينما تكون أبواب المعصية مفتوحة أمام الإنسان فيغلغها على نفسه، ﴿تَنَالُهُ آيْدِيكُمْ﴾.
- ٣ - النعم المتاحة والمبدولة للإنسان وسيلة للامتحان والابتلاء، ﴿لَبِئْسَ اللَّهُ﴾.
- ٤ - ليس كلّ ما تصل إليه أيدينا رزق حلال، ﴿تَنَالُهُ آيْدِيكُمْ﴾.
- ٥ - معيار التقوى هو الخشية القلبية لا الحياء الظاهري فقط، ﴿يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾.
- ٦ - المسؤولية والواجب يأتیان بعد البلاغ والإخطار، ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾.
- ٧ - الحاج الذي يقطع المسافات البعيدة عبر الصحاري حبّاً بالحقّ تعالى، أحياناً، قد يعيقه صيد تافه عن تحقيق ذلك الهدف، فتدفع به إلى التمرّد ليدوق، بالنتيجة، العذاب الإلهي، ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهُ عَفَا اللَّهُ عَنْ سَلْفٍ وَمَنْ عَادَ فَيَنْقُصِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾

إشارات:

□ «حُرْمٌ» جمع «مُحَرَّمٌ» وهو من تلبّس الإحرام من أجل أداء الحجّ أو العمرة.

- «النَّعَم» وجمعه «أنعام» يقال للإبل والبقر والغنم.
- «الْمَسْكِين» مشتق من «سكن»، وتقال لمن لا يبرح مسكنه لفقر وعوز، بمعنى أن الفقر قد غلبه وأقعده.
- سئل الإمام الصادق عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾، فقال: «في النعامة بدنة، وفي حمار الوحش بقرة، وفي الظبي شاة، وفي البقرة بقرة»^(١).

التعاليم:

- ١ - حتى الحيوانات يجب عدم ترويعها عند الإحرام، ﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾.
- ٢ - حكمة الحرمة والحلية ليست دائماً ذاتية مرتبطة بالشيء نفسه، بل أحياناً تكون متأثرة بمقتضيات الزمان والمكان، إذن، فالتاريخ والجغرافيا لهما تأثير على الأحكام الإلهية، ﴿وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾.
- ٣ - للإسلام أحكام خاصة في الحالات الاستثنائية، ﴿وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾.
- ٤ - تشريعات الإسلام تشمل الجميع، ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ﴾.
- ٥ - الأخطر من الفعل الحرام هو القصد، والهدف، وتعتمد النية السيئة، ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا﴾.
- ٦ - ينبغي للعقوبة أن تراعي شروط العدالة، ﴿مِثْلُ مَا قَتَلَ﴾.
- ٧ - يهتم الإسلام في أي مناسبة بقضية الجوعى ومحاربة الفقر، ﴿طَعَامُ مَسْكِينٍ﴾.
- ٨ - الذبائح في مكة هي هدايا لمن يستفيد منها، ﴿هَذَا بَلِغُ الْكَبَةِ﴾.
- ٩ - يُفضل السماح للمجرم باختيار نوع الكفارة: القربان، أو الإطعام أو الصوم، وأن تراعي ظروفه المالية وقدرته الجسمية، ﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ... أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾.

(١) تهذيب الأحكام، ج ٥، ص ٣٤١؛ تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٦٧٣. للاستزادة، انظر: الكتب الفقهية مثل رسالة توضيح المسائل، موضوع كفارة الصيد وأحكامه.

- ١٠ - عقوبة انتهاك القوانين شديدة لدرجة أنّ إطعام ستين مسكيناً أو صيام ستين يوماً تمثل جزءاً منها لا كلها، ﴿لِيَذُوقَ﴾.
- ١١ - تطبيق القوانين يكون بعد إبلاغها رسمياً، ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ سَلَفٌ﴾، وليس للقوانين أثر رجعي.
- ١٢ - إذا تكرر الصيد، سيلقى العاصي، مضافاً إلى الكفارة، الانتقام والسخط الإلهي، ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾.
- ١٣ - الإصرار على ارتكاب المعاصي ومعاودتها أمر خطير للغاية ويستتبع عذاباً شديداً، ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾.
- ١٤ - لنأخذ الوعيد الإلهي مأخذ الجد، ﴿فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ... عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾.
- ﴿أَحَلَّ لَكُمْ مَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ مَتَّعَا لَكُمْ وَلَلْسَيَّارَةُ وَحَرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا ذُئِمَّتْ حُرْمَتُهُ وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

إشارات:

- اعتبر تفسير مجمع البيان وغيره من التفاسير والكتب الفقهية أنّ المقصود من هذه الآية هو حرمة صيد الحيوانات البرية وأكلها في حال الإحرام، بينما يحلّ صيد الحيوانات البحرية. طبعاً المقصود بالحيوانات البحرية هي تلك التي تعيش في المياه العذبة أو المالحة أي البحار أو الأنهار.
- يقول الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلَطَعَامُهُ مَتَّعَا لَكُمْ وَلَلْسَيَّارَةُ﴾: «قال ماله الذي يأكلون»^(١)؛ (الذي يتمّ تملّحه لئلا يفسد لاستعماله في الأسفار الطويلة).

التعاليم:

- ١ - لم تُغلق كلّ الأبواب بوجه المحرم، فالله تعالى قد عوّضه عن تحريم صيد البر بأن أحلّ له صيد البحر، ﴿أَحَلَّ... وَحَرَّمَ﴾.

- ٢ - يحلّ الصيد إذا كان للأكل لا للهو والعبث، ﴿مَتْنًا لَكُمْ﴾.
- ٣ - خيرات البحر والانتفاع بها ليست حكراً على سكان السواحل فقط، ﴿مَتْنًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾.
- ٤ - سكان السواحل لهم الأولوية في الانتفاع بخيرات البحر، ﴿لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾، لاحظ أن الآية الكريمة قالت: ﴿لَكُمْ﴾ ثم بعد ذلك ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾.
- ٥ - صيد الحيوانات البرية أو تناولها في حالة الإحرام ينم عن عدم التقوى، ﴿وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾.
- ٦ - يجب إنذار العاصين، ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.
- ٧ - الإيمان بيوم القيامة وحساب الأعمال، عامل ردع يحول دون ارتكاب الإنسان المعصية، ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْيَتَّى الْحَرَامَ فَيَسَا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِيَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١٧)

إشارات:

- «القيام»، والقوام: اسم لما يقوم به الشيء أي: يثبت، كالعماد والسناد: لما يعمد ويسند به^(١).
- قيل للإمام جعفر الصادق عليه السلام: لِمَ سُمِّيَ بَيْتُ اللَّهِ بَيْتَ اللَّهِ الْحَرَامِ؟ قال: «لأنه حُرِّمَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ أَنْ يَدْخُلُوهُ»^(٢).
- «الهدى»، الأضحية الفاقدة العلامة، و«القلائد»، الأضحية ذات العلامة.
- في الحج: المركزية، الأمن، القدسية، العبادة، القدم، الوحدة، السياسة والبراءة من المشركين، المعرفة، البساطة، الصفاء والنقاء، الإخلاص، الابتعاد عن الجدال، والشهوة، والفسوق.
- الأشهر الحُرُم هي: رجب، ذو القعدة، ذو الحجة، محرّم، ويحرّم في هذه الأشهر القتال.

□ من خصوصيات الإسلام أن يجتمع المسلمون بالملايين في مكانٍ مقدّس هو مكة المكرمة من دون تشریفات أو امتیازات وبعيداً عن الجدل الكلامي والنزاع العملي. وإذا ما أخذنا بالاعتبار المنافع المتعدّدة التي تحصل أثناء موسم الحجّ من قبيل: إبراء الذمّة من الحقوق قبل السفر، الزيارات المتبادلة، الانتعاش التجاري، دفع الخمس والزكاة، التعرّف على الثقافات والأمم المختلفة، زيارة أقدم مركز للتوحيد في التاريخ، الإحساس بآلام الأنبياء وزيارة مقاماتهم، طلب المغفرة والتوبة في صعيد عرفات والمشاعر، ذكر يوم القيامة، التحركات السياسيّة والبراءة من الكفّار والمشرّكين، علاوة على سائر البركات والمنافع الأخرى، إذن، إذا نظرنا إلى هذه المنافع سنتبيّن أنّ هذه الطقوس والمناسك منبثقة عن العلم اللامتناهي لله تعالى، المحيط بكلّ شيء في الكون، حيث لا يمكن للعلم المحدود إطلاقاً أن يشرّع حكماً بهذه الشموليّة والجامعيّة والروعة.

التعاليم:

- ١ - الحجّ مصدر ثبات وقوام، ﴿قِيْنَا لِلنَّاسِ﴾.
- ٢ - ترتيب الأمور وتنظيمها يحتاج إلى الاجتماع، والوحدة، والعبادة، والاحترام، وصيانة الحرمات ﴿أَلْبَيْتَ الْحَرَامِ﴾، واستتباب الأمن والاستقرار ﴿وَالشَّهْرَ الْحَرَامِ﴾، والأعمال الخفيّة، والأعمال ذات العلائم، والمجرّدة من العلائم ﴿وَالْمَدَى وَالْفَلَيْدَ﴾، وتوفير الأطعمة اللازمة ﴿قِيْنَا لِلنَّاسِ﴾.
- ٣ - المحيط بالكون برمته هو الذي يملك حقّ التشريع، ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.
- ٤ - المسجد والمذبح وسيلتا قوام دين الناس ودنياهم، ﴿الْكَعْبَةَ... وَالْمَدَى وَالْفَلَيْدَ﴾، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «جَعَلَهَا اللهُ لَدِينِهِمْ وَمَعِيشَتِهِمْ»^(١).
- ٥ - الحجّ الذي لا يكون عامل قوام المجتمع ليس حجّاً حقيقياً، ﴿الْكَعْبَةَ... قِيْنَا لِلنَّاسِ﴾.

٦ - إذا توافر المجتمع على الثبات، سوف تنضج فيه مقومات التوحيد، ﴿فَيَكْمَلُ...
لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ﴾.

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ
يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾﴾

إشارات:

□ إذا نظرنا إلى هذه الآية كامتداد للآية التي سبقتها سنجد أن المعنى هو أن انتهاك حرمة الكعبة المشرفة، والأشهر الحُرُم، ومعارضة تقديم الأضاحي وأحكام الحج، واعتبار مناسك الحج عبثاً لا طائل من ورائه، كل ذلك سيجرّ على صاحبه عذاباً شديداً. وفي المقابل، فإن حفظ حرمة الكعبة المشرفة، والأشهر الحُرُم، والأضاحي، ومناسك الحج، سوف تستدرّ المغفرة والرحمة الإلهية. (ويمكن بالطبع النظر إلى الآية بصورة مستقلة عن التي سبقتها فيكون لدينا المعنى نفسه).

التعاليم:

١ - الترغيب والترهيب جنباً إلى جنب ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ... عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، يجب أن يقف الإنسان بين الخوف والرجاء حتى لا يقطع الأمل تماماً بسبب ارتكابه خطأ أو انتهاكه حرمة الكعبة، أو يصيبه الغرور والكبر بسبب سلوك جيد أو عمل صالح.

٢ - مسؤولية النبي الأكرم ﷺ الدعوة إلى الدين فحسب، وليس إكراه الناس على الإيمان، ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾.

٣ - إقبال الناس على الدين أو إعراضهم عنه لن يضرّ النبي في شيء، ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾، وقد تكرّر نفس المضمون في الآية ٢٠ من سورة آل عمران، ﴿وَلَا تَوَلَّوْا فَمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾.

٤ - سواء كنّا أظهريين فالأمر سيّان عند الله تعالى نظراً لسعة العلم الإلهي وشموله، ﴿يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾.

﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَذَكَّرُ أَلَّا تُلْبَسُوا
لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ (١٠١)

إشارات:

□ الطيب والخبيث يوجد في كل شيء: الأموال، والإنسان، المكاسب، الأطعمة، وغيرها من الأشياء.

التعاليم:

- ١ - الحق والباطل هما معيار القيمة لا الكثرة أو القلة، ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾.
- ٢ - «الكثرة» والوفرة خداعة فلنحذر ذلك، ﴿أَعْجَبَكَ﴾؛ الأكثرية لا تدل على الحقيقة ولا على التفوق.
- ٣ - إن أسلوب «حشر مع الناس عيد» لا ينسجم مع المنطق القرآني، ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾.
- ٤ - عدم التقوى دليل على غياب العقل والمنطق، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَذَكَّرُ أَلَّا تُلْبَسُوا﴾.
- ٥ - العقلاء وحدهم قادرون على تمييز الأصيل من الدخيل، والتمسك بالتقوى، واجتناب ركوب الموجة والنقع مع الناعقين، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَذَكَّرُ أَلَّا تُلْبَسُوا﴾،
- ٦ - الفلاح، والعقل، والحصافة، كلها بحاجة إلى تقوى الله تعالى، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَذَكَّرُ أَلَّا تُلْبَسُوا لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ فَسُئِلْتُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنْزَلُ
الْقُرْآنُ بُدِّ لَكُمْ عَنِ اللَّهِ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (١٠٢) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ
أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ (١٠٣)

إشارات:

□ قيل في سبب نزول هذه الآية: خطب رسول الله ﷺ فقال: «إن الله كتب عليكم الحج» فقام عكاشة بن محصن وقيل: سراقه بن مالك فقال: أفي كل

عام يا رسول الله؟ فأعرض عنه حتى عاد مرتين أو ثلاثاً، فقال رسول الله: «ويحك ما يؤمنك أن أقول: نعم، والله لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت ما استطعتم، ولو تركتم لكفرتم، فاتركوني كما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه»^(١).

□ نعم، علينا أن نسأل أهل العلم عما نجهل، ﴿فَتَشَلُّوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢)، ولكن ثمة أسئلة إذا اتضحت أجوبتها، شقّ على الفرد والمجتمع ووقع ضرره عليهما، من قبيل السؤال عن عيوب الآخرين، أو الأسرار العسكرية.

أمثلة ونماذج

- توجد أمور لا ينبغي للمسؤولين أن يذيعوها على الملأ نظير المسائل التي تهم الاقتصاد مثل قلة القمح.
- الصدق أمر ممدوح، لكن الصراحة ليست مفيدة في كل مكان.
- يجب أن نعمل على تصنيف الأخبار والمعلومات وتبويبها. (يقال: إن جابراً الجعفي كان يحفظ آلاف الروايات عن الإمام الباقر عليه السلام ولكن لم يؤذن له بنقل بعضها لجميع الناس)^(٣).
- بعض الأخبار ينبغي عدم إذاعتها عن طريق وسائل الإعلام والصحف لما لها من أثر سلبي على الناس (أحياناً يتوجب علينا الصمت الحكيم)، ﴿إِنْ بُدَّ لَكُمْ تَسْوِمُكُمْ﴾.
- لا بدّ للمعلم والخطيب أن يراعي نفسيّة المستمع وتحملّه.
- في بعض الأحيان تقتضي الظروف كتمان المعتقدات، عملاً بأسلوب التقية، وعدم الإجابة عن بعض الأسئلة، ﴿إِنْ بُدَّ لَكُمْ تَسْوِمُكُمْ﴾.
- لا يحقّ للإنسان إفشاء أسرار الناس أو الأسرار العسكرية.

(٣) معجم رجال الحديث، ج ٤، ص ٢٢.

(١) بحار الأنوار، ج ١، ص ٢٢١.

(٢) سورة النحل: الآية ٤٣.

التعاليم:

- ١ - ليست كل معرفة لازمة أو مفيدة، وإنما يجب تعلّم العلوم المفيدة ﴿لَا تَسْأَلُوا﴾. يجب السيطرة على حب الفضول والاستطلاع لدينا وأن نمتنع عن تحرّي المعلومات التي تسبّب الضيق، وتثير المشاكل، وتخلّ بنظام المجتمع.
 - ٢ - رفع التكليف عن الناس في بعض الأحكام، قيس من الرحمة والصفح الإلهي، ﴿لَا تَسْأَلُوا... عَنَّا اللَّهُ عَنَّا﴾.
 - ٣ - الله تبارك وتعالى يمنح عباده فرصة للتوبة والعودة، ﴿عَفْوٌ حَلِيمٌ﴾.
 - ٤ - إذا لم يتوافر الناس على الأهلية اللازمة، فإنّ إطلاعهم على بعض الحقائق قد يتسبّب في كفرهم، ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَمْبَحُوهَا يَهَا كَافِرِينَ﴾.
- ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامِرٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُلُونَ عَلَى اللَّهِ
الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

إشارات:

- التقرب إلى الله تعالى يجب أن يتمّ من خلال الوسائل والطرق الصحيحة والمنطقية؛ إذ لا يمكن التقرب إليه بأيّ نذر أو وسيلة كانت.
- كثيرة هي البدع التي كانت شائعة في العصر الجاهلي، منها أنهم كانوا يضعون على بعض الحيوانات علامات وأسماء ويحرّمون أكل لحومها، وشرب لبنها، أو جزّ صوفها، أو ركوبها، وكانوا يطلقون هذه الحيوانات سائبة تسرح دون أن يعترضها أحد، ودون أن يستفيدوا منها شيئاً. نظير هذه العادات يعمل بها في الوقت الحاضر في بلاد الهند، إذ يكتون تقدّيساً للأبقار.
- لا يجوز ترك الحيوانات سائبة دون أن يتنفع بها أحد، فما بالك بترك الإنسان.
- جاء في الروايات: «البحيرة» الناقة إذا ولدت خمسة أبطن فإن كان الخامس ذكراً نحروه فأكله الرجال والنساء، وإن كان الخامس أنثى بحروا أذنّها أي

شَقَّوْهَا وَكَانَتْ حَرَاماً عَلَى النِّسَاءِ وَالرِّجَالِ شَحْمَهَا وَلَبْنَهَا فَإِذَا مَاتَتْ حَلَّتْ لِلنِّسَاءِ^(١).

□ وعن الإمام الصادق عليه السلام في قوله ﷺ: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَالِرٍ﴾ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا إِذَا وَلَدَتِ النَّاَقَةُ وَلَدَيْنِ فِي بَطْنٍ قَالُوا وَصَلَتْ وَلَا يَسْتَحِلُّونَ ذَبْحَهَا وَلَا أَكْلَهَا، وَإِذَا وَلَدَتْ عَشْرًا جَعَلُوهَا سَائِبَةً وَلَا يَسْتَحِلُّونَ ظَهْرَهَا وَلَا أَكْلَهَا. وَالْحَامُ فَحَلَّ الْإِبِلَ لَمْ يَكُونُوا يَسْتَحِلُّونَهُ، فَانْزَلَ اللَّهُ ﷻ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَحْرَمُ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ»^(٢).

التعاليم:

- ١ - يجب تطهير الدين من الخرافات والبدع، ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ﴾.
- ٢ - الأصل في الحيوانات أَنهَا حَلَالٌ مَا لَمْ يَنْزَلْ تَشْرِيعٌ بِتَحْرِيمِهَا، ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ﴾.
- ٣ - إتلاف الأموال وتسريح الحيوانات ثم نسبة ذلك إلى الله نوع من الافتراء عليه سبحانه وحرام، ﴿يَقْتُلُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾.
- ٤ - المصالح الحقيقية هي منشأ تشريع الأحكام الإلهية، أما الخرافات فمنشؤها الجهل والحُمق، ﴿لَا يَقُولُونَ﴾.
- ٥ - إذا اتَّصَفَ غالبية المجتمع بالعقل والحكمة، فلن تجد البدع مجالاً للظهور، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَقُولُونَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى اللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا هَؤُلَاءِ أَسْبَاطُكُمْ الَّتِي نَعْبُدُ وَقَالُوا لِمَ تُؤْخَذُونَ بِغَيْرِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُمْ رَسَافِينَ﴾^(١)

إشارات:

□ رُبَّمَا كَانَتْ آيَةُ تَحَدَّثُ عَنِ الْخُرَافَاتِ الَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا فِي آيَةِ السَّابِقَةِ.

التعاليم:

- ١ - يدعو القرآن الكريم الناس إلى اتباع أحكام الله وطاعة رسوله، ﴿تَمَّالُوا إِلَيَّ...﴾.
 - ٢ - الدخول في دعوة الإسلام مدعاة للكمال والرفي، ﴿تَمَّالُوا﴾ تشير إلى الحركة نحو العلو والسمو.
 - ٣ - الثقافة الإلهية هي المعيار لا ثقافة الماضين، ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾.
 - ٤ - القرآن الكريم وحده لا يكفي، بل يجب الأخذ بسنة الرسول الكريم ﷺ، وسيرته، وحكومته كمعيار للعمل، ﴿تَمَّالُوا إِلَيَّ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾.
 - ٥ - الرجعيون المؤمنون بالخرافات والخزعبلات غير مستعدين للإصغاء للحق، ﴿قَالُوا حَسْبُنَا﴾.
 - ٦ - لا تقليدية ولا حداثية بل المعيار هو العلم والهداية، ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.
 - ٧ - فلنحكم ضمائرنا، ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ...﴾.
 - ٨ - لا يجوز اتباع الأفكار الجاهلية للأسلاف والتمسك بها، ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾.
 - ٩ - التقليد الأعمى دليل حتم وغياب العقل. الآية السابقة تقول: إنهم ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، وهذه الآية تتحدث عن التعصب للأجداد.
 - ١٠ - لا معنى لتقليد الجاهل للجاهل، ﴿وَيَذَنَّا عَلَيْنَا ءَابَاءَنَا... ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أَمْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرَجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

إشارات:

□ اتخذ بعض من هذه الآية ذريعة فقال: مسؤولية كل منا حفظ نفسه، وإننا لسنا مسؤولين عن خطايا الآخرين، وليس لنا أن نأمرهم أو ننهاهم!

نقول في الرد على هؤلاء: ثمة آيات كثيرة وروايات عدة تشير جميعها إلى

وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلا أنه يجب القول: إن المراد من هذه الآية ليس ترك هاتين الفريضتين، بل، إذا أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر دون أن يسفر ذلك عن نتيجة تذكر، حينذاك ما من مسؤولية عليكم سوى حفظ أنفسكم^(١). هذا فضلاً عن أنّ صيانة المجتمع من المعاصي عبر العمل بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هو من أمثلة «حفظ النفس».

التعاليم:

- ١ - لا نستوحش من قلة سالكي درب الحق، ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ﴾.
- ٢ - إن لم نقدر على ترويض الآخرين، فلا أقلّ من أن نروض أنفسنا، ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ...﴾.
- ٣ - فساد المجتمع لا يبرّر للمرء أن يحذو حذوه، ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ﴾.
- ٤ - في يوم القيامة كلّ إنسان مسؤول عن نفسه، ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾.
- ٥ - حذار من التفتيش عن عيوب الآخرين^(٢) ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾.
- ٦ - لن يُحاسب أهل الإيمان على تصرفات وأفعال الضالّين ومعتقداتهم الباطلة، ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾.
- ٧ - لا تجعل غرقك ثمناً لإنقاذ الآخرين، ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ﴾.
- ٨ - يجب أن نربّي أنفسنا بحيث نتحصّن من فساد بيئتنا ومجتمعنا، ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾.
- ٩ - حذار من أن يُطفئ انحراف الآخرين جذوة معنوياتنا، ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلٍّ﴾.
- ١٠ - المنحرفون يتربصون بنا، فلا بدّ أن نتحصّن بالهداية، ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلٍّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾.
- ١١ - الإيمان بالمعاد هو عامل تهذيب النفس، ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾.

(١) نجد هذا المضمون نفسه في حديث للنبي الكريم ﷺ في تفسير نور الثقلين.

(٢) تفسير نور الثقلين.

١٢ - لن ينجي الإنسان في يوم القيامة أن يسلك في الدنيا طريق الأسلاف أو يقلّد الآخرين تقليداً أعمى، فكلّ فرد مسؤول عن نهجه وعمله، ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ... فَيَنْتَفِكُمْ﴾.

١٣ - الدنيا مزرعة الآخرة، فأقوال الإنسان وأفعاله في الدنيا، ترسم له صورة الآخرة، ﴿فَيَنْتَفِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهِدُوا بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِن أَنْتُمْ ضَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَاصْبِرْتُمْ مُصِيبَةَ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِدِينِنَا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّيِنٌ الْآثِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

إشارات:

□ جاء في التفاسير في سبب نزول هذه الآيات أنّ أحد المسلمين ويدعى «ابن أبي مارية» ومعه أخوان مسيحيان من العرب يدعيان «تميم» و«عدي» خرجوا من المدينة للتجارة، وفي الطريق مرض «ابن أبي مارية» المسلم، فكتب وصية أخفاها في متاعه، وعهد بمتاعه إلى رفيقه - النصرانيين - في السفر، وطلب منهما أن يسلماه إلى أهله، ثم مات ففتح النصرانيان متاعه واستوليا على الثمين والنفيس فيه، وسلّما الباقي إلى الورثة، وعندما فتح الورثة متاعه لم يجدا فيه بعض ما كان ابن أبي مارية قد أخذه معه عند سفره وفجأة عثروا على الوصية، ووجدوا فيها ثبناً بكلّ الأشياء المسروقة ففاتحوا المسيحيين بالموضوع، فأنكروا وقالوا: لقد سلّمناكم كلّ ما سلّمه لنا، فشكوا الرجلين إلى رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآيات تبيّن حكم القضية^(١).

غير أنّ سبب النزول المذكور في كتاب «الكافي» يقول: إنهما أنكرا أولاً وجود متاع آخر، ووصل الأمر إلى رسول الله ﷺ، ولمّا لم يكن يوجد دليل ضدّهما طلب منهما رسول الله ﷺ أن يحلفا اليمين، وبرّاهما، ولكن بعد أيام

قليلة ظهر بعض المتاع المسروق عند الرجلين فثبت كذبهما، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فانتظر حتى نزلت الآيات المذكورة، عندئذ أمر أولياء الميت بالقسم، وأخذ الأموال ودفعتها إليهم^(١).

التعاليم:

- ١ - الاحتضار هو الفرصة الأخيرة أمام الإنسان لكي يوصي، ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾.
- ٢ - على المؤمن توخي الدقة والحذر حين الوصية، ﴿حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾.
- ٣ - أشهدوا شاهدين عدلين حتى تعطوا الناس حقوقهم، ﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ﴾.
- ٤ - إذا لم يكن للمسلمين حضور عند إعطاء حقوق الناس، فتدبروا الأمر مع غير المسلمين ﴿غَيْرِكُمْ﴾، ولكن شرط أن يكونوا مؤمنين بالله لكي يحلفوا بلفظ الجلالة المقدس، ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾.
- ٥ - مراعاة حقوق الناس مهمة في كل البقاع لا في بقعة بعينها، ﴿مَرَاتِمٌ فِي الْأَرْضِ﴾.
- ٦ - لإعطاء الحقوق يجب رفع أي ارتياب أو شبهة، ﴿تَحْسِبُونَهَا... إِنْ أَرَبْتُمْ﴾.
- ٧ - أداء اليمين أحد الطرق لرفع الشك والارتياب، ﴿فَيُقْسِمَانِ﴾.
- ٨ - لفظ الجلالة «الله» هو اليمين الوحيد المعتبر وذو قيمة، ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾.
- ٩ - لنوظف المشاهد الدينية والروحانية، والبقاع والمواقيت المقدسة في أداء الحقوق^(٢) ﴿مِنْ بَعْدِ الْعَلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾.

(١) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٢) روي أنّ شخصاً جاء إلى الإمام علي عليه السلام وطلب منه مالاً (مضافاً إلى سهمه من بيت المال) فطلب منه الإمام أن يأتي في يوم الجمعة، وفي ذلك اليوم أخذ الإمام عليه السلام بيد ذلك الشخص وجاء به إلى صلاة الجمعة وأشار إلى جموع الحاضرين وقال له: إنّ طلبك المال هو أن تسرق أموال وحقوق هؤلاء الناس. نلاحظ في هذا المثال أنّ الإمام استفاد من بعض العوامل مثل الصلاة، وجموع المصلين، ومناسبة يوم الجمعة، ليكون كلامه أشد تأثيراً في نفس المخاطب.

- ١٠ - إغراء المال واحد من عوامل الانحراف، ﴿لَا تَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا﴾.
- ١١ - الحب وروابط القرابة الأسرية، عامل آخر من عوامل الانحراف، ﴿لَا تَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾.
- ١٢ - موضوع «حق الناس» هو الحالة الوحيدة الذي تم فيها إملاء نص القسم، ﴿لَا تَشْتَرِي﴾.
- ١٣ - كتمان الحق وشهادة الزور تصير العادل فاسقاً، وهي محرمة بحسب جميع الأديان السماوية، يصفهما الله بقوله ﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾، أولاً ثم يقول: ﴿لِمَنِ الْآيَاتِينَ﴾.
- ﴿فَإِنْ عُرِيَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّ إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولَايَيْنِ﴾
 ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهِدْنَا أَحَقَّ مِنْ شَهِدَتَيْهِمَا وَمَا أَصَدَقْنِيآ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾

إشارات:

- «عشور» من عشر إذا سقط، ويستعمل مجازاً في من يطلع على أمر من غير طلبه^(١).
- لا يخفى أن شهادة ويمين أولياء الميت تقوم على أساس ما لديهم من معلومات سابقة عن أمواله أثناء السفر وفي غيره.
- ﴿الْأُولَايَيْنِ﴾ في الآية على وجهين:
- أ - اثنان من الورثة المستحقين للتركة اللذين تحقق ضررهما بالشهادة الكاذبة؛ لأنهما أقرب إلى الميت.
- ب - المقصود بهما الشاهدان اللذان طلب منهما الميث الشهادة، وكانا حاضرين لحظة الموت، وقد استحقا هذه الأولوية لجهة حضورهم لحظة الاحتضار أو طلب الميث منهم أن يشهدوا. على هذا الأساس، يكون تفسير الآية كما يلي: إذا ظهرت خيانة الشاهدين الأولين، فليقم اثنان

آخران بدلاً منهما ويكونا من ورثة الميّت ليشهدا بالحقيقة، ويكون هذان ممن وقع عليهما ظلم الشاهدين الأولين.

□ يجب أن يشهد الاثنان ويحلفا بلفظ الجلالة «الله» وأن يكون نصّ القسم ما ورد في الآية المباركة وهو ﴿إِنْ أَرَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لِينَ الْآثِمِينَ﴾.

التعاليم:

١ - الشهادة الكاذبة هي، بنحو، ظلم وعدوان على حقوق الناس، ﴿اعْتَدَيْنَا... لَيْنَ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿ذَلِكَ أَذَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهٍ أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَنٌ بَعْدَ أَيْمَنِهِمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

إشارات:

□ توضّح هذه الآية الحكمة المتوخاة من وجوب التعامل بدقّة وحذر مع موضوع الإدلاء بالشهادة الذي ورد في الآيات السابقة، وهو أن تكون الشهادة بعد الصلاة وفي حضور الناس، ما سيؤدّي إلى أن تكون الشهادة حقيقة وواقعية؛ وذلك لأنّه في حال رفض يمينهما وشهادتهما فسيذهب ذلك بماء وجههما وسمعتهما في المجتمع.

التعاليم:

١ - لا شك في أنّ المراسيم والترتيبات المتّخذة للمحافظة على حقوق الناس وتثبيتها لها قيمة كبيرة، ﴿ذَلِكَ أَذَىٰ أَنْ...﴾.

٢ - الخوف من الفضيحة في المجتمع أحد العوامل التي تحول دون ارتكاب المعاصي، ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَنٌ﴾.

٣ - لنحي حياةً نمنع من خلالها الأشرار أو المتظاهرين بالعدل أن يضيّعوا جهودنا بأيمانهم الكاذبة، وليعلموا أنّ جماعة أفضل منهم سترّدّ شهادتهم، ﴿أَنْ تُرَدَّ أَيْمَنٌ بَعْدَ أَيْمَنِهِمْ﴾.

٤ - التقوى ضرورية في مسائل الوصية والقسم والشهادة، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

٥ - الشهادة الكاذبة دليل فسق، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

﴿يَوْمَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرُّسُلَ يَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ (١١٠)

إشارات:

□ سئل الإمام الباقر عليه السلام عن تفسير هذه الآية الكريمة فقال: «إن لهذا تأويلاً يقول ماذا أُجِبْتُمْ في أوصيائكم الذين خلفتموهم على أممكم؟ قال: فيقولون: لا علم لنا بما فعلوا من بعدنا»^(١).

□ الله تعالى وحده لديه العلم الحقيقي، وكلّ عليم ينهل من علم الله، كما إن علم الغيب بيده سبحانه، يخبر به من يشاء.

التعاليم:

١ - في يوم القيامة يُسأل الأنبياء عن رسالتهم وعمّا فعله وقاله الناس لهم، ﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾.

٢ - علم الأنبياء لا يساوي شيئاً مقارنة بعلم الله تعالى، ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّؤْتٍ (١١٠)﴾

إشارات:

□ ابتداء من هذه الآية إلى آخر السورة ينصبّ الحديث على النبي عيسى عليه السلام.

□ تتضمن الآية استعراض أنواع اللطف الإلهي، وعلى رأسها تأييد المسيح ﷺ بالروح القدس. إذ تقول الآية في البداية: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَذْكَرُ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَيْكَ﴾، بيد أننا نجد أن كلّ النعم المذكورة في الآية تتعلق بعيسى وحده لا بأمه، ربّما يرجع السبب في ذلك إلى أن نعمة الابن هي، في الوقت ذاته، نعمة للأُم أيضاً. أو لعلّ مراد الآية هو النعم الواردة حول السيدة مريم ﷺ في سورة آل عمران^(١).

□ أمّا المقصود بالكتاب، فقد يكون غير التوراة والإنجيل، وذكر هذين الكتابين هو لأهميتهما.

□ سئل الإمام علي بن أبي طالب ﷺ، عن كائن حيٍّ لم يولد من رحم ولا بيضة فأجاب بالإشارة إلى الطير الذي نفخ الله فيه الروح على يد عيسى ﷺ^(٢).

التعاليم:

١ - ذكر أظاف الله ونعمه المسبغة على أوليائه يبعث على زرع الطمأنينة والثقة في قلوب سالكي طريق الحق، ﴿إِذْ...﴾.

٢ - يا له من تكريم هذا الذي يرفع منزلة المرأة لتضاهي منزلة النبي، ﴿عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَيْكَ﴾، لا بل أكثر من هذا، لتصبح الأم وابنها النبي كلاهما آية، ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً﴾^(٣).

٣ - تكلم النبي عيسى ﷺ في المهد كان برهاناً على نبوته وعلى عفة والدته وعصمتها في آن معاً، ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾.

٤ - كلام النبي عيسى في المهد كان مظهراً للوحي، ﴿أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ...﴾.

٥ - لم تقف عوامل التجربة، والممارسة، والوقت، بوجه الإرادة الإلهية إذ تكلم النبي عيسى ﷺ في مهده وكهولته بكلام حكيم لا بكلام أطفال، ﴿فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٩١.

(١) سورة آل عمران: الآيات ٤٢ - ٤٥.

(٢) تفسير نور الثقلين.

- ٦ - لا بدّ للأنبياء من أن يمتلكوا (الكتاب) و(العلم) وأن يحيطوا أيضاً بآراء الماضين (التوراة) فضلاً عن تقديمهم رسالة جديدة (الإنجيل).
- ٧ - يمكن استخدام مصطلح الخلق لغير الله أيضاً، ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ﴾.
- ٨ - إذن الله تعالى هو الذي أعطى الضوء الأخضر لصنع تماثيل الطيور، ﴿تَخْلُقُ مِنْ أَلْطَيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾.
- ٩ - لأولياء الله الخواص ولاية تكوينية فالكلمات «تخلق، تنفخ، تبرئ وتخرج» موجهة إلى النبي عيسى عليه السلام.
- ١٠ - معجزة النبي عيسى عليه السلام كانت تركيباً من روحه المسيحانية وفن صنع التماثيل، ﴿كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ... فَتَنْفُخُ﴾.
- ١١ - الروح المسيحانية صيرت الجماد طائراً يطير، لكن قلوب بني إسرائيل لم تتأثر بها البتة، ﴿فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا﴾.
- ١٢ - اشتداد خطر الشرك يستدعي تكرار التوحيد. تأمل تكرّر الكلمات، ﴿تَخْلُقُ... بِإِذْنِي... وَتُبْرِئُ... بِإِذْنِي... تَخْرِجُ أَلْمَوْتَ بِإِذْنِي﴾.
- ١٣ - حينما يهب الله تعالى الأنبياء القدرة على الإحياء والشفاء، يدلّ على أنّ توسّل الناس واستمدادهم بهم جائز، ﴿تَخْلُقُ مِنْ أَلْطَيْنِ... فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تَخْرِجُ أَلْمَوْتَ بِإِذْنِي﴾، إذ كيف يصحّ أن يعطي الله القدرة لشخص، ثم يمنع الناس عن التوسّل به؟
- ١٤ - في هذه الدنيا حدثت «الرجعة» وإحياء الموتى، ﴿تَخْرِجُ أَلْمَوْتَ﴾.
- ١٥ - دفع الله عن عيسى عليه السلام النوايا السيئة لبني إسرائيل، ﴿كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ﴾.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرُسُلِي قَالُوا ءَمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

إشارات:

□ قد يكون المراد بالروحي إلى الحواريين هو الإلهام الذي قذف في قلوبهم، لا

الوحي عن طريق النبي عيسى عليه السلام، كما قال الإمام الصادق عليه السلام: «أَلْهَمُوا»^(١).
 □ سئل الإمام الرضا عليه السلام عن عدد الحواريين فقال: «أَمَّا الْحَوَارِيُّونَ فَكَانُوا اثْنِي عَشَرَ رَجُلًا... أَمَّا عِنْدَ النَّاسِ فَلِإِنَّهُمْ سَمُّوا حَوَارِيينَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا قَصَارِينَ يَخْلَصُونَ الثِّيَابَ مِنَ الْوَسْخِ بِالْفِغْسَلِ، وَهُوَ اسْمٌ مُشْتَقٌّ مِنَ الْخَبْزِ الْحَوَارِ، وَأَمَّا عِنْدَنَا فَسَمَّيَ الْحَوَارِيُونَ حَوَارِيينَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا مُخْلِصِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ، وَمُخْلِصِينَ لغيرهم من أوساخ الذنوب بالوعظ والتذكر»^(٢).

التعاليم:

- ١ - أحياناً ينزل الله تعالى إلهامه على القلوب المؤمنة المستعدة، ﴿أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾.
 - ٢ - الإيمان بالله لا يفصل عن الإيمان بالرسول الكريم، ﴿ءَايْتُوا فِي وَبَرُسُولِي﴾.
 - ٣ - حينما تكون الهداية باطنية وإلهية، يكون تأثيرها أعمق وأسرع، ﴿أَوْحَيْتُ... قَالُوا ءَامَنَّا﴾.
 - ٤ - إذا لم يقترن الإرشاد بالنور الإلهي، يكون عديم التأثير أو قليل التأثير وزائلاً، ﴿أَوْحَيْتُ... ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾.
 - ٥ - الإلهام الإلهي للناس هو في مسار تأييد وحي الأنبياء لا بالضد منه، ﴿أَوْحَيْتُ... ءَايْتُوا فِي وَبَرُسُولِي﴾.
 - ٦ - علامة الإيمان الباطني هو الإظهار والإقرار باللسان، على النحو الذي يكون فيه ظهيراً للشعارات العلنية، ﴿وَأَشْهَدُ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾.
- ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ط
 قَالَ أَتَقُولُوا اللَّهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ
 قَدْ صَدَقْتَنَا وَتَكُونُ عَلَيْنَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾

إشارات:

□ تسمية هذه السورة المباركة بـ «المائدة» يعود إلى هذه المائدة السماوية.

□ «المائدة» تعني في اللغة الخوان والسفرة والطبق، كما تعني الطعام الذي يوضع عليها.

□ لقد كان أسلوب الحواريين في السؤال غير مهذب وأقرب إلى الجراءة، فبدلاً من قول: «يا رسول الله» قالوا: «يا عيسى»، وبدلاً من «هل يلفظ بنا» قالوا: «هل يستطيع؟» وبدلاً من «ربنا» قالوا: «ربك»؛ لذلك جاءهم الرد بعبارة ﴿أَتَقُولُوا اللَّهُ﴾.

التعاليم:

- ١ - التقوى علامة الإيمان، ﴿أَتَقُولُوا اللَّهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.
- ٢ - اليقين القلبى أرفع مرتبة من الإيمان، ﴿أَتَقُولُوا اللَّهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١١٢﴾ قالوا يُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْعَمِينَ قُلُوبُنَا﴾، شيء مماثل حصل للنبي إبراهيم عليه السلام حين أجاب عن سؤال رب العالمين تبارك وتعالى ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ بالقول: ﴿بَلَىٰ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾^(١).

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ ﴿١١٤﴾

إشارات:

□ عادة ما تبدأ أدعية القرآن الكريم بكلمة «رب»، ولكن هذه الآية استخدمت عبارة ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا﴾. ربما كان ذلك لأهمية الحدث وفداحة النتائج المترتبة عليه.

التعاليم:

- ١ - التوسل بأولياء الله تعالى لقضاء الحوائج جائز، ﴿قَالَ الْخَوَارِجُونَ يَعْيسَى... قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ﴾.
- ٢ - عيون الأنبياء تتطلع إلى التاريخ والأجيال الآتية، ﴿لَا تَزِلْنَا وَلَا نَحْنُ﴾.

- ٣ - علينا دوماً استلھام الدروس والعبر من الآيات الإلهية، ﴿وَعَايَةً مِنْكَ﴾.
- ٤ - الأعياد والاحتفالات الدينية عمل سليم من وجهة نظر القرآن الكريم، ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ ميلاد أولياء الله وبعثة النبي الأكرم ﷺ مناسبات ليست أقل شأنًا من مناسبة نزول المائدة السماوية.
- ٥ - النبي عيسى عليه السلام ركز في دعائه على سماوية المائدة بدلاً من الطعام نفسه، ﴿وَعَايَةً مِنْكَ﴾.
- ٦ - عند الدعاء يجب أن نتحلّى بالأدب التام وأن ندعو الله تعالى بالصفة التي تتناسب مع طلبنا، لاحظ الآية، أولها، ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا﴾، وآخرها ﴿خَيْرُ الرَّزِيقِينَ﴾.
- ٧ - فلننظر مطالبنا المادية بإطار روحي ومعنوي، فالحواريون كان هدفهم الأول الأكل، ومن ثم حصول اليقين لهم، لذلك قالوا ﴿تَأْكُلُ مِنْهَا وَتَطْمَئِنُّ﴾، فيما دعا النبي عيسى أولاً لتخليد يوم في التاريخ للاحتفاء والسرور، ﴿عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾، ثم آية لقدرة الله وعظمته ﴿وَعَايَةً مِنْكَ﴾، وفي المرحلة الثالثة والأخيرة موضوع الرزق ﴿وَأَرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّزِيقِينَ﴾؛ وبذلك أفهم الجميع أنّ القضايا الروحية والاجتماعية تأتي في المقدمة وتليها القضايا الاقتصادية.
- ٨ - لنستغفر بسؤال الله تعالى عن سؤال الآخرين، ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّزِيقِينَ﴾.

﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ

الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾

إشارات:

- لا يوجد في الأنجيل كلام عن قصة المائدة السماوية على النحو الذي جاء القرآن الكريم على ذكرها^(١).
- ورد في الروايات: «أنه بعد نزول المائدة، كفر بعضهم، فمُسَخَوْا خنازير»^(٢).

وروايات أخرى تقول: «إِنَّ تِلْكَ الْمَائِدَةَ كَانَتْ تَحْوِي أَرْغِفَةً مِنَ الْخُبْزِ وَمَقْدَاراً مِنَ اللَّحْمِ»^(١).

□ إذا كان الحواريون قد نزلت عليهم مائدة من السماء، فإنَّ جبرائيل، بحسب الروايات، نزل على رسول الله ﷺ بتفاحة من الجنة فأكلها فتحولت ماءً في صلبه ثم واقع خديجة ﷺ فحملت بفاطمة ﷺ، وكان ﷺ يشم منها رائحة الجنة^(٢).

التعاليم:

- ١ - دعاء الأنبياء مستجاب، ﴿رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا... إِنِّي مُنْزِلُهَا﴾.
- ٢ - أولئك الذين يمتلكون العلم، واليقين، والشهود، تكون مسؤوليتهم أكبر، وعذابهم أشدَّ إذا ما ارتكبوا المعاصي، ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَدُّ يَنْكُرْ﴾؛ إذن فالذين لم يحصلوا على العلم والشهود أقلَّ عرضة لعذاب الله.
- ٣ - لعذاب الله تعالى درجات ﴿عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا﴾.
- ٤ - من رفع سقف دعائه إلى درجة أن تنزل عليه مائدة من السماء، يجب أن يكون التزامه أكبر، ﴿مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ... عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتُ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَإِيمَى إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۢ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِيۢ بِحَقِّۖ إِن كُنتَ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلٰمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾

إشارات:

□ قرأنا في الآية ١٠٩ من هذه السورة أن الله تعالى يجمع الأنبياء في يوم القيامة، فيسألهم: ماذا كانت إجابة الناس على دعوتكم؟ وهنا تسرد الآية حوار الله تبارك وتعالى مع نبيه عيسى ﷺ في يوم القيامة.

□ صحيح أنّ المسيحيين اليوم لا يؤمنون بالسيدة مريم كمعبودة، غير أنّ تعبير «إلهين» الوارد في الآية قد يعود إلى أنّ فئة من المسيحيين في ذلك العصر كانت تحمل هذه العقيدة، أو بسبب عبادتهم أمام تماثيلها فأصبح ذلك بمنزلة اتّخاذها معبودة، ﴿أَتَجِدُونِي وَأُنِيَّ إِلَهَيْنِ﴾.

□ ﴿دُونِ اللَّهِ﴾ هي علامة على الشرك، لا إنكار الله تعالى، بمعنى، أنّ اعتبار عيسى ومريم إلهين إلى جانب الله تعالى هو أيضاً شرك. طبعاً، عقيدة التثليث الحالية التي يؤمن بها المسيحيون هي الآب، والابن، والروح القدس..

□ يقول الإمام الرضا (عليه السلام): «يهلك في اثنان ولا ذنب لي: مُحِبٌّ مفرط ومبغض مفرط، وإنا لنبرأ إلى الله تعالى ممّن يغلو فينا، فيرفعنا فوق حدّنا كبراءة عيسى بن مريم (عليه السلام) من النصاري»^(١).

□ تسييح السيّد المسيح دليل آخر على تنزيه الله من أيّ شرك.

وفي آيات أخرى ورد في السياق نفسه ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ﴾^(٢)، ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ﴾^(٣).

التعاليم:

- ١ - أحياناً يكون السؤال والتوبيخ موجّهاً إلى بريء، لكنّ المقصود هم الآخرون؛ أي على طريقة إياك أعني واسمعي يا جارة، ﴿هَآأَنْتَ قُلْتَ﴾.
- ٢ - الأنبياء معصومون، ﴿مَا يَكُونُ لِحَ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾.
- ٣ - الأنبياء براء من غلوّ أتباعهم، ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾.
- ٤ - أقوال الإنسان وأسراره الباطنية مكشوفة لله تعالى، ﴿فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾.

- ٥ - لا بدّ من تسييح الله تعالى وتنزيهه عن كلّ ما لا يليق به، ﴿سُبْحَنَكَ﴾.

(٣) سورة النحل: الآية ٥٧.

(١) تفسير نور الثقلين.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٢٦.

٦ - علم الأنبياء محدود، ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾؛ فهل يستحق الألوهية من كان علمه محدوداً؟!

٧ - أفكار الناس وأسرارهم هي عن علم الغيب الذي يحيط به الله تعالى، ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾... ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾.

٨ - العلم التام والشامل بجميع الحقائق لله وحده، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾.

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (١١٧)

إشارات:

□ «التوفي» هو الاستيفاء التام، ويعد الموت أحد أمثله. ومن أمثله أيضاً رفع الله تعالى نبيه عيسى عليه السلام من وسط قومه، فهو حي في السماء حتى يظهر مع الإمام المهدي عليه السلام في آخر الزمان.

التعاليم:

١ - الأنبياء معصومون ولا يفعلون إلا ما يأمرهم به الله، ولا يغيرون في الوحي شيئاً أبداً، ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾.

٢ - النبي عيسى عليه السلام يصف نفسه بأنه كالأخوين مربوب الله تعالى، ﴿رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾.

٣ - الأنبياء شهداء على أعمال الناس، ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾.

٤ - الدعوة إلى التوحيد على رأس المسؤوليات المناطة بالأنبياء، ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾؛ معلوم أن رسالة عيسى عليه السلام لم تقتصر على التوحيد إلا أن الآية تركز على هذا الموضوع فقط.

٥ - العلامة والمعيار في عبادة الله هي ربوبيته سبحانه، ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾.

﴿إِنْ تَعَدَّيْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١١٨)

إشارات:

□ يقول النبي عيسى عليه السلام في جوابه عن خطاب رب العالمين سبحانه وتعالى:

﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُوا مِنِّي آلِهَةً مِّن دُونِ اللَّهِ﴾، أنه ليس له أي دور في عقائد أمته المشوبة بالشرك، وذلك ليعزل نفسه عنهم وليؤكد على أن الله سبحانه وتعالى وحده هو مالكمهم.

□ وجاء في الروايات عن أبي ذر (رضي الله عنه) أنه قال: صَلَّى النبي ﷺ ذات ليلة، فقرأ بآية حتى أصبح، يركع بها ويسجد بها ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَا تُمْهِلْ لَهُمْ فَاِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فلما أصبح، قلت: يا رسول الله ما زلت تقرأ هذه الآية، حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها؟ قال: «إني سألت ربي ﷻ الشفاعة لأمتي فأعطاها، وهي نائلة إن شاء الله لمن لا يُشرك بالله شيئاً»^(١).

وفي رواية أخرى أن النبي ﷺ تلا قول عيسى ﷺ: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَا تُمْهِلْ لَهُمْ فَاِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ورفع يديه، فقال: «اللهم أمتي» وبكى، فقال الله: «يا جبريل اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فاسأله ما يبكيه»، فاتاه جبريل فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم، فقال الله: «يا جبريل اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسووك»^(٢).

التعاليم:

١ - لقد أوكّل الأنبياء أمرهم إلى الله وردّوا المشيئة إليه ﷻ، ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ... وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ﴾، وليس لأحد أن يتجرأ على الله ويسأله عما يشاء، ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾^(٣).

٢ - عذاب المشركين أو الصفح عنهم بيد الله وحده، ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ... وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ﴾.

٣ - سخط الله أو رحمته، كلاهما يستند إلى عزّته وحكمته، ﴿أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٢٣.

(١) تفسير المراغي.

(٢) تفسير ابن كثير.

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّالِحِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾

إشارات:

□ نقلت الآيات السابقة كلام النبي عيسى عليه السلام بين يدي الله تعالى، وتضمن:

- ١ - ليس لي أن أقول إلا الحق، ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾.
 - ٢ - إذا كنت نطقت بغير الحق فإنك تعلمه، ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾.
 - ٣ - لم آمر الناس بشيء غير التوحيد الذي أمرتني به، ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾.
 - ٤ - كنت عليهم رقيباً وناظراً لئلا ينحرفوا، ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾.
- فيؤكد الله تبارك وتعالى في هذه الآية أن: كل ما نطق به عيسى هو الحق والصدق، واليوم يومٌ ينفع الصادقين صدقهم.

التعاليم:

- ١ - إذا تحمّل المؤمن الشدائد والمصاعب في الدنيا بسبب صدقه، فإن صدقه سينفعه في الآخرة، ﴿يَنْفَعُ الصَّالِحِينَ صِدْقُهُمْ﴾.
- ٢ - وحدهم الصادقون الذين سوف يتفجعون، لا الأفاكون أو أصحاب الشعارات، أو المراؤون، ﴿يَنْفَعُ الصَّالِحِينَ﴾.
- ٣ - الجنة مع رضى الله تعالى، هي الفوز الأكبر والفلاح، ﴿جَنَّاتٍ... رَضِيَ اللَّهُ... ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.
- ٤ - العبادة تليق بمن يملك في قبضته سلطان الكون والقدرة المطلقة، لا بالآخرين، حتى وإن كانوا أنبياء، ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

«والحمد لله رب العالمين»

سورة الانعام



سُورَةُ الْاِنْعَامِ

السورة: ٦ الجزء: ٧ - ٨

عدد آياتها: ١٦٥



سورة الانعام



ملامح سورة الأنعام

عدد آياتها ١٦٥ آية، جميعها مكية، وقد نزلت دفعةً واحدة ووفقاً لترتيبات خاصة، إذ شُيْعَ نزولها سبعون ألف ملك حتى نزلت على النبي الكريم ﷺ. الهدف الرئيس للسورة الكريمة، هو تأكيد محاربة الشرك والدعوة إلى التوحيد. ولَمَّا كان المشركون في شبه الجزيرة العربية يزرعون تحت نير الخرافات إذ كانوا يحلّون بعض الأنعام ويحرّمون بعضاً آخر، فقد انبرى القرآن الكريم إلى محاربة تلك الخرافات والمعتقدات الباطلة، وأنزل بدءاً من الآية ١٣٦ أحكاماً تخصّ الأنعام فسُمّيت السورة بهذا الاسم.

نقلت روايات عدّة في فضل تلاوة هذه السورة وقضاؤها للحاجات، منها ما نقل عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنّه قال: «من كانت له إلى الله حاجة يريد قضاءها فليصل أربع ركعات بفاتحة الكتاب والأنعام وليقل في صلاته إذا فرغ من القراءة: يا كريم يا كريم يا كريم، يا عظيم يا عظيم يا عظيم، يا أعظم من كل عظيم يا سميع الدعاء يا من لا تغيره الليالي والأيام، صل على محمد وآل محمد وارحم ضعفي، وفقري، وفاقتي، ومسكنتي، يا من رحم الشيخ يعقوب حين رد عليه يوسف قرة عينه، يا من رحم أيوب بعد طول بلائه، يا من رحم محمداً، ومن اليتيم آواه ونصره على جبابرة قريش وطواغيتها وأمكنه منهم، يا مغيث يا مغيث، تقول ذلك مراراً فوالذي نفسي بيده لو دعوت الله بها ثم سألت الله جميع حوائجك لأعطاك»^(١).

وتمتاز هذه السورة بكثرة خطاب النبي الكريم ﷺ بكلمة «قل» مقارنة بالسور القرآنية الأخرى، إذ وردت ٤٤ مرة، ولعلّ مرّة ذلك هو أنّ سورة الأنعام تكثر من طرح عقائد المشركين الباطلة، وانحرافاتهم، وأحلامهم المريضة، لذلك تطلّب المقام إبداء الحزم والشدة تجاههم، ويشير هذا إلى أنّ النبي الكريم ﷺ مأمور بإبلاغ الرسالة السماوية كما هي دونما زيادة أو نقصان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ

ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَقْدُوتُ﴾

إشارات:

□ يلاحظ المرء أنه في جميع آيات القرآن الكريم وردت لفظة «نور» في صيغة المفرد، بينما «الظلمات» في صيغة الجمع، والحقيقة، أن الحق هو واحد لا يتجزأ، بينما الطرق المؤدية إلى الباطل متعددة. نعم، إن النور هو رمز الوحدة، بينما الظلمات رمز التفرق والتشتت. «يعدلون» من «عدل»، على وزن «حفظ» وتعني التساوي، وهي هنا بمعنى (العدل) أي الشريك، أو الشبيه، أو المثل.

□ تتناول الآية الأولى من هذه السورة «خلق نظام الكون»، والآية الثانية «خلق الإنسان»، والآية الثالثة مراقبة «أعمال الإنسان وسلوكه».

□ يقول الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «وكان في هذه الآية رد على ثلاثة أصناف منهم المنحرفون لما قال الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض فكان ردّاً على الدهرية الذين قالوا: إن الأشياء لا بدء لها وهي دائمة، ثم قال: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾^(١)، فكان ردّاً على الثنوية الذين قالوا: إن النور والظلمة هما المدبران، ثم قال: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَقْدُوتُ﴾^(٢)».

□ عن أبي إبراهيم الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أنه قال في قوله ﷻ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَقْدُوتُ﴾: «الكفار يعدلون بين الظلمات والنور وبين الجور والعدل»^(٣).

(١) جاء في كتاب «الأفستا» الحالي وهو الكتاب المقدس عند الزرادشتيين أن أهرimen هو إله الظلمات وأهورا مزدا إله النور، ويوجد بينهما صراع؛ (تفسير الكاشف).

(٢) تفسير نور الثقلين.

(٣) تفسير المياشي؛ بحار الأنوار، ج ٩، ص ٣٥٥.

التعاليم:

١ - لقد خَلَقَ الله تعالى الأشياء من العدم (أي أصل وجود الشيء)، كما قام بالجعل وهو يكون في الخصائص، والآثار، والكيفيات، التي هي نتيجة لخلق تلك المخلوقات، أي الخلق الابتدائي ﴿خَلَقَ﴾ والخلق التبعية ﴿جَمَلَ﴾.

٢ - الإشراف بالله هو، على نحو، إنكار الله وكفر به، ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَكِيدُونَ﴾.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَ رَبِّ ثُمَّ أَنْتُمْ تَعْمُرُونَ﴾

إشارات:

□ طرحت الآية السابقة المسائل الآفاقية وخلق السموات والأرض، هنا تتحدث الآية الكريمة عن خلق الإنسان وعالمه الصغير في هذه الدنيا.

□ تكررت عبارة «أجل مسمى» ٢١ مرة في القرآن الكريم.

□ لقد وضع الله تعالى لعمر الإنسان أجلين: الأول، الأجل الحتمي، وهو انقضاء العمر (كما هو الحال مع زيت السراج)، حتى لو أزيلت جميع الموانع وهُيئت له جميع الأسباب، والثاني هو الأجل غير الحتمي (الاختراמי) الذي يتعلق بأعمالنا، كالسراج المملوء بالزيت لكنه وُضع في مهبّ الرياح.

□ جاء في الروايات أنّ أعمالاً من قبيل صلة الرحم، والصدقة، والزكاة، والدعاء، وغيرها من الأعمال تسبّب طول العمر وفي المقابل، فإنّ أعمالاً مثل قطع الرحم والظلم وغير ذلك، تسبّب في قصر العمر.

□ وقد سئل الإمام الباقر عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾، فقال: «هما أجلان، أجل محتوم وأجل موقوف»^(١).

□ نقل ابن عباس أنّ الله عيّن للإنسان أجلين: الأجل الأول من الولادة حتى

الموت، والأجل الثاني، من الموت حتى يوم القيامة. فالإنسان بأعماله، ينقص من أحدهما ليضيفه إلى الثاني. إذن، فأجل كل إنسان لا يتغير، ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾^(١).

التعاليم:

- ١ - طول العمر والأجل ليس بأيدينا، ﴿هُوَ الَّذِي... قَضَىٰ أَجَلًا﴾.
- ٢ - الله تبارك وتعالى وحده المطلع على الأجل المسمى القطعي، ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾.
- ٣ - إذا كنا نعلم بأن خلق الإنسان وموته بيد الله، فلماذا إذن الشك والمرء في المبدأ والمعاد، ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُمَتَّرُونَ؟﴾

﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾

إشارات:

- رداً على عقيدة تعدد الآلهة الباطلة (إله المطر، إله الحرب، إله السلام، إله الأرض...) تقول هذه الآية: إن إله كل شيء وكل مكان واحد.
- عن محمد بن النعمان قال: سألت الإمام الصادق عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ قال: «كذلك هو في كل مكان»، قلت: بذاته، قال: «ويحك إن الأماكن أقدار، فإذا قلت في مكان بذاته لزمك أن تقول في أقدار وغير ذلك، ولكن هو بائن من خلقه محيط بما خلق علماً، وقدرةً، وإحاطة، وسلطاناً، وملكاً، وليس علمه بما في الأرض بأقل مما في السماء»^(٢).

التعاليم:

- ١ - إيقان المرء بأن علم الله يحيط بكل شيء سيحققه على العمل الصالح، وكذلك يردعه عن العمل القبيح، ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾.

(١) سورة فاطر: الآية ١١.

(٢) تفسير نور الثقلين؛ والشيخ الصدوق، التوحيد، ص ١٣٣.

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥﴾﴾

إشارات:

□ ربّما كان المقصود بـ «الأنباء العظيمة» في الآية هو فتح مكة أو هزيمة المشركين في وقعة بدر وما شابه^(١).

التعاليم:

١ - لا فرق بين نوع الدليل والآية عند الفرد اللجوج، فهو يردّها جميعاً دون تفكير، ﴿آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾.

٢ - لا بد من شحن المؤمنين بالروح المعنوية وطمأننتهم بأنّ طريقهم الحقّ ﴿بِالْحَقِّ﴾، وفي الوقت نفسه، تهديد الكفار بأنهم سيلاقون مصيراً أسودّ، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ﴾.

٣ - السخرية والاستهزاء هو الأسلوب المعتاد للكفار، ﴿كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

٤ - سقوط الإنسان يتمّ على ثلاث مراحل: الإعراض، التكذيب، الاستهزاء، وهاتان الآيتان تشيران إلى هذه المراحل جميعها، ﴿مُعْرِضِينَ... كَذَّبُوا... يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَكُمْ وَارْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾﴾

إشارات:

□ «القرن» هي الأمة الهالكة برمتها^(٢). كما تقال للقوم المقترنين في زمان من الدهر، فالمدة التي يجتمع فيها قوم ثم يفترقون بالموت هي قرن، لأن الذين

يأتون بعدهم أقوام آخرون اقترنوا فهم قرن آخر، والدليل عليه قوله ﷺ: «خير القرون قرني» واشتقاقه من الأقران، ولما كانت أعمار الناس في الأكثر الستين والسبعين والثمانين لا جرم قال بعضهم: القرن هو الستون، وقال آخرون: هو السبعون، وقال قوم: هو الثمانون والأقرب أنه غير مقدّر بزمان معيّن لا يقع فيه زيادة ولا نقصان، بل المراد أهل كل عصر فإذا انقضى منهم الأكثر قيل: قد انقضى القرن^(١).

□ «مدرار» من الدر والدرّة أي: اللبن، ويستعار ذلك للمطر، وتعني الهطول الوفير المتتابع وعلى قدر الحاجة^(٢).

التعاليم:

- ١ - من لا يأخذ الدروس والعبر من التاريخ يتعرّض إلى التوبخ، ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾.
- ٢ - الكفار في صدر الإسلام كانوا على علم بتاريخ الأمم السابقة، لذلك كان بمقدورهم استقاء العبر منها، ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾.
- ٣ - وضع مسألة زوال النعم وهلاك المجرمين نصب العين، تحدّ من الغفلة، ﴿أَلَمْ يَرَوْا... فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾.
- ٤ - لقد سبقت الإسلام حضارات لكنها انقرضت، ﴿أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.
- ٥ - من الأساليب التربوية في القرآن الكريم سرد القصص الحقيقية والمفيدة لكي يستقي الناس منها العبر، ﴿أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.
- ٦ - عذاب الذين يسيئون استخدام النعم الإلهية هو الهلاك، ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾.
- ٧ - لم تقل الآية الكريمة: «أرسلنا من السماء»، بل ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ﴾ وفي ذلك دليل على منتهى اللطف الإلهي.
- ٨ - التحوّلات والحوادث التاريخية هي النتيجة الطبيعية لأفعال الناس، ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾.

(١) تفسير الميزان؛ التفسير الكبير، الفخر الرازي.

(٢) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية ٥٢ سورة هود.

- ٩ - إهلاك الناس بسبب معاصيهم هو سنة إلهية، ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ يَذُوبِينَ﴾.
- ١٠ - مضافاً إلى عذاب الآخرة، فإن الله سبحانه يعذب في هذه الدنيا أيضاً، ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾.
- ١١ - إذا أصبحت المقدرات بيد الصالحين فإنهم سيقومون الصلاة، ﴿إِنْ مَكَتْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾^(١)، ولكن إذا صارت بيد الأشرار الذين لا إيمان لهم، أفسدوا وارتكبوا المعاصي، ﴿مَكَتْنَاهُمْ... فَأَهْلَكْنَاهُمْ يَذُوبِينَ﴾.
- ١٢ - المقدرات المادية لا تحصن المرء من العذاب والسخط الإلهي، ﴿مَكَتْنَاهُمْ... فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ كما يتوهم الكفار ﴿عَنْ أَكْثَرِ أَمْوَالِهِمْ وَأَوْلَدَاهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾^(٢).
- ١٣ - الإمكانيات المادية ليست دليلاً على التوفيق والسعادة، ﴿مَكَتْنَاهُمْ... فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾؛ إذ نقرأ في موضع آخر ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾^(٣) أن ربه استنقذ ﴿صَلَّى﴾^(٤).
- ١٤ - الموت نوعان؛ موت طبيعي، ويقع عندما يحين الأجل فينتهي عمر الإنسان، وموت غير طبيعي، وسببه العذاب الإلهي أو الحوادث الطارئة، ﴿يَذُوبِينَ﴾.
- ١٥ - لا يظنن الجبابرة الأشرار أن الدنيا طوع أمرهم ما لاح نجم في السماء، فالله تعالى يستبدلهم بقوم آخرين، ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ... وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ﴾.
- ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾^(٥)

إشارات:

□ تشير الآية الكريمة إلى طلب فريق من المشركين قالوا: لن نؤمن لك حتى ينزل عليك كتاب من السماء مع أربعة من الملائكة؛ لكنهم كانوا يكذبون، فهدفهم هو اختراع المبررات والأعذار لكيلا يؤمنوا.

(١) سورة الحج: الآية ٤١.

(٢) سورة العلق: الآيتان ٦ - ٧.

(٣) سورة سبأ: الآية ٣٥.

□ «الْقِرطاس» هو كل ما يكتب عليه سواء كان ورقاً، أو جلدًا، أو ألواحاً، أو حجارة، لكنّه اليوم يطلق على الورق.

التعاليم:

- ١ - حجاب العناد والمكابرة يحول دون رؤية أي برهان حتى ما كان محسوساً وظاهراً للعيان، ﴿فَلَسَوْهُ بِأَيِّدِهِمْ... إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.
- ٢ - تهمة السحر هي من أكثر الاتهامات شيوعاً عند المشركين ضدّ النبي الكريم ﷺ، ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَفُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾

إشارات:

□ إنهم إذا شاهدوا المَلَكَ زهقت أرواحهم من هول ما يشهدون، وتقريره: أنّ الآدمي إذا رأى المَلَكَ فإمّا أن يراه على صورته الأصلية أو على صورة البشر. فإن كان الأول لم يبقِ الآدمي حياً، وإن كان الثاني فحينئذ يكون المرئي شخصاً على صورة البشر، وذلك لا يتفاوت الحال فيه سواء أكان هو في نفسه ملكاً أم بشراً^(١).

□ في الحقيقة، إنّ روح العنجهية والتكبر لا تسمح للمرء أن يطيع بشراً مثله، فهؤلاء يقولون: كيف يجوز أن يأكل الأنبياء الطعام كما نأكل، ويمشون في الأسواق ويلبسون اللباس كما نفعل، ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَتَنَبِّئُ فِي الْأَنْتَوَاقِ﴾^(٢)؟ وكان بعضهم الآخر يقول: ﴿وَلَكِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِذْ أَخْبَرْتُمْ﴾^(٣).

التعاليم:

- ١ - لا يكف الكافرون عن البحث عن الأعذار والمبررات، فهم لا يرون الإنسان

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي؛ تفسير نور الثقلين.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٧.

(٣) سورة المؤمنون: الآية ٣٤.

جديراً بحمل الرسالة السماوية، لذلك كانوا يطلبون أن تنزل عليهم الملائكة، ﴿وَلَوْلَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَلَائِكَةَ﴾.

٢ - هكذا هي سنة الله تعالى، إذا طالب الناس بمعجزة وأصرّوا على كفرهم ولم يؤمنوا، فإنّ مصيرهم سيكون الثبور الحتمي^(١)، ﴿لَقُفِّنَى الْأَمْرُ﴾.

إنّ الأسلوب الذي درجت عليه الدعوات الإلهية هو إعطاء حرية التفكير، والاختيار، والإمهال. لذا، فإنّ اللجوء إلى طريق آخر مثل طلب نزول الملائكة أو الطعام من السماء يسلب الطالب فرصة الإمهال. وفي هذه الحالة، فإنّ الخيار الوحيد المطروح هو القبول بالدعوة لأنّ دون ذلك الهلاك.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلِيسُوتُ﴾ (٩)

إشارات:

□ «لبس» (على وزن درس) يقال: لبست الأمر على القوم لبساً إذا شَبَّهْتَهُ عَلَيْهِمْ وجعلته مشكلاً، وأصله من التستر بالثوب، إلّا أنّ كلمة «لبس» (على وزن قفل) فتعني ارتداء اللباس^(٢).

□ إذا كان النبي أو قدوة البشر ملكاً، فكيف يمكن للإنسان أن يتأسى به وهو الغارق في بحر الغرائز والشهوات؟

□ لعلّه يمكن تفسير الآية على هذا النحو: إذا كان النبي ملكاً، فلا بدّ له من أن يظهر في صورة رجل عادي، وسيؤدّي هذا إلى تشابه الأمر على الناس إن كان هذا النبي إنساناً أو ملكاً، ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم﴾.

التعاليم:

١ - سنن الله تنطوي على الحكمة، وهي لا تتغيّر وفقاً لأهواء زيد أو عمر، ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا﴾، الأداة «لو» هنا إشارة إلى أنّنا نفعل ما نريد ولا نصغي إلى الطلبات غير المنطقية.

٢ - يجب طرح نماذج وقذوات إنسانية في مجال التربية والدعوة، تجسد ريادتها في الدعوة والتطبيق، ﴿لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾.

٣ - يتم اصطفاء الرسل من بين الناس، ﴿لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾.

﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئَ رُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا

مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

إشارات:

□ الآية الكريمة تسلية للنبي الكريم بأن الأنبياء السابقين أيضاً تعرضوا للاستهزاء، وفي الوقت نفسه تهديد للمستهزئين بوجود عذاب أخروي ينتظرهم، مضافاً إلى العذاب الدنيوي.

التعاليم:

١ - يزداد الإنسان صبراً على محنته حين يتذكر مصائب الآخرين، ولا ينبغي للداعية أن يتأثر أو يضيق صدره باستهزاء المناوئين، ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئَ رُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾.

٢ - الاستهزاء هو أحد المعارك النفسية للعدو، وهو يشنها من أجل إضعاف الروح المعنوية للقادة، لذا يجب مقاومتها والتصدي لها، ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئَ رُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾.

٣ - عاقبة المستهزئين الذلة والهوان، وسيرتد كيدهم عليهم، ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا﴾.

٤ - الاستهزاء بالدين من الكبائر التي توعد الله عليها بالعذاب، ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا...﴾.

٥ - الله يحمي الأنبياء ويهلك المستهزئين، ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا...﴾.

٦ - السخرية والاستهزاء هو النهج الدائم للكفار، ﴿كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿١١﴾

إشارات:

□ ورد الأمر ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ ست مرات في القرآن الكريم. والهدف المنشود من هذا السير والسياحة هو أخذ العبرة والنظر في سيرة الماضين ومصائرهم، من أجل إصلاح السيرة، ومعلوم أن الكفار لم يعملوا بهذه الآية ولم يسعوا إلى هذا الهدف مطلقاً.

التعاليم:

- ١ - الرحلات العلمية التي تنطوي على الفائدة والعبر ممدوحة وجيدة، ﴿سِيرُوا... ثُمَّ أَنْظَرُوا﴾.
- ٢ - هزيمة أعداء الحق واندهارهم أمر محتوم، وإذا كنتم تشكون في ذلك فارجعوا إلى تاريخهم وسيروا في أرجاء العالم لتشهدوا أطلالهم وآثارهم ولتأخذوا العبرة والموعظة، ﴿سِيرُوا... ثُمَّ أَنْظَرُوا﴾.
- ٣ - عزّة المجتمعات أو سقوطها يخضع لسنن وقوانين ثابتة، فإذا وُجد مثل إنكار الحق وتكذيبه وأدى إلى هلاك ودمار المكذبين في عصر ما، فإنه يفعل الفعل نفسه في عصور أخرى، ﴿سِيرُوا... أَنْظَرُوا﴾.
- ٤ - تكذيب الأنبياء أحد عوامل سقوط الحضارات، ﴿عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.
- ٥ - المظاهر العابرة غير مهمة، بل العبرة في النتيجة، ﴿عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُنَّ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْتَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٢﴾

إشارات:

□ ذكر موضوع وجوب الرحمة على الله في موضعين من القرآن الكريم وكلاهما في هذه السورة (الآيتان ١٢ و ٥٤).

□ عبارة ﴿لَا رَبَّ فِيهِ﴾ تشير إلى القرآن الكريم وكذلك إلى يوم القيامة.

□ الخسران العظيم للكفار يتمثل في اتباعهم الأهواء بدلاً من اعتمادهم منطق الاستدلال، وانقيادهم للطاغوت بدلاً من نصرة أولياء الله تعالى، وكفرهم وجحودهم بدلاً من إيمانهم بالآخرة، وسقوطهم في النار بدلاً من اهتدائهم إلى النور.

□ كما إنَّ الله تعالى شرَّع لنا تكاليف وواجبات، فقد أوجب على ذاته المقدسة أيضاً بعض الواجبات منها هداية العباد ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾^(١)، ورزقهم: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾^(٢)، واللفظ بهم: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾^(٣)، ونصرة دينه: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾^(٤) غير أنَّ تهيئة الظروف والشروط المناسبة للانتفاع بالرحمة الإلهية تعتمد على العباد أنفسهم. كما ورد في الحديث الشريف: «مَنْ لَا يَرْحَمْ لَا يُرَحَمْ»^(٥).

□ نقل سلمان الفارسي عن رسول الله ﷺ: «إن الله خلق يوم خلق السماوات والأرض مائة رحمة، كل رحمة طباق ما بين السماوات والأرض، فجعل منها في الأرض رحمة، فيها تعطف الوالدة على ولدها، والوحش والطير بعضها على بعض، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة»^(٦).

□ يقول القرآن الكريم: إِنَّ الرحمة الإلهية شملت كل شيء: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾^(٧)، ولهذه الرحمة أمثلة وجوه عدَّة نذكر منها:

- نزول المطر: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾^(٨).
- تعاقب الليل والنهار: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾^(٩).
- بعثة النبي الكريم ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١٠).

(٦) تفسير في ظلال القرآن.

(٧) سورة الأعراف: الآية ١٥٦.

(٨) سورة الشورى: الآية ٢٨.

(٩) سورة القصص: الآية ٧٣.

(١٠) سورة الأنبياء: الآية ١٠٧.

(١) سورة الليل: الآية ١٢.

(٢) سورة هود: الآية ٦.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٢.

(٤) سورة المجادلة: الآية ٣١.

(٥) كنز العمال، ج ٣، ص ١٦٢؛ تفسير في

ظلال القرآن.

- القرآن الكريم: ﴿هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾^(١).
- التوراة: ﴿كُتِبَ مُوَمِّجٌ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾^(٢).
- الحرية: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾^(٣).
- المحبة بين الزوجين: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾^(٤).
- النباتات والفواكه: ﴿فَانْظُرْ إِلَى مَائِدِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾^(٥).
- قبول التوبة: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾^(٦).

التعاليم:

- ١ - أسلوب طرح الأسئلة والإجابة عنها هو أحد الأساليب في الدعوة والتبليغ التي أمر النبي الكريم ﷺ بممارستها، ﴿قُلْ لِّمَن ... قُلْ لِلَّهِ﴾.
- ٢ - الرحمة هي أساس الوجود، والرحمة الإلهية شملت كل شيء وكل مكان، ﴿كُتِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾.
- ٣ - كما إن مخلوقات الله في الدنيا كالرياح، والأمطار، والليل، والنهار، والنباتات، هي رحمة، فإن المعاد أيضاً رحمة، ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ﴾.
- ٤ - على الرغم من كون الرحمة الإلهية واسعة وضرورية، إلا أن بعض الناس يحرم نفسه منها، ﴿خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾.

﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(١٣)

إشارات:

□ الليل والنهار كالمهد يحتضنان البشر وجميع الخلائق ويمنحونهم السكينة والطمأنينة. يلمس بعض الخلائق السكينة في جوف الليل وبعض آخر يلمسه في وضح النهار.

(٤) سورة الروم: الآية ٢١.

(٥) سورة الروم: الآية ٥٠.

(٦) سورة الزمر: الآية ٥٣.

(١) سورة الجاثية: الآية ٢٠.

(٢) سورة هود: الآية ١٧.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٧٢.

التعاليم:

١ - الله سبحانه وتعالى موجد نظام الكون، ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ﴾، وهو أيضاً الرقيب والمسيطر عليه، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَخَذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

إشارات:

□ قيل في سبب نزول هذه الآية الكريمة: إن مجموعة من أهل مكة جاءت إلى الرسول الكريم ﷺ، وقالوا: يا محمد، إنك تركت دين قومك، ولم يكن ذلك إلا بسبب فقرك، فاقبل منا نصف أموالنا تكن غنياً على أن تترك آلهتنا وشأنها وتعود إلى ديننا، فترلت هذه الآية ترد عليهم^(١).

التعاليم:

١ - الإنسان بدافع من طبيعته وفقره يبحث غريزياً عن الملاجئ وعن حامٍ له، إلا أن المسألة الرئيسة هي إلى من يلجأ، ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَخَذُ...﴾.

٢ - لقد خلق الله تعالى السموات والأرض دون مثال أو نموذج يقلده، ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ﴾، الفاطر هو الخالق أو المبدع.

٣ - تلبية الاحتياجات وتأمينها تقع ضمن دائرة شؤون الولاية الإلهية، ﴿وَلِيًّا... يُطْعِمُ﴾.

٤ - كلّ الخلائق والأرباب محتاجون إلا الله تعالى، ﴿وَلَا يُطْعَمُ﴾.

٥ - لا بدّ للإنسان من أن يعبد الله ويؤمن بولايته لأنه خالق البشر، ورازقهم، والقائم على تلبية احتياجاتهم، ﴿فَاطِرَ... وَهُوَ يُطْعِمُ... إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾.

- ٦ - النبي الكريم ﷺ مأمور بالإعلان عن موقفه العقدي، ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ...﴾.
 ٧ - يجب على القائد أن يكون الإمام في الشريعة وأن يتبوأ المرتبة الأعلى في الإخلاص والتسليم، ﴿أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ...﴾.
 ٨ - تولي غير الله شرك، ﴿أَغْيَرَ اللَّهُ آخِذٌ وَلِيَآ... وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

إشارات:

□ الخشية على وجهين:

- أ - خشية مذمومة، مثل الخشية من الجهاد.
 ب - خشية ممدوحة، مثل الخشية من العذاب الإلهي.

التعاليم:

- ١ - خشية أولياء الله هي من عذاب الله لا من الطواغيت والناس، ﴿أَخَافُ... رَبِّي﴾.
 ٢ - الإيمان بربوبية الله تعالى، تقتضي اجتناب المعاصي، ﴿أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾.
 ٣ - الخوف من العذاب هو من العوامل الرادعة عن الانحراف والزلل، ﴿أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.
 ٤ - إفصاح الرسول الكريم ﷺ عن خشيته من يوم القيامة يترك أثراً بناءً على الآخرين، ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ... عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.
 ٥ - في إزاء إغراءات الآخرين ووعودهم، علينا أن نلجأ إلى سلاح التذكير بحساب يوم القيامة. في ضوء سبب نزول الآية الكريمة، عرفنا أنهم طرحوا على النبي الكريم تأمينه مادياً مقابل الكفت عن دعوته، فيجيبهم النبي، ﴿إِنِّي أَخَافُ... عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿مَنْ يُصِرْفَ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ (١٦)

إشارات:

□ روي عن رسول الله ﷺ قوله: «والذي نفسي بيده ما من الناس أحد يدخل الجنة بعمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل»، ووضع يده فوق رأسه وطول بها صوته^(١).
من المعلوم، بطبيعة الحال، أن الرحمة الإلهية لا تشمل سوى الأعمال الصالحة والأفراد الصالحين.

التعاليم:

- ٢ - الخطر يحق بالجميع، والخلاص من العذاب الإلهي يقتضي لطفاً خاصاً من لدنه سبحانه وتعالى، ﴿مَنْ يُصِرْفَ... فَقَدْ رَحِمَهُ﴾.
- ٣ - التسليم لله تعالى هو تمهيد لاستجلاب الرحمة الإلهية، ﴿إِنِّي أُرِثُ أَنْ أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ أَسْرُ... مَنْ يُصِرْفَ عَنْهُ... فَقَدْ رَحِمَهُ﴾.
- ٤ - لا يرد غضب الله إلا رحمته، وقبول أعمالنا وشفاعة أولياء الله هي قبسات من رحمته تعالى، ﴿مَنْ يُصِرْفَ عَنْهُ... فَقَدْ رَحِمَهُ﴾.

﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٧)

التعاليم:

- ١ - مصدر جميع الأمور واحد، لا أن الخيرات من مصدر والشرور من مصدر آخر، ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ... وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ﴾.
- ٢ - كل الآمال معقودة على الله وكل الخشية منه سبحانه، ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾.

(١) تفسير مجمع البيان؛ تفسير نور الثقلين.

٣ - لا استثناءات في شرائع الله تعالى، حتى النبي الكريم ﷺ يتوجه إلى الله في جميع الحوادث حلوها ومرها، ﴿وَأَن يَمْسَسَكَ اللَّهُ يَضْرِبَ... وَإِن يَمْسَسَكَ يَخْتَرِ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (١٨)

إشارات:

□ «القهر»، يطلق على الغلبة المقترنة بالتذليل للمقهور.
□ طرحت الآية رقم ١٤ موضوع ولاية الله تعالى ورزقه ﴿وَلِيًّا... وَهُوَ يُلْعِمُ﴾، والآية رقم ١٥ القهر والقيامة ﴿إِنِّي أَخَافُ... عَذَابُ﴾؛ أما الآية ١٦، فتتحدث عن النجاة والرحمة الإلهية، ﴿...فَقَدْ رَجِمْتُ﴾؛ في حين نقرأ في الآية رقم ١٧، حلولاً للمشاكل ونيل الخيرات ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾، وصولاً إلى هذه الآية الكريمة التي تطرح القدرة المطلقة لله سبحانه وتعالى، ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾.

التعاليم:

١ - علينا أن لا نخشى الآخرين، فقدرة الله فوق جميع القدرات، ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾.
٢ - قدرة الله سبحانه وقاهريته، مقرونتان بحكمته وعلمه، ﴿الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾.
٣ - النفع والضرر الإلهيان يستندان إلى حكمته وعلمه تبارك وتعالى، ﴿يَمْسَسَكَ اللَّهُ يَضْرِبَ... يَمْسَسَكَ يَخْتَرِ... وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾.

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَهْلُكُمْ لِتَشْهَدُوا أَنتَ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (١٩)

إشارات:

□ يذكر المفسرون أن عدداً من مشركي مكة جاؤوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا:

كيف تكون نبياً ولا نرى أحداً يؤيدك؟ وحتى اليهود والنصارى الذين سألناهم لم يشهدوا بصحة أقوالك بحسب ما عندهم في التوراة والإنجيل، فاثنتا بمن يشهد لك على رسالتك. والحقيقة أنّ هذه الآية التي نزلت في عصر غربة الإسلام تُنبئ عن المستقبل المشرق الذي ينتظر الرسالة العالمية للإسلام^(١).

□ ويقول الإمام علي عليه السلام في تفسير عبارة: ﴿أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾: «واعلم يا بني أنّه لو كان لربك شريك لأتتك رُسُله، ولرايت آثار ملكه وسلطانه»^(٢).

□ أتى رسول الله صلى الله عليه وآله بأسارى فقال لهم: «هل دعيتم إلى الإسلام؟» قالوا: لا، فخلّى سبيلهم، ثم قرأ ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ لِأَتَذْكُرَ بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾، ثم قال: «خلّوا سبيلهم حتى يأتوا مأمّتهم من أجل أنّهم لم يدعوا»^(٣).

□ وعن الإمام الصادق عليه السلام في هذه الآية: «ومن بلغ أن يكون إماماً من آل محمد (صلوات الله عليهم) فهو ينذر بالقرآن كما أنذر به رسول الله صلى الله عليه وآله»^(٤).

□ إنّ غريزة دفع الضرر لدى الإنسان، في العادة، هي أقوى من جلب المنفعة، من هنا يؤكد القرآن الكريم على مسألة الإنذار والوعيد، ﴿لِأَتَذْكُرَ بِهِ﴾ وفي آيات أخرى نقرأ: ﴿إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾^(٥) ﴿وَأَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾^(٦).

□ فسّرت روايات عدّة عبارة ﴿وَمَن بَلَغَ﴾ بالأئمة المعصومين عليه السلام^(٧).

□ وسُئل الإمام الصادق عليه السلام عن قوله صلى الله عليه وآله: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ لِأَتَذْكُرَ بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾. فقال: «من بلغ أن يكون إماماً من آل محمد فهو ينذر بالقرآن كما أنذر به رسول الله صلى الله عليه وآله»^(٨).

التعاليم:

١ - شهادة الله تعالى كافية لإثبات حقيقة دعوة النبي الكريم صلى الله عليه وآله، ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ﴾.

- | | |
|--|------------------------------|
| (١) مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ٤، ص ٤٣٦. | (٥) سورة فاطر: الآية ٢٣. |
| (٢) نهج البلاغة، الرسالة ٣١. | (٦) سورة العنكبوت: الآية ٥٠. |
| (٣) تفسير الدر المنثور. | (٧) تفسير العياشي. |
| (٤) تفسير الصافي. | (٨) الكافي، ج ١، ص ٤١٦. |

٢ - الغفلة، والسهو، والنسيان، ومحدودية إمكانية الإنسان، تحدّ من قدرته على استقاء الأخبار، مضافاً إلى بعده عن الإحاطة التامة بهذه الحوادث (بعكس الله تعالى)، لهذه العوامل والأسباب فإنّ الله سبحانه هو أفضل الشهود، ﴿أَكْبَرُ شَهِدَةً قُلُوبُ اللَّهِ﴾.

٣ - القرآن الشاهد الأكبر على رسالة النبي الأكرم ﷺ، ﴿اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ... هَذَا الْقُرْآنُ﴾.

٤ - لغة التذرّ والوعيد أكثر تأثيراً وأعظم وقعاً في نفوس الغافلين، ﴿لَا تُذِرْكُمْ﴾.

٥ - رسالة النبي الأعظم ﷺ لجميع الأجيال وفي جميع العصور، ﴿لَا تُذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾.

٦ - لا تقرير ولا مسؤولية ما لم يتمّ إبلاغ القانون إلى الناس، ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾؛ فالعقوبة بدون إبلاغ أمرٌ قبيح كما يقال في علم الأصول.

٧ - من الشروط اللازمة للقائد الإلهي: الإيمان بالشرعية ﴿وَأَوْحَى إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنُ﴾، والأمل بالمستقبل ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾، والتحلي بالصلافة والحزم ﴿قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾، والبراءة من الشرك، ﴿وَلَا تَنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَلَكْتَبَ يَمْرُؤُهُمْ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٠)

إشارات:

□ هذه الآية تشاكل الآية ١٤٦ من سورة البقرة.

□ لقد ذكر اسم وصفات النبي الأكرم ﷺ في العهدين القديم والجديد (التوراة والإنجيل) وكان علماء أهل الكتاب ينتظرونه بوصفه النبي الموعود ويبشرون الناس بظهوره، وكذلك ذكرت أخلاق النبي وأصحابه في كتبهم: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ... ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَيْتُونَةٍ...﴾ (١).

□ معرفة الابن هي أقدم معرفة وأكثرها أصالة، ذلك أَنَّ الإنسان يعرف ابنه منذ ولادته، بينما معرفة الأخ والأب والأم تبدأ بعد شهور من الولادة، كما إِنَّ معرفة الزوجة تحصل بعد الزواج. من هنا، فَإِنَّ الآية الكريمة تقول: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾.

التعاليم:

- ١ - لقد أتمَّ الله تعالى الحجة لأهل الكتاب، فهم كانوا يعرفون نبي الإسلام حقَّ المعرفة، ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾.
- ٢ - يجب أن تكون صفات النبي واضحة بشكل لا يلتبس أمره على أحد، ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾.
- ٣ - ليس بالعلم والمعرفة ينجو الإنسان، فما أكثر المتخصصين في الإلهيات، والنبوة، والأديان، الذين أصبحوا من الخاسرين بسبب لجاحهم وعنادهم، ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾.
- ٤ - مآل كتمان الحق سوء العاقبة والإضرار بالنفس، ﴿خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾﴾

إشارات:

□ يستخدم القرآن الكريم تعبير ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ في خمسة عشر موضعاً، ويشمل حالات الافتراء على الله، وصّد الناس عن المسجد، وكتمان شهادة الحق. وفي ذلك دلالة واضحة على أَنَّ الظلم الثقافي وصّد الناس عن الفهم والكمال هو من أسوأ الظلم الذي يُرتكب بحق المجتمع.

التعاليم:

- ١ - كلما كان الشيء عزيزاً ومقدساً كان خطر الظلم بحقه أعظم، لذلك فَإِنَّ الافتراء على الذات الإلهية المقدسة لهو أعظم الظلم، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾.

٢ - الظلم بحق الفكر الإنساني والثقافة الإنسانية هو أسوأ الظلم، ومن أمثلته: الشرك، الافتراء على الله تعالى، ادعاء النبوة، البدعة، التفسير بالرأي، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمَاعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا آيِنَ
شُرَكَائِكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾

إشارات:

□ المؤاخذه والإذلال للمشركين في يوم القيامة، دليل حرمانهم الفلاح، وقد أشارت إلى ذلك الآية السابقة.

□ صحيح أن الآية الكريمة تتناول موضوع الشرك، غير أن الذين يرضون بولاية غير أولياء الله ويناصبون أولياء الله المعصومين العداء ويحاربونهم، هم، بنحو ما، مشركون. نقرأ في الزيارة الجامعة الكبيرة عبارة: «ومن حاربكم مشرك»^(١)؛ وفي رواية نقلاً عن المعصوم أن: «الراد علينا كالراد على الله وهو على حدّ الشرك بالله»^(٢).

التعاليم:

- ١ - القيامة هي يوم جلاء حقبة التوحيد للمشركين، ﴿آيِنَ شُرَكَائِكُمُ﴾.
- ٢ - الشرك وهم لا أكثر، ﴿تَزْعُمُونَ﴾.

﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾
﴿أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾

إشارات:

□ قال الإمام الصادق عليه السلام في المقصود بالفتنة في قوله ﷻ: ﴿لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾:

«اعتذار المشركين»^(١).

□ «ضَلَّ الشَّيْءُ» بمعنى ضاع وهلك^(٢).

□ الكَذَابُ يكذب في يوم القيامة أيضاً بسبب تطبعه على الكذب في الدنيا، ﴿وَاللَّهُ رَئِيْنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، وجاء في آية أخرى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَلْفُفُونَ لَهُ كَمَا يَلْفُفُونَ لَكُرٍّ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَوْءٍ آلَا إِنَّمَا هُمْ أَكْذِبُونَ﴾^(٣).

□ عن الإمام علي عليه السلام في حديث طويل: «ثُمَّ يَجْتَمِعُونَ فِي مَوْطِنٍ آخِرٍ فَيَسْتَنْطِقُونَ فِيهِ، فَيَقُولُونَ: وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ، فَيَخْتَمُ اللَّهُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَيَسْتَنْطِقُ الْأَيْدِي، وَالْأَرْجُلُ، وَالْجُلُودُ، فَتَشْهَدُ بِكُلِّ مَعْصِيَةٍ كَانَتْ مِنْهُمْ»^(٤).

□ وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ يَعْفو بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ عَفْوًا لَا يَخْطُرُ عَلَىٰ بَالِ أَحَدٍ، حَتَّى يَقُولَ أَهْلُ الشَّرْكِ: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (لكي يشملهم العفو)»^(٥).

التعاليم:

١ - يوم القيامة يوم محتوم كأنه حاضر الآن، بدلالة قول الآية ﴿أَنْظَرُ﴾ ولم تقل: «ستنظر»، (بإمكان النبي الكريم ﷺ وهو في هذه الدنيا أن يرى بعينه الملكوتية النافذة مشاهد ومواقف من يوم القيامة).

٢ - كل ملجأ أو سند غير إلهي زائل، ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾.

٣ - في المحكمة الإلهية لن ينفع الإنسان كذبه ولا قسَمه، ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَقَرُّونَ﴾.

٤ - كل هذا التصميم والإصرار على الاحتماء بالملاجئ غير الإلهية لا يعدو كونه وهماً، ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَقَرُّونَ﴾.

(٤) تفسير كثر الدقائق.

(٥) تفسير العياشي.

(١) تفسير مجمع البيان.

(٢) لسان العرب.

(٣) سورة المجادلة: الآية ١٨.

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَلَنْ يَرَوْا كَلِمًا إِلَّا
لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٢٥﴾

إشارات:

□ قيل في سبب نزول هذه الآية الكريمة: إنَّ عدداً من زعماء قريش من بينهم أبو سفيان، والوليد بن المغيرة، وشيبة، والنضر بن الحرث، كانوا يستمعون إلى النبي الكريم ﷺ وهو يتلو آيات من القرآن الكريم، فسأل أبو سفيان النضر بن الحرث: ما يقول محمد؟ قال: ورب الكعبة أرى تحريك شفتيه وما يقول إلا أساطير الأولين مثل ما أحدثكم عن القرون الماضية، وكان النضر صاحب قصص وأسفار، فسمع أفاصيص في ديار العجم مثل قصة رستم وإسفنديار فكان يحدثهم، ثم نزلت هذه الآية^(١).

□ «أكِنَّة» جمع «كن» أو «كنان» وهو الغطاء، أو الستار، أو الحاجز. و«الوقر» بمعنى ثقل السمع. و«الأساطير» جمع «أسطورة» نحو أحداثثة وأحاديث وهي مشتقة من السطر وهو الشيء الممتد المؤلف كسطر الكتاب، والأساطير هي الأباطيل والترهات التي ينجذب المرء لسماعها.

□ الأكِنَّة والوقر هو لجهة روح اللجاج التي يتَّصف بها المشركون، يقول القرآن الكريم: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا أَرْغَبَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾^(٢).

□ تحدّثت الآية السابقة عن المشركين، فيما تعبّر هذه الآية عنهم باستخدام وصف «الذين كفروا» وفي هذا دلالة على أنّ المشركين كافرون.

التعاليم:

١ - لا بدّ للأنبياء والزعماء الإلهيين من أن تكون لهم إحاطة بعقليّة الكفّار والمناوئين وبألاعيهم، ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ﴾.

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٤، ص٤٤٢. (٢) سورة الصف: الآية ٥.

- ٢ - لا تياسوا من كل الكفار، فإن بعضهم فقط يتصف باللجاج والعناد وليسوا جميعاً كذلك، ﴿وَمِنْهُمْ﴾.
- ٣ - الاستماع إلى تلاوة القرآن يكون قيماً حينما تسكن كلماته سويداء القلب، ﴿أَكِنَّهُ أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾.
- ٤ - يصر الكفار على إنكارهم، وبسبب هذا الإصرار والعناد يضع الله تعالى أكنة على قلوبهم، ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلاًّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾.
- ٥ - اللجاج داء لا دواء له، وهو كالمرأة المعوجة التي تعكس صور الأشياء الجميلة بشكل معوج وقبيح، ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلاًّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾.
- ٦ - من كان يبغي الجدال ويضمّر روحاً سلبية منطلقاً من خلفية سابقة ونوايا سيئة، فلن يجني فائدة حتى لو كان جليس الأنبياء، ﴿جَاءَكَ وَكَانَ يُجَادِلُكَ...﴾.
- ٧ - لم ينهج الكفار أي أسلوب صحيح ومنطقي في مواجهة النبي الكريم، فلجؤوهم إلى أسلوب الجدال والافتراء دليل افتقارهم للمنطق السليم، ﴿يُجَادِلُوكَ...﴾.

﴿وَهُمْ يَتَهَوَّنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٢٦)

إشارات:

- «يناون» مشتقة من «نأى» أي ابتعد.
- بعض المفسرين من أهل السنة - وللأسف - يفسرون هذه الآية في أبي طالب والد الإمام علي عليه السلام، قائلين إنه كان ينهى عن أذى النبي الكريم ﷺ، لكنه لم يؤمن وكان ينأى بنفسه عن الإسلام والإيمان، ويستدلون على قولهم هذا بآيات من القرآن الكريم (مثل الآية ١١٣ من سورة التوبة والآية ٥٦ من سورة القصص)، هذا فيما يؤمن جميع أتباع مذهب أهل البيت عليه السلام بأن أبا طالب كان من أفضل المسلمين إيماناً، ويطرحون العديد من أدلة عدة تثبت رأيهم هذا، وسنشير هنا إلى بعض منها:

- ١ - من الأدلة الدامغة على هذا الموضوع ما قاله النبي الكريم ﷺ نفسه حول إيمان أبي طالب.
- ٢ - دعم أبي طالب اللامحدود للنبي الكريم ﷺ في أحلك الظروف.
- ٣ - ما ورد من آيات شعرية لأبي طالب عن النبي الكريم وارتباطه بالله تعالى.
- ٤ - وصاياه إلى زوجته، وولده، وأخيه الحمزة، في وجوب دفاعهم عن الإسلام والصلاة والنبي الأكرم ﷺ.
- ٥ - الحزن والغم الشديد الذي أصاب النبي الأعظم ﷺ بسبب وفاة أبي طالب.
- ٦ - ما ذكره أبو بكر والعباس من أنّ أبا طالب نطق بالشهادتين «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمداً رسول الله» حين حضرته الوفاة.
- ٧ - صعد النبي الكريم ﷺ المنبر ودعا لأبي طالب ثم شارك في تشييع جنازته، وأمر الإمام علياً عليه السلام بتجهيزه. لم يصل عليه لأن صلاة الميت لم تكن قد شرعت بعد، وكما حصل مع السيدة خديجة.
- ٨ - في كتابه إلى معاوية يذكر الإمام علي عليه السلام الفرق الشاسع بين والده أبي طالب وبين والد معاوية أبي سفيان.
- ٩ - حديث رسول الله ﷺ الذي يقول فيه إنه في يوم القيامة سيكون شفيع أبويه وعمه أبي طالب.
- ١٠ - جاء في الحديث الشريف أنّ الله تعالى أوحى إلى رسوله الكريم ﷺ بأنّه قد حرّم النار عليه وعلى أبويه وكفيله.
- ١١ - إنّ إسلام السيدة فاطمة بنت أسد عليها السلام أمرٌ مسلم به، وهي سيدة لها سبق في الإسلام وكانت من أوائل النساء المؤمنات والمهاجرات، ولو لم يكن أبو طالب قد أسلم لما أجاز النبي الكريم ﷺ أن تبقى فاطمة بنت أسد زوجة له^(١).

التعاليم:

- ١ - ما فتى الكفار والمشركون يسعون إلى وضع العصي في الدواليب وصد الناس عن الاستماع إلى آيات القرآن الكريم، ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ...﴾.
- ٢ - عدم الإذعان لصوت الحق يعني إهلاك الإنسان لنفسه، ﴿وَلَنْ يُّؤْمِنُوا إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾.
- ٣ - الفهم والمعرفة الحقيقية هي في العثور على طريق الحق، أما عدم الفهم واللامعرفة فهو أن يضل الإنسان، أيّاً كان، طريق الحق ويسهو عن القائد الحق، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿وَلَوْ رَزَيْنَا إِذْ وَقَعُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيِّنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧)

إشارات:

- بحسب آيات القرآن الكريم، فإن تمتي العودة إلى الدنيا تخطر ببال الإنسان حين الاحتضار وفي جوف القبر وفي يوم القيامة، ﴿رَبِّ أَرْجِعُونِي ۖ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا...﴾^(١)، وفي جهنم أيضاً ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾^(٢).
- في الآية ٢٣ أنكر المشركون شركهم، لكنهم في هذه الآية رجعوا عن إنكارهم واعترفوا بذلك وتمنوا العودة إلى الحياة الدنيا للتعويض عما فاتهم.

التعاليم:

- ١ - يرتعب الكفار حين يُعرضون على النار، فتأخذهم الذلة والهوان ويستغيثون ﴿إِذْ وَقَعُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا﴾، إن مواطن يوم القيامة ومشاهدها عديدة، ففي مواطن يستغيث المجرمون، وفي موطن آخر يُختم على أفواههم.
- ٢ - التكذيب بآيات الله يورث الندم في الدار الآخرة، ﴿إِذْ وَقَعُوا... فَقَالُوا يَلَيِّنَا﴾.

٣ - فلنؤمن ما دامت توجد فرصة سانحة، لأنه ما من عودة في الآخرة، ﴿يَلَيِّنَا تَرْدُ﴾. فمن جملة الأمانى والحسرات التي يطلقها الكفار في يوم القيامة العودة إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا، ﴿وَلَا تَكْذِبْ... وَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخَفُّونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾

إشارات:

□ يوم القيامة، هو يوم يكشف فيه عن سرائر الناس، وقد أشار القرآن الكريم مراراً إلى هذه الحقيقة. على سبيل المثال: ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾^(١) ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾^(٢).

التعاليم:

١ - في يوم القيامة يكشف عن جميع الأسرار وتبلى سرائر البشر ويُعلن عنها، ﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخَفُّونَ﴾.

٢ - العودة من الآخرة إلى الدنيا أمرٌ محال، ﴿وَلَوْ رُدُّوا﴾.

٣ - ثمة أناس لا أمل في إصلاحهم مطلقاً، فحتى لو مُنحوا فرصة أخرى كما يطلبون، فسيعودون إلى ما كانوا عليه، ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا﴾.

نعم، حين يتعرض الإنسان إلى المحن والشدائد في الدنيا يتخذ بعض القرارات، ولكن عندما يعود إليه الأمان والاستقرار، ينسى كل شيء.

٤ - حينما يغدو الكذب خصلة وعادة للإنسان، لا يترك عادته حتى في يوم القيامة، ﴿وَلَئِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ كما قرأنا في الآية الشريفة أن المشركين يحلفون كذباً ويقولون: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (٢٩) وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ تُفْعَلُونَ عَلَىٰ رَيْبِهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾

إشارات:

□ تكررت العبارة ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ في الآيتين ٢٧ و ٣٠، لترسم بعض الملامح من المواقف العصبية في يوم القيامة ولتكون خطوة على طريق هداية الناس.

□ تقول الآية ٣٠: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَخَاطِبُ الْمَجْرِمِينَ، في مقابل وجود آيات تنفي هذا الأمر، ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾، ومرّد ذلك قد يكون إلى المواطن والمواقف المختلفة التي تتوالى في يوم القيامة، أو ربّما المراد هو أنّه تعالى لا يكلمهم بكلام يطيب به خواطرهم ويفرح قلوبهم.

□ في الآية ٢٢، يؤاخذ الله تعالى الكفّار على إنكارهم التوحيد فيقول: ﴿أَيَّنْ شُرَكَاءُكُمْ﴾، وفي الآية ٢٧ يؤاخذهم بسبب تكذيبهم النبوة: ﴿وَلَا تَكْذِبْ يَٰأَيُّهَا رَّبِّنَا﴾؛ أمّا في الآية ٣٠ فيؤيّدتهم لإنكارهم يوم القيامة، ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾.

□ لقد طرح الإسلام على البشر أنواعاً متعدّدة من الحيوانات:

- ١ - الحياة الدنيا، ﴿زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(١).
- ٢ - حياة البرزخ، ﴿وَمِنْ دَرَائِهِمْ بَرَزَخٌ إِلَىٰ يَوْمٍ يُبْعَثُونَ﴾^(٢).
- ٣ - الحياة المعنوية والهداية، ﴿دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾^(٣).
- ٤ - الحياة الاجتماعية، ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾^(٤).
- ٥ - الحياة الطيبة (في ظلّ القلب المطمئن والقناعة)، ﴿فَلَنُخَيِّطَنَّهُمْ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾^(٥).

(٤) سورة البقرة: الآية ١٧٩.

(٥) سورة النحل: الآية ٩٧.

(١) سورة طه: الآية ١٣١.

(٢) سورة المؤمنون: الآية ١٠٠.

(٣) سورة الأنفال: الآية ٢٤.

التعاليم:

- ١ - يتَّصف المشركون بالنظرة السطحية والمادية ويعتقدون أنَّ الحياة مقتصرة على هذه الدنيا فقط، وهم ينكرون البعث والنشور، ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾.
- (ورد في آية أخرى من القرآن الكريم أنَّ المشركين يعتبرون الأصنام شفعاء لهم، ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا﴾^(١)، والمقصود بذلك الشفاعة في الدنيا)^(٢).
- ٢ - يسلي الله تعالى نبيه الكريم ﷺ بأنَّ عنادهم ولجاجهم لن يمرَّ دون عقاب، ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾.
- ٣ - يُحبس المجرمون كالأسرى الأذلاء، ﴿إِذَا يُنْفَخُ﴾.
- ٤ - لن تنفع الكفَّار والمشركين اعترافاتهم في يوم القيامة، ﴿قَالُوا بَلَىٰ... فَذُقُوا﴾.
- ٥ - في يوم القيامة سوف يحلف الكفَّار مرَّات عدَّة، ﴿وَاللَّهُ رِيَّتَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ - ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾.
- ٦ - عذابات يوم القيامة هي بسبب الإصرار على الكفر وإنكار المعاد في الدنيا، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ... فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.
- ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَفْتَةٍ قَالُوا يَحْسَرُنَا عَلَىٰ مَا قَرَطْنَا بِهَا وَهُمْ يُحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزُونُ﴾^(٣)

إشارات:

- المراد بـ «لقاء الله»، هو اللقاء المعنوي والشهود الباطني في يوم القيامة، لأنَّه في ذلك اليوم ستقطع كلَّ علائق الإنسان من مال وجاه وأقارب، وسيواجه الثواب أو العقاب الإلهي والحاكمة المطلقة لله تعالى.
- الحسرة على ما فات من المنافع، والندم على استقبال العذاب والأهوال^(٣).

(١) سورة يونس: الآية ١٨.

(٢) تفسير أطيب البيان.

(٣) تفسير الميزان.

□ «الساعة» هي يوم القيامة، وسميت كذلك للإشارة إلى حدوثها بغتة وفجأة وفي لحظة واحدة كالبرق. (جاء في الآية ٧٧ من سورة النحل: ﴿وَمَا أَمُرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَنَفْحِ الْبَصْرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾).

□ جاء في حديث للرسول الأكرم ﷺ: «يرى أهل النار منازلهم من الجنة فيقولون يا حسرتنا»^(١).

التعاليم:

- ١ - من لا يؤمن بيوم القيامة، فقد باع نفسه للدنيا الفانية، ويا له من خسران كبير، ﴿قَدْ خَسِرَ﴾.
- ٢ - ستقوم الساعة بغتة، فلا أحد يعلم بموعد قيامها، لذا علينا الاستعداد والتهيؤ لها دائماً، ﴿جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾.
- ٣ - يوم القيامة هو يوم الحسرة، ﴿يَحْزَنُونَ﴾.
- ٤ - الاعتراف وإبداء الحسرة والندم علامة على حرية الإنسان، ذلك أنه كان باستطاعته أن يعمل صالحاً لكنه لم يفعل، ﴿يَحْزَنُونَ﴾.
- ٥ - القيامة يوم الحسرات، لكن لن تنفع الحسرة في ذلك اليوم، ﴿قَالُوا يَحْزَنُونَ... وَهُمْ يَحْمِلُونَ﴾.
- ٦ - في يوم القيامة تتجسم المعاصي، ويقوم الإنسان بحملها على ظهره، ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾.
- ٧ - التكذيب بيوم القيامة أو نسيانها يدفع الإنسان إلى ارتكاب المعاصي، فتكون أوزاراً ووبالاً عليه، ﴿كَذَّبُوا... أَوْزَارَهُمْ﴾.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾

إشارات:

□ إذا لم تكن الدنيا مزرعة الآخرة، فستضحى لهواً ولعباً، والناس أطفال

وألعابهم زخارف الدنيا مثل المال والجاه، وتصبح الدنيا أشبه بحفلة تنكرية، واحد يتزيى بزيّ الملك، وآخر يتزيى بزيّ الخادم، وثالث بزيّ الوزير، ولكن بعد أن تنتهي الحفلة ويخلع الجميع أزياءهم، يتخلّى كلّ واحد عن دوره، ويثوب إلى رشده، ويفيق من غفلته، ويوقن بأنّ كل تلك المظاهر والعناوين لم تكن سوى وهم وخيال.

□ وصف الآخرة بالخير لعدم شوب ملذّاتها بالعذاب والألم، ولأنّها ليست بزائلة ولا هي وهم وخيال.

□ في ضوء آيات القرآن الأخرى يجب أن لا ننظر إلى هذه الآية بوصفها دعوة إلى الرهينة والعزوف عن الدنيا.

□ «اللعب»، أصل الكلمة للعب، وهو البزاق السائل، ولعب لعباً ولعب: سال لعبه، ولعب فلان: إذا كان فعله غير قاصد به مقصداً صحيحاً، و«اللهو» ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه^(١).

□ تشبيه الدنيا باللهو واللعب ناشئ عن أمور عدّة:

أ - الدنيا مؤقتة كما اللعبة.

ب - الدنيا مثل اللعبة تحتوي على اللهو والتعب، وهي مزيج من الحلاوة والمرارة.

ج - المغفلون الذين لا هدف لهم يجعلون من الألعاب شغلهم الشاغل.

د - اللهث وراء الدنيا أشبه باللعبة، يلهي الإنسان عن أهدافه المهمّة.

التعاليم:

١ - الانشداد إلى الدنيا وجعلها غاية نهائية، هي رؤية صبيانية وخاوية، فاللهو واللعب هو من عمل الأطفال والانشغال بالدنيا يلهي الإنسان عن الآخرة، ﴿لَيْبٌ وَلَهْوٌ﴾.

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات.

- ٢ - التدبّر والتعقّل هو طريق النجاة من حشرات الآخرة، ﴿يَحْصِرُنَا... أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.
- ٣ - العاقل من لم تخدعه الدنيا، ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ... أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.
- ٤ - عدم التفكير هو مقدّمة للانشغال بالدنيا والانصراف عن الآخرة، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.
- ٥ - الغفلة عن الآخرة مدعاة للتويخ، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.
- ٦ - التعقّل والتقوى متلازمان، ﴿يَنْقُوتُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾

إشارات:

□ قيل في سبب نزول هذه الآية الكريمة: كان المشركون على علم بأن النبي الكريم ﷺ صادق، ولكن كانوا يقولون متى كنّا تبعاً لبني عبد مناف، وأحياناً كانوا يقولون: إنّه لصادق لكنّه يخيل إليه أنّه يوحى إليه، لذلك كانوا يكذبون بآيات الله.

□ عن الصادق عليه السلام في قوله ﷻ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ قال: «لا يستطيعون إبطال قولك»^(١).

التعاليم:

- ١ - لا ينبغي للقائد أن يغمّ ويحزن لتكذيب المعارضين، لهذا السبب نجد أنّ الله تعالى يعزي نبيه ويسّليه، ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ﴾.
- ٢ - الله تعالى عليم بسريرة الإنسان وما يستبطن، ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ﴾.
- ٣ - تكذيب النبي، تكذيب الله تعالى، كما إنّ بيعة النبي هي بيعة الله، ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.
- ٤ - إذا تأملنا المشاكل الكبيرة، والتكذيب، والوقاحة، التي يتعرض إليها الآخرون، سوف تهون علينا مشاكلنا، ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ... بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

٥ - أعداء رسول الله يعادون الدين لا الشخص، ﴿لَا يَكْذِبُونَكَ... يَا أَيَّتُهَا اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

٦ - تكذيب آيات الله ظلم للنفس، وظلم لرسول الله ﷺ وظلم للدين، وكذلك ظلم للأجيال اللاحقة، ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ يَتَابِعُوا اللَّهَ يَجْحَدُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنْتَهُمْ نَصَرْنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢٤)

إشارات:

□ «الكلمات» في الآية، هي السنن الإلهية: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ (١).

□ يشكل التاريخ مصدراً لمعرفة الحوادث، ولا بد من أخذ العبر والدروس من تلك الحوادث من قبيل صبر وجلد الأنبياء الماضين وهلاك الأقوام المختلفة التي كذبت رُسُلها مثل هود وصالح ولوط. إنَّ الله سبحانه وتعالى سنناً في الأرض تتمثل في إرسال الرسل والأنبياء إلى مختلف الأمم والأقوام ليختاروا بملء إرادتهم طريق الهداية أو الضلال، فيعذب الكافرين بكفرهم ويمدِّ الأنبياء والمرسلين بمددٍ من عنده.

□ لقد أوجب الله تعالى على نفسه في آيات متعدّدة دعم ونصرة القادة المؤمنين وأتباعهم الصابرين، من هذه الآيات نذكر:

- ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ (٢).
- ﴿وَكَاثَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣).
- ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ (٤).
- ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ (٥).

(٤) سورة غافر: الآية ٥١.

(١) سورة الصافات: الآيات ١٧١ - ١٧٣.

(٥) سورة الحج: الآية ٤٠.

(٢) سورة المجادلة: الآية ٢١.

(٣) سورة الروم: الآية ٤٧.

التعاليم:

- ١ - لم يكن طريق الحق يوماً سهلاً معيَّداً، فأهداف الأنبياء لم تتحقق إلا بعد تحمل الصعاب والشدائد، ﴿فَصَبِّرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا﴾.
- ٢ - من أهم أساليب المقاومة إزاء الشدائد والمحن استعراض المدد الإلهي، ﴿فَصَبِّرُوا... حَتَّى أَنَّهُمْ نَصَرُوا﴾.
- ٣ - لم يكن القادة ينتظرون الطاعة والقبول من الجميع، ﴿كُذِّبُوا﴾.
- ٤ - النصر معقود بناصية الصبر، ﴿فَصَبِّرُوا... حَتَّى أَنَّهُمْ نَصَرُوا﴾، يبشّر الله الصابرين بالنصر.
- ٥ - لا يالو الأعداء جهداً لمحاربة الحق، سواء أكان ذلك بالكذب أم التعذيب، ﴿كُذِّبُوا وَأُذُوا﴾.
- ٦ - الثبات على الصبر سبب نزول النصر والرحمة الإلهية، ﴿فَصَبِّرُوا... حَتَّى أَنَّهُمْ نَصَرُوا﴾.
- ٧ - النصر للحق، ﴿أَنَّهُمْ نَصَرُوا﴾.
- ٨ - السنن الإلهية ثابتة لا تتغير، والله لا يخلف وعده، ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾.
- ٩ - لكلّ منّا نماذج مشابهة له في التاريخ عليه أن يبحث عنها، يخاطب الله تعالى نبيه الكريم ﷺ بالقول: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّئِ الْمُرْسَلِينَ﴾.
- ١٠ - يجب أن نتذكر جهود وآلام الماضين بالتقدير والاحترام، ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّئِ الْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿وَإِنْ كَانَ كِبَرُ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اَسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَاتِنَا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾

إشارات:

□ ورد في سبب نزول الآية: أَنَّ الْكُفَّارَ كَانُوا يَقُولُونَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَنْقُبَ الْأَرْضَ وَتَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ نَبْعَ مَاءٍ: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ

تَفْجَرُ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يُنْبِئُكُمْ^(١)، أو أن تصعد إلى السماء: ﴿أَوْ تَرَفَّ فِي السَّمَاءِ﴾^(٢)، ربّما تشير الآية إلى طبيعة الطلبات غير المنطقية لهؤلاء الكفار، فهم يقولون: لو تحفر الأرض، أو تضع سلماً إلى السماء، أو تفعل المستحيل لنا، فمع ذلك لن يجدي ذلك نفعاً لأننا لن نؤمن لك، إذن، ما من نقص يشوب دعوتك، بل النقص فيهم، فقد تمرّسوا اللجاج، لذا، لا تحزن على عدم هدايتهم ولا تجزع.

التعاليم:

- ١ - كان النبي ﷺ يحرص على هداية الناس وكان يفتّم لإعراضهم، ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾.
- ٢ - لا بدّ للنبي من أن يحيط بنفسيات مخاطبيه وأن يعلم بأنّه يوجد فريق منهم لن يؤمن مهما جاءهم بالمعجزات، ﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾.
- ٣ - كان هدف النبي ﷺ هداية الناس بأيّ وسيلة كانت، إلّا أنّ المشكلة هي في روح اللجاج التي كانت تسكن هؤلاء الكفار، وهو ما يحذّره الله تعالى منه، ﴿تَبْنِيْ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ﴾.
- ٤ - الله تعالى قادر على هداية الجميع، إلّا أنّ حكمته تقتضي أن يحيل ذلك إلى إرادة الإنسان ليختار ما يشاء، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾.
- ٥ - تحقيق مطالب المتحجّجين وجزع الدعاة هو بمثابة جهل، ﴿فَلَا تَكُونُوا مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾؛ الجهل هو مصدر معظم المطالبات غير المنطقية.

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾

إشارات:

□ لقد وصف القرآن الكريم مراراً وتكراراً غير المؤمنين بالموتى والصمّ. ففي الآية

٨٠ من سورة النمل والآية ٥٢ من سورة الروم ورد: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكَلِمَةَ وَلَا تَسْمَعُ الْقَوْلَ إِلَّا مَا وَدَّ مَذِينٌ﴾.

التعاليم:

- ١ - الإنسان حرّ في اختيار طريقه، ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ...﴾.
- ٢ - الاستماع إلى صوت الحق والإيمان به، دليل على وجود الروح المعنوية والحياة في القلب. فالميت هو من لا حياة معنوية له ولا يسلم بالحق، ليست الحياة الأكل والنوم، فالحيوانات أيضاً تأكل وتنام، ﴿وَالْمَوْتُ...﴾.
- ٣ - عليك بالقلوب المتعطشة للحق، وعليّ بالكفار لأحاسيسهم بعد البعث والنشور، ﴿وَالْمَوْتُ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ...﴾.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٧)

إشارات:

□ قيل في سبب نزول هذه الآية: إنّ بعض زعماء قريش لجأوا إلى أسلوب الدعاية المغرضة والتعتيم، وجأؤا إلى الرسول الكريم ﷺ وقالوا له من باب اختلاق الأعذار الواهية: كلّ هذا الذي تقوله لا طائل من ورائه، القرآن وحده ليس بمعجزة، فأتنا إذن بمعجزات أخرى كعصا موسى أو ناقة صالح... إلخ^(١).

□ بطبيعة الحال، إنّ النبي الذي يستذكر معجزات الأنبياء السابقين لقادر على أن يأتي بمعجزة شبيهة بما جاء به أولئك الأنبياء، وإلا لما قام بتذكير الناس بتلك المعجزات حتى لا يُطالب بمثلها. مضافاً إلى ذلك، وطبقاً لما ورد في روايات الفريقين، فإنّ النبي الأكرم ﷺ، قد جاء بمعجزات أخرى غير القرآن الكريم.

□ إن الهدف من الإتيان بالمعجزات هو الإعلان عن العلاقة الخاصة بين الله تعالى ونبيه، ودلالة على القدرة الإلهية اللامتناهية، وليس تحقيق الأهواء المتتابعة للقوم المعاندين. بيد أنه تتم، أحياناً، الاستجابة لبعض مطالب القوم في إظهار المعجزة، وذلك من باب إتمام الحجة.

□ إن التاريخ يشهد بأن إطلاق المعجزات المتتالية لم يحمل المعاندين اللجوجين على الإيمان والهداية، بل إلى نزول السخط والعذاب الإلهي. يقول القرآن الكريم: ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَنَّا لَأْتَيْنُكَ أَكْثَرُ ۖ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (١).

التعاليم:

- ١ - يجب الرد على أعذار المعارضين وحججهم، ﴿وَقَالُوا... قُلْ﴾.
- ٢ - الله قادر، ولكن قدرته مقرونة بالحكمة، فهو سبحانه يظهر قدرته حينما ينطوي الطلب على الحكمة، ﴿إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ... وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَقْنَاهُ فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (٢٨)

إشارات:

□ ما برح القرآن الكريم يهتم اهتماماً خاصاً بحياة الحيوان، فأخذ يوظف مسألة التذكير بطبيعة خلقتها، ومشاعرها، وصفاتها، من أجل هداية الناس إلى الحق، ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (٢) ولدينا في الروايات والتجارب الإنسانية الكثير من الأمثلة التي تدل على امتلاك الحيوانات المشاعر والإدراك، والحقيقة، إن الوقوف على مواطن الشبه والتعرف على حياة الحيوانات يستلزم التفكير والانتباه (٣) ﴿أَمْ أَمْثَلُكُمْ﴾.

(٣) تفسير المراغي.

(١) سورة الأنعام: الآية ١١١.

(٢) سورة الجاثية: الآية ٤.

□ المراد بـ ﴿الْكِتَابِ﴾ في الآية الكريمة القرآن الكريم، أو «اللوح المحفوظ» وهو بمثابة كتاب الخلق.

□ في آيات أخرى كذلك وردت عبارات من قبيل ﴿بَيْنَنَا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾^(١)، و﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^(٢)، والتي تدل على تمام القرآن وكماله.

□ وينقل عن الإمام الباقر عليه السلام، أنه كان يدعو من يسمع كلامه أن يطالبه بمستند له من القرآن.

□ وفي حديث شريف أن النبي الكريم ﷺ نهى عن القيل، والقال، وكثرة السؤال، وفساد المال. وقد سئل الإمام الباقر عليه السلام عن المستندات القرآنية لهذا الحديث فقال: «أما سند النهي عن القيل والقال فهو قوله ﷻ ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾^(٣). وسند فساد المال فهو ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾^(٤)، وسند كثرة السؤال فهو قوله تعالى^(٥) ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن بُدَّ لَكُمْ سؤُوكُمْ﴾^(٦).

المشاعر والإدراك عند الحيوانات

يستشف من الآيات والروايات وكذلك التجارب بأنه ليس الإنسان وحده الذي يمتلك الإدراك والمشاعر. ولبسط الحديث في هذا الموضوع تأمل الأمثلة التالية:

١ - عندما عبر النبي سليمان عليه السلام هو وجنده منطقة معينة، قالت نملة لأقرانها: ﴿يَتَأَيَّهَا التَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطِئُكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُودُهُ وَهُزْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(٧).

تملك النملة غريزة التعرف على العدو، ولكن أن تعرف أنه النبي سليمان وجنده فهذا بالتأكيد شيء أبعد من مجرد الغريزة.

(٥) تفسير نور الثقلين.

(١) سورة النحل: الآية ٨٩.

(٦) سورة المائدة: الآية ١٠١.

(٢) سورة هود: الآية ٦.

(٧) سورة النمل: الآية ١٨.

(٣) سورة النساء: الآية ١١٤.

(٤) سورة النساء: الآية ٥.

- ٢ - لقد عرف الهدهد بشرك قوم ملكة سبأ، وذهب إلى النبي سليمان ليطلعه على وجود شعب مشرك في تلك المنطقة، ومن ثم بعثه النبي سليمان ﷺ بمهمة خاصة. لا شك في أن معرفة الهدهد التوحيد والشرك وأن الشرك عمل قبيح، وضرورة أن يطلع النبي سليمان ﷺ واضطلاعه بمسؤولية ساعي البريد، كل ذلك يؤكد أن لديه ما هو أبعد من الغريزة^(١).
- ٣ - إن تقديم الهدهد عذراً مقبولاً بعد مؤاخذه النبي سليمان له على غيبته، لهو دليل قوي على امتلاك ما هو أبعد من الغريزة^(٢).
- ٤ - ما جاء في القرآن الكريم من أن جميع الخلائق يسبحون بحمد ربهم لكننا لا نفقه تسبيحهم^(٣)، ليس تسبيحاً تكوينياً ذلك لأننا نفهم ذلك، إذن، القرآن الكريم يقصد تسبيحاً آخر.
- ٥ - نسبت آيات القرآن الكريم السجود لله إلى جميع الخلائق، ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾^(٤).
- ٦ - كان للطيور حضور في حركة النبي سليمان ﷺ، ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ﴾^(٥).
- ٧ - تحدّث الطيور في ما بينها وتباهي سليمان بأن الله قد علّمه منطق الطير، ﴿عَلَّمَنَا مَطَاقَ الطَّيْرِ﴾^(٦).
- ٨ - الآية الكريمة ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾^(٧)، تتحدّث عن حشر الحيوانات في يوم القيامة.
- ٩ - الآية الكريمة ﴿وَالطَّيْرِ صَفَنَتْ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾^(٨)، تشير إلى امتلاك الحيوانات المشاعر وأنها تعبد الله عن وعي وإرادة.
- ١٠ - صفة الوفاء التي تمتاز بها الحيوانات مثل وفاء الكلب لصاحبه.

(١) سورة النمل: الآية ١٧.

(٢) سورة النمل: الآية ١٦.

(٣) سورة التكوين: الآية ٥.

(٤) سورة النور: الآية ٤١.

(١) سورة النمل: الآية ٢٢.

(٢) سورة النمل: الآيات ٢٢ - ٢٦.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٤٤.

(٤) سورة النحل: الآية ٤٩.

١١ - تدريب الكلاب على الصيد والكلاب البوليسية على اكتشاف الجرائم مثل التهريب أو تعليمها لأغراض التبضع، كلّ ذلك بمثابة دلائل على امتلاكها المشاعر والإدراك.

١٢ - ما ورد من نهى في الإسلام عن ذبح الحيوان أمام ناظري حيوان آخر، ويدلّل هذا على امتلاك الحيوان للمشاعر إزاء ذبح حيوان آخر من بني جنسه.

التعاليم:

١ - لا يقتصر النظام والحياة الاجتماعية على بني البشر فحسب، بل يُلاحظ ذلك في حياة الحيوانات أيضاً، ﴿أَمْ أَنْتَ لَمْ تَرَ﴾.

٢ - البشر والحيوانات كلاهما يحتاج إلى التدبير الإلهي، فالله تعالى يمنحهما المشاعر والإدراك بحسب ما تقتضيه المصلحة، وكلاهما يمتلك النظام، ﴿أَمْ أَنْتَ لَمْ تَرَ﴾.

٣ - القرآن الكريم أشمل وأكمل كتاب سماوي، ﴿مَا قَرَأْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾.

٤ - لقد تضمّن القرآن الكريم جميع عوامل الهداية، والتربية، والرشاد، للإنسان، ولا يوجد أيّ ضعف في القرآن لإثبات حقيقة نبي الإسلام ﷺ، وهداية الناس، ﴿مَا قَرَأْنَا فِي الْكِتَابِ﴾.

٥ - لا يقتصر المعاد والحشر على البشر فقط، ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ... ثُمَّ إِلَيَّ رِيثَهُمْ يُحْشَرُونَ﴾.

٦ - حركة جميع الخلائق نحو الله هي حركة تكاملية وتمثّل مظهراً لربوبية الله تعالى، ﴿إِلَيَّ رِيثَهُمْ يُحْشَرُونَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا صُودُوا فِي الظُّلُمَاتِ مِنْ يَسَاءِ اللَّهِ يُضْلِلُهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾

إشارات:

□ من المعلوم أنّ الهداية والضلال بيد الله تعالى، إلّا أنّ الله أعطى الإنسان

الإرادة والخيار، وأن أفعال الله تقوم على الحكمة، على سبيل المثال، إن جهاد الإنسان في سبيل الله هو باب للهداية يفتحها الله تعالى لعباده: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾^(١)، كما إن ظلم البشر يؤدي إلى الضلال: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الْفَٰلِغِينَ﴾^(٢)، وكذلك فإن التكذيب بآيات الله تعالى عامل ضلال للإنسان، ﴿كَذَّبُوا... يُضِلُّهُ﴾.

التعاليم:

- ١ - الكفر واللجاج ظلمات تحرم الإنسان من الاستفادة من أدوات المعرفة، ﴿كَذَّبُوا... ضُذِّ وَبِكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ﴾.
- ٢ - التكذيب بالحق وكتمانه هو «بكم» وعدم سماع صوت الحق «صمم»، ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا... ضُذِّ وَبِكُمْ﴾.
- ٣ - عاقبة التكذيب بآيات الله هي الإضلال والسخط الإلهي، ﴿كَذَّبُوا... يُضِلُّهُ﴾.
- ٤ - السير على الصراط المستقيم يتطلب أذناً صاغية ولساناً ناطقاً بالحق ونوراً يضيء السريرة، ﴿يَجْعَلُهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١)

إشارات:

□ عندما يطيب العيش للإنسان ويحيا حياة الرفاهية تصيبه الغفلة، ولكن حين يصطدم بصخرة الشدائد والصعاب، ينزاح عن ناظره ستار الغفلة، ويحل محلها نور الفطرة الإلهية والتوحيد.

التعاليم:

- ١ - لقد أثبتت التجربة أنه على الرغم من لباس الكفر الذي يرتديه معظم البشر،

(١) سورة العنكبوت: الآية ٦٩.

(٢) سورة إبراهيم: الآية ٢٧.

إِلَّا أَنَّهُمْ يَسْتَبْطِنُونَ فِطْرَةَ إِلَهِيَّةٍ تَكْشِفُ عَنْ نَفْسِهَا حِينَ يَجِدُ الْجَدَّ وَتَدْلَهُمُ الْمَلَمَّاتُ وَالْخُطُوبُ. وَهَذَا يَأْتِي دُونَ النَّبِيِّ الْأَكْرَمِ ﷺ فِي نَفْضِ الْغَبَارِ عَنْ هَذِهِ الْفِطْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ الْمُسْتَرَّةِ، ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ...﴾.

٢ - فِي الْحَوَادِثِ وَالصَّعَابِ تَنْزَاحُ الْحُجُبِ عَنْ قَلْبِ الْإِنْسَانِ فَيَتَوَجَّهَ بِفِطْرَتِهِ السَّالِمَةِ نَحْوَ اللَّهِ تَعَالَى فَقَط. لَا شَكَّ فِي أَنَّ انْصِرَافَ الْقَلْبِ عَنْ أَيِّ مَعْبُودٍ آخَرَ لَهُوَ دَلَالَةٌ عَلَى خَوَاءِ هَذِهِ الْأَرْبَابِ، ﴿أَغْيَرَ اللَّهُ تَدْعُونَ﴾.

﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ (٤١)

إشارات:

□ رفع العذاب إمّا أن يكون لإتمام الحجة، وإما بسبب تغيير نفوس القوم، كما ورد في الآية ٩٨ من سورة يونس المباركة: ﴿لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ﴾.

التعاليم:

١ - كُلَّ مَعْبُودٍ وَهُمْ وَخِيَالٌ، فَبِمَجَرَّدِ أَنْ يَصْطَلِمَ الْإِنْسَانُ بِجِدَارِ الْحَوَادِثِ يَطْوِي عَنْهُ كَشْحًا، ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ... وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ لَا يَنْسَاهُمْ فَقَط، بَلْ يَنْكُرُ لَهُمْ، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾^(١)؛ سَوْفَ يُنْكَرُ الْمُشْرِكُونَ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ شِرْكَهُمْ عِبْرَ الْقَسَمِ وَالْإِيمَانِ.

٢ - الدِّعَاءُ بِإِخْلَاصٍ مُسْتَجَابٍ، ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ﴾.

٣ - الْيَأْسُ مِنْ سِوَى اللَّهِ مَدْعَاةٌ لِسُرْعَةِ إِجَابَةِ الدِّعَاءِ، (تَأْمَلِ الْفَاءَ فِي ﴿فَيَكْشِفُ﴾).

٤ - إِجَابَةُ الدِّعَاءِ رَهْنٌ بِالْإِرَادَةِ وَالْمَشِيئَةِ الْإِلَهِيَّةِ الْحَكِيمَةِ، ﴿فَيَكْشِفُ... إِنْ شَاءَ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ (٤٢)

إشارات:

□ «البأساء» تعني الحرب، والفقر، والقحط، والسيول، والزلازل، والأمراض المعدية، و«الضراء» أكثر ما تأتي في العذاب الروحي كالهم، والغم، والافتضاح، والجهل، والهزيمة.

□ يقول الإمام علي عليه السلام: «ولو أن الناس حين ينزل بهم النقم، ويزول عنهم النعم فزعوا إلى ربهم بصدق نياتهم وولوه من قلوبهم لردة عليهم كل شارد وأصلح لهم كل فاسد»^(١).

التعاليم:

١ - بعثة الأنبياء إلى الناس واحدة من السنن الإلهية على مر التاريخ، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾.

٢ - في تاريخ الماضين عبرة ودروس للآتين، ﴿قَبْلِكَ﴾.

٣ - في التربية والإرشاد، يقتضي الأمر أحياناً ممارسة الشدة والضغط، ﴿فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾.

٤ - الصعاب طريق لإيقاظ الفطرة الإنسانية والتوجه نحو الله تعالى، ﴿يَضَّرَّعُونَ﴾.

٥ - ليس كل رفاهية لطفاً ونعمة، ولا كل معاناة سخطاً وعذاباً، ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾.

﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ

مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٤٣)

التعاليم:

١ - التضرع إلى الله تعالى، عامل كمال وتقرب إليه، وتركه هو قسوة للقلب وغواية، ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾.

(١) تفسير الصافي؛ تفسير نور الثقلين.

٢ - الإنسان مجبول على حبّ الجمال، لدرجة أنّ الشيطان يوظّف هذه الغريزة لاستغفاله، ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ﴾.

٣ - لا تنفع مع الأشخاص المعاندين دعوة ولا عقوبة، ﴿قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

٤ - جذور الغرور وترك التضرع تكمن في الافتتان بإغواءات الشيطان، ﴿فَلَوْلَا... تَضَرَّعُوا... وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ﴾.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾

إشارات:

□ «مبلسون» من «الإبلاس»، وهو الحزن المعترض من شدة التألم والمقترن باليأس، وهو ما يصيب المذنب حيث يلزم السكوت في المحكمة وينسى ما يعنيه^(١).

□ جاء في الآيتين السابقتين: إنّنا نضيق الخناق على الإنسان حتى يتضرّع، وهنا تقول الآية: ينسى بعض الناس الله حتى في لحظات الشدة والضيق، ﴿نَسُوا مَا ذُكِّرُوا...﴾.

□ جاء في القرآن الكريم: ﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾^(٢)، ويقول الإمام علي عليه السلام: «إذا رأيت الله سبحانه يتابع عليك نعمه وأنت تعصيه فاحذره»^(٣).

□ ملذّات الدنيا سلاح ذو حدين، قد تكون للإنسان نعمة وقد تكون نقمة عليه. الآية موضع البحث تعتبر الدنيا نقمة. أمّا الإيمان والتقوى فإنّهما يستنزلان بركات السماء والأرض على أهلها، كما ورد في الآية ٩٦ من سورة الأعراف: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، إذن، فالغفلة تغلق أبواب الخير على الإنسان.

(١) تفسير الميزان.

(٢) نهج البلاغة، الحكمة ٢٥.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢١٦.

□ يقول النبي الكريم ﷺ: «إذا رأيتم الله تعالى يعطي العباد ما يشاؤون على معاصيهم فإنما ذلك استدراج منه لهم» ثم تلا هذه الآية^(١).

□ وسئل الإمام الباقر عليه السلام عن تأويل قوله ﷻ ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ قال: «لما تركوا ولاية علي وقد أمروا بها أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون، فقطع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين»^(٢).

التعاليم:

- ١ - رفاهية العيش ليست دائماً دليل رحمة، ربّما كانت أحياناً استدراجاً لعقوبة، ﴿نَسُوا... فَتَحْنَا﴾.
- ٢ - إمهال المجرمين واستدراج المذنبين من السنن الإلهية، ﴿فَلَمَّا نَسُوا... فَتَحْنَا﴾.
- ٣ - عذاب الله يأتي بعد إتمام الحجة، ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا... أَخَذْنَاهُمْ﴾.
- ٤ - العسر واليسر، والانسدادات والانفراجات كلّها بيد الله وحده، ﴿فَلَمَّا نَسُوا... فَتَحْنَا﴾.
- ٥ - الموت والعذاب الإلهي ينزلان فجأة، فلنكن دائماً على أهبة الاستعداد، ﴿بَغْتَةً﴾.
- ٦ - فرحة المترفين ستحوّل فجأة إلى أنين وصرخات يأس، ﴿فَرِحُوا... مُبْلِسُونَ﴾.

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٥)

إشارات:

□ سئل الإمام الصادق عليه السلام: من الورع من الناس؟ فقال: «الذي يتورّع من محارم الله ويجتنب هولاء، وإذا لم يتق الشبهات وقع في الحرام وهو لا يعرفه، وإذا رأى المنكر فلم ينكره وهو يقوى عليه فقد أحب أن يعصى الله، ومن أحب أن يعصى الله فقد بارز الله بالعداوة، ومن أحب بقاء الظالمين فقد أحب أن يعصى

الله؛ إِنَّ الله تبارك وتعالى حمد نفسه على إهلاك الظلمة فقال: ﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوَرِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١).

التعاليم:

- ١ - حبل الظلم قصير، ﴿فَقُطِعَ﴾.
 - ٢ - تأثير الظلم يمتد إلى ذرية الإنسان، ﴿دَائِرُ﴾.
 - ٣ - هلاك الظالمين وقطع دابرهم أمر محتوم، فالظلم يستأصل جذور الحضارات، ﴿فَقُطِعَ دَائِرُ...﴾ ويقول عز من قائل في موضع آخر من القرآن الكريم: ﴿فَهَلْ رَأَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾^(٢).
 - ٤ - عدم الاكتراث بنذر الأنبياء يعدّ ظلماً، ﴿نَسُوا مَا دُكِّرُوا... الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.
 - ٥ - أحياناً يكون الترف الزائد مقدّمة للظلم، ﴿فَتَحَنَّا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ... الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.
 - ٦ - مرّت على التاريخ أقوام لم يبق منهم اليوم أي أثر، ﴿فَقُطِعَ دَائِرُ﴾.
 - ٧ - إهلاك الظالم عمل محمود، ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.
 - ٨ - يجب أن نحمد الله على هلاك الظالمين، ﴿فَقُطِعَ... وَالْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.
 - ٩ - هلاك الظالمين درس تربوي للآخرين، ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.
- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِّنْ لَّهِ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾^(٣)

إشارات:

□ منذ بداية السورة وحتى الآن حتّ الله تعالى المعارضين في عشرة مواضع تقريباً على التدبّر والتفكير وذلك بطرح الأسئلة عليهم، ذلك أنّ التدبّر والتفكير في

النعم وافتراض تغييرها وتحولها يتيح الظروف الملائمة للتوحيد ومعرفة الله تعالى.

- إذا لم تنم الأشجار، ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾^(١).
- إذا أصبحت المياه مالحة، ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾^(٢).
- إذا غارت المياه إلى قاع الأرض، ﴿إِنْ أَشِيعَ مَا وَكَّرَ عَوْرًا﴾^(٣).
- إذا استمر الليل أو النهار أبداً سرمداً، ﴿إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا... أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا﴾^(٤).
- إذا تعطل بصر الإنسان وسمعه وعقله، ﴿إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ...﴾^(٥).

□ يقول الإمام الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَنَّمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾: «أخذ الله منكم الهدى ﴿مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ يقول: يعرضون»^(٦).

التعاليم:

- ١ - أحد الأساليب الدعائية والتربوية التي دأب القرآن الكريم على استخدامها هو استنطاق الضمائر، ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ... مَنْ إِلَهُ﴾.
- ٢ - ليس بعسير على الله تعالى أن يستردّ النعم التي وهبها الإنسان، لذا، فلتتيقّظ لذلك، ﴿أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ...﴾.
- ٣ - خلق النعم بيد الله تعالى، وكذلك ديمومتها واستمراريتها في كلّ لحظة، ﴿أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ...﴾.
- ٤ - السمع والبصر والعقل أدوات المعرفة لدى الإنسان، وهي من أهمّ النعم التي وهبها الله تعالى إياها، ﴿سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ... قُلُوبَكُمْ﴾.

(٤) سورة القصص: الآيتان ٧١ - ٧٢.

(٥) سورة الأنعام: الآية ٤٦.

(٦) تفسير نور الثقلين.

(١) سورة الواقعة: الآية ٦٥.

(٢) السورة نفسها: الآية ٧٠.

(٣) سورة الملك: الآية ٣٠.

- ٥ - الأرباب الوهميون لا يملكون أن يهبوا النعم ولا يملكون استردادها ﴿مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ﴾، نعم، الذي يستحق العباداة هو القادر على إعطاء النعم وعلى استردادها في آنٍ معاً.
- ٦ - أليس بعجيب أن يظلّ توجه المشركين لغير الله على الرغم من كل هذه الدلائل والبراهين، ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ...﴾.
- ٧ - مع الشخص اللجوج لا يجدي أي أسلوب أو منطق، ﴿تُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصِدُّونَ﴾.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْكُمُ عَذَابُ اللَّهِ بَفْتَةٍ أَوْ جَهْرَةٍ هَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ (١٧)

إشارات:

- لعلّ المراد بـ «بفتة» هو أثناء النوم ليلاً، وكلمة «جهرة» أثناء العمل نهاراً.
- كما في الآية الكريمة ﴿أَتَنْهَأُ أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾^(١)، أو ربّما كان المراد من «بفتة»، هو العذاب المفاجئ من دون تمهيدات، ومن كلمة «جهرة»، العذاب الذي تظهر آثاره واضحة منذ اليوم الأول، كسحب العذاب التي أرسلت إلى قوم عاد، كما ورد في الآية الكريمة ﴿قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطَرٌّ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٢).
- سؤال: تقول هذه الآية: وحدهم الظالمون الذين يهلكون بالعذاب الإلهي، بينما نجد آية أخرى تقول: ﴿وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾^(٣)، فالقول واضح والإنذار صريح بتعميم الفتنة ونيران العذاب على الجميع دون استثناء، فكيف يمكن الجمع، إذن، بين مفهومي الآيتين؟
- الجواب: ليست كلّ فتنة هلاكاً، فما يصيب الظالمين في الحوادث المبررة هو العذاب والهلاك، فيما تعتبر بالنسبة إلى المؤمنين امتحاناً ورشداً.

(١) سورة يونس: الآية ٢٤؛ تفسير روح المعاني.

(٢) سورة الأحقاف: الآية ٢٤؛ تفسير أطيب البيان.

(٣) سورة الأنفال: الآية ٢٥.

التعاليم:

- ١ - النبي الكريم مأمور بطرح الأسئلة لإيقاظ الضمائر واستنطاقها، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾.
- ٢ - لا تغتر بتمردك ولا تستغل المهلة الإلهية، إذ لربما نزل العذاب بغتة، ﴿بَغْتَةً﴾.
- ٣ - عندما ينزل عذاب الله تعالى، يكون الهلاك فيه حتمياً، فلا هم (المبتلون بالعذاب) ولا غيرهم باستطاعتهم ردّ العذاب، ﴿عَذَابُ اللَّهِ... يَهْلِكُ﴾.
- ٤ - العذاب الإلهي عادل لأنه ينزل ردّاً على ظلم الناس، ﴿يَهْلِكُ... الظَّالِمُونَ﴾.
- ٥ - الإعراض عن دعوة الأنبياء ظلم، ﴿هُمْ يَصِدُّونَ... الظَّالِمُونَ﴾.

﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٤٨) وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا يَمْسُهمُ الْعَذَابُ يَمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾

إشارات:

- سؤال: جاء في آيات عدة في القرآن الكريم أنّ أولياء الله لا خوف عليهم ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ ولكن عند استعراض خصالهم وصفاتهم تُذكر صفة الخشية من الله تعالى، ﴿إِنَّا نَحْنُ مِنْ رَبِّنَا...﴾ فكيف نفسّر ذلك؟
- الجواب: أولاً، أحياناً نجد المريض يخشى إجراء العملية الجراحية ومن المعالجة الطبية، ولكن يقوم الطبيب بطمأنته ورفع معنوياته ويقول له: لا خوف عليك. فهذا التطمين لا يتعارض مع الخوف الذي يساور المريض.

التعاليم:

- ١ - الله وحده الذي يحدّد نطاق واجبات الأنبياء ورسالاتهم، ﴿وَمَا تُرْسِلُ... إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾.
- ٢ - مسؤولية الأنبياء إعطاء البشارات والنذر، لا إكراه الناس، ﴿إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾.

- ٣ - النهج العام لرسالة الأنبياء موحد ومتشابه، ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾.
- ٤ - يقوم الإرشاد والتربية على ركني الرجاء والخوف، والشواب والعقاب، ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾.
- ٥ - الإيمان والعمل الصالح متلازمان ولا انفصالان عن بعضهما، فالعمل بدون إيمان غير منتج ولا أثر له، ﴿ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾.
- ٦ - أعمال المؤمن يجب أن تكون على طريق الإصلاح دائماً، ﴿ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾.
- ٧ - الصلاح وحده لا يكفي بل يلزمه الإصلاح، ﴿وَأَصْلَحَ﴾.
- ٨ - الإيمان والعمل يحصنان الإنسان من الأمراض النفسية مثل الخوف والكآبة والحزن، ﴿ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الصحة النفسية تكون في إطار الإيمان والعمل الصالح.
- ٩ - ثمرة المجتمع النبوي هو تحقيق نظام متوازن ومستقر وآمن، ﴿فَمَن ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ...﴾.
- ١٠ - مواصلة الفسق مقدمة لنزول العذاب الإلهي، ﴿يَسْأَلُهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.
- ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

إشارات:

□ يبدو أن المشركين كانوا يعتقدون أن النبي هو من كان يملك خزائن الله، أو أنهم كانوا ينتظرون حل جميع أمورهم اليومية عن طريق الغيب، لذا فالله تعالى يأمر نبيه الكريم ﷺ في هذه الآية أن يزيل هذه الأوهام من أذهانهم، وأن يعلن صراحة بطلان هذه الآمال الباطلة والتصورات الخاطئة، وأن يبين لهم حدود مسؤولياته، ويقول لهم: إن المعجزات تقع عن طريق الوحي الإلهي فقط، وليس امتثالاً لأهوائهم ورغباتهم، واعلموا أنني سأتي بمعجزة متى ما أوحى إليّ بذلك، وليس متى ما اقتضت أهواؤكم ورغباتكم.

□ تنفي الآية الكريمة عن النبي الكريم ﷺ أي علم ذاتي له بالغيب، إلا ما أطلعه الله تعالى على علمه في بعض الأحيان. كما ورد في سرد القرآن لقصص بعض الأنبياء مثل يوسف، ونوح، والسيدة مريم العذراء في آيات عدة إذ يخاطب ﷺ نبيه الكريم بالقول: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ فهذه القصص هي من علم الغيب نطلعك عليه. كما ورد في آخر سورة الجن: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾. إذن، علم الغيب هو لله وحده، وإذا شاء أطلع بعض أوليائه على جانب منه.

□ تعامل الأنبياء مع أقوامهم كان متشابهاً، فنفس هذا الكلام قاله النبي نوح عليه السلام لقومه^(١).

التعاليم:

- ١ - صدق الأنبياء كبير لدرجة أنهم يعترفون للناس بما ليس لديهم، ﴿قُلْ لَا أَقُولُ﴾.
- ٢ - يجب أن لا نتوقع من الأنبياء ما ليس في استطاعتهم، ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾.
- ٣ - حياة القائد، وأهدافه، ونهجه في العمل يجب أن تكون واضحة للناس وصريحة، ﴿قُلْ لَا أَقُولُ﴾.
- ٤ - لا تدعوا الناس يغالوا فيكم، لو يطرح كل شخص عن نفسه الألقاب الكاذبة، فسوف يحدّ من الغلو والانحراف، ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾.
- ٥ - لم تكن دعوة الأنبياء بدافع المال أو التهديد أو الإغراء، حتى لا يجتمع الناس حولهم بسبب الخوف أو الطمع، ولكيلا يتصوروا أنهم إذا ناصروا النبي، فسيحصلون على علم الغيب أو يمتلكون خزائن الله لحلّ مشاكلهم، ﴿قُلْ لَا أَقُولُ...﴾.

٦ - في حياته الشخصية أو في قيادته للدولة، يسلك النبي مساراً طبيعياً كما الآخرون، فهو لا يوظف علم الغيب أو خزائن الله لأغراضه الخاصة، وإن كان من الضروري أن يفعل ذلك من أجل إثبات نبوته، ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾.

٧ - لا يملك النبي الكريم خزائن الله وليس عنده علم الغيب، لكنه يوحى إليه وبذلك تكون طاعته واجبة، ﴿يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾.

٨ - مهمة النبي هي اتباع ما يوحى إليه، لا اتباع الوهم أو المزاج، ولا الانصياع للرغبات الاجتماعية أو التأثير بالمحيط والبيئة، ﴿إِنْ أُنِيعَ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾.

٩ - أقوال وأفعال الأنبياء حجة لنا، لأنها تقوم على أساس الروحي، ﴿إِنْ أُنِيعَ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾.

١٠ - اتباع الأنبياء هو بصيرة، والإعراض عنهم عمى، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾.

١١ - الفكر السليم يرشد الإنسان لاتباع الأنبياء، ووضع الأعذار والحجج والأهواء جانباً، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا بِكَ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ بَيْنَ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّهُمْ بَيْنَهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (٥١)

إشارات:

□ لقد خاطب الله تعالى رسوله الكريم ﷺ مرات عدة في القرآن الكريم بأن تُدرك ونصحك لا يؤثران إلا على الذين يخشون الله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخِشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ﴾^(١)، و﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾^(٢).

التعاليم:

١ - هداية الأنبياء تكون مؤثرة شرط أن يتوافر الإنسان على الاستعداد والجاهزية، ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾.

٢ - الإيمان بالمعاد هو مفتاح التقوى، ﴿يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا... لَعَلَّهُمْ يَنْقُوتُ﴾.

﴿وَلَا تَقْرُؤِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْفَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

إشارات:

□ ورد في سبب نزول هذه الآية ما يلي: عن عبد الله بن مسعود قال: «مرّ الملاء من قريش على النبي الكريم ﷺ وعنده ضُهيّب، وعَمّار، وبلال، وخبّاب، ونحوهم من ضعفاء المسلمين، فتعجبوا من ذلك (لأنهم كانوا يحسبون أنّ شخصيّة المرء مرهونة بالثروة والجاه والمقام، ولم يستطيعوا إدراك المنزلة المعنوية لهؤلاء الأشخاص، ولا ما سيكون لهم من دور بناء في إيجاد المجتمع الإسلامي والإنساني الكبير) فقالوا: يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك، من الله عليهم من بيننا، أو نحن نكون تبعاً لهؤلاء؟ اطردهم عنك فلعلك إن طردتهم نتبعك، فأنزل فيهم القرآن^(١)».

وفي تفسير المنار، قال عمر بن الخطاب: لو فعلت يا رسول الله حتى ننظر ما يريدون بقولهم وما يصيرون إليه من أمرهم، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِنْ رَبَّهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾.

ومثل هذا القول ورد في شأن الآية ٢٨ من سورة الكهف.

□ وجاء في تفسير القرطبي: فكان رسول الله ﷺ لا يقوم حتى يكونوا هم الذين يتدثرون القيام.

□ قيل: المراد بالدعاء في أوّل النهار وآخره المحافظة على الصلاة المكتوبة في الجماعة^(٢).

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ٤، ص ٤٧٢. (٢) تفسير الميزان.

التعاليم:

- ١ - المحافظة على العناصر المخلصة، والفقيرة، والمجاهدة خير من استقطاب الأغنياء الكفار، ﴿وَلَا تَقْرُؤْ﴾.
- ٢ - الغاية لا تبرر الوسيلة، فلا ينبغي الإساءة إلى المسلمين بحجة جذب رؤوس الكفر وزعمائهم، ﴿وَلَا تَقْرُؤْ﴾.
- ٣ - الإسلام دين يحارب التمايز، واللامساواة، والتمييز العنصري، ومنح الامتيازات، والأتاوات، (تأمل سبب النزول).
- ٤ - الغالبية العظمى من أتباع الأنبياء كانوا من الفقراء والحفاة، (تأمل سبب النزول).
- ٥ - إذا لم يستطع مختلفوا الأعذار أن يجدوا ثلثة في القائد أو الدين، فيشكلون على الأتباع وأوضاعهم الاقتصادية، (تأمل سبب النزول).
- ٦ - ما من مزية ترقى إلى مزية الإيمان، ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾.
- ٧ - الوضع الحالي للشخص هو المعيار، إذا كانت للمؤمن الفقير معائب ونقائص في الماضي، فحسابه على الله وحده، ولا شأن لمخلوق بذلك، ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾.
- ٨ - حساب كل فرد على الله تعالى، وما من أحد مسؤول عن عمل الآخرين بما في ذلك الرسول الكريم ﷺ، ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ فهو نفسه له حسابه الخاص به، ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾.
- ٩ - طرد الفقراء الحفاة والمحرومين المخلصين ظلم، ﴿فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا

أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾

إشارات:

□ لقد حمل القرآن الكريم مراراً وتكراراً على نظرة الاستعلاء والغطرسة للكافرين.

فهم كانوا يتوقعون نزول الوحي والقرآن عليهم، ويشهد بذلك قولهم: ﴿لَقَدْ آتَيْنَاكَ الْكِتَابَ عَلَيْكَ مِنْ بَيْنِنَا﴾^(١)، و﴿أَوَلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْشَيْنِ عَظِيمٍ﴾^(٢).

□ المؤمن الحقيقي هو الذي يشكر الله على نعمة الإيمان، وفي بعض الأخبار أن رجلاً من فقراء الشيعة شكّا إلى الإمام الكاظم عليه السلام الفقر، فسأله عن أغنى الناس؟ فقال له: هارون الرشيد، فقال له هل تعطيه إيمانك وتأخذ ثروته وماله؟ فقال الرجل: لا. فأخبره الإمام أنه أغنى منه لأنه لا يقبل بثروته بديلاً عن إيمانه^(٣).

التعاليم:

١ - الاختلاف الطبقي والاجتماعي يشكل أحياناً وسيلة للاختبار وصقل الخصال وتنميتها. فالأغنياء والفقراء بعضهم امتحان لبعضهم الآخر، ﴿فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾.

٢ - بعض الأغنياء يحتقرون الفقراء ويُعلون من شأن أنفسهم، ﴿أَفَتَوَلَّوْا... مِنْ بَيْنِنَا﴾.

٣ - الفقراء المؤمنون هم المصطفون عند الله، ﴿مَنْ أَلَّهَ عَلَيْهِمْ﴾.

٤ - الردّ على إساءات الكفار يكون بإبراز اللطف والمحبة الإلهية تجاه المؤمنين، ﴿أَفَتَوَلَّوْا... بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾.

٥ - المنة الإلهية بحق الفقراء هي بسبب شكرهم الله، ﴿مَنْ أَلَّهَ... بِالشَّاكِرِينَ﴾.

٦ - أفعال الله تعالى تقوم على الحكمة لا على رغبات الناس، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾.

٧ - الأنبياء تجسيد بارز للشاكرين ﴿بِالشَّاكِرِينَ﴾، والفقراء الذين اتبعوا هدي الأنبياء هم أيضاً شاكرون نعمة الهداية، ﴿بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾.

(٣) تفسير أطيب البيان.

(١) سورة القمر: الآية ٢٥.

(٢) سورة الزخرف: الآية ٣١.

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ
أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾
وَكَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ لَّا يُعْلَمُونَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾

إشارات:

□ قيل في سبب نزول الآية الكريمة: إن فريقاً من المذنبين قدموا على رسول الله ﷺ وقالوا: إنا أصبنا من الذنوب كثيراً، فاستغفر لنا فأعرض عنهم فنزلت الآية^(١).

□ لقد ذكر الله تعالى في هذه السورة المباركة عبارة ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ مرتين، المرة الأولى لتسليّة المؤمنين في هذه الدنيا (هذه الآية) والمرة الثانية في الآية ١٢ من السورة وكانت في موضوع المعاد ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْزِيََكُمْ﴾.

□ جاء بيان الجهالة في موضع سابق إذ نُقِلَ عن الإمام الصادق عليه السلام أن المراد بـ «الجهالة» هو الجهل بقبح باطن المعصية وهذا يشمل جميع العاصين.

التعاليم:

١ - ينبغي لزائر رسول الله ﷺ أن يكون مؤمناً ليستطيع أن ينهل من الألفاظ الإلهية، ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ...﴾.

٢ - زيارة النبي الكريم طريق لنيل الألفاظ الإلهية، ﴿جَاءَكَ... فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ﴾.

٣ - تقوم علاقة القائد بالناس على الألفة والمحبة، ﴿وَإِذَا جَاءَكَ... فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ...﴾.

٤ - أحسن التحية هي قول «سلام عليكم»، ﴿فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾.

٥ - كفروا عن خطأ احتقار المؤمنين، في الآية ٥٣ قال المتكبرون بأسلوب

- مهيئ: ﴿أَهْوَلَاءَ...﴾، في حين نجد أنّ الله تبارك وتعالى في الآية ٥٤ كَفَّرَ عن تلك الإهانة وأمر نبيه بإلقاء التحية على المؤمنين، ﴿فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾.
- ٦ - «السلام» هو شعار الإسلام، الكبير أيضاً يلقي التحية على الصغير، ﴿فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾.
- ٧ - يجب أن يكون تعامل المعلم والداعية مع الناس قائماً على المحبة والألفة وأن يحترما شخصية الفرد، ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾.
- ٨ - التوبة مقبولة ما لم تكن المعصية بدافع اللجاج والاستكبار، ﴿مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ﴾.
- ٩ - لقد كتب الله تبارك وتعالى على نفسه الرحمة، ولكن بشرط التوبة والاعتذار، ﴿كَتَبَ... ثُمَّ تَابَ﴾.
- ١٠ - التوبة ليست كلمات تجري على اللسان فحسب، بل هي قرار وإصلاح، ﴿تَابَ... وَأَصْلَحَ﴾.
- ١١ - لا شك في أنّ توبة المؤمن مقبولة، ﴿عَمِلَ مِنْكُمْ﴾.
- ١٢ - الصفح الإلهي مقرون بالرحمة، ﴿عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾، فلا ينبغي للعاصي أن يأس.
- ١٣ - تسليط الضوء على طريق المجرمين والعاصين والمتواطئين من جملة أهداف الدين، ﴿وَلَتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾.
- ﴿قُلْ إِنِّي بُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا آتِيكُمْ أَهْوَاءُكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾

التعاليم:

- ١ - يجب أن تواجه الطلبات غير المنطقية للمشركين، والمتمثلة في اعتناق دينهم والقبول بعبادة الأصنام، بنفي صريح وواضح ﴿بُهِيتُ... لَا آتِيكُمْ... ضَلَلْتُ﴾، نعم، إنّ الشرك حرام في أي صورة كانت.

- ٢ - تصدّي النبي الكريم ﷺ وموقفه الحازم من الكفار يستند إلى الوحي، ﴿قُلْ﴾، ﴿قُلْ﴾.
- ٣ - البراءة من الشرك في صلب الدين الإسلامي، ﴿نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.
- ٤ - جذور الشرك تعود إلى اتباع الأهواء، ﴿لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾.
- ٥ - لا ينبغي للداعية أن يكون هدفه إرضاء أهواء الناس، ﴿لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾.
- ٦ - اتباع الأهواء يسد منافذ الهداية عند الإنسان، ﴿لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ... وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾.
- ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُ بِإِيَّاهُ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِئِنَّ إِنْ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِّلِينَ﴾ (٥٧)

إشارات:

- «البينة» مشتقة من المصدر «بينونة» ما يفصل بين شيئين بحيث لا يكون بينهما تمازج أو اتصال، ثم أطلقت على الدليل والحجة الواضحة، لأنها تفصل بين الحق والباطل. إن الدلائل والمعاجز التي جاء بها الأنبياء لم تكن معقدة ولا غامضة، بل كانت واضحة يفهمها الجميع، ولولا عناد المشركين ولجاجتهم لآمنوا بها برحابة صدر، ولهذا السبب كان الأنبياء يقولون: إن لديهم بينات.
- كان الكفار يقولون: إن كنت على حق، فلماذا لا يصيبنا عذاب الله، ﴿تَسْتَعْجِلُونَ بِئِنَّ﴾.

ونظير هذا قالوا في آية أخرى: ﴿فَأَمْطَرْنَا عَلَيْكَ حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾^(١)؛ إذن، فالأقوام الأخرى أيضاً كانت تنادي باستعجال العذاب مثل أقوام الأنبياء هود وصالح ونوح حيث كانوا يقولون: ﴿فَأَلْنَا يَمًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(٢).

(١) سورة الأنفال: الآية ٣٢.

(٢) سورة الأعراف: الآيتان ٧٠ و٧٧؛ سورة هود: الآية ٣٢.

التعاليم:

- ١ - دعوات الأنبياء تقوم على اليّنات لا على الوهم أو التقليد الأعمى، ﴿عَلَى يَنْتِ﴾.
- ٢ - دعم الأنبياء باليّنات قس من ربوبية الله تعالى، ﴿يَنْتِ مِنْ رَبِّي﴾.
- ٣ - لا بدّ للأنبياء من يّنات إلهية، لا أن يعملوا وفقاً للأهواء اليومية لأقوامهم، ﴿يَنْتِ مِنْ رَبِّي﴾؛ القرآن الكريم هو بيّنة النبي الكريم ﷺ ودليل ساطع على صدقه وحقيقته.
- ٤ - النبي الأكرم محيط إحاطة تامة بالبيّنة التي جاء بها القرآن الكريم، عبارة ﴿يَنْتِ﴾ تشير إلى مفهوم العلو والإحاطة بمفاهيم القرآن الكريم.
- ٥ - لقد كذب الكفار بيّنة النبي، وفي المقابل يتوقعون منه أن يتبع أهواءهم النفسانية، ﴿لَا آتِجُ أَهْوَاءَكُمْ... وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾.
- ٦ - ليس النبي سوى رسول بُعث بالمنطق والبيّنة، ونظام الكون بيد الله تعالى، (فلا تسعوا إلى فناء أنفسكم أو الطبيعة بطلبكم من النبي أن يستعجل لكم العذاب الإلهي)، ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾.
- ٧ - الآية هي تهديد للكفار، وفي الوقت نفسه، تسلية للنبي الكريم، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاضِلِينَ﴾.

﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٥٨)

التعاليم:

- ١ - استعجال الناس لا يغيّر من حكمة الله تعالى، ﴿تَسْتَعْجِلُونَ... وَاللَّهُ أَعْلَمُ﴾.
- ٢ - العذاب بيد الله تعالى ينزله متى شاء، ولو استجاب لدعاء الكفار باستعجاله لم يذر منهم أحداً، ﴿لَفُضِيَ الْأَمْرُ﴾. كما ورد في الآية ١١ من سورة يونس ﴿وَلَوْ يُعِجِلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾.
- ٣ - الله تبارك وتعالى يمهل الظالمين طبقاً لحكمته وسنته، ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِيَ... وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾.

٤ - لا يظنّ الكافرون أنّ تأخير نزول العذاب الإلهي يعني نسيان كفرهم، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ رَدَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾

إشارات:

□ «مفاتيح»، جمع «مِفْتَاح» وهو المفتاح، أما إذا كانت بفتح الميم فتعني الخزانة، والمعنى الثاني هو الأنسب^(١).

□ الرطب واليابس كناية عن ثنائيات الأشياء المتقابلة مثل الموت والحياة، والمرض والصحة، والفقر والغنى، والصالح والطالح، والمجرد والمادي. وقد تمّ التوسّع في بحث هذا الموضوع في تفسيرنا الآية ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَارٍ مُبِينٍ﴾^(٢).

□ لعلّ المراد بسقوط الأوراق الحركات النازلة، والحبة التي تنمو في الأرض الحركات الصاعدة^(٣).

التعاليم:

١ - السبب وراء عدم الاستجابة لمطلب الكفار في استعجال نزول العذاب عليهم، هو علم الله تبارك وتعالى بأسرار الكون، ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ... وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ﴾.

٢ - الأحكام الإلهية تصدر وفقاً لعلمه سبحانه بالغيب والشهود، ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ... وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ﴾.

٣ - نطاق علم الغيب أوسع من العلوم العادية، ويؤيد ذلك العبارة الحصرية للقرآن الكريم ﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾.

(٣) تفسير في ظلال القرآن.

(١) تفسير الميزان.

(٢) سورة يس: الآية ١٢.

٤ - الله سبحانه وتعالى عليم بكل شيء ويحيط بكل تفاصيل الكون، بخلاف القائلين إنه يحيط بالمحاور العامة للعلم؛ لذلك ينبغي علينا توخي الدقة والحذر في أعمالنا، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ...﴾.

٥ - لا أحد يعلم الغيب من نفسه إلا الله تعالى، ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾.

٦ - للكون نظام مركزي للمعلومات، ﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

٧ - منظومة الكون مصممة وفقاً لنظام متقن، ﴿كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِقَاضِي أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾

إشارات:

□ «جرحتم» من «الجراحة» وتعني العضو الذي وسيلة الكسب والفعل، ومن ثم أطلق على الكسب والعمل نفسه.

□ من المعلوم أن الله تعالى يتوفى الروح وحدها حين النوم، بيد أنه يقول: نحن نتوفاكم، وفي هذا دلالة على أن حقيقة الإنسان تتلخص في الروح.

التعاليم:

١ - النوم بمثابة موت مؤقت، وكل يقظة بمثابة بعث، ﴿يَتَوَفَّاكُم... يَبْعَثُكُمْ﴾.

٢ - القانون الطبيعي هو أن الليل جعل للسبات والنهار للعمل والكسب، ﴿يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ... جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾.

٣ - لحياتنا تاريخ وبرنامج وأجل محدد، ﴿أَجَلٌ مُسَمًّى﴾.

٤ - فلنستعد لمحكمة يوم القيامة، ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾.

٥ - الله سبحانه وتعالى عليم بسرائرنا ومع ذلك يمهلنا ويرجع إلينا أرواحنا التي توفّاها، ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ﴾.

٦ - القيامة يوم ظهور حقائق الأعمال، ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً
حَقًّا إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ (٦١)

إشارات:

□ استيفاء الروح في الليل وبعثها في النهار أحد أمثلة قاهرية الله تعالى على الإنسان.

□ إن قبض الروح يُنسب في القرآن الكريم إلى الله تعالى ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ﴾، وإلى ملك الموت والملائكة في آنٍ معاً، وهذا التباين في العبارات ربّما يعود إلى أن الملائكة تلي أمر أرواح الأشخاص العاديين، وملك الموت - وهو ملك مقرب - يلي أمر أرواح الأشخاص البارزين، أما الله تبارك وتعالى فهو يلي أمر أرواح أوليائه.

وقيل أيضاً، ربّما يكون مرّة ذلك أن الملائكة تقوم أولاً بقبض روح الإنسان، ثم تدفعه إلى ملك الموت (عزرائيل)، وبدوره يقوم الأخير بتسليم الروح إلى ربّ العالمين، وبذلك يمكن القول: إن قبض الأرواح هو عمل الملائكة، وملك الموت، والله تعالى. إذن، فالله سبحانه هو الفاعل والمسبّب والملائكة هم المباشرون الفعليون لهذا العمل، ومن هنا، فإنّ هذا العمل تارةً ينسب إلى المسبّب، وأخرى إلى المباشرين الفعليين.

□ قد يكون المقصود بالملائكة الحافظين أولئك الذين يراقبون الإنسان ويحفظونه من شرّ الحوادث^(١) ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾^(٢)، أو الملائكة المأمورين بكتابة أعمال الإنسان وتسجيلها، ﴿وَرُسُلَنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾^(٣).

□ يقين الإنسان بمراقبة الملائكة له، حافز على شكر الله تعالى، والإيمان بأنّ الملائكة تكتب أعمال الإنسان هو عامل حياء وتقوى.

(٣) سورة الزخرف: الآية ٨٠.

(١) تفسير الميزان.

(٢) سورة الرعد: الآية ١١

التعاليم:

- ١ - الله تعالى بيده القدرة والسلطة التامة، أما ترك الخيار لنا فذلك لأنه بلطفه الواسع أمهلنا في هذه الدنيا، ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ...﴾.
 - ٢ - إن قاهرية الله على عباده كبيرة لدرجة لا تدع مجالاً لمقاومتها، ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾.
 - ٣ - يضمّ نظام الخلق أنواعاً عدّة للمراقبة، ﴿حَفَظَهُ﴾.
 - ٤ - إرسال الملائكة الحافظين أمرٌ دائم، ﴿وَيُرْسِلُ﴾.
 - ٥ - لكلّ مجموعة من الملائكة مهمة خاصة، ﴿حَفَظَهُ... تَوَقَّتُهُ﴾.
 - ٦ - عند قبض الروح يحضر عدد من الملائكة، ﴿إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَقَّتُهُ رُسُلُنَا﴾.
 - ٧ - الملائكة معصومون، وهم لا يتساهلون في إنجاز مهمتهم، ﴿لَا يَقْرِطُونَ﴾.
- كما ورد في آية أخرى ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾^(١).

﴿ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾

إشارات:

- روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه سُئل: كيف يحاسب الله سبحانه الخلق ولا يرونها؟ قال: «كما يَرْزُقُهُمْ ولا يرونها». وروي أنه سبحانه يحاسب جميع العباد على مقدار حلب شاة^(٢).
- وسُئل الإمام علي عليه السلام: «كيف يُحاسبُ الله الخلق على كثرتهم؟ فقال: «كما يَرْزُقُهُمْ على كثرتهم». ف قيل: كيف يُحاسبُهُم ولا يرونها؟ فقال: «كما يَرْزُقُهُمْ ولا يرونها»^(٣).

(٣) نهج البلاغة، الحكمة ٣٠٠.

(١) سورة التحريم: الآية ٦.

(٢) تفسير مجمع البيان؛ تفسير نور الثقلين.

□ سؤال: كيف يمكن تفسير كل هذه الآيات والروايات القائلة بسرعة الحساب الإلهي في يوم القيامة، في ضوء ما يروى عن طول يوم القيامة؟

الجواب: إن مسألة طول يوم القيامة هي في الحقيقة نوع من العقوبة والعذاب، وليس بسبب ازدحام الأعمال والعجز عن الحساب السريع^(١). (من المعلوم أن الإنسان وهو مخلوق يستطيع اليوم أن يجري أعقد الحسابات بواسطة جهاز الحاسوب في غضون دقائق قليلة، على سبيل المثال جرد المخازن والبضائع وإعداد كشوفات الشؤون المالية المرتبطة بها).

التعاليم:

- ١ - إنا إلى الله راجعون، وهو وحده القاضي في يوم القيامة، ﴿رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ... لَهُ الْمَقْصُورُ﴾.
- ٢ - المولى الحق هو الذي بيده الخلق، والرقابة، والنوم، واليقظة، والموت، والبعث، والحكم، ﴿إِلَى اللَّهِ مَوْلَهُمُ الْحَقُّ﴾.
- ٣ - كل مولى إما مزيف وإما افتراضي، إلا الله تعالى فهو المولى الحقيقي، ﴿اللَّهُ مَوْلَهُمُ الْحَقُّ﴾ وولاية الأنبياء والأولياء هي شعاع من الولاية الإلهية.
- ٤ - الحساب الإلهي أسرع من أي حساب وأي وسيلة أخرى، ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾.

﴿قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيْنٍ أَجَنَّا مِنْ هَذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٣) قُلْ اللَّهُ يُنْجِيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْكِرُونَ ﴿١٤﴾

إشارات:

- «التضرع» هو الدعاء علانية أو إظهار التذلل، و«خفية» هو الدعاء في السر.
- وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «خير الدعاء الخفي، وخير الرزق ما يكفي»،

ومر ﴿بِقَوْمٍ يَقُومُ رَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بِالْدُعَاءِ فَقَالَ: «إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمًّا وَلَا غَائِبًا، وَإِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا»﴾^(١).

□ جاء في الآية ١٢ من سورة يونس: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَكَّانَ لَوْ يَدْعُونَا إِلَّا حُزْرًا مَسَّهُ﴾.

□ الشدائد التي يمرّ بها الإنسان تفرز أربع حالات هي: الشعور بالحاجة، التضرع، الإخلاص، والتمسك بالشكر. نعم، إنّ الشدائد والمصائب وانقطاع الأسباب المادية تنمي لدى الإنسان روح التوجّه إلى الله تعالى، والإنسان في الملمات والمصائب يشعر بيد الله فوقه.

التعاليم:

- ١ - أحد أساليب الدعوة والنصح استنطاق الضمير الإنساني، ﴿مَنْ يُنَجِّكَ﴾.
- ٢ - أسلوب التذكير وهداية الإنسان إلى الإخلاص هو من أفضل أساليب التوجّه إلى الله ودعوته، ﴿تَدْعُونَهُ نَقْرًا وَخُفْيَةً﴾.
- ٣ - في الشدائد والمحن ينزع الإنسان عنه ثوب الكفر والشرك ويلبس ثوب التوحيد، ﴿تَدْعُونَهُ نَقْرًا وَخُفْيَةً﴾.
- ٤ - المشرك لا يفي بتعهداته تجاه الله تعالى، ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾.
- ٥ - شرك الإنسان هو أقبح أنواع الجحود، ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ... ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾.
- ٦ - الرفاهية والدعة وشعور التحرّر وعدم الحاجة كلّها تزرع في الإنسان الغفلة والشرك بالله، ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾.

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۚ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ لَّفَقَهُوا ۖ﴾ (٦٥) وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ۚ قُلْ لَّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾

إشارات:

- «اللبس» بمعنى الخلط والمزج، و«شيع» جمع «شيعه»، وهي الفرقة.
- تحدثت الآية السابقة عن قدرة الله تعالى على إنجاء عباده، وهنا، الحديث يدور حول قوته وقدرته على إنزال العذاب والعقوبة.
- يقول الإمام الباقر (عليه السلام): «قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم هو الدخان والصبغة، أو من تحت أرجلكم وهو الخسف، أو يلبسكم شيعاً وهو اختلاف في الدين وطمع بعضهم على بعض، ويذيق بعضهم بأس بعض وهو أن يقتل بعضهم بعضاً، وكل هذا في أهل القبلة»^(١). ربّما كان (عليه السلام) يصدّد طرح بعض الأمثلة لا جميعها، ذلك أنّ العذاب الفوقاني يشمل ظلم الطواغيت والحكام المتسلّطين على رقاب الناس، والعذاب التحتاني يشمل العذاب الناجم عن تمرّد الطبقات الدنيا وخروجها على القائد الحقّ المنبثق من وسط الناس ومع الناس وبموازاتهم.
- توجد عبارات عدّة في القرآن الكريم تخاطب النبي الأعظم (عليه السلام) وتحمل هذا المفهوم وهو أنّ مسؤولية النبي تتضمّن الدعوة إلى دين الله وليس إكراه الناس على الإيمان به. من تلك العبارات نستعرض ما يلي: ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾^(٢)، ﴿لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾^(٣)، ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾^(٤)، ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلَعُ﴾^(٥)، ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ﴾^(٦)، ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾^(٧)، ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾^(٨)، و﴿قُلْ لَّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾^(٩).

(١) تفسير نور الثقلين.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٠٧.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

(٤) سورة فاطر: الآية ٢٣.

(٥) سورة الأنعام: الآية ٦٦.

(٦) سورة الأنعام: الآية ١٠٧.

(٧) سورة الغاشية: الآية ٢٢.

(٨) سورة ق: الآية ٤٥.

(٩) سورة المائدة: الآية ٩٩.

التعاليم:

- ١ - إحدى مسؤوليات النبي الكريم ﷺ هي التذكير بالقدرة العظيمة لله تعالى، ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ﴾.
 - ٢ - الشرك باب مفتوح على أنواع العذاب، ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ... قُلْ هُوَ الْقَادِرُ﴾.
 - ٣ - الله تعالى هو المنجي وهو المعذب، فمن يبغي غير الله عن وعي وقصد، فعليه أن ينتظر العذاب، ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ...﴾.
 - ٤ - بثّ الفرقة والتشتت من العذاب الإلهي، وهو مذكور إلى جانب عذاب السماء والأرض، ﴿يَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.
 - ٥ - أحياناً يُعَذَّبُ الناس بالناس وعلى يد بعضهم، فيجعل بأسهم بينهم، ﴿وَيَذِيقَ بَعْضُكُم بِأَسَ بَعْضٍ﴾.
 - ٦ - على دعاة الدين أن يوظفوا أساليب متنوعة في إرشاد الناس ووعظهم، ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾.
 - ٧ - إذا صدرنا المفهوم في أشكال متعددة، فيمكننا أن نأمل نتائج أكبر، ﴿نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِمَا نَهْمُ بِفَقْهُوتٍ﴾.
 - ٨ - ما دام الحق طريقكم، فلا تبتسوا من تكذيب الناس، ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾.
 - ٩ - إنك مسؤول عن أداء الواجب لا ضمان النتيجة، ﴿لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِرَكِيلٍ﴾.
- ﴿لِكُلِّ نَجْمٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٦٧)

إشارات:

□ قيل في الآية السابقة: إن الله قادر على أن ينزل عليكم العذاب من كل صوب، وهذه الآية تقول: إذا لم ينزل العذاب بالكفار اللجوجين فلا تعجلوا، فلكل نبي حقيقة، ولكل خبر وقوع ولو بعد حين، من غير تقدّم أو تأخر.

التعاليم:

- ١ - إن تحقّق جميع الأخبار والوعود الإلهية أمر حتمي، ويتعلّق ذلك بالحكمة

الإلهية والمواعيد المقررة لها، فما من حادثة تقع صدفة دونما تدبير أو هدف، ﴿لِكُلِّ نَبْرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾.

٢ - نعم، أنتم لستم مكرهين على الإيمان، ولكن، تدبروا عواقب أعمالكم، ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

٣ - لا تتسرع بإصدار الأحكام، فلا تظنن إمهال الله لك دليلاً على غفلة عنك، ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِنَّمَا يُغِيثُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدَ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٦٨﴾

إشارات:

□ «الخوض» في الأصل هو الشروع في الماء والمرور فيه، ويُستعار في الأمور، وأكثر ما ورد في القرآن في ما يُذمّ الشروع فيه، أو الدخول في موضوع بقصد الاستهزاء والسخرية لا من أجل فهم الحقيقة واستيضاح الأمور^(١).

□ ﴿بَعْدَ الذِّكْرَى﴾ قد تعني بعد تذكير الآخرين، أو أن يتذكر الإنسان هو نفسه.

□ سؤال: نعلم أن الأنبياء معصومون، إذن، كيف نفسر قول الآية الكريمة إنّ الشيطان ينفذ إلى نفس النبي الكريم فينسيه ما ذكر به، ﴿يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾؟

الجواب: ذكر تأثير الشيطان في مسألة النسيان هو محض افتراض، تماماً مثلما ورد في الآية الكريمة ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾^(٢)، أو الآية ﴿وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾^(٣)، والحقيقة أنه لم يقع منه لا شرك ولا تقوّل، فهو مجرد افتراض.

وربما كان أتباع النبي هم من قصدتهم الآية الكريمة لا شخصه الكريم ﷺ، على طريقة إياك أعني واسمعي يا جارة.

(٣) سورة الحاقة: الآية ٤٤.

(١) تفسير مجمع البيان.

(٢) سورة الزمر: الآية ٦٥.

□ شبه ذلك ما ورد في الآية ١٤٠ من سورة النساء: ﴿إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ...﴾.

□ وفي أحاديث وروايات عدة عن النبي الكريم ﷺ والأئمة المعصومين عليه السلام، ورد نهى للمسلم عن مجالسة أهل الخصومات أو المشاركة في مجالس المعصية إذا علم أنه لن يقبل منه، حتى وإن كانوا من أقاربه. وفي هذا السياق، يوصي الإمام علي عليه السلام ولده محمد بن الحنفية فيقول: «فقرض على السمع أن لا تصغي به إلى المعاصي، فقال عز وجل وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره» ثم استثنى ﷺ موضع النسيان، فقال: ﴿وَأَمَّا يُنْسِيكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِ مَعَ الْفَاحِشِينَ﴾^(١).

□ كما نُقل عن رسول الله ﷺ بالاستناد إلى هذه الآية قوله: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس في مجلس يُسب فيه إمام أو يعاب فيه مسلم، إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾»^(٢).

□ وعن الإمام علي عليه السلام أن «مجالسة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار»^(٣).

التعاليم:

١ - لا بد للمسلم أن يري الأعداء حميته وغيرته الدينية على المقدسات، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾.

٢ - الإعراض عن الشرور، والمساوي، والنضال السلبي ضد المسيئين هو أحد الأساليب في النهي عن المنكر، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾.

٣ - الاهتمام أو الاستماع إلى اللغو والأباطيل ومطالعة كتب الضلال أو مشاهدة

(١) تفسير نور الثقلين.

(٢) وسائل الشيعه، ج ١٦، ص ٣٦٥.

(٣) وسائل الشيعه، ج ١٦، ص ٢٦٦.

البرامج المضلة أمرٌ مذموم ومرفوض^(١)، ﴿يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾؛ إلا إذا كان يُقصد منها الردّ على تلك الأباطيل من قبل المختصين، ففي هذه الحالة لا مانع من ذلك.

٤ - بدلاً من الانصهار في المجتمعات، أو الجماعات، أو المجالس الفاسدة، يجب على المرء أن يعمل على تغييرها، ﴿حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾.

٥ - لا تكفي البراءة والإدانة اللفظية، بل يجب التصدي بنحوٍ من الأنحاء، ﴿فَأَعْرِضْ... فَلَا تَقْعُدْ﴾.

٦ - لا تجوز مجالسة الظالمين لذلك ينبغي لنا الإعراض عنهم، ﴿فَلَا تَقْعُدْ﴾.

٧ - العلم والوعي هو شرط التكليف، ﴿وَإِنَّا يُنَسِّبُكَ الشَّيْطَانُ﴾، النسيان عذر مقبول.

٨ - التناول على القرآن الكريم بغير حقٍّ من خلال الاستهزاء، أو التفسير بالرأي، أو نشر البدع، أو التحريف... ظلم، ﴿الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذَكَرْنَاهُمْ يَنْفُتُونَ﴾ ﴿٦٩﴾

إشارات:

□ بالنسبة إلى آية التحريم التي نزلت في موضوع مجالسة أهل الخصومات والمستهزئين، فقد قال فريق:

إذا كان علينا أن نلتزم بهذا النهي في كل مكان فإنه يمتنع علينا الذهاب إلى المسجد الحرام والطواف به، (وذلك لأنّ المشركين كانوا منتشرين في أطراف المسجد ولا يفتأون يتناولون الآيات القرآنية بالكلام الباطل، فحيثما نتوقف في أرجاء المسجد ثمة احتمال أن يصل كلامهم إلى مسامعنا). عندئذٍ نزلت الآية الثانية تأمر المسلمين في مثل هذه الحالات أن ينصحوهم، ويهدوهم، ويردّوهم قدر إمكانهم^(٢).

(١) ربّما أمكننا الاستناد إلى هذه الآية في تحريم كتب وبرامج الضلال.

(٢) تفسير نور الثقلين.

□ في الحقيقة لا مانع من المشاركة في مجالس أهل المعصية بقصد النهي عن المنكر، والتوجيه، والإرشاد؛ ولكن شرط أن يكون المرء على قدر كبير من الورع والحصانة ضد البدع، وإلا فلا فائدة أن يذهب الإنسان لنجاة الغريق، وإذا به نفسه يغرق.

التعاليم:

- ١ - تشخيص الأولوية هو من أهم المبادئ المنطقية والإسلامية في التعامل مع المسائل. إذ إن الاستماع إلى الشبهات والتخرصات بصورة مؤقتة بغية الرد عليها أو إرشاد المنحرفين أمر جائز، ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾.
- ٢ - التقوى والورع أداة صيانة للإنسان وتحصين ضد المعصية، كالملابس المضادة للحريق التي يرتديها رجال الإطفاء، ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾.
- ٣ - لنبتعد عن مجالس أهل الخصومات، ونعرض عن سماع كلامهم، إلا ما طرق أسماعنا مكرهين، ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ... مِنْ شَيْءٍ﴾.
- ٤ - مضافاً إلى تقواه هو، يجب أن يحث المسلم غيره أيضاً على التزام التقوى، ﴿وَلَكِنْ ذَكِّرْهُمْ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءٍ وَلَهُمْ وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَذَكَّرَ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذَ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

إشارات:

□ تدعو الآية الكريمة إلى ترك المنحرفين، ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ﴾، من خلال إبراز المقت والنفور تجاههم، وقطع أي صلة بهم، وربما إلى حد النزاع والقتال معهم أحياناً، لا أن يكون المعنى هو ترك جهادهم فقط، كما قد يفهم للوهلة الأولى.

- ﴿تُبَسَّلَ﴾ أن ترتهن، وتُحرم الثواب، وتُسَلَّم للهلكة.
- موضوع اتِّخَاذ الدين ملعبة يتقمَّص في كلِّ عصر ثوباً جديداً، فتارةً يكون في ثوب الإيمان بالمعتقدات الخرافية، وتارةً أخرى بالإيحاء بعدم إمكان تطبيق الأحكام، وثالثة بتبرير الأخطاء والمعاصي، ورابعة بالبدعة والتفسير بالرأي واتِّباع المتشابهات... إلخ.

التعاليم:

- ١ - الحمىة الدينية هي وسيلة لطرد المجذفين ومقاطعة المناوئين للدين في المجتمع ﴿وَذَرِ الَّذِينَ...﴾. وقد ورد في هذا المعنى في آيات أخرى مثل ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾^(١)، ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَشْتَبِعُوا﴾^(٢)، و﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾^(٣).
- ٢ - الافتتان بالدنيا والتعلق بحبائلها، مقدّمة لاتِّخَاذ الدين لعباً، ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا... وَغَرَّتُهُمْ لُغْيَةُ الدُّنْيَا﴾.
- ٣ - يمكن للتذكير والنصح أن يكون عامل نجاة من السخط والعذاب الإلهي، ﴿وَذَكِّرْ بِهِ﴾.
- ٤ - في التذكير والإنذار يجب الاستعانة بالقرآن الكريم، ﴿وَذَكِّرْ بِهِ﴾.
- ٥ - لا تغترّ بالدنيا فما من مجير للإنسان في يوم القيامة إلا الله تعالى، ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾.
- ٦ - السبب في المآسي التي يعانيتها الإنسان هو نفسه وما كسبت يدها، ﴿يَمَا كَسَبَتْ... يَمَا كَسَبُوا... وَعَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

(١) سورة السجدة: الآية ٣٠.

(٢) سورة النحل: الآية ١٢٧.

(٢) سورة الحجر: الآية ٣.

﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أُنْتِنَا قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَأَمْرًا لِّسُلَيْمٍ لِّرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقْبِمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوا وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾

إشارات:

- الآية ٧٢ تشير، من بين جميع التكاليف، إلى «الصلاة»، ومن بين جميع العقائد، إلى «المعاد»، الأمر الذي يعكس أهميتهما الكبيرة.
- يستبطن التوحيد حالة الاستقرار والتركيز، فيما يعكس الشرك وتعّد الآلهة حالة الاضطراب والحيرة، ﴿أَزْيَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَحِيدُ الْقَهَّارُ﴾^(١).
- في التوحيد، الله تعالى واحد أحد: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وفي الوقت نفسه سريع الرضا كما جاء في الدعاء «يا سريع الرضا»^(٢)، بينما في الشرك تتعّد الآلهة، مضافاً إلى أنّ لكلّ آلهة طلباتها ورغباتها المتنوعة، وعدا ذلك، فإنّ إرضاءها جميعها أمرٌ جدّ عسير.

التعاليم:

- ١ - فلنوقظ الضمائر عبر استنطاقها وتوجيه الأسئلة، ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.
- ٢ - الشرك أمر غير عقلاني، لأنّ الحافز على العبادة هو إمّا استجلاب منفعة أو دفع ضرر، والأصنام غير قادرة لا على هذا ولا على ذاك، ﴿لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾.
- ٣ - يجب توظيف غريزة طلب المنفعة عند الناس في مجال الدعوة والإرشاد، ﴿لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾.
- ٤ - الشرك نوع من الرجعية العقدية، ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا﴾.

(١) سورة يوسف: الآية ٣٩.

(٢) مصباح المتجهّد و سلاح المتعبّد، ج ٢، ص ٨٥٠.

- ٥ - الشرك مدعاة للحيرة، ﴿حَيْرَانَ﴾.
- ٦ - يجب اتخاذ موقف صريح إزاء الخلافات والثبات عليه، ﴿قُلْ أَدْعُوا... قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾.
- ٧ - التسليم لله تعالى هو عامل رشدنا وكمالنا، ﴿لِتُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.
- ٨ - الخير كل الخير في الصلاة المقرونة بالتقوى، ﴿أَقْبِسُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ تُؤْفَهُ﴾.
- ٩ - الإيمان بالمعاد والبعث يبعث التقوى في نفس الإنسان، ﴿وَأَنْتُمْ تُؤْفَهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (٧٣)

إشارات:

□ يذكر القرآن الكريم حالتين من النفخ في الصور: الحالة الأولى هي للهلاك والفناء، والحالة الثانية نفخ لبعث الناس. هذه الآية الكريمة تشير إلى الحالة الأولى، وفي الآية ٦٨ من سورة الزمر جاء ذكر كلتا الحالتين: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾.

□ تحدثت الآيات السابقة عن التسليم لله تعالى وإقامة الصلاة، وهنا تبين الآية سبب ذلك، وهو أن نظام الخلق بيده وهو العليم الحكيم المطلع على كل شيء.

□ عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله ﷻ: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ قال: «الغيب ما لم يكن، والشهادة ما قد كان»^(١).

التعاليم:

- ١ - نظام الخلق ينطوي على هدف وحكمة، ﴿بِالْحَقِّ﴾ لقد أشير، بطبيعة الحال،

إلى هذه النقطة في آيات عدة منها: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾^(١).

٢ - لا شيء يقف بوجه إرادة الله تعالى، ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾.

٣ - الغيب والشهود، السر والعلن، سيان عند الله، ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾.

٤ - أساس الحاكمية الإلهية يقوم على الحكمة والعلم، ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ... وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾.

٥ - في يوم القيامة سوف تتجلى القدرة الإلهية للجميع؛ لأن الأدوات والأساليب ستفقد مفاعيلها في ذلك اليوم، ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَرَأْتَنِي أَخَذَ أَمَانًا مِّنْهُ إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ﴾^(٢) وَفَوَّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾

إشارات:

□ تطلق كلمة «أب» في العربية على الوالد غالباً، ولكنها قد تطلق أيضاً على الجد من جهة الأم وعلى العم، ويعضد هذا الرأي إطلاق أبناء النبي يعقوب كلمة أب على آبائهم وعم أبيهم النبي إسماعيل عليه السلام: ﴿نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ ءَابَاؤُكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾^(٣)، وفي هذا المعنى يقول النبي الكريم ﷺ: «أنا وعلي أبوا هذه الأمة»^(٤). إذن، فإن أزر هو عم النبي إبراهيم عليه السلام وليس أباه، إذ إن آباء النبي إبراهيم عليه السلام كانوا جميعاً موحدين.

ومن علماء أهل السنة أيضاً مثل الطبري، والآلوسي، والسيوطي، من يقول بهذا الرأي وهو أن أزر لم يكن أبا إبراهيم. مضافاً إلى أن إبراهيم عليه السلام قد دعا لوالديه حسب ما جاء في القرآن الكريم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ...﴾^(٥)، في حين نحن نعلم أنه لا يحق للمسلم أن يدعو للمشرك حتى وإن كانت تربطه به صلة قرابة.

(١) سورة ص: الآية ٢٧.

(٣) بحار الأنوار، ج ١٦، ص ٣٦٤.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٣٣.

(٤) سورة إبراهيم: الآية ٤١.

يَتَبَيَّنُ مِنْ كُلِّ مَا تَقَدَّمَ، أَنَّ كَلِمَةَ «أَب» الْوَارِدَةَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ لَا تَعْنِي الْوَالِدَ، وَفَوْقَ كُلِّ هَذَا، فَإِنَّ الْمَشْهُورَ فِي كُتُبِ التَّارِيخِ أَنَّ اسْمَ وَالِدِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ «تَارُخ» وَلَيْسَ آزَرَ^(١).

□ وَيَجِبُ أَنْ نَشِيرَ هُنَا إِلَى أَنَّ اسْتِغْفَارَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَعَمَّهَ آزَرَ كَانَ قَبْلَ أَنْ تَتَجَلَّى بِوُضُوحٍ رُوحَ الْكُفْرِ الَّتِي تَسْكُنُهُ، وَأَيْضاً لَجِهَةِ الْوَعْدِ الَّتِي قَطَعَهُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَكِنَّهُ عِنْدَمَا أُيْقِنَ بِانْصِرَافِهِ عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ، تَبَرَّأَ مِنْهُ وَفَارَقَهُ، ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾^(٢).

التعاليم:

- ١ - صلة القرابة لا تحول دون النهي عن المنكر، ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ...﴾.
- ٢ - المعيار في التعامل هو الحق لا العمر، ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ﴾ لَقَدْ بَيَّنَّ النَّبِيُّ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْحَقَّ لَعَمَّهَ آزَرَ الَّذِي يَكْبِرُهُ سِتّاً وَأَنْذَرَهُ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ.
- ٣ - النهج الصحيح في الدعوة إلى الحق يقتضي البدء بالأقارب أولاً، ﴿لِأَبِيهِ﴾، وَأَنْ يَتَمَّ طَرَحُ الْقَضَايَا الرَّئِيسَةِ، ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾.
- ٤ - يعود تاريخ الشرك وعبادة الأصنام إلى ما قبل رسالة النبي إبراهيم عليه السلام، ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا﴾.
- ٥ - عوامل الأغلبية، والسابقة، والعمر لا تستطيع تبديل الباطل إلى حق، وهي ليست قيمة في جميع الظروف، ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كُنَّ نِسَاءٌ لَكِ بَنَاتٌ لَمْ تَحْصِلْنَهُنَّ﴾.
- ٦ - عبادة الأصنام انحراف يثير انتقاد الضمائر الحيّة والعقول السليمة، ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا... ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.
- ٧ - عُرف النبي إبراهيم بالحلم وسعة الصدر، ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾^(٣)، وَلَا بَدَّ لِلنَّبِيِّ مَنْ أَنْ يَكُونَ لَيِّنَ الْعَرِيكَهَ حَتَّى مَعَ فِرْعَوْنَ، غَيْرَ أَنَّنَا نَلْمَسُ جِدَّةَ

(٣) السورة نفسها: الآية ١١٤.

(١) تفسير الميزان.

(٢) سورة التوبة: الآية ١١٤.

وغلظة في كلام إبراهيم مع عمه، والسبب هو إصرار الأخير على كفره، ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿وَكَذَلِكَ نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ (٧٥)

إشارات:

□ حول كلمة «الملكوت» ننقل هنا آراء بعض المشاهير هي:

«الملكوت» من «ملك»، وزيدت «الواو» و«التاء» للتوكيد والمبالغة في الصفة. والملكوت هو الحكومة المطلقة لله ﷻ على عالم الوجود برمته، ومشاهدة الملكوت تعني مشاهدة الأشياء لجهة ارتباطها بالله تعالى، والنظرة الملكوتية تعني فهم وإدراك التوحيد في الوجود، وبطلان الشرك^(١).

تقسّم عوالم الوجود إلى أربعة أقسام: الآلهوت (عالم الألوهية الذي لا يحيط به سوى الله تعالى)، الجبروت (عالم المجردات)، الملكوت (عالم الأجسام)، والناسوت (عالم الكون والفساد والتغير والتحول)^(٢).

فعالم الملكوت هو عالم الغيب المختصّ بالأرواح والنفوس والعجائب^(٣). وملكوت السموات هو عجائبها^(٤).

والنبي إبراهيم ﷺ بمشاهدته ملكوت السموات والأرض تعرّف عن كُتب على سنة الله في خلقه، وحكمته، وربوبيته. عن أبي جعفر ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال: «أعطى بصره من القوة ما بعد السموات والأرض فرأى السموات وما فيها، ورأى العرش وما فوقه، ورأى ما في الأرض وما تحتها»^(٥).

□ الاستدلال المتقن والحوار العلمي مع الآخرين يتطلّب الإيمان القلبي، والنبي

(٤) تفسير روح المعاني.

(٥) تفسير نور الثقلين.

(١) تفسير الميزان.

(٢) تفسير أطيب البيان.

(٣) المعجم الوسيط.

إبراهيم عليه السلام بعدما حصل له اليقين ﴿وَلْيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ دخل مرحلة الاستدلال وهو ما ستحدث عنه الآيات اللاحقة^(١).

□ حرف «الواو» في عبارة ﴿وَلْيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يشير إلى أن المشاهدة الملكوتية كانت تتضمن أهدافاً، أحدها بلوغ النبي إبراهيم مرحلة اليقين.

التعاليم:

١ - من عرف الحق ولبى دعوته دون أن يخشى شيئاً، فقد ألهمه الله تعالى مشاهدة ملكوتية، كما النبي إبراهيم عليه السلام، بحسب ما تقرره الآية السابقة ﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ...﴾، نعم، بمقدور شاب يافع أن يبلغ مرحلة المشاهدة الملكوتية من خلال الكمال المعنوي؛ لأنه، وطبقاً لتفاسير عدة، فإن إبراهيم في تلك الفترة كان فتى ناشئاً لم يصل مرحلة الشباب بعد.

٢ - اليقين أعلى مراتب الإيمان، ﴿وَلْيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

٣ - بلوغ مرحلة اليقين يحتاج إلى مدد إلهي، ﴿نَرَى... الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكَوْكَبَ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾

إشارات:

□ في عصر النبي إبراهيم عليه السلام كانت عبادة الكواكب والنجوم هي الرائجة، إذ كان القوم يعتقدون أن للنجوم تأثيراً في تدبير الكون.

□ سؤال: هل يمكن لنبي عظيم كالنبي إبراهيم عليه السلام أن يعبد ولو للحظة واحدة النجوم، أو القمر، أو الشمس؟

الجواب: إن المحادثة التي جرت بين النبي إبراهيم عليه السلام وبين مشركي عصره كانت من باب مجاراتهم وإبداء المرونة في النقاش معهم وصولاً إلى تفنيد عقيدتهم، ولم يكن إبراهيم أبداً مؤمناً إيماناً قلبياً بالهتهم، ذلك لأن الشرك يتعارض تماماً مع العصمة. إن قوله كلمة ﴿يَقْوَرُ﴾ في الآية التي تلي الآية اللاحقة، هي علامة

للمجارة في قول ﴿هَذَا رَبِّي﴾، ولهذا السبب عند غروب القمر أو الشمس يقول: ﴿يَقُولُ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾^(١) ولا يقول: «بريء مما أشرك».

علاوة على أن ذلك حدث بعد إراءة الله تعالى ملكوت السموات والأرض لإبراهيم كما حدثنا عنه الآية السابقة وأنه (أي إبراهيم) قد بلغ مرحلة اليقين، إذ إن شروع الآية كان بالحرف «فاء» ومعنى ذلك أن نتيجة ذلك الملكوت واليقين هو هذا النوع من الاستدلال.

□ الشيء الذي له شروق وغروب يكون محكوماً بالقوانين لا حاكماً عليها. فالنبي إبراهيم عليه السلام يتظاهر في البداية بقبول تلك الكواكب، ومن ثم يقوم بتفنيدها بالاستدلال.

التعاليم:

- ١ - أحد أساليب المناظرة والحجاج مجارة الخصم والتظاهر بقبول عقيدته الباطلة، ومن ثم تفنيدها، ﴿هَذَا رَبِّي﴾.
- ٢ - ومن أساليب الدعوة إيقاظ الفطرة، وتفعيل الأفكار، والاهتمام بالمشاعر، ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾.
- ٣ - المحبوب الحقيقي هو الذي لا يحده مكان أو زمان ولا يكون عابراً زائلاً، ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾.
- ٤ - يجب أن يكون المعبود هو المحبوب، وعبادته بدافع الحب، وروح الدين هو الحب، ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي

لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾﴾

إشارات:

□ «بازغ» من «بزغ»، وبزغته: شقّه وأسال دمه، وإطلاق هذه الكلمة على طلوع

الشمس أو القمر إنما هو تعبير بليغ يحمل أجمل صور التشبيه، وكأنَّ الشمس بطلوعها تشقَّ ستار الظلام، وتسكب عند الأفق احمرار الشفق الذي ليس يبعد الشبه عن الدم المسفوح^(١).

□ لقد تصدَّى النبي إبراهيم ﷺ لعبدة النجوم كما تصدَّى لعبدة القمر والشمس سواء بسواء^(٢). ويرى كثير من المفسرين أنَّ المحاجة بين إبراهيم ﷺ وبين المشركين كانت قد حصلت في مدينة بابل.

□ حينما يصل الإنسان برأيه إلى طريق مسدود فلا بدَّ له أن يراجع نفسه ويقوم بتعديل رأيه بعيداً عن أيّ تعصب أو عناد. وليس الرجل، كما يقال، من تشبَّ برأيه وأقام عليه، بل هو، كما توضَّح لنا هذه الآية، من ثبت على الحقِّ، حتى وإن اضطرَّه ذلك إلى تغيير موقفه.

التعاليم:

- ١ - ٢ - ٣ - ما تقدم تحت الأرقام ١ و ٢ و ٣ في الآية السابقة يصدق هنا أيضاً.
- ٤ - النقد يجب أن يتمَّ بأسلوب الخطوة خطوة، لاحظ في الآية السابقة وردت عبارة ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ في حين خطت هذه الآية خطوة أبعد بقولها إِنَّ عِبَادَةَ الْقَمَرِ انْحِرَافٌ وَضَلَالٌ.
- ٥ - في دروب المعرفة، لا بدَّ من الاتكاء على فيض الهداية الإلهية، وما لم نفعل ذلك فلن نصل إلى ينابيع المعارف الصافية^(٣) ﴿لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾.
- ٦ - حتى الأنبياء بحاجة إلى الهداية الإلهية، ﴿لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾.
- ٧ - الهداية شأن من شؤون الربوبية، ﴿يَهْدِي رَبِّي﴾.

(٣) تفسير الميزان.

(١) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٢) تفسير نور الثقلين.

﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بِازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ
قَالَ يَنْقُورُ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾

إشارات:

□ في هذه الآية أيضاً يواصل النبي إبراهيم ﷺ حجاجه مع خصومه من المشركين، لا من باب تبين معتقده الشخصي، بدليل أنه استخدم كلمتي ﴿يَنْقُورُ﴾ و﴿مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أي أنه لا يؤمن بعبادة القمر والشمس كما تم الكلام عنه سابقاً^(١).

التعاليم:

- ١ - ٢ - ٣ - ما تقدم تحت الأرقام ١ و ٢ و ٣ في الآية ٧٦ يصدق هنا أيضاً.
- ٤ - ليست المسألة صغر الأجسام أو عظمها، ولكن كونها متغيرة وحادثة فهي لا تصلح أن تكون إلهاً، ﴿هَذَا أَكْبَرُ﴾.
- ٥ - طريقة الانتصار للحق أو انتقاد الباطل يجب أن تكون تدريجية وبأسلوب الخطوة خطوة، ففي البداية كان رفض الكواكب ثم القمر فالشمس، ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ... قَالَ﴾.
- ٦ - البراءة من الشرك هي «صرخة إبراهيمية»، ﴿بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾.
- ٧ - البراءة من «الشرك» لا «الأشخاص»، ﴿مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾، ولم يقل: «منكم».
- ٨ - البراءة يجب أن تأتي بعد طرح الدلائل والبراهين. في البداية، طرح موضوع الأفول والغروب، ومن ثم البراءة من المشركين، ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ...﴾.

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

إشارات:

□ العبور فوق الأفول والحدوث والوصول إلى الثبات هو مظهر من المشاهدة

الملكوية التي أنعم بها الله تبارك وتعالى على نبيه إبراهيم عليه السلام.

□ «خفيف» من «حنف»، بمعنى الخالص وغير المنحرف، والميل من الضلال إلى الاستقامة والحق.

□ «فَطَرَ» أصل الفطر هو الشقّ طولاً، وفطر الله الخلق، وهو إيجاد الشيء وإبداعه، ولعلّ إطلاق هذه الكلمة على خلق السموات والأرض ناشئ من كون العالم كان في اليوم الأول كتلة واحدة حسبما يقول العلم المعاصر ثم تشققت وظهرت الكرات والأجرام السماوية الواحدة تلو الأخرى^(١).

التعاليم:

- ١ - بمجرّد أن ينبلع صبح الحق، ينبغي لنا أن نعلن عن موقفنا بحزم غير أبهين بالوحدة والعزلة، ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ﴾.
- ٢ - من يتجاوز عبادة الأصنام المادية المحدودة الفانية يصل إلى المعبود الروحي اللامتناهي والسرمدى، ﴿لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.
- ٣ - حذار من الاستغراق في المظاهر، لأنها عاجلاً أم آجلاً ستفقد بريقها، وليكن توجّهنا إلى الله فهو خالق المظاهر، ﴿فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.
- ٤ - بمقدور الإنسان أن يرتقي عالياً ليحطم المعتقدات الباطلة لجميع العصور والأجيال، ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.
- ٥ - التوحيد الأصل مقرون بالبراءة من الشرك، ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿وَحَاجَّهٖ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَدِّثُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَيْنَا وَلَا آخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾

التعاليم:

- ١ - يحمل أهل الباطل تعصباً ﴿وَحَاجَّهٖ قَوْمُهُ﴾، لقد بلغت الوقاحة بالقوم

(١) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

المنحرفين درجة أصبحوا يتباهون بشركهم ويدافعون عنه بدلاً من أن يخجلوا منه.

٢ - تعصب أهل الباطل ووقاحتهم تثير الدهشة والعجب، ﴿أَتُحْجَّجُونَ فِي اللَّهِ﴾.

٣ - الموحد بالله لن يخشى مواجهة الجماعة حتى لو كان وحيداً في هذه المواجهة، ﴿أَتُحْجَّجُونَ فِي اللَّهِ... وَلَا أَخَافُ﴾.

٤ - الإنسان يسعى وراء الحق، بيد أن الهداية من الله تعالى، ﴿وَقَدْ هَدَيْنَا﴾، حتى الأنبياء بحاجة إلى الهداية.

٥ - ماذا يخشى الذي يستظل بالهداية الإلهية، ﴿هَدَيْنَا وَلَا أَخَافُ﴾؟

٦ - من علائم التوحيد عدم الخشية إلا من الله، ﴿وَلَا أَخَافُ﴾، لقد هدد المشركون النبي إبراهيم ﷺ بالانتقام.

٧ - من بقايا الشرك، الخوف والاعتقاد بأذى الأصنام والطواغيت، ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ﴾ الخوف من الأصنام مدعاة للتشبث بعبادتها والتعصب لها.

٨ - تأثير كل ظاهرة ودورها يعتمد على الإرادة الإلهية، ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي﴾.

٩ - الربوبية تليق بمن أحاط بكل شيء علماً، ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾.

١٠ - الحقيقة أمر فطري ووجداني، ومعرفتها لا تحتاج سوى التذكير، ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾

إشارات:

□ «السلطان»، بمعنى الدليل والحجة والبرهان.

□ بخلاف أولئك الذين يعتقدون أن الخوف هو الباعث على الإيمان بالله، تقول

الآية الكريمة: إنَّ الخوف هو الباعث على الشرك.

التعاليم:

- ١ - لا تخشوا التهديدات الوهمية، ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾.
- ٢ - الاستقرار النفسي يتحقق في ظلّ التوحيد، ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾.
- ٣ - يجب أن تستند المعتقدات الدينية إلى الدلائل والبراهين، ﴿وَكَيْفَ ... أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾.
- ٤ - في النقاشات والمناظرات يجب عدم إثارة النعرات والعصبية لدى الناس. لاحظ أن الآية تقول: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾ ولم تقل: «إنا في أمنٍ وأنتم في خطر».
- ٥ - العلم المفيد سلّم للارتقاء إلى الله تعالى، إذا ما قمنا بتوظيفه على النحو السليم، فسوف نحقق نتائج سليمة، ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَبَلَّغْنَا حُجَّتَنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ رَفَعُ دَرَجَتٍ مِّنْ نَّشَأٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾

إشارات:

- تناولت الآيات السابقة موضوع التوحيد والشرك، وهاتان الآيتان بمثابة خلاصة لما ورد في الآيات السابقة. وقد ورد عن النبي ﷺ أن الظلم في هذه الآية هو الشرك^(١).
- وفي بعض الروايات: إنّ المراد بالظلم هو الشك^(٢). أحياناً يكون هذا الشك، بطبيعة الحال، لا إرادياً ومقدّمة للبحث والتأمل، بينما يحمل في أحيانٍ أخرى طابع التشكيك والتبرير، وهذا النوع لا يعدو كونه ظلماً^(٣).

(١) تفسير نور الثقلين.

(٢) تفسير نور الثقلين؛ الكافي، ج ٢، ص ٣٩٩.

(٣) تفسير راهنما (التفسير المرشد).

- يقول الإمام الباقر عليه السلام في هذه الآية الكريمة: «هذه الآية نزلت في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وأهل بيته لأنهم لم يشركوا بالله طرفة عين قط»^(١).
- «اللبس» هو ستر الشيء وتغطيته، لذا فالمعنى هو أن الإيمان فطري، وهو لا يفنى بل تغطيه غبار العقائد المنحرفة.

التعاليم:

- ١ - آفة الإيمان الظلم والشرك والانقياد وراء القادة غير الإلهيين، ﴿ءَامَنُوا وَلَٰكِنْ يَلْسَنُوا لِمِئَنَّهُمْ يَظُنُّرُ﴾.
 - ٢ - الإيمان وحده غير كاف، بل يلزمه الديمومة والاستمرار، ﴿وَلَٰكِنْ يَلْسَنُوا لِمِئَنَّهُمْ يَظُنُّرُ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾.
 - ٣ - الأمن والهداية الحقيقية تتحقق في ظل الإيمان ونبد الشرك، ﴿ءَامَنُوا... لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾.
 - ٤ - ما لم يكن الإيمان خالصاً من كل شائبة، لا تأمن النفس الخوف والاضطراب، ﴿وَلَٰكِنْ يَلْسَنُوا... يَظُنُّرُ... لَهُمُ الْأَمْنُ﴾.
 - ٥ - العلم والحكمة شرطان لازمان للتدبير والإدارة، ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ إذا ما علمنا أن كلمة «رب» تعني المدير أو المعلم.
 - ٦ - الموحد الذي يتصدى لانحرافات المجتمع بالدلائل والبراهين، له حظوة ودرجات، ﴿دَرَجَاتُ﴾.
 - ٧ - الدرجات الإلهية تمنح للأشخاص بحكمة ودراية، ﴿نَرَفَعُ دَرَجَتَ... حَكِيمٌ﴾.
- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾

إشارات:

- وردت في هذه الآية والآيتين اللاحقتين أسماء ١٧ نبياً.

□ في متعلق الضمير في ﴿ذُرِّيَّتَهُ﴾ رايان: الأول هو أنه يعود على النبي إبراهيم عليه السلام، لأن الحديث في الآيات السابقة كان بشأنه، وأغلب الأسماء المذكورة هي من ذرئته ونسله، علاوة على أن الروايات تعضد هذا الرأي. الرأي الثاني هو أن الضمير يعود على النبي نوح عليه السلام لقربه منه، مضافاً إلى أن من ذرئته بعض الأنبياء مثل لوط.

التعاليم:

- ١ - الذرية الصالحة هي عطية إلهية، ﴿وَوَهَبْنَا... نَجْرِي﴾.
- ٢ - ما برحت سنتا الهداية والبعث جارتين، ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾.
- ٣ - الألفاف الإلهية لا تُغدق بغير حساب، ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الْمَحْلُوحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُوشَعَ وَلُوطًا
وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْمَلَكِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾

إشارات:

□ اعتقد بعض أن كلمة الذرية تطلق على الأحفاد من الابن، فيما نجد الآية الكريمة اعتبرت النبي عيسى عليه السلام من ذرية إبراهيم عليه السلام، فهو ينتسب له من ناحية والدته السيدة مريم، لأنه ليس له أب. وقد استند الإمامان الصادق والكاظم عليه السلام إلى هذه الآية ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ... وَعِيسَى﴾ في البرهنة على أن أهل البيت عليهم السلام هم ذرية وأبناء رسول الله ﷺ عن طريق الأم^(١). وقد اعترف الفخر الرازي أيضاً بهذه النقطة في تفسيره. كما ينقل صاحب «تفسير المنار» حديثاً من صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ استخدم كلمة «ابن» للتعبير عن الإمام الحسن عليه السلام في حديثه الشهير: «إن ابني هذا سيد».

□ أراد بعض الاستناد إلى الحرف «من» في ﴿وَمَنْ ءَابَايَهُمْ﴾ لإثبات أن آباء بعض الأنبياء يمكن أن يكونوا من الضالين، ولكن ما يُستشف من الآيات يشير إلى أن المقصود هو اجتناء أو اصطفاء أولئك الآباء لمقام النبوة وحمل الرسالة، وبالتالي فإن الاعتراض مرفوض لأن الحديث لا يدور عن إيمانهم أو كفرهم^(١).

﴿ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِّنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾

التعاليم:

- ١ - الهداية الإلهية هي الهداية الحقيقية، ولا تعدو سائر الهدايات كونها سراباً، ﴿ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ﴾.
- ٢ - الهداية بيد الله تعالى، وحتى الأنبياء لا يملكون لأنفسهم الهداية، ﴿يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ﴾.
- ٣ - الشرك يمحو الأعمال ويبطلها، ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ...﴾.
- ٤ - في السنن الإلهية، لا مكان للتمييز، فحتى الأنبياء يُعاقبون في حال أشركوا، لأن الحق هو المحور والأساس، وليس الأشخاص. (نظراً إلى أن الآيات السابقة تتعلق بالأنبياء)، ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا﴾.
- ٥ - الأنبياء معصومون ولا يمكن أن يتلوثوا بغبار الشرك أبداً، وافترض شرك الأنبياء في الآية هو من قبيل الفرض المحال بقرينة الأداة ﴿لَوْ﴾.
- ٦ - بحسب الرؤية الكونية الإلهية فإن قيمة الأعمال هي في إخلاص النيات، فإذا انعدم هذا الإخلاص، فلن يبقى شيء البتة، ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ﴾.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا

بِهَا قَوْمًا لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٩﴾﴾

إشارات:

□ كلمة «الحكم»، تأتي بمعنى الحكومة والإمساك بزمام الإدارة، أو بمعنى

(١) الأمل في تفسير الكتاب الله المنزل.

القضاء، ولها معنى ثالث هو العقل والإدراك. ذكر الراغب في «مفرداته» أنّ المعنى الأصلي لها هو المنع وذلك أنّ العقل السليم يمنع من وقوع الأخطاء والمخالفات، وكذا القضاء الصحيح يمنع من وقوع الظلم، وأيضاً الحكومة العادلة تقف بوجه الحكومات غير العادلة، إذن، الكلمة قد استخدمت في المعاني الثلاثة.

□ جاء في «تفسير المنار» و«تفسير روح المعاني» عن بعض المفسرين أنّ المقصود بالقوم الذين يؤمنون بالحقّ ولا يكفرون به هم الفرس^(١).

□ عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ صاحب هذا الأمر محفوظة له أصحابه، لو ذهب الناس جميعاً أتى الله له بأصحابه، وهم الذين قال الله ﷻ: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾»^(٢).

التعاليم:

- ١ - يملك الأنبياء حقّ الحكم والقضاء، ﴿ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾.
- ٢ - الإحسان والعمل الصالح والاهتداء إلى الطريق المستقيم كلّها من خصال الأنبياء، ﴿يَجْزِي الْمُحْسِنِينَ... كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ... وَهَدَيْنَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ... ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ﴾.
- ٣ - لكلّ دين أنصار وأعداء، وفي كلا المعسكرين يوجد المنحرفون ويوجد المهتدون. فتارة تجد المهتدي ينحرف، وأخرى المنحرف يهتدي، وإذا بالمسلم يصبح مرتدّاً، والكافر يدخل في الإسلام، ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾.
- ٤ - لن يخلو دين الحقّ من المناصرين حتى مع ارتداد ثلّة قليلة، فإذا كان الإنسان على طريق الحقّ، فلا ينبغي له أن يتأثر بكثرة المناصرين أو قلتهم، ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾.

(١) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٢) النعماني، الغيبة، ص ٣١٦.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَةُ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا
إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾

إشارات:

- الهاء في «اقتده»، ليست ضميراً، بل هي هاء السكت لبيان الحركة في الوقف.
- يجب تخليد ذكرى أولياء الله، وأسمائهم، وطريقهم، ولا ينبغي للمبتدعات الجديدة أن تنسخ القيم الأصيلة، ﴿فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَةُ﴾.

التعاليم:

- ١ - الاهتداء بهدي الأنبياء، هو اقتداء بالهدي الإلهي، ﴿هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَةُ﴾.
- ٢ - قيمة الإنسان في نهجه الفكري وسيرته العملية، (الآية تقول: ﴿فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَةُ﴾، ولم تقل: «بهم اقتده»).
- ٣ - نسخ الأديان السابقة لا يعني بطلان مبادئها وأصولها العامة، فالنهج العام للأنبياء يجب أن يستمر ويتواصل، ﴿فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَةُ﴾.
- ٤ - مهما تألق الإنسان في حياته لا بد له من الاقتداء بكمال خصال السلف، وخُلقهم الرفيع، ونهجهم الأصيل، ﴿فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَةُ﴾.
- ٥ - أهداف جميع الأنبياء واحدة، وإلا كيف يمكن الاقتداء بأنبياء لهم أهداف مختلفة، ﴿فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَةُ؟﴾
- ٦ - الهداية هي ثمرة الاقتداء، ﴿هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَةُ﴾.
- ٧ - لا ينبغي للداعية أن ينزع إلى زخارف الدنيا أو يتهم بذلك، ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ﴾.
- ٨ - من جملة الشواخص التي تميز الأنبياء عن غيرهم من الأدعياء أن هدف الأنبياء لا يندرج في الماديات، ﴿أَسْأَلُكُمْ﴾.
- ٩ - الأنبياء هم ذكرى للمتأسنين والغافلين، ﴿ذَكَرْتُمْ﴾.
- ١٠ - الإسلام دين عالمي، ﴿ذَكَرْتُمْ لِلْعَالَمِينَ﴾.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبَدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعِلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾

إشارات:

□ روي أن جماعة من اليهود على الرغم من إيمانهم بموسى عليه السلام إلا أنهم وبسبب عنادهم ولجاجهم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا: يا محمد أحققاً أنزل الله عليك كتاباً؟ فقال: «نعم» فقالوا: والله ما أنزل الله من السماء كتاباً على نبي. فنزلت الآية الكريمة لتفند مزاعمهم وتقول لهم إن كلامهم يتناقض مع عقائدهم، فإذا كان الله لم ينزل الوحي على أحد، فمن أوحى التوراة التي تؤمنون بها^(١)؟

التعاليم:

- ١ - إرسال الأنبياء والكتب السماوية هو من ألطاف الله على عباده، ومن ينكر ذلك فهو، في الحقيقة، ينكر الرحمة والحكمة الإلهية، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ...﴾.
- ٢ - يجب الرد على الشبهات المثارة، ﴿قَالُوا... قُلْ﴾.
- ٣ - التوراة الأصلية كانت نوراً وهداية، ﴿نُورًا وَهُدًى﴾.
- ٤ - التوراة الأصلية كانت تتضمن بعض الأشياء؛ لكن أحبار اليهود قاموا بإخفائها، ﴿وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾.
- ٥ - يجب على الدعاة الدينيين تبين معارف الدين وحقائقه للناس دون اعتبار لأي مصالح شخصية، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ... وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾.
- ٦ - من دون الوحي يبقى الإنسان بعيداً عن كثير من المعارف، ﴿وَعِلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا﴾.
- ٧ - مسؤولية الأنبياء هي الإبلاغ لا الإكراه، ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾.
- ٨ - يجب أن يكون الحجاج على قدر الحاجة وليس أكثر. هذه الآية بمثابة نوع من الحجاج تقول ما داموا لا يقبلون بالبراهين فـ ﴿ذَرْهُمْ﴾.

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبْرُوكٌ مُصَدِّقٌ لِّلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾

إشارات:

□ في هذه الآية وردت كلمة «لتنذر» معطوفة بواو العطف، ولعلها تشير إلى أن القرآن الكريم، مضافاً إلى الإنذار، له أهداف أخرى.

التعاليم:

- ١ - القرآن يحتوي على جميع البركات من قبيل الهداية، والعبرة، والشفاء، والرشد، والعزة، ﴿مُبَارَكٌ﴾.
- ٢ - القرآن الكريم مكمل للكتب السماوية الأخرى، ومصديق لها، وفي ذلك دلالة على وحدة الهدف وأنها نابعة من مصدر إلهي واحد، ﴿مُصَدِّقٌ﴾.
- ٣ - الشروع بالدعوة يجب أن يكون من أم القرى والمدن المهمة، ومن ثم يمتد إلى الضواحي والأطراف، ﴿وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.
- ٤ - الإيمان بالقرآن الكريم والإيمان بيوم القيامة جنباً إلى جنب، ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾.
- ٥ - الصلاة أجلى مظاهر الإيمان، ﴿عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.
- ٦ - الإيمان بالآخرة من عوامل المحافظة على الصلاة، ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ... عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾

إشارات:

□ ورد في سبب نزول هذه الآية: أن شخصاً يدعى عبد الله بن سعد بن أبي سرح

كان يكتب للنبي ﷺ الوحي، ولما خان طرده رسول الله فراح يزعم أنه قادر على قول مثل آيات القرآن. ويقول جمع آخر من المفسرين: إِنَّ الآية أو قسمًا منها نزلت بحق مسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة. ولكن نظراً إلى أن مسيلمة ظهر في أواخر حياة الرسول الكريم ﷺ وإلى كون هذه السورة مكية ادعى مؤيدو هذا التفسير: أن هذه الآية نزلت في المدينة ثم أدخلت ضمن هذه السورة بأمر من رسول الله ﷺ^(١).

□ «الغمرات» جمع «غمرة»، بمعنى الشدائد والصعاب التي تعصف بالإنسان أثناء الاحتضار فتغمره غمراً.

□ من أدعياء النبوة في ذلك العصر: مسيلمة في اليمن، والأسود العنسي في ذلك في اليمن، وطلحة الأسدي في بني أسد^(٢).

□ عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله ﷺ: ﴿الْيَوْمَ تُجْرَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾: «العطش يوم القيامة»^(٣).

□ وعن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال في الآية ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ «من ادعى الإمامة دون الإمام عليه السلام»^(٤).

التعاليم:

١ - الافتراء على الله تعالى ظلم ثقافي، وادعاء الزعامة من قبل المنحرفين أعظم الظلم، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ... أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾.

٢ - عدو الحق إما أنه يُنزل من شأن الحق، أو يُعلي من شأنه هو. في البداية يقول إن القرآن أساطير، فإذا لم ينجح في مسعاه، يقول أنا أيضاً بإمكانني أن آتي بمثل هذا القرآن، ﴿سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾. وفي موضع آخر نقراً ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾^(٥).

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ٤، ص ٥١٨. (٤) تفسير العياشي.

(٢) تفسير المراغي. (٥) سورة الأنفال: الآية ٣١.

(٣) تفسير نور الثقلين.

٣ - سكرة الموت شديدة على أدياء المناصب الدينية من المنحرفين والأفاقيين، ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْقُلُلِثُونَ﴾.

٤ - العذاب الأخروي يبدأ من لحظة الموت إذ يقال للكافرين: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، وهو نوع من الاحتقار والزجر.

٥ - روح الإنسان مجردة من الجسم ومستقلة عنه، ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾.

٦ - عقوبة الإساءة إلى الوحي والدين عذاب مهين، ﴿يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ
وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ
وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

إشارات:

- هذا الخطاب موجه إلى المشركين لحظة الاحتضار أو في يوم القيامة.
- «خولنا» من «الخَوْل»، بمعنى إعطاء ما يحتاج إلى التعهد والتدبير والإدارة وهو النعم التي يسبغها الله تعالى على عباده، «خولناكم» أي ملكناكم وأعطيناكم.

التعاليم:

- ١ - يوم القيامة سيكون الإنسان وحيداً، ﴿جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ﴾.
- ٢ - المعاد سيكون جسمانياً، ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.
- ٣ - كان المشركون يستقون بأربعة أشياء هي القبيلة والعشيرة، والأموال والثروات التي جمعوها، والسادة والكبراء الذين كانوا يستندون إليهم، والأصنام التي كانوا يعبدونها. هذه الآية تبين بطلان هذه الأشياء وعدم فائدتها.

﴿فُرْدَىٰ﴾ بلا عشيرة أو قبيلة.

﴿وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ﴾ بلا مال ولا ثروة.

﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ﴾ بلا ناصر ولا صاحب.

﴿وَصَلَّ عَنْكُمْ﴾ فناء جميع القوى الوهمية.

٤ - الظنون الواهية هي السبب وراء كثير من الضلالات، ﴿شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ رَزَعْتُمْ﴾.

٥ - في يوم القيامة، سوف تمحى الحقائق الظاهرية والسرابية، ﴿وَصَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ رَزَعُمُونَ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ

مِنَ الْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ ۚ فَإِنَّ تُوَفَّكُونَ ﴿٩٥﴾﴾

إشارات:

□ ﴿فَالِقُ﴾ من «فلق» وتعني شق الشيء وإبانة بعضه عن بعض. ﴿الْحَبِّ﴾ و«الحبة»، تقال لأنواع الحبوب الغذائية كالقمح والشعير ونحوهما. «النوى» هي النواة.

□ يخلق الله الحيوان الحي من العلف الذي لا حياة فيه ومن الحيوان الحي يخلق اللبن الذي لا حياة فيه، ومن النواة الميتة يخرج الشجرة الحية، ومن الشجرة الكبيرة يخرج النواة الميتة.

□ من الأمثلة على هذه الآية كما ورد في الروايات أنه أحياناً يخرج الكافر من المؤمن، ويخرج المؤمن من الكافر^(١)، ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾.

التعاليم:

١ - زرع الحب والنوى هو عمل الإنسان، ولكن فلقتها وإنباتها هو عمل الله تعالى، ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾.

(١) تفسير نور الثقلين؛ الكافي، ج ٢، ص ٥.

- ٢ - التدبّر في الظواهر الطبيعية هو من أفضل طرق معرفة الله تعالى، ﴿فَالِئُ الْحَبِّ... وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ... ذَلِكَ كُمْ اللَّهُ﴾.
- ٣ - رزق الإنسان يأتي عن طريق هذا الحبّ والنوى الذي ينبتة الله تعالى، إذن، من نتبع، ﴿فَأَنْتَ تُؤَفِّكُونَ؟﴾

﴿فَالِئُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ الْيَلَّ سَكْنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾

إشارات:

- «الإصباح» تعني الصبح، وكذلك تعني انزياح الليل وانبلاج الفجر، ولكنه هنا يتحدث عن «طلوع الصبح».
- طرحت الآية السابقة ثلاث علائم على قدرة الله تعالى على الأرض، وتنقل هذه الآية بعض العلائم عن قدرته سبحانه وتعالى في السماوات. فتعاقب الليل والنهار آيتان للقدرة الإلهية، إذ يتم ذلك من خلال الحركة المنتظمة للشمس والقمر.
- جعل الليل سكناً، حيث ذمّ العمل والكسب والسفر في الليل^(١)، (لَمَّا كَانَتِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ تَعْتَبِرُ اللَّيْلَ عَامِلَ سُكُونٍ وَاسْتِقْرَارٍ، فَلَا شَكَّ أَنَّهَا، فِي الْمَقَابِلِ، تَعْتَبِرُ الصَّبْحَ مَخْصَصاً لِلْعَمَلِ وَالْكَسْبِ).
- يقول الإمام الرضا عليه السلام: «تَزَوُّجٌ بِاللَّيْلِ فَإِنَّهُ جَعَلَ اللَّيْلَ سُكْنًا»^(٢).

التعاليم:

- ١ - تعاقب الليل والنهار يحتاج إلى إله قادر وعليم يستطيع أن يقوم بذلك بإتقان ونظام دقيق، ﴿فَالِئُ الْإِصْبَاحِ... تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.
- ٢ - الشمس والقمر وسيلة للنظام، والحساب، والتخطيط^(٣)، ﴿حُسْبَانًا﴾.

(٢) المصدر نفسه.

(١) تفسير نور الثقلين.

(٣) ربّما أمكن الاستنتاج من جعل الشمس والقمر وسيلة للحساب، صحّة التقويمين الشمسي والقمرى معاً.

٣ - النظام الدقيق والتطبيق الكامل يحتاج إلى علم وقدره، ﴿تَقْدِيرُ الْمَزِيدِ الْعَلِيِّ﴾.

٤ - التدبر في النظام المتقن والدقيق للكواكب السماوية هو الطريق إلى معرفة الله تعالى، ﴿فَأَنْ تَوْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَأَلْقِ الْإِصْبَاحَ﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ
قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾

إشارات:

□ علم الهيئة من أقدم العلوم التي عرفتها البشرية، عندما كان الإنسان في غابر العصور يستعين بالنجوم في أسفاره عبر الصحراء وفي عباب البحار. هذه الطريقة بمثابة وسيلة دقيقة، ودائمة، ومبتكرة، وطبيعية، وعامة، ولا تنطوي على أية تكاليف.

□ للإسلام اهتمام خاص بالظواهر الطبيعية. وقد سميت بعض سور القرآن على أسماء بعض الأشياء الطبيعية. العبادات الإسلامية كذلك مرتبطة بالأمور الطبيعية مثل: قياس الوقت، معرفة اتجاه القبلة، الخسوف والكسوف، وصلاة الآيات، استهلال الشهور والهجرات. كل هذه الظواهر الطبيعية دفعت بالمسلمين إلى الولوع في علم الهيئة واستحداث المراصد الفلكية في بغداد، ودمشق، والقاهرة، ومراغة، والأندلس، وتدوين العديد من الكتب الخاصة في هذا المجال.

□ لقد وضع الله تعالى للبشرية دليلاً يهديها في أسفارها عبر البحار والصحارى والتي نادراً ما تحدث في حياة الإنسان، والآن، هل يمكن القول بعد كل هذا إنه لا يوجد دليل لحركة الإنسان الدائمة يضمن عدم ضلاله وانحرافه عن مسير الحق؟ يتبين لنا مما تقدم ضرورة وأهمية الرسالة والإمامة من أجل هداية البشرية.

□ المراد بالنجوم الهادية في الأحاديث القادة المعصومون وأولياء الله تعالى^(١).

التعاليم:

- ١ - النجوم صنائع الله تعالى ووسيلة للاهتداء في الأسفار، وهي ليست خالقة ومدبرة كما اعتقد بعض، ﴿جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِيَهْتَدُوا بِهَا﴾.
 - ٢ - منظومة النجوم في السماء دقيقة للغاية لدرجة أنه يمكن اكتشاف طرق الأرض بواسطتها، ﴿لِيَهْتَدُوا بِهَا﴾.
 - ٣ - إن مجرد معرفة الوزن، والحجم، ومقدار المسافة، وسرعة الحركة، ومدار الكواكب، أو لنقل بشكل عام معرفة علم النجوم، لا تقود الإنسان إلى الله تعالى، بل ينبغي توافر الإرادة في الإنسان وأن يسعى هو إلى معرفة الله تعالى عن هذا الطريق، ﴿لِقَوْرِ يَعْلَمُونَ﴾.
- إذن، مجرد النظر إلى المرأة لا يكفي لحلق شعر الرأس والوجه، بل لا بد من توافر الإرادة والرغبة والعمل من أجل الحلق. فما أكثر بائعي المرايا الذين لا يملّون من النظر إليها، لكنهم لم يكلفوا أنفسهم ولو مرة واحدة بتجميل صورتهم وترتيبها.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْرِ يَفْقَهُونَ ﴿١٨﴾﴾

إشارات:

- تحمل كلمة «أنشأ» في الآية الكريمة مفهومين هما: ١ - الإبداع، ٢ - التربية المتواصلة.
- يلاحظ المرء أن خلق الإنسان ينطوي على عنصر الإبداع والابتكار، إلى جانب التربية المستمرة والمتواصلة، ومن الواضح أن الخلق التقليدي للشيء أو خلقه ثم إهماله لا ينطوي على قيمة أو أهمية تذكر.
- كثر الكلام عند المفسرين حول معنى مستقرّ ومستودع، ومما طُرح في هذا المجال: أنكم تملكون روحاً مستقرةً وجسماً مستودعاً غير مستقرّ، أو تملكون إيماناً مستقراً أو غير مستقرّ، أو أنكم تُخلقون من حيمن الذكر المتحرك غير المستقرّ ومن بويضة المرأة المستقرة في الرحم، أو مستقرّ في الأرض ومودع

في القبر حتى يوم القيامة، أو أنّ النعم أحياناً تكون مستقرّة وأحياناً أخرى وديعة.

□ نقرأ في تهذيب الأحكام في الدعاء بعد صلوة الغدير المسند إلى الصادق عليه السلام: «اللهم إني أسألك بالحق الذي جعلته عندهم وبالذي فضلتهم على العالمين جميعاً، أن تبارك لنا في يومنا هذا الذي أكرمنا فيه، وأن تتم علينا نعمتك، وتجعله عندنا مستقرّاً، ولا تسلبنا أبداً، ولا تجعله مستودعاً فإنك قلت: ﴿مُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ فاجعله مستقرّاً ولا تجعله مستودعاً»^(١).

التعاليم:

- ١ - البشرية ترجع إلى أصل واحد، فلم إذن كلّ هذه الصراعات ونزعة السيطرة والتفوق والتمييز، ﴿بَيْنَ نَفْسٍ وَجِدَةٍ﴾؟
- ٢ - إنّ كلّ هذا التباين والإبداع في خلق البشر والذي جاء من نفس واحدة، للدليل على عظمة الله سبحانه وتعالى، ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ﴾.
- ٣ - ليست كلّ النعم والإمكانات دائمة، فلنغنم وجودها ونوظفها أقصى توظيف، ﴿مُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾.
- ٤ - ما لم يكن الإنسان أهلاً للفهم والمعرفة، فلن ينال حظاً منها، ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٩٩)

إشارات:

□ ذكرت الآية السابقة أنّ جميع البشر خلقوا من نفس واحدة، وما يشبه هذا

الكلام تقوله هذه الآية وهو أن كل ما في الأرض من نباتات، وأشجار، وفواكه، يعود إلى أصل واحد وهو ماء المطر.

□ «متراكب» مشتقة من «ركوب»، أي تركب الفاكهة بعضها على بعض والحب متراصفاً ومنظماً.

«الطلع» هو عذق التمر قبل أن ينشق عن الإغريض (غلافه الأخضر)، و«قنوان»، الخيوط الرفيعة التي تشكل عذق التمر أو عنقود النخلة. «دانية»، أعذاق قريبة من بعضها ومن الأرض ينالها القائم والقاعد لثقل ثمرها. المراد بـ «المتشابه»، إما الشبه الظاهري للأشجار، مثل شجرة الرمان وشجرة الزيتون، أو الفواكه المتشابهة.

□ وردت في هذه الآية والآيتين السابقتين ثلاث عبارات متتالية هي: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾، ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، إذ تمّ توضيح مفاهيمها ضمن الفقرة الرابعة من «التعاليم».

التعاليم:

١ - ماء المطر هو العامل الأصلي في نمو جميع النباتات، ﴿مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

٢ - نزول المطر ونمو النباتات والفواكه كله من صنع الله تعالى، ﴿أَنْزَلْ... نُخْرِجُ﴾.

٣ - فلتكن علاقة الإنسان بالفواكه علاقة فكرية وتوحيدية أيضاً وليس علاقة مادية غذائية فحسب، ﴿أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ... إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾.

٤ - الاهتداء بالنجوم يستدعي توفر العلم والخبرة، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، التفكير في موضوع الركب الإنساني ونشوئه من نفس واحدة، وحركته بصورة مستقرة ومستودعة، كل ذلك يحتاج إلى فهم عميق، ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾؛ كما إن الإنسان يحتاج إلى إيمان عميق ليتدبر في وجوب الاستلham المعنوي من النبات، والمطر، والفاكهة، وضرورة ألا يغفل أن الوجود برمته هو الله تعالى، ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَقَعْلَىٰ عَمَّا
يَصِفُونَ﴾

إشارات:

□ «الخلق»، هو إيجاد الشيء بحساب، و«الخرق»، تمزيق الشيء بغير روية ولا حساب.

□ «خرقوا» تعني اختلقوا الأكاذيب دون أن يدرسوا جوانب الموضوع وبدون أن يعدّوا له ما يلزم من الأمور^(١).

□ بحسب القرآن، فإنّ المسيحيين اعتبروا النبي عيسى عليه السلام ابن الله وكذلك اليهود اعتبروا عزيزاً ابن الله^(٢). كما قال المشركون: إنّ الملائكة بنات الله، والزرادشتية اعتبرت «اهريمن» - وهو من الجنّ - ندّاً لله ونسبوا إليه كلّ الشرور، أمّا العرب فقد قالت: إنّ الله تزوّج من الجنّ فكانت بينهما صلة قرابة، ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾^(٣)، والخلاصة أنّ هذه الآية الكريمة تفنّد كلّ هذه المزاعم والخرافات وتقول: ﴿سُبْحَنَهُ وَقَعْلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

التعاليم:

١ - النزوع إلى الخرافات مردّه الجهل، ﴿وَخَرَقُوا... بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، عقيدة الإنسان بالله يجب أن تقوم على العلم.

٢ - أتى للمخلوق أن يكون شريكاً للخالق ﴿شُرَكَاءُ... وَخَلَقَهُمْ﴾؟

٣ - الزواج والإنجاب هما لإشباع غريزة، والله تعالى منزّه عن كلّ نقص وعيب، ﴿سُبْحَنَهُ﴾.

(٣) سورة الصفات: الآية ١٥٨.

(١) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٢) سورة التوبة: الآية ٣٠.

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾

إشارات:

- «بدیع» مشتقة من المصدر «إبداع» وهو إنشاء صنعة بلا احتذاء أو اقتداء.
- أيّ حاجة لمن يخلق السموات والأرض دون تقليد أو خطة مسبقة، إلى الزوجة والولد؟ يكفيه أن يريد شيئاً فيقول له: كن فيكون.

التعاليم:

- ١ - خالق الكون قادرٌ على كلّ شيء، ولا حاجة له لزوجة أو ولد، ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ﴾.
- ٢ - فلنقارن بين الله تبارك وتعالى الذي يتحدث عنه القرآن والآلهة التي يؤمن بها الآخرون، ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ﴾.
- ٣ - طبقاً للعقيدة الإسلامية، الخالق والرب واحد، ﴿رَبُّكُمْ... خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، بينما يؤمن المشركون بالله كخالق واحد وبأرباب متعددين.
- ٤ - الخالقية المطلقة لله هي دليل التوحيد، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾.
- ٥ - خلق، وبقاء، وثبات كلّ شيء بيد الله تعالى، ﴿خَلَقَ... وَكِيلٌ﴾.
- ٦ - فلسفة عبادة الله تعالى هي ربوبيته وخالقيته، ﴿رَبُّكُمْ... خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ﴾.

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾

إشارات:

- «بَصَرَ» يقال للجراحة الناضرة، ويقال لقوة القلب المدركة: بصيرة وبصر^(١).

لذلك، بالإمكان تفسير الآية على النحو التالي: لا العين الباصرة تستطيع أن تراه، ولا البصيرة بمقدورها أن تسبر أغوار معرفته وتوهمه.

□ كلمة «اللطيف» تحمل معاني عدة هي:

- ١ - من يستصغر عطاءه ويستعظم طاعة الناس.
- ٢ - الدقيق، الذي يتعاطى الأمور الخفية والدقيقة التي لا تدركها الحواس.
- ٣ - خالق الأشياء الدقيقة واللطيفة غير المرئية.
- ٤ - من كان من أهل المداراة والرفق.
- ٥ - الذي يثيب أهل الوفاء ويصفح عن أهل الجفاء.

□ يقول الإمام الرضا عليه السلام: «لا يقع الأوهام ولا يُدرك كيف هو»^(١).

□ إنَّ الله تعالى لا يُرى أبداً، فبمجرد أن نقل موسى عليه السلام طلب قومه في رؤية الله، قال الله تعالى: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾^(٢). غير أنَّ بعض علماء أهل السنة لهم رأي آخر في الموضوع إذ يقولون: إنَّ رؤية الله ممكنة في يوم القيامة، مستدلّين لذلك ببعض الآيات مثل: ﴿إِنَّ يَهَا نَظْرَةٌ﴾^{(٣)(٤)}، متناسين بأنَّ الله تعالى ليس بجسم ولا مادة ولا يجوز عليه ما يجوز على الجسم والمادة، والمقصود بالنظر إلى الله هو بعين القلب، ذلك أنَّ النظر بالعين الباصرة يكون إلى الشيء الذي يحتوي على المادة، أو يتخيَّر (يشغل حيِّزاً)، أو يتحدَّد، أو له لون... إلخ وجميع هذه الصفات دلّائل عجز وضعف تنزّه الله عنها.

□ وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام وقد سأله رجل عمّا اشتبه عليه من الآيات: «وأما قوله ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ﴾ فهو كما قال لا تدركه الأبصار ولا تحيط به الأوهام وهو يدرك الأبصار يعني يحيط بها»^(٥).

□ المراد بعبارة ﴿يُدْرِكُ الْبَصَرَ﴾، علمه ببصائر الإنسان، مثل «السميع» و«البصير» التي تعني علمه بالمسموعات والمشاهدات.

(٤) تفسير المنار.

(٥) تفسير الصافي.

(١) تفسير البرهان.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٤٣.

(٣) سورة القيامة: الآية ٢٣.

التعاليم:

- ١ - الله تعالى ليس بجسم مادي، ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾.
- ٢ - لا تحيط الأوهام بالذات الإلهية المقدسة، ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ﴾.
- ٣ - لا يحول حجاب أو ستار دون علم الله أبداً، ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.
- ٤ - الله سبحانه لطيف بنا على الرغم من علمه بمواقفنا، ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.
- ٥ - الله تعالى محيط بجميع لطائف الكون وأسراره، ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ
فَلَِنَفْسِهِ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ﴾

إشارات:

□ تناولت الآيات من ٩٥ وحتى الآن موضوع التعريف بالذات الإلهية المقدسة وتوبيخ عقيدة الشرك، ووصلنا إلى هذه الآية التي تعتبر استنتاجاً موجزاً لما سبقها.

□ يحتوي القرآن الكريم على آيات كثيرة شبيهة بهذه الآية التي تعزو إلى الإنسان نفسه عاقبة الإيمان أو الكفر، الشر أو الخير، التبصر أو عماء القلب والغفلة. من هذه الآيات نستعرض ما يلي:

- ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾^(١).
- ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾^(٢).
- ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾^(٣).

التعاليم:

- ١ - بعد نزول القرآن الكريم لم يعد لأحد أي عذر، ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ﴾.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٧.

(١) سورة البقرة: الآية ٢٨٦.

(٢) سورة فصلت: الآية ٤٦.

- ٢ - الناس مخيرون في انتهاج السبيل الذي يرتأون، ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ... وَمَنْ عَمِيَ﴾.
- ٣ - توعية الناس من مهام الربوبية الإلهية، ﴿بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.
- ٤ - ثواب إيمان الناس أو عذاب كفرهم يعود عليهم وحدهم، لا على الله، ﴿فَلَنْفَسِهِ... فَعَلَيْهَا﴾.
- ٥ - نزول العذاب على فئة من الناس ليس دليل بطلان تعاليم الأنبياء، بل علامة على عماء بصيرتهم، ﴿وَمَنْ عَمِيَ﴾.
- ٦ - النبي مأمور بإبلاغ الرسالة لا الإكراه عليها، ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾.
- ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُدْرِسُونَ﴾ (١٠٥)

إشارات:

□ كان الكفار في سعيهم إلى تكذيب النبي الكريم ﷺ يقولون: هذا الكلام ليس من عنده بل يتلقاه من قوم آخرين (أي اليهود والنصارى)، ﴿دَرَسَتْ﴾، وفي مواضع أخرى قالوا: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾^(١)، ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾^(٢).

التعاليم:

- ١ - تعدد أساليب البيان، والاستدلال، والتعليم توسع دائرة القبول، ﴿نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾.
- ٢ - بعض يتصدى لآيات الله عبر أساليب الافتراء والإنكار، ﴿دَرَسَتْ﴾، وبعض آخر من الصالحين يسترشدون ويقبلون بالحقيقة، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿أَنبِئْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٠٦)

إشارات:

□ في الآية السابقة، اتهم المشركون النبي الكريم ﷺ بأن هذه الآيات ليست من

كلام الوحي بل ممّا اقتبس من الآخرين. وهنا يسّلي الله تعالى نبيه الكريم بأن امض في طريقك ولا تلقِ بالاً لما يقولون.

□ تتباين أساليب التعاطي مع المناوئين باختلاف الحالات والظروف، على سبيل المثال:

- عبر إلقاء التحية والسلام، ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾^(١).
- بالسكوت وعدم إبداء أية ردّة فعل، ﴿ذَرَهُمْ﴾^(٢)، ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾^(٣).
- الإعراض عنهم وتجاهلهم، ﴿أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾^(٤).
- إبداء الغلظة والشدة، ﴿وَاعْلَظْ عَلَيْهِمْ﴾^(٥).
- أو الردّ بالمثل، ﴿فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ يَمِثِلْ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾^(٦).

التعاليم:

- ١ - يجب ألا تفتّر عزيمة القادة الإلهيين وأن لا تفتّ في عضدهم الافتراءات، والإساءات، والتحليلات الخاطئة للأعداء، ﴿أَتَبِعَ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾.
- ٢ - أحياناً يكون سقوط الإنسان شديداً بحيث يؤمر النبي الكريم ﷺ بالإعراض عنه، ﴿وَاعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾^(١٧)

إشارات:

□ الإرادة الإلهية على نوعين: الإرادة التشريعية والإرادة التكوينية. فمن الناحية التشريعية يريد الله الهداية للناس جميعاً، وهو ما يفسّر إرساله الأنبياء والكتب السماوية إليهم، غير أنّه من الناحية التكوينية يريد أن يسلك الإنسان طريقه مختاراً دون إكراهه على الدخول في الدين.

(٤) سورة المائدة: الآية ٤٢.

(٥) سورة التوبة: الآية ٧٣.

(٦) سورة البقرة: الآية ١٩٤.

(١) سورة الفرقان: الآية ٦٣.

(٢) سورة الحجر: الآية ٣.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٧٣.

التعاليم:

- ١ - الإرادة الإلهية لا تخلف الميعاد، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾.
 - ٢ - الإرادة الإلهية تقوم على تخيير الإنسان، والدليل على ذلك وجود المشركين، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾.
 - ٣ - الأنبياء هم معلّمو الأمم لا سجانون يكرهونهم على تطبيق الأوامر، ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾.
 - ٤ - النبي ليس مسؤولاً لا عن رفع البلاء عن المشركين ولا عن جلب المنفعة لهم، ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِرَكِيلٍ﴾.
 - ٥ - الأنبياء ملزمون بالتكليف لا بالنتيجة. على الرغم من كل جهودهم، لم تؤمن فئة كبيرة من المشركين، ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِرُكَّيْلٍ﴾.
 - ٦ - كان النبي ﷺ يعتصر ألماً من أجل هداية الناس، ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِرُكَّيْلٍ﴾.
- ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَلَيْهِمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

إشارات:

□ لقد جعل الله تعالى خلق الإنسان يتأثر بالأعمال، صالحة كانت أم سيئة، ويتطّبع عليها تدريجياً، لتترك أثراً في نفسه. من هنا، نرى أنّ تزيين الأعمال تُنسب تارةً إلى الله تعالى ﴿زَيْنًا﴾ الذي خلق هذا التأثير، وتارةً أخرى إلى الشيطان من خلال وساوسه وإغراءاته إذ يزيّن القبائح فيصيرها محاسن جميلة، ﴿زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ﴾^(١).

□ يقول الإمام علي عليه السلام لجنده في حرب صفين: «إني أكره لكم أن تكونوا سبّابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم، وذكرتم حالهم، كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر»^(٢).

□ وعنه ﷺ أيضاً: «من مصاديق سب الله سب ولي الله»^(١).

□ اللعن والبراءة تختلف عن السب والشتم وبذاءة الكلام، فاللعن والبراءة المذكوران في آيات عدة من القرآن الكريم هما في الحقيقة إعلان لموقف صريح من الظالمين والمشركين والبراءة منهم، ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾^(٢)، ﴿بِرَاءَةٌ مِنْ اللَّهِ...﴾^(٣).

التعاليم:

- ١ - يجب السيطرة على مشاعرنا تجاه المناوئين، والاحتراز من إطلاق أي سباب أو كلام بذيء، ﴿وَلَا تَسُبُّوا﴾.
- ٢ - لا بد لنا من أن نأخذ بالاعتبار تأثيرات تصرفاتنا وانعكاساتها، ﴿وَلَا تَسُبُّوا... فَيَسُبُّوا اللَّهَ﴾.
- ٣ - بالسب والشتائم لا يمكن ثني الناس عن السير في طريق الانحراف، ﴿وَلَا تَسُبُّوا﴾.
- ٤ - الشتائم سبب في إثارة العداوات، والأحقاد، والسب، ﴿وَلَا تَسُبُّوا... فَيَسُبُّوا... عَدُوًّا﴾.
- ٥ - الشتائم والسباب دليل غياب المنطق، أو الأدب، أو الصبر عند المسلمين، فمن خلال الكف عن السب والشتائم يبرهن المسلم على صبره، ومنطقه، وحسن أدبه، ﴿وَلَا تَسُبُّوا﴾.
- ٦ - كل عمل يتسبب في الإساءة إلى المقدسات حرام، ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ﴾.
- ٧ - لا يجوز توظيف سلاح الشتم والسب في عملية النهي عن المنكر، والدعاية، والمناظرات، ﴿وَلَا تَسُبُّوا﴾.
- ٨ - أي عمل يؤدي إلى دفع الآخرين لارتكاب المعاصي فهو حرام^(٤)، ﴿وَلَا تَسُبُّوا... فَيَسُبُّوا﴾.

(٣) سورة التوبة: الآية ١.

(٤) تفسير مجمع البيان.

(١) تفسير الميزان.

(٢) سورة هود: الآية ١٨.

- ٩ - أحياناً يجد الإنسان نفسه متورطاً بصورة لا إرادية في معاصي الآخرين، وذلك من خلال تهيئة أسباب ومقدمات ارتكاب المعصية لهم، ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ﴾.
- ١٠ - من السنن الإلهية تزيين أعمال الأمم في عيون أبنائها، ﴿رَبَّنَا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ﴾؛ فكل أمة تحسن أعمالها في نظرها حتى وإن كانت ظالمة.
- ١١ - تزيين العمل لا يعني حقيقته، ﴿رَبَّنَا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ﴾.
- ١٢ - اطلاع الناس على عواقب أعمالهم في يوم القيامة، من شؤون الربوبية الإلهية، ﴿إِنَّكَ رَبِّهِمْ تَرْجِمُهُمْ وَيَتَّبِعُهُمُ الْخَلْقُ﴾.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

إشارات:

□ قال المفسرون في سبب نزول الآية: إن قريشاً قالت: يا محمد تخبرنا أن موسى كانت معه عصا يضرب بها الحجر فينفجر منه اثنتا عشرة عيناً، وتخبرنا أن عيسى كان يحيي الموتى، وتخبرنا أن ثمود كانت لهم ناقه، فاتنا بآية من الآيات كي نصدقك، فقال رسول الله ﷺ: «أي شيء تحبون أن آتيكم به؟» قالوا: اجعل لنا الصفا ذهباً، وابعث لنا بعض موتانا حتى نسألهم عنك أحق ما تقول أم باطل، وأرنا الملائكة يشهدون لك، أو اثنتا بالله والملائكة قبيلاً! فقال رسول الله ﷺ: «فإن فعلت بعض ما تقولون، أتصدقونني؟»، قالوا: نعم والله لئن فعلت لتتبعنك أجمعين، وسأل المسلمون رسول الله أن ينزلها عليهم حتى يؤمنوا. فقام رسول الله ﷺ يدعو الله تعالى أن يجعل الصفا ذهباً، فجاء جبرئيل عليه السلام فقال له: إن شئت أصبح الصفا ذهباً ولكن إن لم يصدقوا عذبتهم وإن شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم، فقال رسول الله ﷺ: «بل يتوب تائبهم»، فأنزل الله تعالى بأن المعجزات بيده وأنه ينزلها بحكمته وليس استجابة لأهواء الناس ورغباتهم^(١).

(١) تفسير مجمع البيان؛ الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

□ المعجزة ضرورية على قدر إتمام الحجة، لا لإرضاء أهواء كل فرد، إن نظام الكون ليس ألعية بيد المشركين، ناهيك عن أن بعض أهواء وطلبات المشركين تتعارض مع العقل مثل طلب رؤية الله.

التعاليم:

- ١ - مشركو مكة كانوا يؤمنون بالله تعالى وكانوا يحلفون به، ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللّٰهِ﴾.
- ٢ - لا تنخدعوا بالإيمان الكاذبة للأعداء، ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ﴾.
- ٣ - نعم لطلب البراهين، ولكن لا للرضوخ للأهواء والشهوات، ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللّٰهِ﴾.
- ٤ - الله يتكفل بمعجزات الأنبياء، ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللّٰهِ﴾.
- ٥ - العناد داء عضال، يدفع بصاحبه إلى عدم الإيمان بأي معجزة، ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَئِىَ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَنذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ

يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾

التعاليم:

- ١ - سنة الله تعالى تقتضي قلب قلوب المعاندين اللجوجين، ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾.
- ٢ - الإيمان بالله تعالى وبالرسالة يحتاج إلى قلب سليم، ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾.
- ٣ - المعصية واللجاج قلب نظر الإنسان وبصيرته، ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾.
- ٤ - من لا يؤمن بعد وقوع المعجزات الأولى، فلا ينبغي له أن يطالب بمعجزات أخرى، ﴿لَئِىَ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.
- ٥ - صحيح أن الله هو مقلب القلوب، لكن الإنسان هو الذي يهتئ ظروف التحول باختياره الإيمان أو الكفر، ﴿وَنُقَلِّبُ... كَمَا لَئِىَ يُؤْمِنُوا﴾.
- ٦ - الطغيان هو أساس الكفر، ﴿لَئِىَ يُؤْمِنُوا... طُغْيَانِهِمْ﴾.
- ٧ - من وكله الله إلى نفسه، وقع في الحيرة، ﴿وَنَنذَرُهُمْ... يَعْمَهُونَ﴾.

الجزء (٨)

﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَلْنَا إِلَهُنَّ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتُ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾

إشارات:

□ إذن، أحد مطالب المشركين كانت نزول الملائكة عليهم وتحديث الموتى إليهم، ولكن هؤلاء كانوا من اللجاج والعناد بحيث حتى لو تجسدت أمامهم القضايا الغيبية عياناً في صورة الملائكة فإنهم سوف لن يبرحوا موقع الشرك ولن يؤمنوا أبداً.

□ «قُبُلًا» إما بمعنى أمامهم وقبالتهم، أو هي صيغة الجمع لـ «قبيل» أي الفئة أو المجموعة.

□ الآيتان السابقتان طرحت المزاعم الكاذبة للمشركين بالإيمان في حال وقوع معجزة أمامهم، وهنا تطرح هذه الآية أمثلة لهذه المعجزات.

□ في الآيتين ١٤ و ١٥ من سورة الحجر ورد ما يشبه مضمون هذه الآية: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَخْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾.

التعاليم:

١ - مع القلوب المعاندة للجوجة لا تنفع أي آية لجذبها صوب الإيمان، ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾.

٢ - لو شاء الله أن يؤمن الجميع بالإكراه لفعل ولكن ذلك يتعارض مع حكمته، ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾.

٣ - الجهل هو سبب عدم الإيمان بآيات الله تعالى، ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا... وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿١١٢﴾

إشارات:

□ جاء في آية سابقة: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾. وهنا تقول الآية الكريمة: ﴿فَذَرَّهُمْ﴾.

□ يبدأ سقوط الإنسان منذ لحظة نفوذ وساوس الشيطان إلى نفسه، ﴿يُوسُوسُ فِي سُدُورِ النَّاسِ﴾^(١). فمن تركت هذه الوسوس أثراً فيه، فهو من أنصار الشيطان، ﴿إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ﴾^(٢) ليصبح بالتالي هو نفسه شيطاناً، ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ﴾.

□ التعارض والتنازع بمثابة مقدمة إلى التكامل الإرادي. من هذا الباب، جعل الله تعالى العالم مسرحاً لتنازع الإرادات وتعارضها، ﴿وَكَذَلِكَ﴾.

التعاليم:

١ - مطالعة تاريخ الأمم الأخرى وما نزل بها من البلايا تشكل عامل استقامة وثبات للإنسان، ﴿وَكَذَلِكَ﴾.

٢ - صراع الحق مع الباطل كان حاضراً على الدوام على مر التاريخ، ﴿وَكَذَلِكَ﴾.

٣ - على قائد المجتمع أن يهتئ نفسه لأي نوع من المعارضة، ﴿وَكَذَلِكَ﴾.

٤ - لا تتوقع اجتثاث الأعداء والأشرار نهائياً، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا﴾.

٥ - من جملة السنن الإلهية مواجهة الأنبياء لمختلف الأعداء والمناوئين، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾.

٦ - الكافر اللجوج كالشيطان، ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ...﴾.

(١) سورة الناس: الآية ٥.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٢٧.

٧ - ارتباط شياطين الإنس والجنّ وتواصلهم مع بعضهم يتمّ عن طريق الإلقاء والوسوسة خفية، ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ...﴾.

٨ - يعلمّ الشياطين بعضهم بعضاً أساليب الخبث والأعمال الشيطانية، ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾.

٩ - أعداء الأنبياء لهم دعاية داخلية، ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾.

١٠ - ربّما كانت الكلمات الجميلة والمنمّقة الخداعة عامل استغفال للإنسان، ﴿يُوحِي... زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾.

١١ - لقد خلق الله تعالى الإنسان حرّاً، وجعل الدنيا مسرحاً للصراعات، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾.

١٢ - حرية البشر تصبّ في مسير تربية الإنسان ورشاده، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾.

١٣ - في نظام الكون، توجد إرادة واحدة حاكمة، لا قوّة الخير (يزدان) والشر (أهريمن) (كما تقول العقيدة الزرادشتية)، لذا فالمحاولات المنحرفة لا تخرج عن دائرة الحاكمية والقدرة الإلهية، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾.

﴿وَلْيَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرَبُّهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ

مُقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

إشارات:

□ «تصغى» من «الصغو»، وهو الميل إلى الشيء، ولكنّه في الأغلب ميل ناشئ عن طريق السمع، فإذا استمع أحد إلى كلام مع الموافقة فهو «الصغو» و«الإصغاء».

□ «اقتراف»، بمعنى الحصول أو الاكتساب حسناً كان أم سيئاً، وهو في الإساءة أكثر استعمالاً.

التعاليم:

- ١ - الوسواس والدعاية وحدهما لا يشكلان عامل انحراف، إلا إذا أضيف إليهما الإصغاء، والتجاوب، والانجذاب، ﴿وَلْيَصْغَيْ... وَلْيَرْضَوْهُ﴾.
- ٢ - نفوذ الشيطان في النفس وتسلطه عليها يعود إلى عدم الإيمان بالآخرة، ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾.

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (١١٤)

إشارات:

- «الحكم» القاضي والحاكم، وبعضهم يراه مساوياً للحاكم من حيث المعنى، ولكن يرى بعضهم، ومنهم صاحب مجمع البيان أن الحكم من لا يحكم بغير الحق، أما الحاكم فقد يحكم بكليهما، ويرى آخرون، ومنهم صاحب المنار أن الحكم من يختاره الطرفان للحكم، وليس الحاكم كذلك^(١).
- كان الحديث في الآية ١١١ من هذه السورة بأنه حتى لو بُعث الموتى من قبورهم وتحذثوا إلى هؤلاء، أو نزلت عليهم الملائكة فإنهم لن يؤمنوا. وهذه الآية تقول: إن أهل الكتاب يعلمون أن القرآن الكريم وحي منزل من السماء، لذا فإن مطالبتهم بالمعجزات لا تعدو كونها أعداراً واهية.
- النبي الكريم ﷺ لم تكن لديه أي شكوك أو تردد في دعوته، من هنا فإن خطاب الآية الكريمة ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ موجه إلى المسلمين لثلاث تنابهم الوسواس والشكوك في حقية الطريق الذي سلكوه.

التعاليم:

- ١ - القبول بغير القرآن حكماً أمراً قبيح ويستحق التوبيخ، ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾، التشريع والتحكيم لله وحده فقط.

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل؛ تفسير المنار.

٢ - الله سبحانه وتعالى أنزل القرآن مفصلاً، ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾.

٣ - أحد دلائل حقبة الدين الإسلامي بشارات الأنبياء السابقين في التوراة والإنجيل، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِن رَّبِّكَ﴾؛ كما يقول ﴿وَلَا يَفْقَهُونَهُ كَمَا يَفْقَهُونَ آبَاءَهُمْ﴾^(١).

٤ - يجب أن يتوافر القائد على صفتي الحزم والحسم في دعوته، ﴿فَلَا تَكُونُوا...﴾.
٥ - حذار أن يتسلل الشك إلى نفوسكم بسبب عدم إيمان أهل الكتاب، فهم يعرفون حقبة القرآن الكريم حق المعرفة، لكن لجأهم وعنادهم يدفعهم إلى إنكاره، ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

إشارات:

□ في ضوء الآيات السابقة، فإن المقصود بـ ﴿كَلِمَتُ﴾ في هذه الآية هو القرآن الكريم، غير أن «الكلمة» بحسب الثقافة القرآنية والروايات تعني الوعد المحتوم، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾^(٢) إذ إن الله تعالى أنجز وعده بالنصر لبني إسرائيل لما صبروا.

□ كما تأتي «الكلمة» بمعنى دين الله، أو النبي أو أولياء الله، كما تقول الآية الكريمة ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرَمِّمٍ﴾^(٣).

□ قد ورد في الروايات نقلاً عن الأئمة عليهم السلام قولهم: «نحن الكلمات»^(٤).

التعاليم:

١ - القرآن آخر الكتب السماوية والإسلام ختام الأديان الإلهية، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾.

(١) سورة البقرة: الآية ١٤٦؛ سورة الأنعام: (٣) سورة النساء: الآية ١٧١.

(٢) بحار الأنوار، ج ٢٤، ص ١٧٤.

الآية ٢٠.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٣٧.

- ٢ - القرآن معجزة تامة تبرهن على رسالة النبي الكريم ﷺ، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾.
- ٣ - القرآن يلبي جميع متطلبات الهداية للمجتمعات الإنسانية، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾.
- ٤ - الإسلام يكمل الأديان السابقة، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ...﴾.
- ٥ - إتمام الدين من خلال بعثة الرسول الكريم ﷺ هو بمثابة تجلٍ لربوبية الله تعالى، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾.
- ٦ - الصدق والعدل هما أساس الشرائع والسنن الإلهية في نظام الكون، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾.
- ٧ - أنباء القرآن صادقة، وأحكامه قائمة على العدل، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾؛ وفي آية أخرى نقرأ ﴿وَمَنْ أَمَدَّقُ مِنْ اللَّهِ حَدِيثًا﴾^(١).
- ٨ - القرآن مصان من التحريف، ﴿لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾.
- ٩ - الله يحيط إحاطة تامة بالاحتياجات، وفي ضوئها أنزل القرآن، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

﴿وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ
إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾

إشارات:

□ «الخرص» هو كل قول أطلق عن ظنٍّ وتخمين، وأصله من تخمين كمية الثمر على الأشجار عند استئجار البستان، وأمثال ذلك، ثم أطلق على كل ظنٍّ وتخمين قد يطابق الواقع وقد لا يطابقه، والكلمة تستعمل في الكذب أيضاً، وقد تكون في الآية بكلا المعنيين^(٢).

التعاليم:

- ١ - طريق الهداية والقرآن هو المعيار، لا طريق الناس أو الأغلبية، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ...﴾.

- ٢ - الأغلبية ليست معيار الحقيقة، الحق هو المعيار لا الكثرة، إذن، لا ترهبكم قلة رواد طريق الحق من المضي فيه، ﴿وَإِنْ تُطِيعَ أَكْثَرُ﴾.
- ٣ - ثمن جذب اهتمام الأغلبية يكون أحياناً انحراف الإنسان وضياعه، ﴿وَإِنْ تُطِيعَ أَكْثَرُ... يُضِلُّوكَ﴾، فلتكن حركتنا في سبيل الله حتى وإن تعارض ذلك مع رأي الأغلبية.
- ٤ - للأغلبية رهبة بحيث إن الله تعالى يحذر نيته الكريم ﷺ من الانجرار وراءها، ﴿وَإِنْ تُطِيعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ﴾، على الأنبياء اتباع الوحي لا آراء الناس.
- ٥ - جذور الضلال تكمن في الاعتماد على الظن والتخمين، ﴿يُضِلُّوكَ... إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾.
- ٦ - الأغلبية التي تعتمد الظن والأهواء بدلاً من الحق، لا تستحق أن تتبع، ﴿وَإِنْ تُطِيعَ أَكْثَرُ... يُضِلُّوكَ... يَخْرُصُونَ﴾.
- ٧ - اختيار الطريق، يحتاج إلى الدليل والبرهان لا الظن والتخمين، ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ... يَخْرُصُونَ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (١١٧)

إشارات:

□ «المهدي»، من كان مهتدياً بالهدي الإلهي منذ البداية، مثل الأئمة المعصومين عليهم السلام، أمّا «المُهتدي» فهو الذي هُدي بعد ضلال^(١).

التعاليم:

- ١ - الإنسان ذو علم، لكن الله هو الأعلم، ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ توسط الضمير «هو» بين المبتدأ والخبر لبيان الخصوصية.
- ٢ - التربية بحاجة إلى وعي عميق، ﴿رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾.

٣ - لا نخدع أنفسنا والآخرين بالتظاهر والنفاق، فالله أعلم بنفوسنا، ﴿هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ...﴾.

٤ - يجب أن نتبع الأعلم لا الأغلبية، ﴿وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكَ... إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾.

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَنْتُمْ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١١٨﴾

إشارات:

□ من علائم شمولية الدين الإسلامي وجامعيته هو أنه في مسألة ثانوية مثل ذبح الحيوان يتناول جميع الجوانب والأبعاد الخاصة مثل: مسائل العقيدة (ذكر اسم الله)، أداة الذبح (الحديد)، طريقة قطع الأوداج، الأمة أو الدين (الشخص الذي يقوم بالذبح يجب أن يكون مسلماً)، وجهة الذبح (القبلة)، وأخيراً الاتجاه (نحو القبلة)، ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَنْتُمْ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾.

التعاليم:

- ١ - طعام المؤمن يجب أن يكون ذا صبغة إلهية، ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَنْتُمْ اللَّهُ﴾.
- ٢ - ذكر اسم الله بمشابة إذن الاستهلاك والترخيص الرسمي باستعمال لحم الحيوانات المباحة، ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَنْتُمْ اللَّهُ عَلَيْهِ...﴾.
- ٣ - لا بدّ من استغلال كلّ الفرص لترسيخ أسس التوحيد بما في ذلك ذبح الحيوان. نعم، التوحيد ليس قضية نظرية، ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَنْتُمْ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾.
- ٤ - الطعام الحلال والالتزام بالأحكام من شروط الإيمان، ﴿إِنْ كُنْتُمْ بِإِيمَانٍ﴾.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَنْتُمْ اللَّهُ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ ﴿١١٩﴾

إشارات:

□ إشارة إلى ما كان سائداً بين المشركين في الجاهلية الذين كانوا يسوّغون

لأنفسهم أكل لحوم الحيوانات الميتة بالقول: أيجوز أن تعتبر لحوم الحيوانات التي نذبحها نحن حلالاً، ولحوم الحيوانات التي يذبحها الله حراماً؟ فنزلت الآية لتوضيح الأمور للناس وتردّ على هؤلاء.

التعاليم:

- ١ - من يحرم ما أحلّ الله دون مسوغ شرعي يستحقّ التوبيخ، ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا﴾، بعض المسلمين كانوا يحرمون على أنفسهم ما أحلّ الله وذلك بتأثير من العادات الجاهلية.
- ٢ - إذا كان لحم الحيوان ذا صبغة إلهية فأكله حلال، وإذا لم يكن كذلك فهو حرام، ﴿ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ﴾.
- ٣ - لقد ذكر الدين الإسلامي المبين جميع المحرمات الإلهية، ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾^(١).
- ٤ - الأصل في التشريع الإسلامي هو حلية جميع الأطعمة، إلا ما بيّن الله حرمة، ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ﴾.
- ٥ - لا يوجد طريق مسدود في الأحكام الإسلامية، ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾.
- ٦ - الاضطرار يسقط التكليف، ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾.
- ٧ - التكاليف الإلهية تتناسب مع الظروف الزمانية والمكانية وقدرة الإنسان، ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾.
- ٨ - أكل الأطعمة المحرمة جائز في الحالات الاضطرارية فقط، ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾.
- ٩ - تبيين الحلال والحرام يستند إلى الأحكام الإلهية، ﴿حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾.
- ١٠ - الجهل والهوى من أسباب الانحراف، ﴿يُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.
- ١١ - إضلال الناس هو بمثابة اعتداء على حقوق المجتمع، ﴿أَعْلَمُ بِالْمُعْذِرِينَ﴾.

(١) هذا البيان المفصل هو إشارة إلى الآية ١١٥ من سورة النحل؛ تفسير الميزان.

﴿وَذَرُوا ظُلْهَرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ
سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرُونَ﴾ ﴿١٢٠﴾

إشارات:

□ الناس قديماً وحاضراً يخشون ظواهر الإثم فحسب.

التعاليم:

- ١ - بسيف الإرادة يجب قطع إغراءات المعصية وإغواءاتها النفس، ﴿وَذَرُوا ظُلْهَرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾.
 - ٢ - يهتم الإسلام ببقاء الظاهر والباطن معاً، يجب الإفلاخ عن المعاصي العملية والقلبية - مثل سوء الظن - معاً، ﴿ظُلْهَرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾.
 - ٣ - العذاب الإلهي يحيط بالمعاصي التي ترتكب عن علم وعمد، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ﴾.
 - ٤ - على الرغم من وساوس الشيطان، إلا أن الإنسان يرتكب المعصية بإرادته، ﴿يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ﴾.
 - ٥ - القيامة وعذاب الآخرة ليسا ببعيدين، ﴿سَيُجْزَوْنَ﴾.
 - ٦ - العذاب الإلهي هو حصاد أعمالنا، ﴿بِمَا كَانُوا يَقْتَرُونَ﴾.
- ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَؤْخَذَ إِلَٰهًا أَتَوَلَّيْهُمْ
لِيَجْذِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ ﴿١٢١﴾

إشارات:

□ لقد حرم الإسلام تحريماً شديداً الأطعمة المحرمة لأنها تورث قسوة القلب وتمهد لمعاصي أخرى، وهو ما جاء أيضاً في خطبة الإمام الحسين عليه السلام للأعداء في يوم عاشوراء: «قد ملئت بطونكم من الحرام»^(١).

□ لقد تقدّم في الآية ٥ من سورة المائدة حليّة طعام أهل الكتاب ﴿وَلَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾. وهذه الآية الكريمة تقول: إنّ كلّ حيوان لم يذكر اسم الله عليه فأكله حرام. ولما كان أهل الكتاب لا يذكرون اسم الله على ذبائحهم، من هنا نستنتج أنّ ذبائحهم حرام، وأنّ ما ذكرته الآية من حليّة طعامهم إنّما هو للحبوب وما شابهها، وليس اللحوم^(١).

□ إنّ وساوس الشيطان تكون على هذا النحو: إنّ الحيوان الميت قتيل الله، وقتيل الله أفضل من قتيل الإنسان! إذن، كيف تُحرم الميتة بينما يحلّ الحيوان المذبوح على يد الإنسان؟! هذا في الوقت الذي يتناسى فيه الإنسان أنّ تطبيق أحكام الله أهمّ من كلّ ذلك.

التعاليم:

١ - لا بدّ للمسلم أن يحترم الالتزامات الدينيّة حتى في مسائل الطعام والتغذية، ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾.

٢ - ذكر اسم الله عند ذبح الحيوان ليس أمراً صورياً أو تشريفيّاً، بل حكماً واجباً، وفي تركه فسق، ﴿وَأِنَّهُ لَفَسْقٌ﴾.

٣ - حينما كان عدم الإيمان أشدّ، لزم التوكيد، ذلك أنّ قبول الناس في العصر الجاهلي بشروط حليّة الذبح كان أمراً عسيراً، ونلاحظ هنا أنّ الله سبحانه وتعالى طرح المسألة في إطار تأكيدات متعدّدة. جملة ﴿وَأِنَّهُ لَفَسْقٌ﴾ اسمية، والأداة «إنّ» وحرف اللام للتوكيد.

٤ - بسبب أكل الحرام، يصبح الإنسان أكثر استعداداً لتقبّل إغواءات الشيطان، ﴿وَلَا تَأْكُلُوا... وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ﴾.

٥ - للشياطين القدرة على إلقاء الوسوس، ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ﴾.

٦ - وساوس الشيطان نافذة في أوليائه فقط، وليس في أولياء الله، ﴿يُوحُونَ إِلَهُ أَذْيَابَهُمْ﴾.

٧ - مجادلات الإنسان تستند إلى الوسوس والأهواء، ﴿يُوحُونَ... لِيُجْدِلُوكُمْ﴾.

٨ - المجادلة في الأحكام الإلهية هي من أسلحة الشيطان وإلقاءاته، ﴿وَرِئَاءَ الشَّيْطَانِ... لِيُجْدِلُوكُمْ﴾.

٩ - المجادلة في الأحكام الدينية تسوق الإنسان إلى الشرك، ﴿لِيُجْدِلُوكُمْ... لِمُشْرِكُونَ﴾.

١٠ - الموحدون الذين يطيعون غير الله عملياً، هم مشركون، ﴿إِنَّمَا لِمُشْرِكُونَ﴾.

﴿أَوْ مَن كَانَ مَبْتَغًى فَآخِزْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ ثُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

إشارات:

□ قيل في نزول هذه الآية: إن أبا جهل الذي كان من ألد أعداء الإسلام أذى يوماً رسول الله إيذاءً شديداً، وكان «حمزة» عم النبي ﷺ لم يسلم بعد، بل كان ما يزال يقلب الأمر في ذهنه، وقد خرج في ذلك اليوم كعادته للصيد في الصحراء، وعند عودته سمع بما جرى بين أبي جهل وابن أخيه، فغضب غضباً شديداً وذهب إلى أبي جهل وصفعه صفقة أسالت الدم من أنفه، وعلى الرغم من مكانة أبي جهل ونفوذه في عشيرته فإنه لم يردّ عليه لما يعرفه عن شجاعة حمزة. وعاد حمزة إلى رسول الله ﷺ وأعلن إسلامه. ومنذ ذلك اليوم أصبح جندياً من جنود الإسلام ودافع عنه حتى استشهد بين يدي رسول الله (١).

□ كلمة «الموت» في العبارات القرآنية تطلق على مرحلة ما قبل النطفة ﴿وَكُنْتُمْ أََمْوَثًا فَآخِزْنَاهُ﴾ (٢)، وكذلك تطلق على الضلال ﴿أَوْ مَن كَانَ مَبْتَغًى﴾، وأيضاً

تقال للمنطقة الجافة الخالية من العشب والكلأ ﴿فَسَقَتْهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيْتٍ﴾^(١)، كما تطلق على الموت المؤقت: ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَخْيَلَهُمُ﴾^(٢)، وأخيراً تقال للموت الحقيقي: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾^(٣).

□ ويقول الإمام الباقر عليه السلام في قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَخْيَلْنَاهُ جَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ فقال: «ميتاً لا يعرف ﴿نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ إماماً يوتّم به ﴿كَمَن مَّثَلُكَ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ قال: الذي لا يعرف الإمام»^(٤).

□ الأعمال الخلافة والجذابة مثل (الابتكارات والاختراعات والتكنولوجيا والحضارة) لها وقع عظيم في نفوس الكفار لدرجة أنها حجبت عن بصرهم الانحرافات التي انغمسوا في حلها وإنسانيتهم المحطمة، ﴿زَيْنٌ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَسْمُكُونَ﴾.

التعاليم:

- ١ - الحياة والموت الحقيقيان للإنسان هما الإيمان والكفر، ﴿مَيِّتًا فَأَخْيَلْنَاهُ﴾.
- ٢ - الهداية والإرشاد من عند الله تعالى، لكنّ الإنسان هو الذي يهيئ العوامل المساعدة لذلك، ﴿فَأَخْيَلْنَاهُ﴾.
- ٣ - توظيف عناصر التمثيل، وطرح الأسئلة، وعملية المقارنة لها أثر كبير في عملية الدعوة والتربية، ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا... كَمَن مَّثَلُكَ﴾.
- ٤ - المؤمن لا يواجه طريقاً مسدوداً أبداً، فهو يمسك بزمام الوعي والمبادرة في المجتمع، ﴿نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾.
- ٥ - في غياب الضياء، يسدل ستار الظلام على الإنسان، ﴿فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾.
- ٦ - الحق واحد، والباطل متعدّد، لاحظ أنّ كلمة «نور» في الآية جاءت بصيغة

(٣) سورة الزمر: الآية ٣٠.

(٤) تفسير الميزان.

(١) سورة فاطر: الآية ٩.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٤٣.

المفرد، بينما «الظلمات» بصيغة الجمع.

٧ - لا خلاص للبشرية إلا بنور الإيمان والهداية الإلهية، ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾.

٨ - تزيين الأعمال للنفس يحول دون تطوّر الإنسان وخروجه من الظلمات، ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ﴾.

٩ - أعمال الإنسان الكافر تترك أثراً على نظره وفكره، ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ أَكْثَرَ مُجْرِمِينَ لِيَتَكَبَّرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا
بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٢٣)

إشارات:

□ أشرنا في سبب نزول الآية السابقة إلى محاربة أبي جهل النبي الكريم ﷺ، أما هذه الآية فتقول: إنّ وجود أمثال أبي جهل في التاريخ ليس بالأمر الجديد، إذ إنّنا نجد دائماً قادة الكفر والفساد ينبرون للتصدي لدعوات الحق أينما ظهرت، ﴿وَكَذَلِكَ﴾ (١).

التعاليم:

١ - السنّة الإلهية هي ردّ على مكر الأعداء والأعيههم، ﴿وَكَذَلِكَ﴾.

٢ - جهود الأخيار والأشرار كلّها في مدار القدرة الإلهية، ﴿جَعَلْنَا... مُجْرِمِينَ﴾.

لقد تكرّرت كلمة ﴿جَعَلْنَا﴾ مرتين، مرّة في هذه الآية وتعلّق بالمجرمين، ومرّة ثانية في الآية السابقة التي تحدّثت عن المؤمنين.

٣ - القادة الفاسدون والمفسدون هم أساس الفساد والمكر في المجتمع، ﴿أَكْثَرَ مُجْرِمِينَ لِيَتَكَبَّرُوا فِيهَا﴾.

٤ - المكر والزيف هما سلاح القادة المفسدين، ﴿لِيَتَكَبَّرُوا﴾.

٥ - فقدان النقاء والصدق والابتلاء بالعذاب الإلهي هو الخسارة الكبرى التي يسببها المخادعون الماكرون لأنفسهم، ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

٦ - أخطر من المرض الجهل به، وأخطر من المكر جهل صاحبه أن عاقبة مكره سترتد عليه، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾

إشارات:

□ يقول صاحب مجمع البيان في سبب نزول هذه الآية: إن الوليد بن المغيرة (الذي كان من زعماء عبدة الأصنام وعقلهم المفكر) كان يقول لرسول الله ﷺ: لو كانت النبوة حقاً لكنت أولى بها منك؛ لأنني أكبر منك سناً، وأكثر منك مالاً. وقد نقل الكلام نفسه عن أبي جهل.

□ لقد تحقق الوعد الإلهي وقُتل عدد من زعماء الكفر في معركة بدر لينالوا الذلة والهوان في الدنيا والآخرة.

التعاليم:

١ - لقد استكبر الزعماء المتنفذون بسبب نظرتهم الاستعلائية وتنكروا لدعوة الإسلام، ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ﴾.

٢ - معيار الاجتناء الإلهي هو علمه بمستوى الاستحقاق والفضل، ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ﴾.

٣ - عاقبة الاستكبار في مقابل الحق الخزي والذل، ﴿لَنْ نُؤْمِنَ... سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾.

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

إشارات:

□ سئل رسول الله ﷺ: كيف يشرح صدره للإسلام؟ فقال: «الإنابة إلى دار

- الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الفوت»^(١).
- والإمام زين العابدين عليه السلام كان يكثر من قراءة دعاء بهذا المضمون نفسه في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان^(٢).
- المقصود بالهداية أو الضلالة الإلهية هو تهيئة أسباب الهداية للجديرين بها وحرمان الضالين منها.
- «الصدر» هنا تعني الروح أو الفؤاد، وانشرح الصدر هو توسيع آفاق العقل والفكر، وهمة الروح وعلوها لاحتضان الحق والدخول في الهداية، ويتطلب ذلك تجاوز الأهواء والآمال العريضة للقلب.
- إن من افتقد انشراح الصدر يظل متقوقاً على نفسه، ومنكفئاً على ذاته لا يتعداها. إن من أهم آثار انشراح الصدر امتلاك البصيرة والنورانية، مضافاً إلى قلب رؤوف يسعى وراء الحق.
- تعدّ هذه الآية من المعجزات العلمية للقرآن إذ توضح آثار العروج إلى السماء وتقول: من لا يتسع صدره لقبول الحق، ستضيق عليه روحه وتنحسر إرادته، كمن يحلق في السماء يضيق صدره ويحتبس نفسه بسبب قلة الأوكسجين.
- يقول الإمام الرضا عليه السلام: «من يرد الله أن يهديه بإيمانه في الدنيا إلى جنته ودار كرامته في الآخرة يشرح صدره للتسليم، لله والثقة به، والسكون إلى ما وعده من ثوابه حتى يطمئن إليه، ومن يرد أن يضلّه عن جنته ودار كرامته في الآخرة لكفره به وعصيانه إياه في الدنيا يجعل صدره ضيقاً حرجاً حتى يشكّ في كفره ويضطرب من اعتقاده قلبه حتى يصير كأنما يصعد في السماء»^(٣).
- من السنن الإلهية أنّ الله تعالى شرح للحقّ صدور أصحاب القلوب النقية، وفي المقابل، حرم المعاندين اللجوجين الفارّين من الإيمان، توفيق الانشراح وابتلاهم بالرجس.

(٣) تفسير كثر الدقائق.

(١) تفسير الميزان.

(٢) مفاتيح الجنان.

□ عندما أُمِر النبي موسى ﷺ بحمل الرسالة دعا الله قائلاً: ﴿رَبِّ أَسْرَحْ لِي صَدْرِي﴾^(١)، لكنَّ الله سبحانه وتعالى تفضل على نبيه الكريم ﷺ بأكثر من هذا، حين أنعم عليه بالانشراح وسعة الصدر قبل أن يطلب ذلك، ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾^(٢).

التعاليم:

- ١ - التسليم للحقَّ يتطلب سعة الصدر والاستعداد الباطني، ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾.
- ٢ - انشراح الصدر عطية إلهية، ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾.
- ٣ - تجاوز دائرة الفطرة والعقل مدعاة لضيق الروح، وحرَجها، وانسدادهَا، ﴿يَضْمَعُدُّ فِي الضِّيقِ﴾.
- ٤ - ربُّما وجد المنحرفون أنفسهم، في الظاهر، في بحبوحة واستقرار، لكنهم في الحقيقة، مبتلون بالضيق والحرَج، ﴿صَافِقًا حَرَجًا﴾.
- ٥ - ضيق الصدر وحرجه هو نوع من رجس الروح، ﴿...يَجْعَلُ صَدْرَهُ ضَيقًا حَرَجًا... الرِّجْسَ﴾.
- ٦ - من لا يؤمن بالحق، سيبتلَى بالرجس شيئاً فشيئاً، ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾

إشارات:

□ قد يكون اسم الإشارة ﴿هَذَا﴾ عائداً إلى كلمة «الإسلام» الواردة في الآية السابقة.

التعاليم:

- ١ - كلّ السبل ضلال سوى سبيل الله تعالى، ﴿وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾.
- ٢ - من أجل التذكير يجب البسط، والتفصيل، والتنويع، والتكرار، ﴿فَصَلَّنَا... يَذْكُرُونَ﴾.
- ٣ - لقد أتم الله تعالى الحجة على الجميع، فإذا كانوا من الذين ينصتون لصوت الحق، فقد بينا آيات الحق بأساليب عدة، ﴿لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾.
- ٤ - الإصغاء الدائم إلى التذكير الإلهي يفتح الطريق إلى الصراط المستقيم، ﴿وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ... لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾.

﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَٰمِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

التعاليم:

- ١ - لا يوجد في الجنة عنف، ولا تنافس، ولا حشرات، ولا افتراء، ولا حسد، ولا أحقاد، ولا كذب، ولا أحزان، ولا أي نوع من الموت، أو المرض، أو الفقر، ﴿دَارِ السَّلَٰمِ﴾.
- ٢ - ما هو أعلى من نعمة الأمن والسلامة أن يستظل الإنسان بالألطاف الإلهية الخاصة، ﴿دَارُ السَّلَٰمِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.
- ٣ - الله تبارك وتعالى هو الذي يتولى مباشرة أمور سالكي الطريق المستقيم، ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾.
- ٤ - بلوغ درجة الولاية الإلهية رهنٌ بجهود الإنسان وسعيه الدؤوب، ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرُ الْجِنَّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَمَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾

إشارات:

□ في الآيات السابقة كان الحديث عن حبائل الشياطين ووساوسهم، وهنا تبين الآية الكريمة مصير تلك الوسواس وهو دخول جهنم. وبالمناسبة، وطبقاً لما ورد في القرآن الكريم، فإن الشياطين هنا هم الجنّ وإنّ الجنّ الذين يغوون الإنسان ويضلّونهم هم أنفسهم الشياطين.

التعاليم:

- ١ - علينا أن نفكر ملياً في عاقبة أمرنا ﴿وَيَوْمَ﴾، حينما ترد هذه الكلمة «يوم» في بداية الآيات، فإنّ المقصود بها هو التذكير بذلك اليوم.
- ٢ - الجنّ مكلفون ومخيرون، وهم عرضة للخطاب، والتوبيخ، والعذاب، والثواب، ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنَّ﴾.
- ٣ - لقد أضلّ الشيطان فئة عظيمة من الناس، فهو لم يقنع بإضلال فئة صغيرة منهم، ﴿قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ ويقول ﷻ في آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾^(١).
- ٤ - الجنّ المضلّون لن يجدوا ما يقولون في يوم القيامة إزاء توبيخهم ولن يُسمح لأوليائهم من الإنس بالتكلم، ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنَّ... وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾.
- ٥ - انتفاع الإنس والجنّ كان متبادلاً، ﴿اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾.
- ٦ - في يوم القيامة يُحشر الإنس والجنّ جميعاً بلا استثناء، ﴿جَمِيعًا﴾.

٧ - الانقياد لوساوس الشيطان وإغواءاته يجزّ الإنسان إلى تولّيه شيئاً فشيئاً، ﴿أُولَٰئِكَ أَهْمُ﴾.

٨ - لا يتساوى المنحرفون في العقاب، وخلودهم في النار رهن بإرادة الله ومشيته، ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾.

٩ - أحكام المحكمة الإلهية تقوم على العلم والحكمة، ﴿حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُؤَيِّ بِعَظْمِ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

إشارات:

□ عرفنا من الآية ١٢٧ أنّ الله تبارك وتعالى هو من يتولّى الذين يختارون المسير في الصراط المستقيم. وهنا نخبرنا الآية الكريمة أنّ الطغاة يتولّون فئة من الناس بسبب أعمالهم.

□ بحسب الروايات، فإنّ عذاب التاركين للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمعرضين عن أداء الخمس والزكاة، والذين يمدّون الطغاة في طغيانهم أن يؤلّى عليهم الظالمون^(١). وجاء في الحديث الشريف أنّ الله إذا رضي على قوم ولّى عليهم خيار الناس، وإذا غضب على قوم ولّى عليهم الأشرار^(٢).

التعاليم:

١ - كما يؤلّى شياطين الجنّ على الإنسان، فإنّه كذلك يؤلّى بعض الظالمين على بعض، ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾.

٢ - الانتفاع المحرّم تمهيد لتأسيس الحكومات الباطلة وسلطة الظالمين، ﴿أَسْتَمْتَعَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ... نُؤَيِّ بِعَظْمِ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾.

٣ - ليس الحكام وحدهم ظالمين، بل كذلك المحكومون الغارقون في الخوف، والصمت، والملاذات، ﴿بَعْضُ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾.

٤ - تسلّط الطغاة سببه سلوك الناس أنفسهم، ﴿نُؤَيِّ... بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

﴿يَمَعَشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنسَ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُم مَّا إِنَّمَا
رُسِدُوا بِهِ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا سَهْدًا عَلَيَّ أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ نَجْوَىٰ الدُّنْيَا
وَسَٰهَدُوا عَلَيَّ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾

إشارات:

□ يستفاد من آيات القرآن الكريم أنّ النبي الأكرم محمداً ﷺ قد بُعث إلى الجنّ أيضاً، فهم يفقهون القرآن، وقد آمن قسم منهم به^(١). وعلى قول بعض المفسرين (مثل الألوسي، والقرطبي، والطبرسي، وسيد قطب)، فإنّ رسل الجنّ قد استلهموا الوحي عن طريق رسل الإنس، ثمّ نقلوه إلى إخوة الدين، ذلك أنّ كلمة «رسول» تطلق أيضاً على غير البشر كما في الآية الكريمة ﴿اللَّهُ يَصْطَلِي مِنْكَ الْمَلَكُ رُسُلًا﴾^(٢).

□ في الآية الكريمة التي نحن بصددّها يقرّ الكافرون بشيئين، الأول، إرسال الرسل، الثاني الاعتراف بكفرهم.

□ المشاهد والمواقف في يوم القيامة ستكون مختلفة، ففي موقف تجد الكفار ينكرون كفرهم، كما في الآية ٢٣ من هذه السورة ﴿وَاللَّهُ رَئِيًّا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، ثمّ في موقف آخر يعترفون بذنوبهم بعدما عرفوا أنّ لا مكان للإنكار في يوم القيامة.

التعاليم:

- ١ - الجنّ والإنس مكلفون بالإيمان بدعوة الأنبياء، وقد أرسل الرسل إلى كلا النوعين، ﴿الْجِنَّ وَالْإِنسَ﴾.
- ٢ - إطلاق النُّذْر هو أحد الأساليب التربوية، ومن مسؤوليات الأنبياء، ﴿وَيُنذِرُكُمْ﴾.

(١) الآيات الأولى من سورة الجن، والآية ٢٨ من سورة الأحقاف.

(٢) سورة الحج: الآيات ٧٥.

- ٣ - الإيمان بالمعاد هو الضمانة الأكيدة لتطبيق الأحكام الإلهية من أجل إصلاح الفرد والمجتمع، ﴿وَنُذِرُكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾.
- ٤ - لا مكان للكتمان والإنكار في يوم القيامة؛ لذا تجد الإنسان يشهد على نفسه، ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾.
- ٥ - النزوع إلى الدنيا هو سبب عدم الاكتراث بدعوة الأنبياء، ﴿وَعَرَّيْتُهُمُ الْحَيَاةَ...﴾ التعلق بزخارف الدنيا يدفع بالإنسان إلى نسيان الآخرة.
- ٦ - الحب الشديد للدنيا يجرّ الإنسان إلى الكفر، ﴿وَعَرَّيْتُهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا... أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾.

﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾

إشارات:

□ لقد جرت سنة الله بأن يُظهر سبحانه وتعالى طريق الحق عبر إرسال الأنبياء والمرسلين بالنُّذُر إلى الناس، ليتَّمَّ عليهم الحجة من خلال تبیین الحقائق، ويعذبهم إذا أعرضوا عن الإيمان بها. لقد ذُكرت هذه السنة أو القانون العام في آيات عدة، نذكر منها مثلاً ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَمَّا مُنذِرُون﴾^(١)، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾^(٢).

التعاليم:

- ١ - معاقبة المذنبين من شؤون الربوبية الإلهية، ﴿رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾.
- ٢ - إنزال العقاب قبل الإنذار وإلقاء الحجة ظلمٌ قبيح، ﴿مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾.

﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٣٢﴾

إشارات:

□ لا يُقصد بـ «الدرجات» في هذه الآية درجات الاعتلاء وحدها، بل تشمل دركات السقوط أيضاً.

التعاليم:

١ - الله تبارك وتعالى عادل، ويقرر درجة كلّ عامل بحسب عمله، ﴿دَرَجَتْ مِمَّا عَمِلُوا﴾.

٢ - سعادة الإنسان وشقاؤه رهنٌ بأعماله، ﴿وَمِمَّا عَمِلُوا﴾.

٣ - فلينبه الإنسان لأنه بعين الله تعالى وتحت مرآه، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِكُمْ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ ﴿١٣٣﴾ إِنْ مَا تُوعِدُونَ لِأَنْتُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾

التعاليم:

١ - الله تعالى وحده الغني المطلق، ونحن الفقراء إليه، ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ﴾.

وفي موضع آخر يقول ﷻ: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(١).

٢ - يجب أن يخاف العاصون في هذه الدنيا ذلك أنّ الله تعالى قادر على محوهم بكل سهولة ويسر، ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾.

٣ - إنّ مردّ الظلم الذي ورد ذكره في آية سابقة، إمّا الحاجة، وإمّا قسوة القلب،

ولا حاجة لله تعالى لأيّ منهما، ﴿أَلَفَقْتُ ذُو الرِّحْمَةِ﴾.

٤ - ديمومة المجتمعات الإنسانية مرتبطة بالمشيئة الإلهية، ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾.

٥ - وجود البشر أو هلاكهم ليس فيه نفع أو ضرر لله تعالى، ﴿أَلَعَلَّ... إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾.

٦ - لا يحتاج الله تعالى إلى عبادتنا، فالأحكام العبادية هي من أجل رشدنا وتكاملنا نحن، ﴿أَلَفَقْتُ﴾.

٧ - الرحمة الإلهية شاملة، لكنّ تمادي الإنسان في غيّه يجعل الله تعالى، أحياناً، يهلك الجميع، ﴿ذُو الرِّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾.

٨ - الوعد الإلهي حتمي لا هزل فيه، ﴿إِنْ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾.

٩ - في يوم القيامة، لا قدرة للمجرم على مواجهة القدرة الإلهية، ﴿وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾.

﴿قُلْ يَتَقَوَّمُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَايِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (١٣٥)

التعاليم:

١ - النبي الكريم ﷺ مأمور بالثبات والحزم في تصديهِ للآخرين؛ لأنه موقن بدعوته، ﴿قُلْ يَتَقَوَّمُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَايِلٌ...﴾.

٢ - تمرّد الناس لا يغيّر شيئاً في مسؤولية الأنبياء، ﴿إِنِّي عَايِلٌ﴾.

٣ - أعمال الناس هي التي تحدّد مصائرهم، ﴿أَعْمَلُوا... فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

٤ - حسن العاقبة والختام هو رمز النجاح، لا المظاهر والمحاولات العابرة، ﴿عَقِيبَةُ الدَّارِ﴾.

٥ - لا يفلح الظالم أبداً، ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.

٦ - الخروج عن طريق الله والأنبياء ظلم، ﴿الظَّالِمُونَ﴾.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ
وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ
يَصِلُ إِلَى اللَّهِ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

إشارات:

□ أولئك الذين خرجوا عن مدار تربية الأنبياء وجنحوا نحو وادي الوهم والخيال، لا شك أن أقوالهم وقراراتهم أيضاً تحمل صبغة الوهم واللامنطق، بحيث أصبحوا يرون أنفسهم مالكيين كل شيء فأخذوا يقسمون ويوزعون بحسب أهوائهم. فتارة جعلوا البنين من نصيبهم، والبنات من نصيب الله، ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى﴾^(١)، وأخرى قسموا الغلات والأنعام بين الله والأصنام.

كان المشركون يؤمنون بأن النصيب المخصص للأصنام لا يتغير، وكانوا ينفقونه على المعابد وسدنتها والقائمين عليها، لكنهم كانوا ينفقون النصيب المخصص لله على المعابد لا على الفقراء والضيوف، مبررين ذلك بأن الله رب السموات لا حاجة به إليه.

التعاليم:

١ - نعم، للإنسان دور في الزراعة وتربية المواشي، لكنّ الزارع والخالق الأصلي هو الله تعالى، ﴿لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾، وفي آية أخرى ﴿أَنْتُمْ تَرْعَوْنَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾^(٢).

٢ - صحيح أن المشركين كانوا يجعلون لله شركاء من الأصنام، إلا أنهم كانوا يرون لله مرتبة خاصة من العزة والغنى، ما جعلهم ينقصون من النصيب المخصص لله قائلين إنه لا حاجة به إليه، ﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ﴾.

٣ - تلخص رسالة الأنبياء في محاربة الخرافات، ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

﴿وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاءَهُمْ لِيُزْدَوْهُمْ وَلِيَكْسِبُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿١٣٧﴾

إشارات:

□ كما ظهر للمشركين أن تقسيم الحنصص من الزرع والأنعام بين الله والشركاء عمل حسن ومحمود، فقد زينت لهم الشياطين كذلك قتل أبنائهم وتقديمهم كقرايين حباً في الأصنام.

□ «يردوهم»: من «الإرداء» وهو الإهلاك.

□ كان المشركون يثدون البنات إما خيفة العار، ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾^(١)، أو خيفة العيلة والفقر ﴿خَشِيَ إِمْلَاقَهُ﴾^(٢)، أو كانوا يعتبرون أن ذلك يقربهم إلى الأصنام، وكل ذلك هو بسبب تزوين الشيطان أفعالهم.

التعاليم:

- ١ - المعتقدات الخاطئة والخرافية تدفع بالإنسان إلى قتل ابنه قرباناً للأصنام الخشبية والحجرية، وأن يفخر بهذا العمل، ﴿زَيْنٌ... قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ﴾.
- ٢ - المجرمون حتى في قتل أبنائهم يقدمون تبريرات واهية من أجل إراحة نفوسهم وضمائرهم، ﴿زَيْنٌ﴾.
- ٣ - عند توجيه النقد يجب مراعاة الإنصاف والاعتدال، ﴿لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ لا أن يوجه النقد للجميع دون استثناء.
- ٤ - تبرير المعاصي وتزوين القبائح هو عامل الهلاك والسقوط، ﴿زَيْنٌ... لِيُزْدَوْهُمْ﴾.
- ٥ - النزوع إلى الخرافات هو سبب الانتقاء واختلاط الدين بالشبهات، ﴿وَلِيَكْسِبُوا﴾.

- ٦ - على النبي الإبلاغ لا الإكراه، فإذا لم يصغ الناس، فيجب تركهم لشأنهم والبحث عن القلوب المستعدة للهداية، ﴿فَذَرَّهُمْ﴾.
- ٧ - ينبغي لطلاب الحق ألا يأسوا من أفكار المنحرفين وسلوكهم، ﴿فَذَرَّهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.
- ٨ - الافتراء على الله تعالى هو أن نجعل له شريكاً، ﴿فَذَرَّهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.

﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَمْثَلُ الَّذِي أَتَيْنَاهُم بِهِ فَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾
 ﴿وَأَنذَرْتَهُمْ يَوْمَئِذٍ بِآيَاتِنَا فَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَفُتِنُوا﴾

إشارات:

□ «الحجر» هو المنع، و«التحجير» هو أن يبني حول المكان بالحجارة ليمنع عما وراءه للاستيلاء عليه، «حجر إسماعيل» هو مكان مفصول عن سائر أقسام المسجد الحرام بجدار حجري. وقيل للعقل: حجر، لكون الإنسان في منع منه مما تدعو إليه نفسه من القبائح، ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾^(١).

□ ذكرت الآية قبل السابقة، مسألة المعتقدات الخرافية للمشركين حول نصيب الله والأصنام من الزرع والأنعام، وهنا تتناول الآية كيفية التصرف في النصيب المخصص للأصنام، إذ ليس لأحد الحق في التصرف إلا خدام الأصنام والمعابد.

□ تسجل هذه الآية أربع خرافات ارتكبتها المشركون وهي:

- ١ - تحريم عذ بعض الأنعام.
 - ٢ - تحريم بعض المحاصيل الزراعية.
 - ٣ - تحريم ركوب بعض المطايا.
 - ٤ - عدم ذكر اسم الله عند ذبح بعض الحيوانات.
- يذكر القرآن الكريم أنّ الهدف من خلق الأنعام والدواب هو ركوبها وأكل

لحومها: ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِيَزْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾^(١) لذا، فهو يعتبر تحريم الانتفاع بالأنعام من بدع الجاهلية، إذ تكرر ذكر ذلك في الآية ١٠٣ من سورة المائدة.

□ الإسلام شريعة شاملة وجامعة، ولا يسمح بالانحراف حتى في مسألة الانتفاع بالأنعام والدواب.

عندما يحمل القرآن الكريم على تحريم أكل الحيوان وتحريم ركوبه، فمن باب أولى، أن يكون تحريمه أشدّ لمسألة عدم استغلال الإنسان والموارد والثروات والمواهب.

التعاليم:

- ١ - يجب أن تُنسب أحكام الدين إلى الله، لا إلى الظنّ، والوهم، والقياس، والاستحسان، ﴿وَقَالُوا... يَرْغَبُهُمْ... أَفْتِرَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾.
- ٢ - محاربة الخرافات إحدى المسؤوليات الرئيسة الملقاة على عاتق الأنبياء، ﴿أَفْتِرَاءٌ عَلَيْهِمْ سَيَجْزِيهِمْ﴾.
- ٣ - تحريم الحلال وتحليل الحرام هو افتراء على الله، ﴿هَذِهِ أَمْثَلُ وَحَرَّتْ جِجْرٌ... أَفْتِرَاءٌ﴾.
- ٤ - فلينتظر أصحاب البدع العذاب بسبب القوانين الوهمية التي ابتدعوها، ﴿سَيَجْزِيهِمْ﴾.

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مِّمَّةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾

إشارات:

□ التعرّف على خرافات العصر الجاهلي، تسلط الضوء على الجهود الجبارة

لِلرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ فِي هِدَايَةِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ، وَتَبْقَى عَلَى رُوحِ الْعُرْفَانِ بِالْجَمِيلِ فِي الْإِنْسَانِ نَابِضَةٌ وَمَتَّقَةٌ.

التعاليم:

- ١ - التمييز التعسفي بين المرأة والرجل عمل جاهلي منبوذ، ﴿خَالِصَةً لِّلْكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾.
 - ٢ - احتقار المرأة في العصر الجاهلي وصل أحياناً إلى درجة منعها من الانتفاع بالحيوان الحي، وكان لها نصيب في الحيوان الميت فقط، ﴿شُرَكَاءُ﴾.
 - ٣ - العذاب الإلهي يستند إلى علمه وحكمته ﷻ، ﴿سَيَجْزِيهِمْ... حَكِيمٌ عَلَيْهِ﴾.
- ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (١٤٠)

إشارات:

- يُنْقَلُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَهُوَ مِنْ كِبَارِ شَخْصِيَّاتِ عَصْرِ صَدْرِ الْإِسْلَام: إِنَّ مِنْ شَاءِ أَنْ يَدْرِكَ مَدَى التَّخَلُّفِ وَالْخِرَافَاتِ وَالْمَعْتَقَدَاتِ الْبَاطِلَةِ لِلْمُشْرِكِينَ الَّتِي كَانَتْ سَائِدَةً فِي الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ فَعَلَيْهِ أَنْ يَقْرَأَ سُورَةَ الْأَنْعَامِ^(١).
- كَانَ الْعَرَبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، يَقْتُلُونَ بَنَاتِهِمْ قَرَابَانًا لِلْأَصْنَامِ أَوْ يَتَدَوَّنَهُنَّ وَذَلِكَ ظَنًّا مِنْهُمْ فِي التَّقَرُّبِ أَكْثَرَ مِنَ الْأَصْنَامِ أَوْ خَشْيَةَ الْعَارِ.

التعاليم:

- ١ - الجهل والسفه هما خسارة للإنسان، خسارة في الأبناء والعاطفة والنعم التي أحلها الله لنا، ليكتسب المرء في المقابل جهنم والعذاب الإلهي، ﴿قَدْ خَسِرَ﴾.

٢ - الخسران الحقيقي هو أن يضحي الإنسان بنفسه في سبيل الباطل، سواء أكانت هذه التضحية قرباناً للأصنام أم فداءً لوهم أو عصبية فارغة، ﴿قَدْ خَسِرَ﴾.

٣ - تحريم ما أحل الله هو افتراء عليه سبحانه وتعالى، ﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ أَفِرَّاءَ﴾.

٤ - القيام بأي عمل أو تحريم أي شيء بحاجة إلى دليل شرعي أو عقلي، ﴿يَغْيِرْ عَلَيْهِ... أَفِرَّاءَ عَلَى اللَّهِ﴾.

٥ - لا بد لنا من محاربة الخرافات بأشد السبل، ﴿قَدْ خَسِرَ... سَفَهًا يَغْيِرْ عَلَيْهِ... أَفِرَّاءَ... ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكْلُهُمُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (١٤١)

إشارات:

□ «جنات»، بساتين ومزارع تحوي أنواع الأشجار ومغطاة بالنباتات.
«معروشات»، أي أشجار ممسوكات ومرفوعات أي تحتاج إلى عريش، «أكل» بمعنى المأكول والطعام.

□ مَرَّ عَلَيْنَا فِي الْآيَةِ ٩٩ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ: ﴿انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾. أما الآية التي نحن بصددتها فتقول: ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾، والحصيلة هي: أن أكل الإنسان الثمر يجب أن يقترن بالتأمل والتدبر بعيداً عن الغفلة أو العفوية.

□ سأل رجل أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله ﷻ: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ فقال: «كان فلان بن فلان الأنصاري - سماء -

وكان له حرث وكان إذا أخذ يتصدَّق به ويبقى هو وعياله بغير شيء فجعل الله ﷻ ذلك سرفاً^(١).

□ في الحقيقة، إنَّ هذه الآية الكريمة تقدِّم دروساً في التوحيد، ومعرفة الله، مع بيان حلية تناول الأطعمة، وتقديم العون للطبقات الفقيرة والمحرومة، والإنفاق عليها، ومراعاة الاعتدال والاعتصام، واجتناب الإسراف والتبذير في الإنفاق.

﴿أَنْشَأْ... كُلُوا... وَءَاتُوا... وَلَا تُسْرِفُوا﴾، كما ورد في آية أخرى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾^(٢).

□ سُئِلَ الإمام الصادق عليه السلام عن قوله ﷻ: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ فقال: «أعط من حضرك من المسلمين، وإن لم يحضرك إلَّا مشرك فأعطه»^(٣).

وفي رواية أخرى قال عليه السلام: «حقه يوم حصاده عليك واجب، وليس من الزكاة»^(٤).

□ وأيضاً عنه عليه السلام: «لا تصرم بالليل ولا تحصد بالليل، ولا تضع بالليل، ولا تبذر بالليل، فإنَّك إن فعلت لم يأتك القانع والمعتز»، فقلت: ما القانع والمعتز؟ قال: «القانع الذي يقنع بما أعطيته، والمعتز الذي يمر بك فيسألك»^(٥).

وجاء أيضاً في سورة «ن والقلم» في الموضوع نفسه ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَتَوْا لَبَسَهُنَّ مِثْيَبِينَ﴾.

التعاليم:

١ - تنوع الفواكه والمحاصيل الزراعية ومن الأرض نفسها والمياه نفسها، تجسيد لقدرة الله ﷻ، ﴿أَنْشَأْ... خَلَقْنَا أَكْلَهُ﴾.

٢ - لقد عيَّن الله تعالى لنفسه حقاً في المحاصيل، ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ﴾، فكل شيء في

(٤) تفسير البرهان، ج ١، ص ٥٥٧.

(٥) الكافي، ج ٣، ص ٥٦٥.

(١) تفسير نور الثقلين.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٦٧.

(٣) بحار الأنوار، ج ٩٣، ص ٩٦.

الطبيعة: النور، والهواء، والمياه، والتربة، والموارد البشرية، والعقل، والموهبة... كلها من عند الله تعالى، لذلك، فَإِنَّ لَهُ ﷻ حَقًّا فِي كُلِّ شَيْءٍ.

٣ - يجب مراعاة الاعتدال في الإنفاق، ﴿وَمَا أَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا﴾.

٤ - الدين الإسلامي دين الاعتدال، ففي الآية السابقة لم يُجْزِ التعسف في التحريم، وهنا ينهى عن الإسراف في الإنفاق، ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾.

٥ - شرط الانتفاع هو إيتاء حق المحرومين، ﴿كُلُوا... وَمَا أَتُوا حَقَّهُ﴾.

٦ - مقدار الانتفاع مشروط بعدم الإسراف، ﴿كُلُوا... وَلَا تُسْرِفُوا﴾.

٧ - لا ننس المحرومين حين الحصاد والقطاف، ﴿يَوْمَ حَصَادِهِ﴾.

٨ - عندما يثمر المحصول، تزداد قدرة الإنسان على الإنفاق، إذن، ينبغي اغتنام هذه الفرصة وعدم هدرها، ﴿وَمَا أَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾.

٩ - لا تأكلوا من الثمر إلا ما كان يانعا، ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾.

١٠ - يمت الله تعالى المسرفين، ﴿إِنَّهُ لَا يَجِبُ الْمُسْرِفِينَ﴾.

﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ كُلُّوا مِنْهَا رَزَقَكُمْ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ

إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾

إشارات:

□ أشارت الآية السابقة إلى نعم الله تعالى من المحاصيل الزراعية، وهنا تستعرض نعمه ﷻ من الأنعام والوجوه المختلفة لانتفاع الإنسان منها.

□ المراد بكلمة ﴿فُرُشٍ﴾، الأنعام الصغيرة التي يؤكل لحمها مثل الغنم. ويبدو أن السبب في هذه التسمية هو لطافة أجسامها وقربها من الفرش، وهي الأرض المستوية التي يتوطؤها الناس، أو بسبب صوفها ووبرها اللذان يستعملان في صنع السجاد.

□ اجتمع قول معظم المفسرين على أن كلمة ﴿حَمُولَةٌ﴾ هي الحيوانات التي تصلح للركوب، أو ما أطاق الحمل والعمل من الحيوانات، و«الفرش» هي الحيوانات الحلوبة غير الركوبة.

التعاليم:

- ١ - الطبيعة وما فيها من مخلوقات مسخرة لخدمة الإنسان، ﴿حَمُولَةٌ وَفَرَشَاتٌ﴾.
- ٢ - القانون العام للحيوانات هو حلية لحومها ما لم يأت دليل على حرمتها، ﴿كُلُوا مِنَّمَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾.
- ٣ - تحريم ما أحل الله هو من خطوات الشيطان، ﴿كُلُوا... وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾.
- ٤ - لا يجوز الانجرار وراء الدعوات المنتشرة اليوم والتي تنادي بالامتناع عن أكل اللحوم، ﴿وَمِنَ الْآتَمِعَةِ... كُلُوا مِنَّمَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾.
- ٥ - يجب توخي الحذر في ما يتعلق بالطعمة، ﴿كُلُوا... وَلَا تَتَّبِعُوا﴾، ولا ننس بأن أول سلاح استخدمه الشيطان لإضلال النبي آدم ﷺ كان الطعام.
- ٦ - لا يليق بنا أن نأكل من مائدة الله تعالى وننصر عدوه، ﴿كُلُوا مِنَّمَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾.
- ٧ - خطة الشيطان هي إضلال الإنسان تدريجياً لا دفعة واحدة، ﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾.

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالَّذِينَ حَرَّمَ آيَةُ الْإِنشِينِ
 أَمَّا اسْتَمَلَّتْ عَلَيْهِ أَزْوَاجُ الْإِنشِيِّ نَيْفُونِي بِعِلْمِي إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ
 وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالَّذِينَ حَرَّمَ آيَةُ الْإِنشِيِّ أَمَّا اسْتَمَلَّتْ عَلَيْهِ أَزْوَاجُ الْإِنشِيِّ أَمْ
 كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْنَاهُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ
 النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

إشارات:

□ «الزوج» يقال للذكر والأنثى معاً، أو لكل واحد من الزوجين على حدة، والمعنى الأخير هو المقصود في هذه الآية، لذا يكون ثمانية أزواج بمعنى

الذكور الأربعة من الأصناف الأربعة المذكورة في الآية ١٤٣ والإناث الأربع من تلك الأصناف المذكورة في الآية ١٤٤. لقد وردت كلمة «زوج» في الآية ٤٥ من سورة النجم بمعنى الفرد (أي الذكر أو الأنثى) وليس كليهما، ﴿خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾.

□ الآية ٦ من سورة الزمر، تذكر خلق ثمانية أزواج من الحيوانات من ذكر وأنثى إلى جانب خلق الإنسان، ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنْ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةَ أَزْوَاجٍ﴾.

□ ربّما كان ترتيب ذكر أسماء الحيوانات الأربعة إشارة إلى أنها المفضلة لجهة أكل لحومها، (الغنم، الماعز، الإبل، البقر).

□ فسّرت بعض الروايات عبارة ﴿ثَمِينَةَ أَزْوَاجٍ﴾ بأنها ١٦ حيوان، فيكون المراد من الأزواج الثمانية في الآية: الداجن من تلك الأصناف الأربعة وما يقابلها من البرّي، أي الذكر والأنثى من الغنم الداجن والذكر والأنثى من الغنم البرّي وهكذا... فتكون الأزواج حيث ثمانية. وعن أيوب بن نوح بن دراج، قال: سألت أبا الحسن الإمام الهادي عليه السلام عن الجاموس، وأعلمته أن أهل العراق يقولون إنه مسخ، فقال: «أو ما سمعت قول الله: ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾؟^(١)!

التعاليم:

١ - الإفتاء أو الإيمان بحليّة أو حرمة شيء يقتضي أن يتوافر الإنسان على العلم، ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ﴾.

٢ - الحليّة لا تحتاج إلى برهان، لأنّ الأصل في حليّة الأطعمة، بينما الحرمة تحتاج إلى دليل وبرهان، ﴿قُلْ الْذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ... نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ﴾.

٣ - أعظم الظلم، الافتراء على الله، ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ﴾.

- ٤ - الكذب على الله تعالى مدعاة لإضلال الناس، ﴿لَيُعِصَلَ النَّاسَ﴾.
 ٥ - الافتراء يُخرج الإنسان عن دائرة الاستعداد للهداية، ﴿لَا يَهْدِي﴾.
 ٦ - المعتقدات إما أن تكون مستندة إلى العلم والعقل كما مر في الآية السابقة
 ﴿يَتَّبِعُونَ بِعِلْمٍ﴾، وإما على أساس الشريعة ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْنَاهُ
 اللَّهُ﴾.

﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا
 مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا
 عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

إشارات:

- لا يقتصر لفظ «الميتة»، على الحيوانات النافقة فحسب، بل إن جميع
 الحيوانات التي لم تذبح طبقاً لما نصّت عليه أحكام الإسلام تعتبر في حكم
 الميتة وبالتالي محرّم تناولها.
 □ ذكرت حرمة الميتة والدم أربع مرات في القرآن الكريم، مرتين في السور
 المكية^(١)، واثنين آخرين في السور المدنية^(٢).
 □ ﴿أَوَّلَ﴾ من «الإهلال» ويعني رفع الصوت عند رؤية الهلال، ثم استعمل لكل
 صوت رفيع، كما إنه يطلق على بكاء الصبي عند الولادة الاستهلال، وإذ إنهم
 كانوا يذكرون أسماء أصنامهم بصوت عالٍ عند ذبح الأنعام، عبّر عن فعلهم
 هذا بالإهلال.
 □ عبارة ﴿لَا أَجِدُ... إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً﴾ تتعلّق بشكل خاص بنفي الأحكام
 الخرافية التي كانت شائعة في أوساط المشركين، إذ إنه من المعلوم أنّ الأطعمة
 المحرّمة لا تنحصر في هذه الأشياء، فتوجد أيضاً لحوم الحيوانات المفترسة

(١) سورة الأنعام: الآية ١٤٥؛ سورة النحل: الآية ١١٥.

(٢) سورة البقرة، ١٧٣؛ سورة المائدة، ٣.

ولحوم الجوارح والتي لم تذكر في هذه الآية، فالحصر هنا هو حصر إضافي لا حقيقي.

□ إن أحكام المضطر من وجهة نظر الإسلام تشمل الذي تعرّض للاضطراب مكرهاً لا من أقحم نفسه في طريق البغي، أو الاعتداء، أو المعصية ﴿عَبْرَ بَلَاغٍ﴾، وبشرط أن لا يتجاوز ذلك حدّ الضرورة ﴿وَلَا عَادٍ﴾.

التعاليم:

١ - الوحي الإلهي هو المصدر الوحيد لرسول الله ﷺ في تفسير الأحكام، ﴿لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ﴾.

٢ - الأساس هو حلية لحوم الحيوانات، ﴿لَا أَجِدُ﴾.

٣ - المحرمات المصرّح عنها في الآيات والروايات هي التكاليف فقط، وكل شيء حلال ما لم نجد بعد البحث والتمحيص دليلاً على حرمة، ﴿لَا أَجِدُ﴾.

٤ - إذا كان على النبي الكريم ﷺ أن يتلقّى أوامر الوحي حتى في مسائل حلية الأطعمة وحرمتها، فكيف يسوّغ الآخرون من تلقاء ذاتهم تحريم الأشياء ﴿فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ؟﴾

٥ - سبب تحريم لحم الخنزير هو النجاسة والرجس، ﴿فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾.

٦ - لا تمييز في أحكام الأطعمة بالنسبة للرجل والمرأة، ﴿طَائِعٍ يَطْعَمُهُ؟﴾ بخلاف عقائد المشركين التي وردت في الآية ١٣٩ من هذه السورة والتي يحلّون فيها للرجال لحوم جميع الحيوانات، ويحرّمون بعضها على النساء، ﴿خَالِصَةً لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا﴾.

٧ - يجب مراعاة الأولويات في القانون، فالمحافظة على النفس أهم من أكل لحم الميتة، ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ﴾.

٨ - لا يوجد طريق مسدود في الإسلام، فالضرورات تبيح المحظورات، ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ﴾.

- ٩ - لا يجوز استغلال القوانين في الحالات الاستثنائية، ويجب عدم تجاوز حدّ الضرورة، ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾.
- ١٠ - الدم المتبقي في شرايين الحيوان المذبوح على الطريقة الشرعية غير محرّم، بل الدم المراق المسفوح هو المحرّم، ﴿دَمًا مَسْفُوحًا﴾.
- ١١ - عندما يتعرّض المرء إلى اضطراب قاهر، بمقدوره أكل اللحوم المحرّمة، ولكن أن يُقحم نفسه ويبرادته في حال الاضطراب فلا يجوز له في هذه الحالة أكل تلك اللحوم. كلمة ﴿أَضْطَرَّ﴾ وردت في صيغة المبني للمجهول، فتأمل ذلك.
- ١٢ - وجود تشريعات للتخفيف من حالات الاضطراب هو تجسيد للمغفرة والرحمة الإلهية، ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ... فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ مِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ
حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُرُهُمَا أَوْ الْحَوَائِجُ أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ
جَزَيْنَاهُمْ بِغَيْرِهِمْ وَإِنَّا لَصَلِيلُونَ﴾

إشارات:

- تحدّث الآية السابقة عن المحرّمات في الإسلام، وتشير هذه الآية إلى بعض ما حرّمه اليهود ليتبيّن أنّ أحكام الوثنيين الخرافية والمجهولة لا تنطبق لا على أحكام الإسلام ولا على أيّ دين من الأديان السماوية^(١).
- «الظفر» هو المخلب، ولكنّه يطلق أيضاً على ظلف الحيوانات من ذوات الأظلاف (من الحيوانات التي لها أظلاف غير منفرجة الأصابع كالحصان لا كالغنم والبقر التي لها أظلاف منفرجة) لأنّ أظلافها تشبه الظفر، كما إنّّه يطلق على خفّ البعير الذي يكون منتهاه مثل الظفر، ولا يكون فيه انفراج مثل انفراج الأصابع، وعلى هذا الأساس، فإنّ الاستفادة من الآية الكريمة هو أنّ جميع

(١) الأمل في تفسير الكتاب الله المنزل.

الحيوانات التي لا تكون ذات أظفار - دواباً أو طيوراً - كانت محرمة على اليهود^(١).

□ ﴿الْحَوَايَا﴾ جمع «حايوة»، وهي مجموعة ما يوجد في بطن الحيوان والتي تكون على هيئة كرة تتضمن الأمعاء^(٢).

□ لقد ورد في الآية ١٦٠ من سورة النساء: ﴿فَيُظْلَمُ مِنْ ذَلِكَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبَيْتِ أَطْلَحْتُ لَهُمْ﴾. وجاء في آية أخرى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾^(٣).

□ تحريم بعض الأطعمة على اليهود كان تحريماً مؤقتاً، وقد رفع من قبل النبي عيسى عليه السلام، ويؤيد ذلك ما جاء في الآية الكريمة: ﴿وَلَأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي هُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾^(٤).

□ الأحكام الإلهية على ثلاثة أوجه:

أ - تنطوي على مصلحة أو مفسدة حقيقية، مثل معظم الأحكام.

ب - تحمل عنصر الامتحان والابتلاء مثل الأمر الإلهي بذبح إسماعيل.

ج - أو تتميز ببعد تأديبي عقابي مثل هذه الآية.

إذن، إحدى العقوبات الإلهية هي تضيق منافذ العيش.

التعاليم:

١ - أحياناً يُسمح بتحريم بعض الأطعمة على المذنبين والأشرار، ﴿حَرَمْنَا... بِفَعْلِهِمْ﴾.

٢ - العذاب الإلهي لا يقتصر على الآخرة فحسب، بل ثمة عذاب دنيوي أيضاً، ﴿جَزَيْنَاهُمْ بِبَعْثِهِمْ﴾.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٩٣.

(٤) سورة آل عمران: الآية ٥٠.

(١) التوراة، سفر اللاويين، الفصل ١١.

(٢) الأمل في تفسير الكتاب الله المنزل.

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ
عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾

التعاليم:

- ١ - على القائد أن يكون مستعداً دائماً لسماع التكذيب والافتراء من قبل بعض الناس، ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ...﴾.
- ٢ - في البداية يجب أن يكون التعامل مع المكذبين رحيماً خيئراً، وإذا لم ينفع، يتم حينذاك اللجوء إلى وسائل التهديد والوعيد، ﴿ذُو رَحْمَةٍ... وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ...﴾.
- ٣ - الرجاء والخوف مع بعضهما متجان وفاعلان، ﴿ذُو رَحْمَةٍ... بَأْسُهُ...﴾.
- ٤ - أبواب الرحمة الإلهية لا تُغلق حتى بوجه الأعداء، ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ...﴾.
- ٥ - رحمة الله سبقت غضبه، ﴿ذُو رَحْمَةٍ... بَأْسُهُ...﴾.
- ٦ - سعة رحمة الله تعالى لا تحول دون إنزاله العقاب، ﴿رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ... وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ...﴾ وحتى عقابه يصب في مسير تربية الإنسان ونابع من رحمته وربوبيته.

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ
كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ
تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾

إشارات:

- تحمل الآية الكريمة إخباراً بالغيب عما سيقوله المشركون: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾، وقد وقع بالفعل ما تنبأت به الآية: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾^(١).

□ لقد تكررّت هذه الاستدلالات الواهية للمشركين وقالوا إنّ الله لو أراد أن لا نكون مشركين وأن لا يكون آباؤنا وثنيين لفعل: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾، كما وردت في الآية ٣٥ من سورة النحل، والآية ٢٠ من سورة الزخرف.

□ سؤال: تنقل الآية الكريمة كلام المشركين من أنّه إذا كان الله غير راضٍ عن شركنا فلمَ لم يمنعنا عنه؟ إذن، الله راضٍ عن شركنا!

الجواب: إنّ أيّ عمل يصدر عن أيّ شخص ليس بخارج عن دائرة القدرة الإلهية، بيد أنّ المشيئة الإلهية اقتضت أن يختار الإنسان طريقه بملء اختياره وبحريّة تامّة، ويمكن أن نضرب لذلك مثلاً وهو عندما تجهّزنا الحكومة بخدمات الماء، والكهرباء، والغاز، فهذا لا يعني أنّها راضية عن سوء استخدامنا هذه الخدمات. فالله تعالى منح الإنسان عقلاً ووحياً، وأراه طريق الحقّ وطريق الباطل، وأعطاه كامل الحرية لاختيار الطريق الذي يرغب، لكنّ هذه الإرادة والحرية لا تعني أنّه سبحانه وتعالى راضٍ عن اختيارنا لطريق المعاصي.

□ يريد الله تعالى أن يؤمن الناس إرادياً ودون إكراه، لقد ورد مراراً في القرآن الكريم أن لو شاء الله لهدى الناس جميعاً وأنّ الأنبياء ليس لهم أن يُكروهوا الناس على الإيمان.

التعاليم:

١ - على القادة والمفكرين الدينيين أن يستعدّوا للردّ على الشبهات والأعذار في المستقبل، ﴿سَيَقُولُ﴾.

٢ - الهدف من إرسال الأنبياء والكتب السماوية أن يختار الناس طريق التوحيد بملء إرادتهم وحرّيتهم. إذن، فتبريرات المشركين في أنّه لو أراد الله منعنا من الشرك لفعل، إنّما هي تبريرات خاطئة، ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾.

٣ - تبرير الذنب أقبح من ارتكابه، كان المشركون يبرّرون شركهم، ويعتبرونه مشيئة الله، ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ العقيدة الجبرية نافذة للهروب من المسؤولية.

- ٤ - يبرّر المشركون انحرافهم بالاستناد إلى تاريخ الأجداد، ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾.
- ٥ - عقيدة الجبر هي من تبريرات المنحرفين الواهية، ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾.
- الشیطان أيضاً، وهو زعيم المنحرفين، عزا ضلاله إلى الله قائلاً: ﴿رَبِّ إِنِّي أَخُوَيْتُنِي﴾^(١).
- ٦ - لطالما كذب الأعداء الأنبياء بسلاح الجبرية، ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.
- ٧ - القرآن الكريم يطالب الأعداء أيضاً بالدلائل والبراهين، ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ﴾.
- ٨ - الذين يهربون من المسؤولية بحجة المصير والعاقبة المحتومان عليهم ترقّب العذاب الإلهي، ﴿ذَاقُوا بِأَسْئَاتِكُمْ﴾.
- ٩ - أنصار الجبرية لا منطق لديهم سوى أنهم يسعون وراء الأوهام، ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾.
- ١٠ - إذا استعصنا عن العلم واليقين بالظن والشبهة فسنضلّ الطريق، ﴿وَأَن تَأْتُوا إِلَّا خَرَصُونَ﴾.

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيَّةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(١٤٩)

إشارات:

□ لقد أتمّ الله تعالى الحجة على الناس إذ أودع بين جوانح الإنسان الفطرة التوحيدية مضافاً إلى ما وهبه من هداية الأنبياء ونعمة العقل، وبين له طريق الخير والشر وسوء العاقبة أو حسننها.

□ باب التوبة والإصلاح مفتوح للمذنبين. إنَّ المعاجز الواضحة للأنبياء، ونهجهم الصالح في الدعوة، واستدلالاتهم المحكمة، والانسجام الذي يجمع بين الفطرة والعقل، كل ذلك وغيره الحجّة على الناس.

□ وعلى الرغم من كلّ ذلك، فإنّ المشركين لا يملكون إلا الظنّ والوهم كدليل على شركهم، وهم باختيارهم طريقاً غير طريق الله تعالى، إنّما يتبعون، في الحقيقة، طريق الأهواء والأخطاء والضعف والأفق العلمي والفكري الضيق.

□ جاء في الروايات أنّ الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: «عبدى أكنت عالماً؟» فإن قال: نعم، قال له: «أفلا عملت بما علمت» وإن قال: كنت جاهلاً قال له: «أفلا تعلّمت حتى تعمل فيخصمه»، فتلك الحجّة البالغة^(١).

التعاليم:

١ - وحده الله تبارك وتعالى الذي بيده الحجّة البالغة، ونحن جميعاً نقف قاصرين بين يديه، خالي الوفاض ومذنبين، ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ﴾.

٢ - لا يوجد غموض أو عذر للأعداء في السبيل إلى الله ليستخدموه كشماعة، سواء في الاستدلال، أم في السابقة، أم في صفات النبي الكريم ﷺ، أو في أسلوب تعامله معهم، ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾.

٣ - المشيئة الإلهية تقتضي أن يختار الإنسان طريق الهداية بإرادته وحرزته، ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ﴾.

٤ - إرادة الله حتمية، ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ﴾.

﴿قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ
وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا
وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (١٥٠)

إشارات:

□ الدين الإسلامي دين المنطق، والعقل، والحرية، في الآية قبل السابقة يوجه الله تعالى سؤالاً إلى المشركين: ﴿هَلْ عِنْدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ﴾، وهنا أيضاً يخاطبهم بالقول: ﴿هَلُمْ شُهَدَاءُكُمْ﴾.

□ بدايةً تقول هذه الآية: اتنوا بشهادتكم ليشهدوا لكم، ثم تستطرد فتقول: حتى لو جاؤوا بشهادتهم فلن يُقبل منهم، (لأنهم غير صادقين).

□ ﴿يَعْدِلُونَ﴾ من «عدل» بمعنى الشريك والشبيه، وعلى هذا الأساس فإن مفهوم عبارة ﴿وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ هو أنهم كانوا يعتقدون بشريك وشبيهه الله سبحانه.

التعاليم:

١ - إحدى مسؤوليات الدعاة الدينيين محاربة البدع، ﴿قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُكُمْ... أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾.

٢ - ليست كل شهادة صادقة ومعتبرة، ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ﴾.

٣ - حذار أن ترمي بنا ظروف البيئة والمجتمع وأجواؤهما في مستنقع الخطأ، ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ﴾، تصديق شهداء الزور وتأيدهم حرام.

٤ - لا يصح اتباع القوانين الوضعيّة إذا كانت مستلزمة من أهواء الكفار، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا...﴾.

٥ - لا ينبغي للإنسان المؤمن أن يتبع سنن المشركين وقوانينهم، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا...﴾.

٦ - يؤمن المشركون بأن الله هو الخالق، لكنهم يجعلون له شركاء في تدبير أمور الكون وإدارته، ﴿وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّهِنَّ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ أَنْ تُنْقِلُوا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطُرٌ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَقُولُونَ﴾ (١٥١)

إشارات:

□ في هذه الآية والآيتين اللّاحقتين تتم الإشارة إلى عدد من المبادئ والتعاليم المهمة، والتي تعدّ من المشتركات التي تجتمع عليها كلّ الأديان السماوية. وقد ورد ما يشبه هذه التعاليم في التوراة في سفر الخروج الباب ٢٠.

□ روي أنّ اثنين من زعماء المدينة جاءا إلى رسول الله ﷺ، فلما تلا الرسول الكريم هذه الآيات أعلنّا إسلامهما وطلبا منه أن يبعث معهما رجلاً داعياً يعلم قومهما القرآن وشؤون الدين، فبعث النبي الكريم معهما مصعب بن عمير. ومنذ ذلك الحين أسست قواعد الإسلام في المدينة وتغيّر وجه يثرب.

□ يوصي القرآن الكريم في أربع آيات^(١) بالإحسان إلى الوالدين، وفي جميع هذه الآيات تقترن الوصية بمسألة التوحيد والنهي عن الشرك. ولما كانت هذه الآية تستعرض المحرّمات في الإسلام، فيكون، على هذا الأساس، ترك الإحسان إلى الوالدين من المحرّمات.

□ التعاليم الخمسة المذكورة في هذه الآية متواشجة مع بعضها لدرجة أنها تبدو وكأنّها تعليم واحد، ﴿وَصَّكُمْ بِهِ﴾؛ لاحظ أنّ الضمير «به» جاء في صيغة المفرد.

(١) سورة البقرة: الآية ٨٣؛ سورة النساء: الآية ٣٦؛ سورة الأنعام: الآية ١٥١؛ سورة الإسراء:

□ سئل الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن معنى الإحسان في قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ فقال: «الإحسان أن تُحسن صُحبتكما وأن لا تُكلفهما أن يسألاك شيئاً مما يحتاجان إليه وإن كانا مستغنيين»^(١).

التعاليم:

- ١ - إحدى مسؤوليات الأنبياء تبين الأحكام الإلهية للناس، ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ﴾.
- ٢ - لما كان الأصل هو حلية الأشياء، من هنا، فإن الأشياء المحرمة فقط هي المذكورة، ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ﴾.
- ٣ - لم يحرم الأنبياء شيئاً من عند أنفسهم، فالله تعالى هو الذي شرع محرّمات الدين، ﴿حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾.
- ٤ - تحريم المنكرات هو من أجل تكامل الإنسان وتربيته، ﴿حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾.
- ٥ - الشرك أساس كلّ المفسد، لذا ذكر على رأس المحرّمات، ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾.
- ٦ - التوحيد أولاً ثمّ الإحسان بالوالدين، ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.
- ٧ - تعاليم هذه الآية جاءت كلّها في صيغة النهي عدا الإحسان بالوالدين الذي جاء في صيغة الأمر، وهو لا يطلب عدم إيذائهما فحسب، بل الإحسان إليهما أيضاً، ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.
- ٨ - قتل الأبناء والإجهاض خيفة العيلة والفقر هو من عمل الجاهلية، الله تكفل برزقهم، فلم الخشية من الفقر ﴿تَحْتُنْ رِزْقُكُمْ؟﴾
- ٩ - المطلوب إصلاحان، إصلاح المجتمع من المفسد، وإصلاح الروح من الرذائل، ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَكَّنْ﴾.
- ١٠ - بعض المعاصي خطيرة لدرجة أنّه ينبغي عدم الاقتراب منها، ﴿وَلَا تَقْرُبُوا﴾.
- ١١ - التعاليم الإلهية تنسجم مع العقل أو أنّها مقدّمة لتفتّحه، ﴿لَقَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِمَهْدِ اللَّهِ آوَفُوا ذَٰلِكُمْ وَمَنْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾

إشارات:

□ الله تعالى ينجز أعماله على أفضل وجه: ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾^(١)، ﴿أَحْسَنُ تَقْوِيرٍ﴾^(٢)، ﴿زَلَّ أَحْسَنُ الْحَدِيثِ...﴾^(٣)، وغيرها من الآيات، وهو عز وجل يطلب منا أن نكون كذلك وننجز أعمالنا على أحسن صورة، ﴿يَبْلُغْكُمْ أَيْكُمُ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾^(٤) سواء في السلوكيات والنشاطات الاقتصادية، ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٥)، أم في التخاطب مع المناوئين ﴿وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٦)، أم في القبول بكلام الآخرين ﴿يَسْتَمِئُونَ الْقَوْلَ فَسَيَعُونَ أَحْسَنَهُ﴾^(٧)، أم في دفع شرور الناس من خلال تقديم الجواب الأفضل والأنسب ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ اللَّيْتَةِ﴾^(٨)، ونلاحظ استخدام لفظة «أحسن» في جميع هذه الآيات الكريمة.

□ لقد ذاق قوم النبي ﷺ عذاباً شديداً بسبب تطفيفهم، وقد ورد النهي عن التطفيف في القرآن الكريم ثلاث مرات.

□ كلمة «كيل» تأتي في صيغتي الاسم (أداة الكيل) والفعل، (كلتُ له الطعام). يمكن أن يكون متعلق «قسط» هو «أوفوا» أي بمعنى أعطوا الكيل حقه، أو يتعلق بالكيل والميزان، أي أن يكون الميزان سليماً لا يبخس الوزن. طبعاً، النتيجة واحدة في كلتا الحالتين.

(٥) سورة الأنعام: الآية ١٥٢.

(٦) سورة النحل: الآية ١٢٥.

(٧) سورة الزمر: الآية ١٨.

(٨) سورة المؤمنون: الآية ٩٦.

(١) سورة المؤمنون: الآية ١٤.

(٢) سورة التين: الآية ٤.

(٣) سورة الزمر: الآية ٢٣.

(٤) سورة هود: الآية ٧.

التعاليم:

- ١ - حذار أن نقرب مال اليتيم فلا يوجد من يدافع عنه، كما إن التصرف في ماله منزلق خطر، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا﴾.
- ٢ - من أجل المحافظة على حقوق اليتيم يجب اختيار أفضل السبل لتنمية أمواله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَقْرِبَ مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا مِنْ أَمْتَلِكِ الْجَدَارَةِ الْاِقْتِصَادِيَّةِ وَالتَّقْوَى الْاِلَازِمَةِ، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا... إِلَّا﴾.
- ٣ - يجب رفع الوصاية عن اليتيم عندما يبلغ مرحلة الرشد ويكتسب الخبرة اللازمة، ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾.
- ٤ - يجب أن يتبنى النظام الاقتصادي للمجتمع المسلم على القسط والعدل، ﴿بِالْقِسْطِ﴾.
- ٥ - إذا لم يتيسر تطبيق العدالة في حدها الأعلى، فلا نترك الحد الأدنى والعمل بالممكن، ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.
- ٦ - لا يوجد في التعاليم، والأوامر، والنواهي الإلهية ما يفوق وسع الإنسان وطاقته، ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.
- ٧ - لا تكليف دون تمكين، ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.
- ٨ - العدالة هي الأساس، إن في السلوك أو في القول، ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ... قُلْتُمْ فَاَعْدِلُوا﴾، لا بد من مراعاة العدالة في الشهادة، أو الوصية، أو القضاء، أو صدور الأحكام، أو النقد، أو المدح.
- ٩ - يجب الوفاء بالعهود الإلهية بما في ذلك أوامر العقل، والوحي، والضمير، والفترة، تشمل عبارة ﴿وَبِمَهْدِ اللَّهِ﴾ عهود الله تعالى مع الإنسان، أو العهود التي يقطعها الإنسان مع ربه، ﴿وَبِمَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾.
- ١٠ - حذار من تغليب علاقة القربى على ضوابط الحق والعدل، ﴿فَاَعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾.

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ
وَصَّانِكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

إشارات:

□ يقوم النبي الكريم ﷺ بتوضيح هذه الآية للصحابة بأسلوب تطبيقي وذلك بأن يخط بيده الشريفة خطاً مستقيماً على الأرض ثم يقول هذا خط مستقيم واحد لا أكثر، ثم يخط خطوط عدّة يمين الخط المستقيم وشماله ويقول هذه الطرق الذي يدعو إليها الشيطان^(١).

□ في ختام الآيات الثلاث الأخيرة توجد ثلاث عبارات مختلفة هي:

في ختام الآية ١٥١ التي تنهى عن الشرك والقتل والفحشاء، جاءت عبارة ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ بمعنى أَنَّ قليلاً من التفكير والتدبر سيبيّن للجميع قبح هذه المسائل التي طرحها الآية.

وبالنسبة إلى مضمون الآية ١٥٢ الذي يتناول مسألة حفظ مال اليتيم، ومراعاة مبادئ العدالة، والوفاء بالعهد فقد ختمت بالعبارة ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، وتعني أَنَّ الجميع يدرك بالفطرة والبديهة جمال العدل وحسنه، ولكن ذلك يحتاج فقط إلى التذكير.

أما هذه الآية التي تتحدّث عن أحكام الله، فقد ختمت بالعبارة ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، وفي ذلك إشارة إلى أَنَّ التقوى هي السير في طريق الطاعة الإلهية.

□ علمنا في آية سابقة أَنَّ «النور» واحد، و«الظلمات» متعدّدة، وكذا الصراط المستقيم فهو واحد لا أكثر فيما الطرق المنحرفة متعدّدة وكثيرة. (لاحظ أَنَّ «الصراط» جاء في صيغة المفرد فيما ذكرت «سُبل» جمعاً).

□ نقرأ في الروايات أَنَّ التجسيد الحيّ للصراط المستقيم هو رسول الله ﷺ والأئمة المعصومون من أهل بيته^(٢).

التعاليم:

- ١ - اتباع النهج الإلهي والابتعاد عن نهج الآخرين هو الأساس الذي تقوم عليه جميع الأديان الإلهية، ﴿صِرْطِي... فَأَتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾.
- ٢ - في العمل بالأحكام الإلهية وحدة للناس، واتباع الأحكام غير الإلهية فُرقة وتشتيت لهم، ﴿صِرْطِي مُسْتَقِيمًا فَأَتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾.
- ٣ - لعلنا نستنتج من الآيات الثلاث الأخيرة أنَّ مراحل تحوُّل الإنسان وكماله يبدأ بالعقلانية ﴿لَمَلَكُم مَّقُولُونَ﴾، ويمرّ بالتذكُّر، ﴿لَمَلَكُم تَذَكُّرُونَ﴾ لينتهي عند التقوى ﴿لَمَلَكُم تَتَّقُونَ﴾.

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَلَّاهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾

إشارات:

□ ثمة وجوه شبّه بين القرآن الكريم والتوراة. فالإنجيل على سبيل المثال، يتضمن بعض الوصايا والمواظ، وكتاب الزبور يزخر بالأدعية، فيما تبقى التشريعات هي نقطة الشبه التي تجمع التوراة بالقرآن. ولهذا نجد القرآن الكريم يصف التوراة بأنه إمام، ﴿وَمِن قَبْلِهِ كُتِبَ مُوسَى إِمَامًا﴾^(١)؛ وهنا نجد أنَّ الآية الكريمة تصف التوراة بأنه رحمة، وهدى، وبيان كل شيء.

التعاليم:

- ١ - كل كتاب سماوي هو تامّ وكامل في عصره، ﴿تَمَامًا﴾.
- ٢ - المحسنون عملاً وفكراً هم الذين يتمثلون رسائل الكتب السماوية بشكل أفضل، ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾.

- ٣ - تحتوي التوراة على كل المتطلبات التي يحتاجها بنو إسرائيل لبلوغ مرحلة التكامل، ﴿وَتَقْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾.
- ٤ - الكتاب السماوي طريق إلى هداية الإنسان والرحمة الإلهية، ﴿وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً﴾.
- ٥ - أحد مقاصد الكتب السماوية والأنبياء هو إيمان الإنسان بيوم القيامة، ﴿لَقَدْهُمْ يَلْقَاءُ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ١٥٥ ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ ١٥٦

إشارات:

□ كلمة ﴿مُبَارَكٌ﴾ مشتقة من المصدر «بركة»، وتؤكد على أمرين:

- ١ - الأساس القوي والثابت.
 - ٢ - التحوّل الدائم. يحتوي القرآن الكريم على موضوعات أصلية وثابتة لا تتغير، وفي الوقت نفسه، نجد أنه كلما مرّت السنين والحقب، تنزاح الحجب والأستار عن أسرارهِ، ليتجلّى بصورة أبهى وأوضح يوماً بعد يوم.
- ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ بمعنى «لئلا تقولوا» أي حتى لا تقولوا وتختلقوا الأعذار والحجج.
- «الدراسة» هي التلاوة والعلم.

التعاليم:

- ١ - القرآن الكريم ليس كتاباً نظرياً فحسب، بل هو كتاب سعادة وبرنامج عمل للإنسان، ﴿كِتَابٌ... فَاتَّبِعُوهُ﴾.
- ٢ - تتلخّص السعادة البشرية في شيئين هما، طاعة الحقّ، واجتناب الباطل، ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا﴾.
- ٣ - لقد أتمّ الله الحجّة على الناس، ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ... أَنْ تَقُولُوا﴾.
- ٤ - ينبغي للمؤسسة الإعلامية الإسلامية أن تُعدّ البرامج السليمة على الصعيد العالمي بما يتناسب وخصوصيات كلّ بلد وشعب ولغة، وذلك لإتمام الحجّة

ولئلا يقال: إِنَّ الْحَقَّ كَانَ مُحْجُوباً عَنْهُمْ، ﴿أَنْ تَقُولُوا... كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾.

﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ (١٥٧)

إشارات:

□ «يَصْدِفُونَ» من «صدف»، وهو الإعراض الشديد عن شيء دونما روية أو تفكير.

التعاليم:

- ١ - يعترف مشركو مكة باهتداء أتباع التوراة والإنجيل، لكنهم يعتبرون أنفسهم أجدر بنزول الكتاب عليهم، ﴿لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾.
- ٢ - نزول القرآن هو إتمام للحجة على الجميع، ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.
- ٣ - القرآن قس من ربوبية الله تعالى، ﴿بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.
- ٤ - القرآن الكريم كتاب هداية ورحمة، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾.
- ٥ - قبل الامتحان الزاعمون المدعون كثر، ولكن بعد الامتحان يُكرم المرء أو يُهان، ﴿لَكُنَّا أَهْدَى... فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ﴾.
- ٦ - الإعراض عن الكتب السماوية من أعظم الظلم، ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾.
- ٧ - عقوبة الإعراض عن دين الحق وقلب ظهر المجن لآيات الله، هو العذاب الشديد، ﴿الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾.
- ٨ - عمل الإنسان هو السبب الرئيس في شقائه، ﴿بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ
 مَآيَتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ مَآيَتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْتَابُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي
 إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْظُرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

إشارات:

□ طرحت الآية ٩٢ من سورة الإسراء المطالبات غير المنطقية للكفار إذ كانوا
 يقولون: ﴿أَوْ تَقُوطُ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بَالِغًا وَالْمَلَائِكَةُ قَبِيلًا﴾.
 والرد على هذه المطالبات جاء هنا في هذه الآية الكريمة.

التعاليم:

- ١ - لا يسلم الكافرون المعاندون للحق حتى لو شاهدوا المعجزات الإلهية، ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾.
- ٢ - عاقبة الإعراض عن الإيمان هي الفشل والسقوط، ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْتَابُهَا﴾.
- ٣ - الإيمان والعمل في الظروف الطبيعية الحرة هو النافع وليس في حال
 الاضطرار والخوف، ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ مَآيَتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ﴾.
- ٤ - العمل الصالح بدون إيمان غير نافع ولا خير فيه، ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا
 خَيْرًا﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا أَنتَ مِّنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ
 ثُمَّ يُنْزِلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

إشارات:

□ إنَّ بَثَّ التفرقة في الدين يعني خلق البدع والتفسير بالرأي للدين، وقد وبَّخ
 القرآن الكريم والأحاديث الشريفة أولئك الذين يسعون وراء هذه الأعمال بأشدَّ
 العبارات، فلتأمل بعض الأمثلة لهذه التوبيخات:

• يقول القرآن الكريم: ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾^(١).

• يقول الإمام علي عليه السلام: «ما أحدثت بدعة إلا ترك بها سنة، فاتقوا البدع والزموا المهيع إن عوازم الأمور أفضلها وإن محدثاتها شرارها»^(٢). وإحدى مسؤوليات الأنبياء والعلماء نبذ البدعة ومحاربة التحريف^(٣).

• وجاء في الروايات: «توبة صاحب البدعة لا تقبل»^(٤).

• من احترام مبتدعاً أو تبسم له، فكأنما شارك في تفرقة الدين.

• يقول رسول الله ﷺ: «من تمسك بسنتي في اختلاف أمتي كان له أجر مائة شهيد»^(٥).

• لقد حمل القرآن الكريم مرّات عدّة على اليهود بسبب التحريفات التي أدخلها أحبارهم في الدين. وقد جاء في قصة النبي موسى عليه السلام: أنه لما رجع من جبل الطور وجد قومه يعبدون العجل فغضب بشدة، ومن فرط غضبه رمى ألواح التوراة على الأرض وأخذ بلحية أخيه هارون الذي خلّفه في قومه يسأله عن سبب انحراف القوم، فقال هارون: خشيت أن أغلظ عليهم فيتفرّقوا فتقول: فرقت بين بني إسرائيل ولم تحفظ غيبتهم فيهم (أن يتفرّقوا فلا يجتمعوا حتى بعد عودتك).

توضّح هذه الآيات والروايات بجلاء عظم المسؤولية الملقاة على عاتق الأنبياء وحماة الدين من أجل صيانة أصالة الدين والتصدي للانحرافات الفكرية، وفي الوقت ذاته، المحافظة على الوحدة الاجتماعية للأمة.

التعاليم:

١ - لا فرق بين المعارف الدينية، لذا يجب الإيمان بها وتطبيقها جميعها لا بعضها، ﴿لَإِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾.

(٤) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٢١٦.

(٥) بحار الأنوار، ج ٢، ص ٢٦٢.

(١) سورة البقرة: الآية ٧٩.

(٢) بحار الأنوار، ج ٢، ص ٢٦٤.

(٣) الحياة، ج ٢، ص ٣٤٤.

٢ - التغير والتحريف في الدين من أسباب التفرقة والتشتت، ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾.

٣ - ينبغي عدم التعاون مع أولئك الذين لا يؤمنون بالمنظومة العامة للدين الإسلامي فهم ليسوا من أمة محمد ﷺ، ﴿لَأَتَّمتَّ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾، وهم موضع تهديد الله تعالى، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾.

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثَآلِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿١٦٠﴾

إشارات:

□ يستفاد من كلمة ﴿جَاءَ﴾ أَنَّ الثواب والعقاب المطروحين في الآية الكريمة يتعلقان بموضوع مَحْكَمَة يوم القيامة. وإلا فما أكثر السيئات التي تمحى بالتوبة، أو تتحول إلى حسنات، ﴿يُدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾^(١)، أو يُصَفح عنها، ﴿وَيَقْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾^(٢)، وما أكثر الحسنات التي تمحى أو تحبط بسبب الرياء، والعجب، أو السيئات الأخرى. إذن، المعيار هو ذلك العمل الذي يؤتى به إلى ساحة يوم القيامة، ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ... وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾.

□ على الرغم من أَنَّ الآية تتعلق بالعمل الصالح والعمل السيئ، إلا أَنَّهُ، وطبقاً للروايات، من يعزم على العمل الخير في ضميره، له أجره، ومن يقصد الشر ولكن لم يصل إلى مرحلة الفعل، فلا شيء عليه، وهو من فضل الله على عباده.

□ ورد في الروايات: من صام ثلاثة أيام في الشهر، فقد صام الشهر كله، لأنَّ ثواب كلِّ يوم بعشر أمثاله، ﴿عَشْرُ أَثَآلِهَا﴾.

□ إنَّ ثواب عشر أمثال العمل المذكور في الآية الكريمة عبارة عن الحد الأدنى

للثواب، فثواب بعض الأعمال، وفي ظروف معينة، قد يصل إلى ٧٠٠ ضعف، بل ثمة أعمال صالحة لها ثواب بغير حساب.

□ إن ثواب العشر أمثال الإلهي، واحد منه أجر، والباقي عبارة عن فضل من الله ومنة، ﴿لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِّن فَضْلِهِ﴾^(١).

□ سؤال: إذا كانت عقوبة المذنب على قدر الذنب الذي ارتكبه، فكيف نفسر، إذن، كفارة إفطار اليوم الواحد من شهر رمضان بستين يوماً؟

الجواب: المراد بكلمة «مثل» في الآية ليس هو المساواة العددية بين المعصية والعقوبة، بل هو النوع والطريقة، فأهمية صيام اليوم الواحد من شهر رمضان تعادل ستين يوماً في غير هذا الشهر. فأهمية وفضل ليلة القدر، على سبيل المثال، يعادل ألف شهر. فالمسألة تتعلق بتوضيح الأهمية لا التفوق العددي.

التعاليم:

- ١ - الثواب عشر أمثال العقاب في النهج التربوي الإسلامي، ﴿عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾.
- ٢ - مضاعفة الثواب ليست ظلماً، بل الظلم هو تجاوز العقوبة للحدود، ﴿فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.
- ٣ - في الثواب يتعامل الله تعالى بالفضل، وفي العقوبة بالعدل، ﴿عَشْرُ أَمْثَالِهَا... إِلَّا مِثْلَهَا﴾.
- ٤ - عمل الإنسان يتبعه دائماً وحيثما ذهب، ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ... وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾.

﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا

وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

إشارات:

□ «قيم»، بمعنى الاستقامة وقد تأتي بمعنى الثبات والدوام وكذلك تأتي بمعنى

القائم بأمور الدين والدنيا، نعم، إنّ الدين الثابت والخالد هو الذي يهتم بالقضايا المادّية والمعنوية لهذا العالم والعالم الآخر.

□ يقول الإمام الحسين عليه السلام: «ما من أحد من هذه الأمة يدين بدين إبراهيم غيرنا وشيعتنا»^(١).

التعاليم:

١ - إنّ أحاديث النبي الكريم صلى الله عليه وآله وتعاليمه ليست رأياً شخصياً يخصّه، بل إنّه وحي إلهي منزل يجب عليه إبلاغه إلى الناس، ﴿قُلْ﴾.

٢ - طريق النبي هو الطريق المستقيم، ﴿هَدَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

٣ - الهداية هبة من عند الله تعالى، حتى الأنبياء يسرون على الطريق المستقيم بفضل الهداية الإلهية، ﴿هَدَنِي رَبِّيَ﴾.

٤ - الهداية هي من شؤون الربوبية، ﴿هَدَنِي رَبِّيَ﴾.

٥ - طريق النبي إبراهيم عليه السلام هو طريق التوحيد، لا عقائد الشرك، ﴿حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، فالمشركون ينسبون عقائدهم الضالّة إلى النبي إبراهيم عليه السلام.

٦ - تحطيم الأصنام والبراءة من الشرك، ليست نهجاً خاصاً بالنبي الكريم صلى الله عليه وآله، فهو يسير على خطى النبي إبراهيم عليه السلام ويتبع ملّته، ﴿وَمِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾.

٧ - الأديان التوحيدية على مرّ التاريخ قامت على أساس مشترك واحد، فالإسلام هو شرعة النبي إبراهيم عليه السلام، والبراءة من الشرك هو طريق جميع الأنبياء، ﴿قُلْ إِنِّي... مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾
لَا شَرِيكَ لَّهُ ۚ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾

إشارات:

- روي أن الرسول الكريم ﷺ كان يقرأ هذه الآيات عند الصلاة^(١).
- الموت يحيط بالحياة، والحياة تحيط بالنسك، والنسك تحيط بالصلاة. لذلك، فإن الصلاة هي النواة المركزية في منظومة العبادة.
- الإسلام يعني التسليم لأمر الله تعالى وقضائه، وقد حمل جميع الأنبياء هذه الصفة. فالنبي نوح ﷺ نسب نفسه إلى الإسلام قائلاً: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٢)، والنبي إبراهيم ﷺ دعا الله تعالى أن يجعله وذريته من بعده مسلمين له ﴿وَأَجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾^(٣)، كما طلب النبي يوسف ﷺ من الله سبحانه وتعالى أن يتوفاه مسلماً ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾^(٤)؛ أما النبي الكريم ﷺ فهو أول المسلمين ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي أول مسلم في عصره، أو أنه يأتي في مقدمة المسلمين وطليعتهم من حيث مرتبة التسليم ودرجته.

التعاليم:

- ١ - فلنعلن بكل وضوح وفخر عن نهجنا وهدفنا إزاء التيارات المنحرفة، ﴿قُلْ﴾.
- ٢ - على الرغم من كون الصلاة تندرج ضمن العبادات إلا أنها ذكرت بشكل مستقل وذلك لإبراز أهميتها الخاصة، ﴿صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾.
- ٣ - الإنسان المخلص هو الذي يؤمن بأن المسار التكويني للموت والحياة والمسار التشريعي للصلاة والنسك هو لله رب العالمين فقط، ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ﴾.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٢٨.

(٤) سورة يوسف: الآية ١٠١.

(١) تفسير القرطبي.

(٢) سورة يونس: الآية ٧٢.

٤ - كما إننا نقصد القربة في صلاتنا فلنفعل ذلك في كل نفس من أنفاسنا وفي حياتنا ومماتنا، ﴿وَحَيَاىَ وَمَمَاتٍ لِلّٰهِ﴾.

٥ - الأهمية ليست في الحياة والموت، بل في أن يكونا في سبيل الله، ﴿وَحَيَاىَ وَمَمَاتٍ﴾.

٦ - ما كان لله فهو ينمو ويتكامل، ﴿لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

٧ - الموت والحياة ليسا بأيدينا، وإنما بأيدينا توجيههما، ﴿لِلّٰهِ﴾.

٨ - الإخلاص في العمل هو حكم إلهي، ﴿وَبِذَلِكَ بُرِّتُ﴾.

٩ - يجب على قائد المجتمع أن يكون في الطليعة لتطبيق حكم الله تعالى، ﴿أَوَّلَ السَّالِينَ﴾.

﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْنَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكَ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾ (١٦٤)

إشارات:

□ لا تقتصر مسألة العدل الإلهي على إنزال العقوبة ومقولة لا تزر وازرة وزر أخرى، على الدين الإسلامي فحسب، بل إن هذا المبدأ قد ورد في صحف إبراهيم وموسى ﷺ، ﴿أَمْ لَمْ يَنْتَ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۖ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ۖ أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَذَرِ الْأُخْرَىٰ﴾ (٢٨) (١).

□ سؤال: إذا كان ليس لأحد أن يحمل وزر غيره، فما تفسير ما جاء في القرآن الكريم من أن زعماء الضلال والانحراف يحملون أوزار من تبعهم، ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (٢)؟

الجواب: ثمة أسباب تبرر هذه المسألة، وهي أن رؤوس الضلال هم الذين

تسببوا في انحراف الآخرين، وأنهم يحملون على عاتقهم معصية إضلال الآخرين.

□ روي أن امرأة أقرت بالزنا، وكانت حاملاً فأمر عمر برجمها، فقال علي عليه السلام: «إن كان لك سلطان عليها فلا سلطان لك على ما في بطنها»، فترك عمر رجمها، ثم تلا هذه الآية ﴿وَلَا نَزِرُ وَازِرَةٌ وَزَرَ أُخْرَىٰ﴾^(١).

التعاليم:

١ - عند التصدي للمكرين والمشركين يجب رفع أصواتنا عالياً للإعلان عن موقفنا بحزم وثبات، ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهِ﴾.

٢ - الضمير الحي هو الذي يحمل الجواب الأمثل لما يدور من أسئلة في سريرة الإنسان، ﴿أَغْيَرَ اللَّهُ آتِينَ﴾.

٣ - الله تعالى هو وحده رب الكون كله، إذن فهو ربي أيضاً، ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

٤ - كفر الناس، أو شركهم، أو صلاحهم، أو فسادهم لن يضر الله شيئاً، بل سيرتد عليهم، ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾.

٥ - في المحكمة الإلهية مسؤولية أي عمل تقع على عاتق صاحبه فقط، ﴿وَلَا نَزِرُ وَازِرَةٌ وَزَرَ أُخْرَىٰ﴾.

٦ - قيام الساعة ومساءلة الإنسان هي قبسات من ربوبية الله تعالى، ﴿ثُمَّ لَئِنْ رَزَقْتُمُوهَا﴾.

٧ - للدنيا نهاية، ﴿ثُمَّ لَئِنْ رَزَقْتُمُوهَا﴾ وحينذاك سنعلم حقيقة وحقية ما دأبنا على مخالفته بلجاج وعناد، ﴿فَبَيِّنْكُمْ يٰمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَا
ءَاتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

إشارات:

- استهلكت سورة الأنعام بحمد الله والثناء عليه ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ﴾ واختتمت بالرحمة الإلهية، ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.
- إما أن يكون المراد بـ «خلائف الأرض» هو خلافة الله تعالى على الأرض، أو خلافة الإنسان المعاصر للأمم السابقة.

التعاليم:

- ١ - الإنسان خليفة الله وأمير الأرض، وليس أسير الوجود والطبيعة، ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾.
- ٢ - التمايز بين الناس والامتحانات الإلهية كلها تنم عن حكمة، وتصب في طريق تكامل الإنسان وتربيته وهي بعد، تنهل من ندير الربوبية الإلهية، ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ... وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾.
- ٣ - تمايز بعض وتفاضلهم فيما يتعلق بالموهب الإلهية ليس معياراً، بل وسيلة للامتحان، ﴿لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَا ءَاتَاكُمْ﴾.
- ٤ - يجب أن نوقن بأن كل ما نملك هو من عند الله تعالى، ﴿فِي مَا ءَاتَاكُمْ﴾.
- ٥ - مقدار امتحان أي شخص يكون بمقدار المواهب والإمكانات الممنوحة له، ﴿لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَا ءَاتَاكُمْ﴾.
- ٦ - بعد الامتحان، سيجزي الله تعالى بحسب عمله، فمع الفاشلين سيكون الله ﴿سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾، ومع الناجحين سيكون ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.
- ٧ - يجب أن يكون الخوف والرجاء متلازمين ومترابطين، ﴿سَرِيعُ الْعِقَابِ... لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

«الحمد لله رب العالمين»

الفهرس

| | |
|--------------|-----------|
| سورة النساء | ٥ - ٢١٠ |
| سورة المائدة | ٢١١ - ٣٧٥ |
| سورة الأنعام | ٣٧٧ - ٥٤٧ |